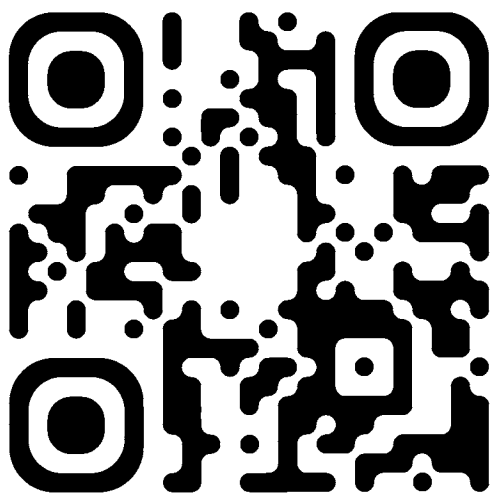


صفيرة



مكتبة

ترجمة: د. رشا صادق



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

صغيرة



رواية

Author: Edward Carey

Title: Little

Translated by: Dr. Rasha Sadek

P.C.: Al-Mada

First Edition: 2023

اسم المؤلف: إدوارد كيري

عنوان الكتاب: صغيرة

ترجمة: د. رشا صادق

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2023

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Edward Carey, 2018

مكتبة

t.me/soramnqraa



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800

+ 964 (0) 790 1919 290

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjeh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276

+ 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617

+ 961 706 15017

+ 961 175 2616

إدوارد كيري

مكتبة
t.me/soramnqraa

صغيرة

ترجمة: د. رشا صادق



إدوارد كيري

روائيّ ومؤلف مسرحيّ، وُلِد في بريطانيا عام 1970. درس الدراما في جامعة Hull، وعمل لعدّة سنوات في «متحف مدام توسو»، وهي تجربة تمخّضت عنها هذه الرواية، التي أرفقها برسوماته أيضاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إهداء المؤلف

إلى إليزابيث

المحتويات

5	إدوارد كيري
7	إهداء المؤلف
13	الحياة غير العادية والمغامرات التاريخية لخدمة تدعى «صغيرة»
15	وأيضاً:
17	قبل 1761-1767: قرية صغيرة
19	الفصل الأول: وفيه أولد، وأصف أمي وأبي
24	الفصل الثاني: عائلة غروسهولتز
29	الكتاب الأول 1767-1769: شارغ باتجاه واحد
	الفصل الثالث: وفيه نتعرف أنا وأمي إلى العديد من الأشياء الرائعة، بعضها موضوعة في خزائن من خشب الورد، كما أشهد الموت للمرأة الثانية.
31	
47	الفصل الرابع: وفيه يصبح الواحد اثنين
55	الفصل الخامس: الجراح
61	الفصل السادس: رؤوس
68	الفصل السابع: هناك، توجد مدينة بعيدة
74	الفصل الثامن: وهو فصل يدعو للقلق
81	الكتاب الثاني 1769-1771: عالم خياط ميت
83	الفصل التاسع: أحدث الأطفال
96	الفصل العاشر: مجموعة الرؤوس الثانية

102	الفصل الحادي عشر: تطوّر رهيب!
	الفصل الثاني عشر: باريس: جولة قدّمها
111	لويس-سباستيان مرسييه
116	الفصل الثالث عشر: المنبوذة
124	الفصل الرابع عشر: إدموند، في المطبخ
134	الفصل الخامس عشر: مواطنُ العام 2440 م
141	الكتاب الثالث 1771-1778: منزلُ القروء
143	الفصل السادس عشر: الرجل المُشعّر
150	الفصل السابع عشر: منزل القروء
157	الفصل الثامن عشر: أصواتُ ليليّة
160	الفصل التاسع عشر: مجموعة الرؤوس الثالثة
166	الفصل العشرون: أصواتٌ من الخارج تفتح المنزل
172	الفصل الحادي والعشرون: كلبٌ يحرس خزانة العجائب
177	الفصل الثاني والعشرون: أصبحتُ معلّمة
180	الفصل الثالث والعشرون: جاك بوفيزاج، بكلماته
185	الفصل الرابع والعشرون: فرجة فائقة الأهميّة
188	الفصل الخامس والعشرون: مجرّمنا الأوّل
195	الفصل السادس والعشرون: عن الحكّة
201	الفصل السادس والعشرون: أحدثُ رؤوسنا العظيمة
209	الفصل الثامن والعشرون: ملابس جديدة
215	الفصل التاسع والعشرون: إشهار عامّ: زفاف كورنيلي تيكّر
220	الفصل الثلاثون: السرّ يُفتّضح
231	الكتاب الرابع 1778-1789: خزانة في فرساي
	الفصل الحادي والثلاثون: وفيه ألّقي لقاءً وجيزاً برّبّة
233	عملي الجديد، وأتعرّف إلى مسكني
239	الفصل الثاني والثلاثون: زاويتي الصغيرة في القصر

244	الفصل الثالث والثلاثون: يتعلّق بوظيفتي كـ «فتاة» لدى سموّ الأميرة إليزابيث
251	الفصل الرابع والثلاثون: صانعُ أقفال فرساي
256	الفصل الخامس والثلاثون: فقراء ومساكينُ مدام إليزابيث، بكلماتها
263	الفصل السادس والثلاثون: على السطح
267	الفصل السابع والثلاثون: عن النساء: أفقيّاً وعموديّاً
276	الفصل الثامن والثلاثون: حوادث صغيرة، مرتبطة بأحداث على مستوى الأمة
285	الفصل التاسع والثلاثون: خادمة وملك
293	الفصل الأربعون: عن الألعاب ومالكيها
296	الفصل الحادي والأربعون: الألمُ موجود في كنيسة سان سير ...
300	الفصل الثاني والأربعون: التوقيع: ماري، أو مجموعة الرؤوس الرابعة
308	الفصل الثالث والأربعون: عائتي في فرساي
312	الفصل الرابع والأربعون: وأُغْلِقْتُ أبواب الخزانة!
319	الكتاب الخامس 1789-1793: قصرُ الشعب
321	الفصل الخامس والأربعون: دخول، خروج
329	الفصل السادس والأربعون: بداية جديدة
337	الفصل السابع والأربعون: زيارة
339	الفصل الثامن والأربعون: ممنوعُ إلصاق الإعلانات
348	الفصل التاسع والأربعون: الجميع في الداخل
351	الفصل الخمسون: وفيه تُسَرِّق الرؤوس
354	الفصل الحادي والخمسون: عن الكابتن كورتيوس
359	الفصل الثاني والخمسون: طفلة دَنَسَة
366	الفصل الثالث والخمسون: إزعاج تافه

373	الفصل الرابع والخمسون: أنا مشغولة
377	الفصل الخامس والخمسون: قصّة حبّ
384	الفصل السادس والخمسون: العائلة تتقلّص
393	الفصل السابع والخمسون: اصنعوا لي تمثالاً
399	الفصل الثامن والخمسون: لا مشاعر
405	الكتاب السادس 1793-1794: منزل هادئ
407	الفصل التاسع والخمسون: منزل هادئ في شارع هادئ
413	الفصل الستون: سرير الدكتور جيمس غراهام السماويّ
420	الفصل الحادي والستون: مجموعة الرؤوس السادسة
429	الفصل الثاني والستون: عمل جديد
435	الفصل الثالث والستون: إدموند يلزمني
441	الفصل الرابع والستون: الاعتقال
445	الكتاب السابع 1794-1804: غرفة الانتظار، وبيت من الكرتون
447	الفصل الخامس والستون: حياة وموت في غرفة
458	الفصل السادس والستون: الفكّ المحطّم
461	الفصل السابع والستون: قائمة سوداء صغيرة
465	الفصل الثامن والستون: لا توجد ولو عظمة واحدة!
	الفصل التاسع والستون: بورتريه لأن ماري
473	غروسهولتز بريشة لويس دافيد، السنة الثالثة
479	الفصل السبعون: تمثالي الفرنسي الأخير
484	الفصل الحادي والسبعون: ولن أعود أبداً!
489	خاتمة 1850: في المنزل
491	الفصل الثاني والسبعون: مجموعة الرؤوس السابعة

الحياة غير العادية والمغامرات التاريخية لخادمة تُدعى «صغيرة»

وفيها: أسفار في ثلاثة بلدان، أطفال ضائعون، أهل مفقودون، أشباح القروء، دمي الخياط، دمي خشبية، شعب صناعي، ملك واحد، أميرتان، سبعة أطباء، الرجل الذي تجول في باريس بأكملها، الرجل الذي كان دمية، أمه سيّدة أعمال، الرجل الذي جمع القتلة، والفلاسفة المشهورين، والأبطال، والوحوش، وكلّ من هو مهمّ، عدّة منازل كلّ منها أكبر من سابقه، تقدّم، تراجع، عائلة كبيرة، مشاهد ذات أهمية تاريخية، أناس مشهورون، أناس عاديّون، حبّ، كراهية، مذابح الأبرياء،

جرائم تُشهد، أجساد تُمزّق،

دم في الشوارع، بؤس، سجن،

خسارة كلّ شيء، زواج،

ذكريات تُسجّل وتبقى،

كوارث يومية تُعرّض،

تاريخ يُحفظ،



كتبتها بنفسها

وأيضاً:

رسمتها بنفسها
بأقلام الرصاص، بالفحم، بالطباشير السوداء



{قلمها أشبه بهذا}

قبل

1767-1761

قرية صغيرة

منذ مولدي، وحتى بلوغي السادسة من عمري



الفصل الأول

وفيه أولد، وأصف أمي وأبي

في العام ذاته الذي أُلّف فيه وولفغانغ أماديوس موزارت ذو السنوات الخمس مقطوعة مينويت⁽¹⁾ لآلة الهاربسيكورد⁽²⁾، في العام ذاته الذي انتزع فيه البريطانيون مستعمرة بوندتشي في الهند من أيدي الفرنسيين، في العام ذاته الذي انطلقت فيه أغنية «تلائي تلائي أيتها النجمة الصغيرة» للمرة الأولى، في ذلك العام بالتحديد، أي في عام 1761، بينما كان الناس في صالونات باريس يروون الحكايات عن الوحوش في القلاع، والرجال ذوي اللحي الزرقاء، والحسناوات اللواتي لا يستيقظن، والقطّ أبي الجزمة، والخفّ المصنوع من الزجاج، والأطفال الصغار الذين وُلِدوا ببضع خصلات من الشعر فقط⁽³⁾، والبنات الملفوفات بجلد حمار⁽⁴⁾، وبينما كان الناس في نوادي لندن يناقشون تنويع الملك جورج الثالث والملكة شارلوت، على بعد أميال عديدة من كلّ تلك النشاطات، في قرية صغيرة في الألزاس، بحضور قابلة متورّدة الوجه، وامرأتين قرويّتين، وأمّ مرتعبة، وُلِدَتْ طفلة حجمها أصغر ممّا يجب.

1- رقصة كلاسيكية بطيئة يؤدّيها راقصان، ذات أصول فرنسيّة. المترجمة

2- آلة وترية قديمة تشبه البيانو. المترجمة

3- قصّة خرافية فرنسيّة عنوانها Riquet à la Houppe أو «ريكي ذو الخصلات»، تلد فيها الملكة طفلاً بشعاً لديه بضعة خصلات من الشعر فقط، لكنّ عرابته الجنية تهبه ذكاء خارقاً. ظهرت القصص المذكورة في مجموعة نشرها الكاتب الفرنسي الشهير شارل بيرو (الذي يُعدّ أبا الحكايات الخرافية) وعدّلها فيما بعد الأخوان غريم. المترجمة

4- قصّة خرافية فرنسيّة من المجموعة ذاتها، تتكرّر فيها الأميرة بجلد حمار هرباً من والدها الذي يريد الزواج منها. المترجمة

«آن ماري غروسهولتز»، كان الاسم الذي أُعطيَ لتلك الطفلة التي عُمِّدَت على عجل، على الرغم من أنّ الناس سينادونها «ماري» بكلّ بساطة. في البداية، لم أكن أكبر بكثير من راحتيّ أُمِّي الصغيرتين إن وضعتُهما جنباً إلى جنب، ولم يتوقَّع أحد أن أعيش طويلاً. مع ذلك، بعد أن تجاوزتُ ليلتي الأولى، تابعتُ الحياة خلال أسبوعي الأول خلافاً للتوقّعات بالعكس. بعد ذلك، حافظ قلبي على دقّاته انتظام، من دون انقطاع، طيلة شهري الأول. يا لي من شيء عنيد ضئيل!



كانت أُمِّي في الثامنة عشرة من عمرها عندما أنجبني، امرأة وحيدة صغيرة الحجم، طولها أقلّ من خمسة أقدام، وتتميّز بكونها ابنة قسّ. هذا القسّ، جدّي، ترمّل بسبب الجدري، وكان رجلاً صارماً للغاية، غَضَبٌ بملابس سوداء، ولم يدع ابنته تغيب عن ناظره قط. تغيّرت حياة أُمِّي بعد وفاته، فاختلطت بالقرويين الذين زاروها، ومن بينهم أحد الجنود. هذا الجنديّ -عازب تجاوز السنّ المقبولة للعزوبيّة- كان كئيب المزاج بسبب ما شهدته من فظائع فضلاً عن خسارة العديد من أصدقائه الجنود، أعجب بأُمِّي وظنّ أنّ بوسعهما العيش سعيدين معاً إن تقاسما الأحزان كما يقال. اسمها أنا-ماريّا والتر، واسمه جوزيف جورج غروسهولتز، تزوّجا، أُمِّي وأبي، ها هو الحبّ وها هي السعادة.

أنف أُمِّي كبير روماني الطراز، أمّا ذقن أبي فكانت كما أعتقد بارزة وناتئة قليلاً للأعلى. كلٌّ من تلك الذقن وذلك الأنف، يلائم الآخر على ما يبدو. بعد فترة قصيرة بأيّ حال، انتهت إجازة والدي وعاد إلى الحرب، وهكذا لم يتعارف أنف أُمِّي وذقن أبي سوى لمُدّة ثلاثة أسابيع فقط.

في البداية، ودائماً، ثمة حبّ. الحبّ الذي تبادله أبي وأمي تجلّى في وجهي، فقد وُلِدْتُ بكلّ من أنفٍ والتنر وذقن غروسهولتز. كلُّ منهما كان جديراً بالملاحظة على حدة، وأعطى ملامح لطيفة مميّزة لوجوه أفراد هاتين العائلتين، لكنّ اجتماعهما معاً كان أخرق نوعاً ما، كأنني أحمل جسداً أكبر ممّا يجدر بي. الأطفال يكبرون هكذا، كيفما اتَّفَق، يتميز بعضهم أنهم «معجزات» بالنسبة لكثافة الشعر، أو بيزوغ أسنانهم في سنّ مبكرة للغاية، بعضهم يغطّيهم النمش، والبعض منهم يولدون ببشرة باهتة جدّاً، إلى حدّ أنّ عريهم الناصع البياض يسبّب الصدمة لكلّ من يراه، أمّا أنا فشققتُ طريقي في الحياة بأنفي وذقني. بلا شكّ، كنتُ أجهل آنذاك الأجساد الاستثنائية التي سألتقي بها لاحقاً، والمباني الضخمة التي سأقطن فيها، والحوادث اللعينة التي سأجد نفسي عالقة فيها، ولكن يبدو لي أنّ أنفي وذقني كانا بمنزلة إشارة إلى ذلك كلّهُ. أنفٌ وذقن، يا لهما من درع في الحياة، يا لهما من رقيقين!



بما أنّ الفتيات من أمثالي لا يذهبن إلى المدرسة، لذلك تولّت أُمّي تعليمي من خلال الربّ. الكتاب المقدّس، كان كتابي المدرسيّ التمهيديّ، أمّا فيما عدا ذلك فكنتُ أجلب الحطب إلى المنزل، وأبحث في الغابة عمّا يمكن إشعاله كوقود، وأغسل الأطباق والملابس، وأقطع الخضار، وأجلب اللحم. كنستُ، نظّفتُ، حملتُ الأغراض... كنتُ مشغولة على الدوام، وعلمتني أُمّي أن أكون مجدّة. إن كانت أُمّي مشغولة، ستكون سعيدة، أمّا إن توقفتُ عن العمل فسيستولي عليها عدم اليقين ذاك، لكنّها سرعان ما تطرده بنشاط جديد. كانت أُمّي في حركة دائمة، والحركة تلائمها جيّداً.

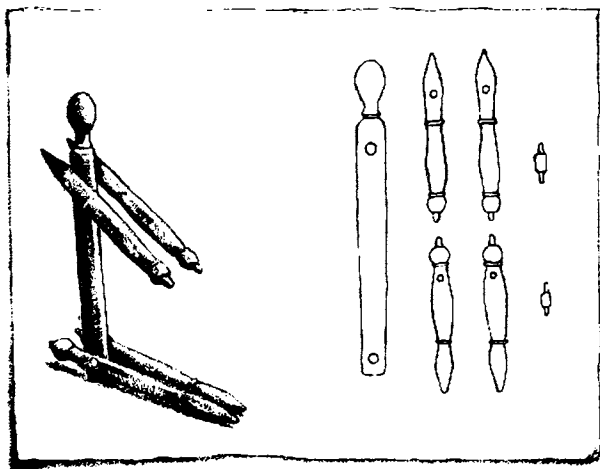
«اكتشفي» تقول لي، «ما الذي بوسعك أن تفعليه. ستجدين شيئاً ما دائماً.
 سيعود والدك ذات يوم، وسيرى كيف أصبحت طفلة جيّدة ونافعة».
 «شكراً لك يا أمي. سأكون نافعة قدر المستطاع، أتمنى ذلك»
 «يا لك من مخلوق!»
 «هل أنا هكذا حقاً؟! مخلوق؟!»
 «أجل، مخلوقي الصغير»

سرّحت أمي لي شعري بعزم استثنائي، تلمس خدي أحياناً، أو تربّت على
 قبعتي. لم تكن فائقة الجمال على الأرجح، لكنني حسبتها كذلك، ولديها
 شامة صغيرة تحت جفنها مباشرة. أتمنى لو أنني أستطيع تذكّر ابتسامتها،
 أعرف أنها كانت تبسم!

عندما بلغت الخامسة من عمري، أصبحت بطول كلب الجيران العجوز.
 لاحقاً، بلغت قامتي مستوى مقابض الأبواب، التي أحببت أن أفركها.
 فيما بعد، وهنا سأتوقّف عن النمو، بلغت قامتي مستوى قلوب العديد من
 الأشخاص. النساء اللواتي راقبني في القرية، غمغن أحياناً عندما قبلنني:
 «لن يكون إيجاد زوج لك أمراً سهلاً!».



في عيد ميلادي الخامس، أهدتني أمي العزيزة دمية: مارتا. أنا من أطلقت
 عليها هذا الاسم. أنا أعرف جسدها الصغير، الذي يعادل سدس طول
 جسدي، لقد تعلّمت ذلك بنفسني وأنا أحركها بخشونة أحياناً، ويحنان بالغ
 أحياناً أخرى. جاءت إليّ عارية وبلا وجه، مكوّنة من سبعة ملاقط خشبيّة
 تُجمّع معاً بطريقة معيّنة، كي تأخذ ما يشبه شكل جسد بشريّ. بعد أمي، مارتا
 كانت صلتي الحميمة الأولى بالعالم، ولم أفارقها قط. كنّا سعيدات معاً:
 أمي، مارتا، وأنا.



الفصل الثاني

عائلة غروسهولتز

غاب والدي طيلة تلك السنوات الأولى من حياتي، إذ لطالما وجد الجيش أعذاراً كي يؤجل إجازته التالية، وماذا يسعه أن يفعل؟! بذور زهرة الهندباء المسكينة، ستطير حيثما ينفخون عليها! بالنسبة لنا، كان غائباً، لكنّه ليس منسياً. أحياناً، تُجلّسني أمي على الدكّة المزدوجة أمام الموقد، وتخبرني عنه. استمتعتُ كثيراً بترديد تلك الكلمة: أبي! أحياناً، عندما تغيب أمي، أخاطب الأشياء بطريقتي على أنّها أبي، الموقد، أو الكرسيّ، أو الخزانة، أو الأشجار المختلفة، أنحني أمامها وأعانقها، كي أتمرّن على عودة أبي. أبي كان موجوداً في كلّ مكان من القرية، أبي كان في الكنيسة، وبالقرب من حظيرة الأبقار. أبي رجل مستقيم كما تقول أمي، ولبقيت صورته هكذا بكلّ تأكيد لو لم يعد إطلاقاً إلى البيت.

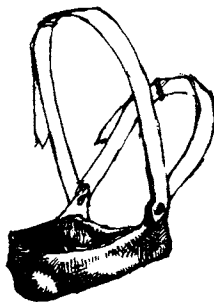
من ثمّ، في أحد الأيام، عاد. لقد أجبر أبي الحقيقيّ على التقاعد، لا بسبب معركة -لم تندلع معارك في ذلك العام في أوروبا- بل بسبب مدفع معطوب انفجر خلال أحد المواقب. سبق لذلك المدفع أن تضرّر في معركة فريبيرغ عام 1762، ولا بدّ أنّ إصلاحه تمّ بطريقة بالغة السوء، لأنّ ظهوراً واحداً فقط لتلك الآلة المعطوبة سبّب تغييراً غير قابل للعكس في حياتي. في أحد مواكب يوم الأحد، آخر موكب لذلك المدفع، أرادوا إطلاق طلقة منه كتحية، لكنّه كان مسدوداً تماماً، فانفجر من الخلف وتناثر الكبريت والفحم وملح البارود والمعدن المحارق في دائرة واسعة. كان أبي موجوداً ضمن تلك الدائرة الواسعة، ولذلك سمحوا له أخيراً بالعودة إلى المنزل.

اكتسحت البهجة والقلق أُمِّي، «والدك سيعود إلينا! وسرعان ما سيتعافى تماماً، أنا متأكّدة من ذلك. والدك، يا ماري!».

بأيّ حال، الرجل الذي عاد إلى منزلنا، الأب الذي وصل، كان أباً في كرسيّ متحرّك يدفعه الآخرون. عيناه صفراوان دامعتان، ولا يبدو أنّهما ميّزتا بتاتاً أيّ شيء في الزوجة التي تقف أمامه، ولم يطرأ عليه أيّ تبدّل عندما بدأت تلك الزوجة بالارتجاف والنحيب. لا يوجد شعر على رأس أبي، فقد سلخ انفجار المدفع ذاك فروة رأسه. الأهمّ من ذلك، هو أنّ هذه الحزمة الصغيرة البائسة الجالسة في الكرسيّ المتحرّك، تفتقر إلى عظم الفكّ السفليّ، أكبر عظم في الوجه البشريّ. الآن، لا بدّ لي من الإدلاء باعتراف هنا: أنا من نسبتُ ذقني لأبي، وإلا... كيف لي أن أمتلك هذا الشيء الفخور الوقح؟! أنا لم أرَ أبي قط، ولأنّني لم أره مطلقاً أردتُ أن أحمل بصمته في شخصيّتي، كي أكون متيقّنة دائماً من أنّي ابنته ومن أنّه أبي. لستُ واثقة اليوم -تلك السنوات الباكّة بعيدة جدّاً، والممثلون الآخرون فيها لم يعودوا موجودين على المسرح- ما إن كنتُ قد أعلنتُ في نوبة حنين ما أنّ ذقني هي ذقنه، فقط بعد أن عاد إلى المنزل، أم إن كنتُ قد صدّقتُ ذلك دائماً، لكنّ غياب ذقنه كان النقطة الأهمّ، ولطالما تمنّيتُ أن أفهم وأن أرسم صورة كاملة للرجل الذي كان أبي في محنة. تمنّيتُ أن أراه كاملاً، وتخيّلْتُ أنّ وجهي قد يكمل البورترية، لأنّ هذا البورترية المائل أُمامي تعيشُ محطّمة.

بعودة أبي، لاح أُمامي قبسٌ عن مستقبلتي، انفتحت نافذة أُمامي ونادتني. هذا الرجل في الكرسيّ المتحرّك يفتقر إلى فكّه السفليّ، لكن ثمة صفيحة فضيّة مثبتة في مكانه، تأخذ شكل الجزء الأسفل من الوجه البشريّ النموذجيّ. لقد صُنِعتْ هذه الصفيحة باستخدام قالب، وبالتالي لن نجافي الصواب إن افترضنا أنّ العشرات من تعيسي الحظّ يملكون الذقن الفضيّة ذاتها التي يملكها أبي الآن. يمكن فصلُ هذه الصفيحة الفضيّة، أبي مكوّن من قطعتين، يمكن تركيبهما معاً بقليل من الألم.

لم يملك أبي المسكين أدنى فكرة عن مكانه، كان عاجزاً كلياً عن تمييز زوجته، وعن الإدراك أنّ هذه الفتاة الصغيرة التي تراقبه بصمت هي ابنته.



وظّفت أُمّي لمساعدتها القابلة، وهي سيّدة حنون مقطوعة الأنفاس ذات ذراعين ثخينتين، مستعدّة للقيام بأيّ عمل مأجور، كما اعتمدت في كثير من الأحيان على طبيب من قرية قريبة، هو الدكتور ساندر. معاً، جهّزوا الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ من أجل أبي، الذي لم يغادرها قطّ بعد أن دخل إليها. استلقى هناك فحسب طيلة النهار، محدّقاً من النافذة أحياناً، أو إلى السقف في أحيان أخرى، لكن من دون أن يركّز على أيّ شيء محدّد بتاتاً كما اعتقد. جلسْتُ مع أبي لساعات طوال، وكلمته قليلاً عندما لم يبادلني الحديث، وتخيّلْتُ كلّ ما كان بوّده أن يخبرني به.

بعد وصول أبي، صعدت أُمّي إلى غرفتها في الطابق العلويّ وأوصدت الباب. بمرور الأيام، أمضت وقتاً أطول فأطول في السرير، وامتنعت عن الحركة، وهو ما لم يكن جيّداً البتّة بالنسبة إليها. قال الدكتور ساندر إنّها تمرّ بحالة صدمة عميقة، ولا بدّ من تشجيعها على العودة بالتدريج إلى ما كانت عليه. لقد تغيّر جسدها بأكمله مع وصول أبي، فأصبح جلدها لمّاعاً أصفر اللون، أشبه ببصلة، كما انبعثت منها روائح جديدة. ذات صباح شتويّ، عثرتُ عليها في الخارج شبه عارية، مستلقية على الأرض وهي تبكي، فساعدتها على العودة إلى سريرها.

تنقّلتُ جيئةً وذهاباً بين والديّ، بين أُمّي في الطابق العلويّ وأبي في الأسفل، وقرأتُ لهما كليهما من الكتاب المقدّس. استعنتُ بالدكّة المزدوجة الصغيرة -امتدادي- كي آخذ مكاني حول سرير أبي في مواضع متعدّدة وفقاً لاحتياجاته، وكنتُ حاضرةً عندما يُغسَل ويُنظّف. كانت القابلة حنوناً للغاية معي، وضمّنتني أحياناً إليها ضمّات خاطفة -وعندها فوجئتُ

أن الأجساد قد تكون ضخمة - فعانقتها بالمقابل بكلّ قواي. تناولنا العديد من الوجبات معاً، ولا بدّ أنّها أعطتني بعضاً من طعامها. عبستُ بقلق كلّما حدّثتني عن أبي، وهزّت رأسها كلّما تحدّثت عن أمي.

ذات صباح، مات أبي وأنا جالسة إلى جواره. موت صغير جدّاً، لطيف جدّاً، وهادئ. راقبته بحرص، ارتجف قليلاً وارتعد، قليلاً فقط، من ثمّ غادرنا بهدوء شديد، بالكاد لاحظنا ذلك. الضجّة الخافتة الأخيرة، كانت صوت آخر لفكرة غروسهولتزيّة تمرّ في ذلك الرأس الغروسهولتزيّ، وتشقّ طريقها خارجاً. كنْتُ ما أزال جالسة بجواره وأنا أمسك يده، عندما دخلت القابلة التي أدركت على الفور أنّ أبي لم يعد بين الأحياء الآن. بلطف، وضعت إحدى يديه على صدره، من ثمّ وضعت اليدَ الأخرى بجوارها، من ثمّ أمسكت يدي وأخذتني إلى منزل ابنتها، ولا بدّ أنّي نمْتُ هناك في تلك الليلة.

دُفِنَ أبي بعد بضعة أيّام، لكنّ الأب الذي في التابوت، ذلك الذي طلبوا منّي رمي حفنة من التراب فوقه، لم يكن كاملاً، فقد سبق للدكتور ساندرو أن أعطاني الصفيحة الفضيّة قائلاً إنّها تساوي بعض المال. لها وزن معيّن، يعادل فنجاناً من التّنك مليئاً بالماء، ولم يسعني إلّا التساؤل ما إذا كان والدي سيشتاق إليها، وظننْتُ أنّه من الأفضل أن تبقى معه. أردتُ أن أنبش قبره، وأن أضع صفيحة الفلّك فيه، وإلّا كيف سيتكلّم في الجنّة بحقّ السماوات؟! من ثمّ، عندما فكّرْتُ بالأمر، أدركتُ أنّ هذه الصفيحة ليست ذقن والدي الحقيقيّة، بل إنّها صُنِعت طبقاً لذقن شخص آخر، أمّا أنا فأملك ذقنه الحقيقيّة، وأبقيها دائماً معي، تحت أنف أمي بقليل.

ترك والدي خلفه زيّه العسكريّ، صفيحة فضيّة، أرملة، نصف يتيمة، والفقر المدقع. راتبه التقاعديّ لا يكفي، ولا بدّ لوالدتي من إيجاد عمل كي تبقى على قيد الحياة أنا وهي. أخذ الدكتور ساندرو تلك المسألة على عاتقه، واكتشف من خلال صلاته بالوسط الطيّب أخباراً عن طبيب يدعي فيليب كورتوس في مشفى بيرن، يحتاج إلى خادمة في منزله. الوظيفة والجدوى كما قال الدكتور ساندرو، ستقذان صحّة أمي.

أمي، والتعاسة تنضح من جسدها اللامع، جلست كي تكتب رسالة إلى الدكتور كورتوس، الذي أرسل لها رده. عندما وصلت رسالته، عادت الحركة إلى أمي، أكثر بكثير من السابق، وكأنها تخشى أن تتوقف.

«إنه رجل مثقف يا ماري!» هتفت أمي بعينين واسعتين، «من المدينة! طيب من المدينة! سنغادر للأبد غرف الريف الصغيرة المظلمة، وسنسكن عوضاً عنها في أبنية عالية يملؤها الضوء والهواء. لطالما قال أبي، جدك، إننا جديرون بإمكانة أفضل. آخ، المدينة! كورتوس من المدينة!».

بعد ذلك بفترة قصيرة، في وقت ما من عام 1767، أفلتتنا عربة أنا وأمي إلى مدينة بيرن. جلستُ بجوار أمي في العربة، أمسكتُ ثوبها بيد، وصفيحة فكّ والدي باليد الأخرى، وكانت مارتا في جيب ثوبي الأمامي. عائلة غروسهولتز ستنتقل! اهتزّت العربة مبتعدة عن القرية حيث مسقط رأسي، بعيداً عن حظائر الخنازير، عن الكنيسة، وعن قبر والدي. لن نعود أبداً.

الكتاب الأول

1769-1767

شارعٌ باتجاه واحد

إلى أن بلغت الثامنة من عمري



الفصل الثالث

وفيه نتعرّف أنا وأمّي إلى العديد من الأشياء
الرائعة، بعضها موضوعة في خزائن من خشب
الورد، كما أشهد الموت للمرّة الثانية.

ليل بيرن هو عبارة عن أبنية عالية كثيبة، وشوارع ضيقة معتمة تتحرّك فيها
ظلال الناس. لاح المستشفى -وهذا جيّد كفاية- فوق الشوارع، ترجّلنا
أمامه، صندوقنا الوحيد -تعود ملكيّته إلى جدّي القسّ - وُضِع بجانبنا، ثمّ
مضت العربّة مبتعدة، مشتاقة إلى الريف.

في مركز مستشفى بيرن ثمة بوابة حديدية ضخمة سوداء، تتسع لمرور
عربتين معاً في آن واحد، فمّ عملاق يبتلع المرضى إلى أحشائه الشاسعة
الغامضة. اقتربنا أنا وأمّي من تلك البوابة السوداء، قرعت أمّي جرساً، فتردّد
صداه في كلّ أرجاء ساحة المستشفى الخاوية. من مكان ما قريب، تعالى
صوت سعال وبصاق، ثمّ انفتحت كوة مربّعة في البوابة، وبالكاد استطعنا
رؤية رأس ما فيها.

«كلّا شكراً»، قال الرأس.

«من فضلك، هل لي...»، قالت أمّي.

«عودا في الصباح»

«من فضلك، لقد جئتُ لرؤية الدكتور كورتوس، إنّه يتوقّع قدومي».

«من؟!»

«الدكتور كورتوس، سنعيش معه أنا وابنتي»

«كورتىوس؟! كورتىوس ميت، مات منذ خمس سنوات»

«تلقيت رسالة منه» أصرت أمي، «منذ أسبوع».

امتدت يدي إلى الخارج، وأخذت الرسالة، ثم انغلقت الكوة مجدداً. بالكاد استطعنا سماع أناس يتناقشون خلفها، من ثم انفتحت مجدداً وظهر الرأس مرة أخرى.

«كورتىوس ذاك! كورتىوس الآخر! لم يأت أحداً مطلقاً من قبل، كي يسأل عن كورتىوس ذاك! إنه لا يعيش هنا، بل في ويلسيرستراس... ألا تعرفان أين يقع؟ أنتما من الريف، أليس كذلك؟ إرنست سيرشدكما، كما أفترض».

سمعنا صوتاً آخر خلف البوابة، ثم قال الرأس: «ستفعل يا إرنست، أجل، ستفعل ذلك إن أمرتك أنا بذلك. سيرشدكما إرنست، اذهبا إلى الزاوية، ستجدان باباً جانبياً، فوقه مصباح يتأرجح. ستجدان إرنست تحت ذلك المصباح المتأرجح».

انغلق المزلاج مجدداً، وظهر إرنست لتحيتنا، بالزي الأسود الذي يلبسه الحمالون في المشفى. أنف إرنست ووجهه يلتويان باتجاهين متعاكسين، أنفه يتجه إلى ناحية بينما يتجه وجهه إلى الجهة المعاكسة. من الواضح أنه خاض الكثير من العراك في صباه!

«كورتىوس؟»، سألنا إرنست.

«الدكتور كورتىوس»، أجابت أمي.

«كورتىوس!»، كرر إرنست، وانطلقنا.



على بعد خمس دقائق فقط من المستشفى، ثمة زقاق حقير صغير: ويلسير ستراس. عندما مشينا فيه تلك الليلة، بدت المنازل كأنها تهمس لي: لا تتوقفوا هنا! تابعوا المشي! اغربوا عن نظرنا! توقف إرنست أخيراً أمام منزل أصغر وأضيق من البقية، محشور بين منزلين ضخمين يتنمران عليه، فقير ومُهمل.

«منزل كورتبوس»، أعلن إرنست.

«هنا؟!»، سألت أمي.

«أجل هنا» أكد إرنست، «لقد جئتُ إلى هنا ذات مرة بنفسي، وأتمنى ألا أدخله مجدداً على الإطلاق! لن أخبركما ماذا في الداخل، بل سأكتفي بالقول إنه لم يعجبني. كلاً، لا أحب أن أتعامل مع كورتبوس! ستسامحاني إن تركتكما الآن، قبل أن تقرأ الباب»، من ثم ابتعد إرنست بأنفه المعكوس، أسرع ممّا جاء، أخذاً المصباح معه.

وضعنا صندوقنا أرضاً، فجلست أمي عليه وحدقت إلى الباب كأنها سعيدة لأنه مغلق. وهكذا، خطوُتُ أنا للأمام وقرعته ثلاث مرّات، ثم مرة رابعة، فانفتح أخيراً، لكن لم يخرج أحدٌ منه إلى العتمة. بقي الباب مفتوحاً، ولم يظهر لاستقبالنا أحد. انتظرنا لوهلة أنا وأمّي، من ثم أمسكتُ بيدها فنهضتُ أخيراً، ودخلنا مع صندوقنا إلى المنزل. أغلقت أمي الباب خلفنا بهدوء، بينما تشبّثتُ بثوبها بإحكام. نظرنا حولنا بين الظلال، ثم شهقتُ أمي فجأة. هناك! ثمة شخصٌ ما يختبئ في الزاوية، رجل طويل ونحيلٌ جداً، نحيلٌ إلى حدّ يبدو معه كأنه في المراحل الرهيبة النهائية من المجاعة! طويل إلى حدّ أنّ رأسه يكاد يرتطم بالسقف! وجهه باهت شبحي، في ضوء الشمعة الهزيل المرتعش، ثمة فراغاتٌ مطروح وجنتيه، عيناه رطبتان، خصلات شعره دهنية سوداء.

وقفنا إلى جوار صندوقنا، كأننا نحتمي به.

«جئتُ لرؤية الدكتور كورتبوس»، شرحت أمي.

ساد صمتٌ طويل، وبالكاد هزّ ذلك الرجل رأسه.

«أرغب برؤيته»، قالت أمي.

صدرت ضجّة خافتة عن الرأس، لعله قال: «أجل».

«هل أستطيع رؤيته؟»

بهدهوء، ببطء، كما لو بالصدفة، تطوّع الرأس بالقول: «اسمي هو كورتوس».

«أنا أنا - ماريّا غروسهولتز»، قالت أمي وهي تحاول استجماع شجاعتها. «أجل»، قال الرجل.

انتهى التعارف، وساد صمت آخر. أخيراً، نطق الرجل في الزاوية مجدّداً، ببطء شديد: أنا... كما ترين... أنا... لستُ معتاداً على صحبة الآخرين. لم أتمرّن على ذلك كثيراً مؤخّراً. أنا... فقدتُ مهارتي بذلك، يجب أن يتواجد الناس حولك، يجب أن يكون لديك أناس تتحدّثين معهم... وإلا ستسنين، كما ترين، كيف هم... بالضبط، وكيف... صدقاً... ماذا تفعلين معهم. لكن هذا سيتغيّر الآن، بوجودك هنا، أليس كذلك؟».

ساد صمتٌ أطول

«هل لي... ربّما إن كنتِ مستعدّة... هل أصطحبك بجولة في المنزل؟» أمي، بنظرة غير سعيدة بتاتاً على وجهها، أومأت بالإيجاب.

«أجل... ربّما ترغيبين برؤيته. أنا في غاية السعادة لأنك هنا. أهلاً وسهلاً! أردتُ أن أقول هذا في السابق: أهلاً وسهلاً. أردتُ أن أقول ذلك ما إن وصلت، كانت الجملة جاهزة، فكّرتُ بها طيلة النهار ولكنتي... آه، نسيته! أنا لستُ معتاداً... كما ترين، لستُ معتاداً!»، قال الطبيب، وتحرك ببطء من زاويته. بدا مصنوعاً من القضبان، من عصي المكناس، طويلاً ونحيلاً، يفرد قامته كأنّه عنكبوت.

تبعناه عن بعد

«هناك غرفة في الأعلى، من أجلكما» قال كورتوس وهو يرفع الشمعة للأعلى صوب السّلم، «لكما بمفردكما، أنا لن أصعد إلى هناك أبداً. أمل أن تسعدا!». من ثمّ، أضاف بثقة أكبر: «رجاء، رجاء، من هنا».

فتح الدكتور كورتوس باب الصّالة، وخطونا إلى ردهة صغيرة في آخرها

باب آخر يتلأ ضوء خافت من تحته، لا بدّ أنّ الدكتور كان هناك عندما قرعْتُ الباب. «في هذه الغرفة» قال الدكتور، «أعمل هنا». توقّف أمام الباب، مديراً ظهره النحيل الفائق الطول لنا. بقي ساكناً لوهلة، شدّ قامته بقدر ما يستطيع، من ثمّ نطق ببطء واقتضاب: «ادخلا من فضلكما».

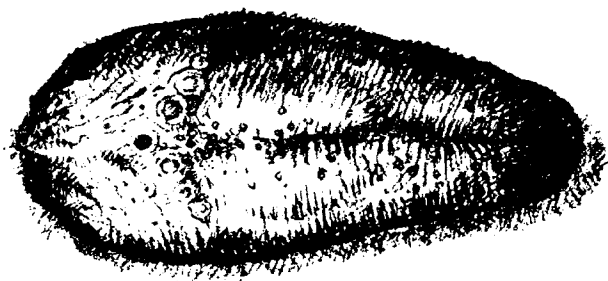
ثمّة عشر شموع أو أكثر تتقدّ بداخل الغرفة، وتضيئها على نحو رائع، كاشفة عن مكان مزدحم إلى حدّ يصعب معه تمييزه في البداية. رفوف طويلة تغطّيها زجاجات مغلقة بسدادات من الفلين، بداخلها مساحيق ملوّنة. رفوف أقصر تغطّيها زجاجات مختلفة أسمك، مسدودة بسدادات زجاجيّة أكثر إحكاماً، ممّا يوحي أن محتوياتها من السوائل اللزجة البنيّة أو السوداء أو الشفافة، سامة. ثمّة علب مليئة بالشعر الذي يبدو -هل يُعقل هذا؟!- شعراً بشريّاً. على امتداد الطاولة الخشبيّة تصطفّ أوعية نحاسيّة متعدّدة، ومئات من أدوات النحت الصغيرة، بعضها حادّة الرؤوس وبعضها ذات رؤوس منحنية، بعضها دقيقة لا تتجاوز حجم دبّوس، بينما يعادل حجم بعضها الآخر ساطور لحام. في مركز الطاولة، فوق لوح خشبيّ، ثمّة شيء ما باهت موضوع هناك كي يجفّ.

من الصعب تمييز ذلك الشيء مباشرة. قطعة لحم؟ صدر دجاجة؟ لكن لا، فضلاً عن أنّه مألوف للغاية، كأنّه شيء نراه كلّ يوم. إنّّه شيء ما... واسمه على طرف لساني... وهذا -يا للفرحة!- هو! إنّّه لسان! يشبه اللسان البشريّ كثيراً، موضوع فوق طاولة خشبيّة. تساءلت: إن كان لساناً حقيقيّاً، فكيف وصل إلى هنا؟ وأين هو ذلك الشخص الذي فقده؟

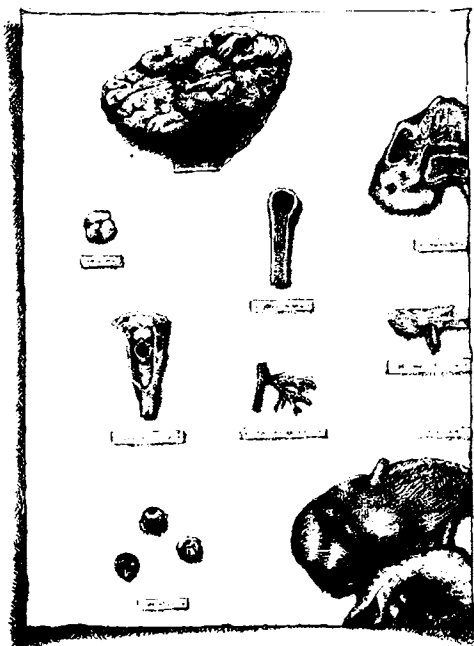
ثمّة أشياء عديدة، بالإضافة إلى ذلك اللسان في الغرفة. الجزء الأكثر مدعاة للإعجاب في المعرض، كما لاحظتُ لتوّي، مرّتّب في خزائن مصنوعة من خشب الورد، تمتدّ رفوفها ذات الأرقام الواضحة للأعلى وللأسفل، يساراً ويميناً، بحيث تغطّي حائطاً بأكمله تقريباً. بين العناوين المكتوبة بخطّ يد جميل بحبر بنيّ، ثمّة مجموعة من الكلمات:

الحفرة القحفية، العمود الفقريّ، المفصل القصيّ - الترقويّ، العضلة الصدغيّة، كرة العين، العصب المبهم، العضو التناسليّ.

بالقرب من اللسان على الطاولة، ثمّة عنوان آخر: لسان.



بدأتُ أفهم: أجزاء الجسد البشري! الغرفة مليئة بها، وها أنا ذي، فتاة صغيرة تنظر إلى كلّ تلك الأجزاء. تعارفنا: يا أجزاء وقطع الجسد البشري، هذه فتاة صغيرة تدعى ماري. يا ماري الصغيرة، هذا هو الجسد مجزأً. راوحتُ في مكاني خلف أمي وأنا ما أزال ممسكة بثوبها، لكنني تلصّصتُ على المشهد.



تكلّم كورتيوس الآن: «السبيل البوليّ مع مئانة متدلّية... وعظام! بدءاً من عظم الفخذ، العظم الأكبر والأقوى، إلى العظم الدمعيّ، الأصغر والأكثر هشاشة في الوجه». استطاع محتويات غرفته، من ثمّ تابع: «ثمّة العديد من العضلات أيضاً، وكلّها مُصنّفة. عشرُ مجموعات في الرأس، من العضلة القفويّة - الجبهويّة إلى العضلة الجناحيّة الأنسيّة، العديد من الحزم الشريانيّة، بدءاً من الشريان الدرقيّ العلويّ إلى السباتيّ المشترك. الأوردة أيضاً: المخي، الصافن الباطن، الطحاليّ، المعديّ، القلبيّ، الرئويّ. لديّ أعضاء أيضاً! كلٌّ منها على حدة، تستريح فوق فراش من المخمل الأحمر، أو تُعرض بين جيرانها على رفوف خشبيّة. متاهة الأذن العظميّة المتشابكة المذهلة! غمامة الأمعاء الطويلة الثخينة، الدقيقة والغليظة معاً... يالها من دروب طويلة متعرّجة!».

تفحّصت أمّي الغرفة، وتزايد اضطرابها شيئاً فشيئاً. لا بدّ أنّ الدكتور كورتيوس لاحظ رعبها، لأنّه تابع كلامه بسرعة: «أنا صنعتها، أنا صنعتها. متاهتي العظميّة، ومثانتي، وبطيناتي... أنا صنعتها. إنّها مجرد نماذج، نسخُ فحسب... لم أقصد... أنا لستُ معتاداً... أعذر لك. ماذا ستحسبيني؟! لا تحسبها... حقيقيّة. إنّها تبدو حقيقيّة بالطبع، أليس كذلك؟ لا بدّ أن تجيبي بنعم. أجل. تعلمين أنّه لا بدّ لك من الاعتراف بذلك. آه، نعم، حقيقيّة للغاية، لكنّها ليست كذلك. كلّاً، على الرغم من أنّها تبدو هكذا، أجل، لأنّه في الواقع، كما ترين، أنا صنعتها».

استدردنا كي ننظر إليه، لقد فاجأنا الأشياء المعروضة هنا في أرجاء الغرفة، إلى حدّ أنّنا غفلنا في البداية عن تفحص أهمّها: الدكتور كورتيوس نفسه. في الضوء، بدا كورتيوس رجلاً شابّاً، هذا واضح الآن، على الأقلّ أصغر سنّاً من أمّي. لقد حسبته عجوزاً عندما رأيتُ ظلّ هيكله الطويل المبهم يتحرّك في العتمة، لكنني أراه الآن طويلاً ونحيلًا، خجولاً وشغوباً وشابّاً، يتنفّس بحماس. قامته النحيلة تبلغ ستّة أقدام أو أكثر، وتشمخ عالياً فوقنا في زاوية مشغله، منحاراه الضيّقان لا يتوسّعان كثيراً الآن. من الواضح أنّه فخور بغرفته هذه، وهو يرانا نتأمّل عمله. عندما يتنفّس، يغور خدّاه إلى الداخل ولا ينتفخان بتاتاً، وينزاح أنفه إلى أسفل وجهه الطويل كأنّه حبلٌ مشدود.

الأوردة تؤطّر جبهته من كلا الطرفين، ثخينة ورفيعة. أخيراً، تتلاقى يدا هذا الرجل الغريب الضخمتان النحيلتان، أمام صدره الضيق النحيل. ظننتُ أنّه سيصلّي، لكنّه بدأ بالتصفيق عوضاً عن ذلك، لم يكن تصفيقاً صاحباً، بل ضربات صغيرة متحمّسة، كتصفيق طفل صغير أبهجه وعدّ بقطعة حلوى، ضجّة سعيدة تبدو ناشزة عن هذه الغرفة. انطوى الجزء العلويّ من جسده فوق اليدين اللتين تصفّقان، كأنّ هناك طيراً باهتاً محبوساً بينهما يخفق بجناحيه أمام قلبه، لا يريد له أن يهرب.



«أنا! لقد صنعتُها كلّها، قطعةً قطعة، من الشمع، بمفردي! وكذلك العديد سواها، ما ترونه هو مجرد جزء منها فحسب. القسم الأكبر موجود في المستشفى، حيث يزورها الناس باستمرار».

عندما انتهى الدكتور من تقديمه لمجموعته، التفت صوب أمّي. وجهها شاحب للغاية يغطّيه العرق، ولم تنطق بكلمة. وقفنا ثلاثتنا صامتتين، إلى أن سألتنا الدكتور كورتبوس -وقد خاب أمله كما أعتقد- إن كنّا بحاجة إلى النوم بعد رحلتنا الطويلة.

«نحن متعبتان أشدّ التعب في الحقيقة يا سيّدي»، أجابت أمّي.

«ليلة سعيدة إذن»

«آه! اعذرني يا سيّدي» قالت أمّي، «أوراقنا. أفترض أنك سوف تأخذها حتماً».

«لا لا، لا أظنّ ذلك. يسعدني أن تحتفظا بها أنتما».

تبعّت أمّي التي حملت صندوقنا إلى الطابق العلويّ، وأغلقت باب غرفتنا الصغيرة خلفنا، لكننا استطعنا سماع صوت الدكتور كورتوس يتجول في الأسفل. جلست أمّي بجوار النافذة لفترة طويلة، ساكنة للغاية، فخشيتُ من أنّ مرضها قد عاودها. في النهاية، قدّتها نحو السرير، لكن لم يغمض لنا جفن نهائياً في ليلتنا الأولى في ذلك المكان الجديد. عانقتني أمّي، وعانقتُ أنا مارتا. في الصباح، كانت كلّ منّا ما تزال تشبّث بالأخرى، ثلاث نساء صغيرات، قلقات للغاية.

قبل أن ننزل للأسفل، قالت لي أمّي: «نحن مرتبطتان الآن، أنا وأنت، هل تفهمين؟ كلّ ما نقوم به الآن يهدف إلى إرضائه، سنضيق إن تخلّى عنا. إن بقينا في خدمة الدكتور كورتوس، سنبقى على قيد الحياة. كوني نافعة، يا بنتي العزيزة».

عندما تشبّث بثوبها، قالت لي بهدوء وحزن: «كلّا!».

أخذت أمّي المفاتيح، فركنا الأرضيّات، طبختُ أمّي، ثمّ ذهبنا إلى السوق لشراء الطعام، لكنّ السوق بحدّ ذاته سبّب لها الخوف، فالشوارع تغصّ بالناس... وليس هذا فحسب، بل إنّ البضائع المعروضة للبيع - كلّ ذلك اللحم المعلق بالخطافات، مشقوقاً ومفتوحاً، كلّ تلك الحيوانات المقطّعة إلى قطع، أو المعلّقة كاملة كما هي من أقدامها، طيور كاملة ذات أعناق رخوة ومناقير مدّمة، تتدلّى مشنوقة كالمجرمين - فضلاً عن عيون الأسماك، والذباب، ولحم أيدي البشر الأحياء الملطّخ بالدماء، كلّ ذلك ذكر أمّي مراراً وتكراراً بما شاهدته في مشغل الدكتور كورتوس.

على الأقلّ، منزل الدكتور هادى. كورتوس نفسه أمضى النهار الأوّل في مشغله، ولم يغادره إلّا فيما ندر، وفوجئ برؤيتنا عندما خرج منه، «لستُ

معتاداً.... لستُ معتاداً!»، غمغم من ثم انسحب إلى غرفته. عندما حان موعد غدائه، وضعت أُمِّي طعامه على صينية، وفتحت أنفها الوالترنيّ تتوسّعان بعدم رضا، من ثم رفعت الصينية فوق طاولة المطبخ مترددة لكنّها ارتعدت، فاندلق بعض الحساء. عندها، قدّتها إلى كرسيّ، وساعدتها على الجلوس، من ثم حملتُ الطعام بنفسني إلى الدكتور كورتوس. كان منحنيّاً فوق طاولته، وثمة بورترية لثلاثة ألْسنة أُمامي: لسان بشريّ حقيقيّ مقطوع، نسخةٌ مثاليّة عنه من الشمع، ولسان الدكتور كورتوس بارز بين شفّتيه وهو يعمل.

«الحساء، يا سيّدي»، قلتُ.

لم يجبني، فتركْتُ له الحساء وأغلقتُ الباب. تكرّر الأمر نفسه في اليوم التالي عندما دخلتُ إلى المشغل قائلة: «العصيدة، يا سيّدي»، بل تكرّر ذلك في الحقيقة طيلة الأسبوع الأوّل. جاء كورتوس مرّتين إلى المطبخ كي يقول لأُمِّي: «أنا سعيد جداً لأنّك هنا، سعيد جداً... مسرور جداً، فرحان». في المرّتين، امتدّت يدُ أُمِّي إلى صليبيها.

خلال الأسبوع الثاني -بدا لي أنّنا اعتدنا أكثر بعضنا على بعض - فوجئنا أنا وأُمِّي بالباب يُقرع. إنّهُ زائر من المستشفى، يرتدي الزيّ الموحد الأسود ذاته كإرنست، لكنّ اسمه هاينريتش. أنفُ هاينريتش لا يثير الإعجاب، وملامح وجهه عاديّة لا أتذكرها بتاتاً الآن. في الحقيقة، لا أتذكر شيئاً عنه سوى اسمه غير الجدير أن يتذكره أحد.

«طرُدْ لكورتوس» قال هاينريتش مقدّماً نفسه، «أنا أجلب الأغراض. سنرى بعضنا بعضاً كثيراً. ماذا لدينا اليوم؟»، ورفع غطاء الصندوق المعدنيّ ثمّ اختلس النظر إلى شيء ما بداخله مغطّى بالموسلين. «جزء من أمعاء مريضة، كما أعتقد».

أغمضت أُمِّي عينيها، ورسمت إشارة الصليب. خطوتُ للأمام، عازمة على أن أكون ذات نفع، ومددتُ يدي، لكنّ هاينريتش بدا محتاراً.

«شكراً لك»، قلتُ وأنا أمدّ يدي صوبه أكثر، «شكراً لك».

بعد أن أعطاني هاينريتش الصندوق على مضض، أغلقت أُمِّي الباب بسرعة. رمقتُني للحظة كأنّها لم تعد تميّزني، من ثمّ عادت إلى المطبخ.

لحققتها كي أسألها هل يجب عليّ أن أجلب الصندوق إلى الداخل، هزّت رأسها بعنف وأخرجتني أنا والصندوق من الغرفة، فحملته إلى المشغل.

«قطعة من الأمعاء، يا سيّدي» قلتُ، وتركْتُ الصندوق على الطاولة حيث أضع وجبات طعامه. هذه المرّة، رفع كورتيوس رأسه.

بات العمل أصعب فأصعب على أمّي، التي تجلس غالباً في المطبخ ويدها حول صليبيها الصغير. الذباب في منزل كورتيوس، ثمة ذباب دائماً، سبّب لها رعباً مطلقاً، لأنّ الذباب قد يتنقّل في أرجاء المنزل، ويدخل إلى المشغل، ومن هناك سينشر في كلّ مكان أخباراً عمّا يوجد فيه. كثيراً ما جلست أمّي بلا حراك، عيناها مغمضتان لكنّها مستيقظة تماماً، بينما أتحرك أنا هنا وهناك وفقاً لتعليماتها.

يعد يومين من قيامي بتسليم الطرد إلى الدكتور كورتيوس، كنتُ جالسة بجوار الموقد وأمّي تقرأ لي من الكتاب المقدّس، عندما طرق الدكتور الباب طرقة خافتة، ودخل.

«أيتها الأرملة غروسهولتز» قال، فأغمضت أمّي عينيها. «أيتها الأرملة غروسهولتز» كرّر، «أرغبُ، إن لم تكن ثمة مشقّة في ذلك أيتها الأرملة غروسهولتز، وأنا بالمناسبة سعيد للغاية بكوننا سعداء جدّاً، اممم، بكوننا مسرورين بكلّ هذه... الصحبة، وأنا ننسجم معاً، ويا لنا من رفاق، ويا لهذه العشرة هنا بين أيدينا... اممم، أرغب، أجل، بمساعدة صغيرة في مشغلي، هل لي بذلك؟! غداً سيكون الأفضل كما أعتقد، والأفضل قبل أن تقومي بأيّ شيء آخر. أودّ أنّ أعلمك كيف تتعاملين مع عملي بحيث لا يتضرّر. أودّ كما ترين، أن تتعلّمي على النحو الملائم. أنا متأكّد من أنّك ستحبّين واجباتك الجديدة، وسرعان ما ستصبحين خبيرة بها».

رأى الدكتور كورتيوس أمّي وهي تومئ برأسها إيماءة بسيطة بالموافقة، لكنّها لم تخدعني. إيماءة أمّي كانت بالأحرى، انقباضاً أساء الدكتور كورتيوس تفسيره.

«ليلة سعيدة، إذن» قال، «شكراً لك».

تلك الليلة في غرفتنا في العلّية، قبلتني أمّي على جبیني وهي تضعني في

السريـر. «كوني ذات نفع، يا ماري. أنت طفلة صالحة» قالت، «أنا آسفة، لا أستطيع. لقد حاولتُ ولكنني لا أستطيع».

«لا تستطيعين ماذا، يا أمي؟»

«كوني مطيعة الآن، ونامي. ليلة سعيدة، ماري»

«تصبحين على خير»

من ثم، أمرتني أمي أن أغمض عيني، وأن أغفو على الفور. أبقى عينيك مغمضتين، أمرتني، وأديرني وجهك صوب الجدار. سمعتها ترتب الأغراض على عجل، وتسحب ملاءة عن السرير، وتزيح كرسيًا، وبعدها غفوت.

عندما استيقظتُ، كانت الشمعة قد انطفأت. إنها ساعات الصباح الباكر لكنّ أمي ليست بجواري في السرير. ثمة ضوء أزرق باهت يتسلّل إلى الغرفة، وبالكاد تمكّنتُ من رؤية شيء ما قاتم يتدلّى من عوارض السقف. لم أستطع أن أتذكّر رؤية شيء كهذا من قبل! سطع الضوء أكثر، وميّزتُ ذلك الشيء أخيراً: أمي! لقد شنتُ أمي نفسها!

بقلق، أمسكتُ إحدى قدمي أمي بيدي، لكنّ تلك القدم الحافية لم تواسني كثيراً، لأنها قدم باردة في نهاية المطاف، وبرودتها تؤكّد تأكيداً بغيضاً على موت أمي. لعلّ موت أّية امرأة هو أمر بسيط للغاية، ستموت النساء دائماً هنا أو هناك، ولقد ماتت بعضهنّ وأنا أكتب هذه الجملة بلا شكّ، لكنني لا أهتمّ إلّا بهذه المرأة الآن، بهذه المرأة المتدلّية من عوارض السقف: على العكس من كلّ نساء العالم، هذه المرأة هي أمي. لطالما كانت أمي موجودة كي أختبئ خلفها، لكنني الآن بلا دفاعات. موتها لم يكن موتاً هادئاً مفكراً كموت أبي، بل عملٌ، فعلٌ مُستعجّل. لقد دفعت أمي نفسها إلى خارج الحياة. بثوب من سوف أتمسك الآن؟! لا ثوب بعد اليوم أتمسك به، أبداً! تارّجح أنف أمي البارد بعيداً عني، دليلاً على رفضها.

«أمي!» ناديتها، «أمي، أمي، أمي!»، لكنّ أمي، أو ذلك الشيء المعلّق الذي كان أمي جزئياً، بقيت صامتة. بحثتُ حولي مرتعبةً عن شيء ما، عن عزاء أو حماية، فلم أجد سوى مارتا.

لا بدّ أنّ الدكتور كورتيوس قد سمعني أبكي، لأنّه ناداني من أسفل

الدرج: «أين والدتك؟»، من ثم قال: «لقد حان الوقت، لقد حلّ موعدنا منذ فترة، لقد اتّفقنا على ذلك».

«لن تأتي يا سيّدي»

«يجب عليها! يجب عليها ذلك، هكذا كان اتّفاقنا»

«من فضلك يا سيّدي، من فضلك يا دكتور كورتوس»

«ماذا؟»

«أظنّ أنّها ماتت»

وهكذا، صعد الدكتور كورتوس إلى العلّية، فتح الباب، فدخلت خلفه. كورتوس يعرف الأجساد الميّتة، إنّهُ خبير بها وبوجوهها المتهدّلة. وهنا، بمجرّد أن فتح باب غرفتنا، أدرك على الفور أنّه مجرّد مثال آخر فحسب عنها، يتدلّى كمعطف معلّق.



(لقد نحتّ حمامة خشبيّة، كي تلعب دور أمّي)

«توقّفت» قال، «توقّفت... توقّفت... توقّفت!». أغلّق الباب، ووقفتُ إلى جانبه في أعلى الدرج المؤدّي إلى العلّية.

«توقفت» قال مجدّداً، وهو ينحني فوقى ويهمس فى أذنى كما لو أنّه يخبرنى بسرّ. نزل إلى الأسفل، من ثمّ التفت إلىّ. هزّ رأسه مرّة أخرى ثمّ همس، ووجهه ينهار إلى تكشير من الأسى الرهيب: «توقفت!»، قبل أن يخرج من المبنى موصداً الباب الرئيسى خلفه بالمفتاح.

بعد مضيّ وقت طويل، جلسْتُ أنا ومارتا فى منتصف الدرج. جلسنا من دون حراك، وانتظرنا. أمّى فى الأعلى، فكّرتُ. آه! أمّى فى الأعلى، ميّة.

أخيراً، جاء رجال من المستشفى بصحبة الدكتور كورتىوس. «لا أستطيع أن أجعل الناس يعملون» قال، «أستطيع أن أفكّكهم، أستطيع أن أقطّعهم، أجل، أنا بارع جدّاً بذلك، بل موهوب جدّاً فى الواقع، لكنّهم لن يعملوا معى أبداً! يرفضون، يصمتون، يتوقّفون!». صعد رجال المستشفى الدرج إلى العلّية، وساروا من حولى أنا ومارتا، ولم ينظروا إلينا إلّا لمأماً. فتح أكبرهم سنّاً باب الغرفة، فدخل الجميع باستثناء الدكتور كورتىوس الذى بقي واقفاً أمام الباب الموصد. وهكذا، بقينا كلانا خارجاً، وبدأنا كلانا كما اعتقد بالتفكير أننا ارتكبنا خطأ شنيعاً حتماً، وإلّا لِمَ لم يسمحوا لنا بالدخول؟! الدكتور كورتىوس، الذى انتابه خجل بالغ، لم ينظر إلىّ على الرغم من أنّنا واقفان شبه متلاصقين، الدكتور كورتىوس الشاب وأنا. بدا لى يافعاً جدّاً الآن، كأنّه طفل تقريباً، عيناه مثبّتان على الباب فقط.

أخيراً، فُتح الباب. أكبر الرجال سنّاً، وبمتهى الجدّية، تكلم ببطء وهدوء: «خذِ الفتاة للأسفل، وأبقها هناك».

هزّ كورتىوس رأسه، من ثمّ نطق بصوت خافت مجروح: «إن جعلتنى ألمسها أيّها الجراح هوفمان، أعتقد أنّها ستموت أيضاً».

«هراء! هيّا الآن يا فيليب. فيليب كورتىوس، يمكنك أن تفعل هذا»
«لستُ واثقاً! أنا حقّاً لستُ واثقاً».

«خذِ الطفلة إلى الأسفل، ودعنا نهتمّ بالمسائل هنا»

«ولكن... ماذا أفعل بها؟!»

«لا يهتمّ» قاطعه الجراح بحدّة، «خذها فقط بعيداً عن هنا».

وانغلق الباب أمامنا مجدداً.

بعد لحظة، نقر الدكتور كورتوس بخفة على كتفي. «هيا» قال، «تعالى رجاء»، وقادني إلى أسفل الدرج من ثم صوب مشغله. وضعتُ مارتا في جيبى كي تبقى بأمان، من ثم نهضتُ، وتبعته ببطء.

في المشغل، تفحص الدكتور كورتوس نفسه كأنه غير واثق مما يجب أن يفعله بي. من ثم، بدا كأنه وجد الإجابة! تناول علبة مملوءة بالعظام من أحد الرفوف، من ثم أعطاني بلطف بالغ كما أتذكر، عظم ترقوة بشرياً، الترقوة اليمنى على ما أعتقد.



«إنه عظمٌ جيّد» همس لي، «عظم يبعث على راحة عظيمة، هذا الجزء من حزام الكتف كبير ومسطّح ومثلثي، وممتاز للتربيت عليه. أجل، إنه عظم رائع يبعث على العزاء».

بعد فترة، جاء الجراح هوفمان ووجدنا جالسَيْن معاً في المشغل، أنا على دكّة، وكورتوس على الأرض إلى جوارى، ننبش علبة من العظام.

«هذا كما ترين، هو العظم الصدغيّ.... وهذا، آها! العظم الجداريّ الأيسر... وهذا، هذا هو عظم العجز... رائع، أليس كذلك؟ إنها عظام رائعة، أجل؟ كلّها صديقاتي القديمات».

«لقد انتهينا»، قال الجراح.

بقيتُ صامتة، ولم أتحرك قط.

«والآن» تابع الجراح، ما مصير الطفلة؟ لا بدّ أن نجد لها مكاناً».

«هل يمكنني الاحتفاظ بها؟» سأل الدكتور كورتيس بسرعة، «الطفلة... هل يمكنني الاحتفاظ بها؟».

كنتُ أنا موضوع النقاش! لم أتحرك.

«هذا أمر غير مطروح للنقاش»، أجاب الجراح.

«آه! أودّ أن أبقّيها معي»

«لماذا بحقّ السماوات؟!»

«إنّها لا تخاف»

«ولماذا يجب عليها أن تخاف؟!»

«إنّها تمسك العظام»

«وعلام يدلّ ذلك؟!»

«إنّها هادئة»

«وإذن؟!»

«قد تكون ذكيّة، أو غبيّة، لا أعرف، لكنّ حاليّاً، إن كنت لا تمانع، سأبقّيها هنا»

«هل ستقدّم لكّ نفعاً؟»

«ربّما سأدرّبها»

«حسنّاً» قال الجراح، «لتبقّ هنا الآن، لا يهمنيّ، ريثما نفكّر بشيء ما أفضل».

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

وفيه يصبح الواحد اثنين

في مسائنا الأول معاً، وقفتُ في المطبخ بينما حاول الدكتور كورتوس أن يعدّ الطعام. أردتُ أن أكون مفيدة، وأن أعمل كما علّمتني أمي، فسألته إن كان بإمكانني مساعدته لأنّه بدا مضطرباً جدّاً. وهكذا، أنقذتُ الأوعية من الاحتراق، وساعدتُ بطهي الطعام. «أنا لستُ خائفاً منك» قال لي، «أنتِ لا تخفينني أبداً! ليس لديكِ شيء، أليس كذلك؟ لا شيء على الإطلاق». عندما انتهينا، وحان موعد النوم، راقبني وأنا أصعد الدرج إلى العلّية.

«ليلة سعيدة، أيتها الطفلة الصغيرة»

«ليلة سعيدة، يا سيّدي»

«ما اسمكِ؟ لا بدّ لي أن أعرف اسمكِ كما تعلمين. لا أعرف ما الذي يجب أن أفعله بالأطفال، أنا متأكّد من أنّي سأرتكب أخطاء، لكنّهم يحملون أسماء كما هو متعارف عليه. ما اسمكِ أنتِ؟»

«آن - ماري غروسهولتز، لكنّ أمي نادتنني دوماً بـ: ماري»

«ليلة سعيدة إذن، يا ماري. اذهبي إلى السرير»

«ليلة سعيدة، يا سيّدي»

وهكذا، صعدتُ الدرج إلى العلّية، محتضنة آمالاً واهية أن أمي ستكون هناك مجدّداً، وأنني سأروي لها عن هذا اليوم الاستثنائي! ولكن بالطبع، لم تكن هناك. لقد أخذوها بعيداً، لكنّهم نسوا الملاءة التي استخدمتها لشنق

نفسها، والتي بقيت مكومة في إحدى زوايا الغرفة. فكّرتُ أن أمي لن تعود حقاً، أبداً، لا في الغد ولا بعده، ولا في نهاية الأسبوع. يجب على مدينة بيرن ومزل كورتوس، بل يجب عليّ أنا أيضاً، أن نتابع التحرك من دون أمي. إلى أين أخذوها يا ترى؟

لم أكن واثقة من غرفة العلية. عندما نظرتُ بعيداً، شعرتُ فجأة أن أمي ما تزال متدلّية من عوارض السقف، بعنقها الملتوي ورأسها المنحني، لكنّها اختفت ما إن نظرتُ مجدداً، وذلك الشخص المشنوق لم يعد يبدو لي كأنه أمي على الإطلاق، بل كأنه من سرق أمي مني. لم أثق بالغرفة، أفضل أن أكون في أية غرفة أخرى، فكّرتُ، لكن ليس في العلية. وهكذا، عندما أيقنتُ أنّ الدكتور كورتوس قد أوى إلى سريره بكلّ تأكيد، تسلّلتُ إلى أسفل الدرج حاملة بطانية، ودميتي مارتا التي أعطتني إياها أمي، وشفيرة الفكّ التي كانت لأبي. جرّبتُ المطبخ، لكنني شعرتُ بالمرأة المشنوقة هناك مرّة أخرى، شعرتُ أن المرأة ذات العنق الملتوي تجلس بجانب الموقد، ورأيتُ إنجيل أمي ما يزال هناك على إفريز النافذة، ففزعتُ منه. أفضل أن أكون في أية غرفة، فكّرتُ، ما عدا المطبخ أو العلية. ابتعدتُ عن المطبخ، وشعرتُ أن الأم ذات العنق الملتوي تلاحقني في أرجاء المنزل، فخطر لي أنّ المكان الوحيد الذي لن تتبعني إليه هو المشغل. أعرف أنّ كلّ تلك الأشياء الرهيبة موجودة فيه، كلّ تلك الأسرار التي من الأفضل أن نتركها وشأنها، أما خارج المشغل فأنا أشعر بالأم ذات العنق الملتوي تتنفس بالقرب مني. وهكذا، ذهبتُ بسرعة إلى المشغل وأغلقتُ الباب خلفي على عجل. أنا وحيدة في غرفة مليئة بالأجزاء البشرية التي احتشدت شخوصها حولي، لكنني لم أعد أشعر بوجود الأم ذات العنق الملتوي. أعددتُ لنفسني بعناية سريراً صغيراً تحت طاولة المشغل، ورجوتُ الأجزاء البشرية أن تكون لطيفة، أغمضتُ عينيّ بإحكام، وغفوتُ أخيراً.

لقد خطّطتُ أن أستيقظ باكراً، وأن أتسلّل على رؤوس أصابعي إلى الأعلى من دون أن يسمعي الدكتور كورتوس، ولكن فجأة، أدركتُ أنّه يهزّني وأنّ الصباح قد حلّ. «وها أنت ذي! نائمة هنا!» قال، «هيا الآن، حان موعد الاستيقاظ»، لكنّه لم يعلّق على قضائي الليلة في المشغل، تحت الطاولة

الخشبيّة. طويْتُ البطّانية ووضعتها على أحد الرفوف، وسرعان ما داهمتني ذكرى والدتي. «هيا، هيا» قال، «أسرعي! أسرعي، عليك أن تسرعي». في السابعة تماماً، بدأ بتعليمي.

«عليك أن تتذكّري» قال وهو يقرفص بجانبني، «أنا لست معتاداً على الناس. أنا لا أعرف سوى أجزاء من أجسادهم فقط، وليس أناساً كامليين. أريد أن أفهمهم، وأن أعرفهم، لكنّ نماذجي تؤثر عليّ تأثيراً فائق القوّة. أنا أحلم بنفسي معروضاً في خزانة من خشب الورد، أمام خلفيّة من المخمل الأحمر. أجل، وأسوأ ما في الأمر، ما يرعيني حقّاً، ما لا يمكنني تجاوزه وما لا أستطيع تجاهله، ما لا أستطيع تجاوزه على ما يبدو، هو أنّني أبدو مرتاحاً تماماً هناك في أحلامي. أخرِجوني!» قال كورتيس وأصابعه تنقر بخفّة على صدري، «فليخرجني أحدكم! ألا تستطيعون سماعي أنقر على الزجاج؟! أنا هنا في الداخل، من سيخرجني؟! أريد أن أعرف الناس، أريد أن أعرفك، أجل، ها نحن أولاء. هذا هو، أنا لست خائفاً منك، بتاتاً».

وقف الدكتور كورتيس فجأة، وباشر العمل على الفور.

بعد فترة قصيرة، توقّف عمّا كان يفعله. «عرفت!» هتف، «عرفتُ تماماً ماذا أفعل إزاء ذلك! اكتشفتُ الطريقة لتوي!» تنقّل في أرجاء المشغل وهو يجمع الأشياء، ويكوّمها فوق الطاولة.

«هيا الآن يا ماري... لأنّ هذا هو اسمك كما تعلمين» قال كورتيس راضياً عن تقدّمه، «دعينا نبدأ إن كنتِ مستعدّة، دعينا نبدأ».

«أنا مستعدّة تماماً، يا سيّدي»

«كانت هذه الأدوات لأبي ذات يوم» قال، «كان أبي كبيرَ المشرّحين في مستشفى بيرن، رجلاً عظيماً جدّاً. عندما مات، أعطوني أدواته». اتّجه إلى حاوية مليئة بمسحوق الكلّس، وأخذ منه مقدّاراً، ثمّ سكبه في دلو معدنيّ ومزجه بمقدار معيّن من الماء، وحركه بعناية.

«كي أريك كيف يعمل كلّ هذا، بحيث تفهمينه، بحيث تتبعين خطوات العملية، سأخذ طبعة، ليس لجزء بشريّ ما، كلّاً، ليس اليوم. اليوم سأخذ طبعة من أجل تعليمك، إن لم تمنعني، طبعة لرأسك».

«لرأسي؟!»

«رأسك، أجل»

«رأسي يا سيدي؟!»

«أكرّر: رأسك»

«إن أردت ذلك يا سيدي»

«أجل أريد»

«حسناً إذن يا سيدي. أجل، رأسي»

وهكذا بدأنا.

«أولاً، القليل جداً من الزيت» قال، زيتٌ لوجهي. «بحيث نتمكن فيما بعد» أضاف، «من إزالة الجبس بسهولة»، من ثمّ بدأ بدهنه. «القصبات!» هتف فجأة، «لا بدّ من استخدام قصبتين! كدتُ أنسى ذلك!» قال وهو يدرّس قصبتين من ريش الإوز في منخريّ، كي أتمكن من التنفّس. «أغمضي عينيك، ولا تفتحيهما أبداً إلّا عندما أمرك بذلك».

جلبّ الجبس، شعرتُ أنه يتقاطر فوق وجهي في طبقات صغيرة، تتبعها طبقات أخرى من الخرق التي غُمست بالجبس أيضاً. أطبق دفء الجبس الغريب على وجهي، وغمرتني العتمة والدفء حول وجنتيّ وأجفاني وشفتيّ وعنقي، إلى أن شعرتُ بنفسني أطفو بعيداً إلى مكان ما، وأنني لربّما متُّ لتويّ. في العتمة، اعتقدتُ أنني رأيتُ أمي، لكنّها اختفت بسرعة، ولم يعد هناك سوى العتمة والفراغ، لا أحد هناك على الإطلاق.

أخيراً، اختفى الجبس وسطع الضوء، وعدتُ إلى داخل الغرفة. حمل الدكتور كورتويس الطبعة على عجل إلى الطاولة، من ثمّ مسح شعري بالزيت وأجلسني مجدّداً، وأخذ طبعة ثانية لرأسي من الخلف، ثمّ طبعتين إضافيتين لأذنيّ.

«الآن» قال، «لا بدّ أن نجهّز الموقد ونشعله. سأفعل ذلك مرّة واحدة فقط، وستولّين ذلك بنفسك في المرّة القادمة». بعد أن أشعل الموقد، قال: «والآن، راقبي وتعلّمي». تحرّك هنا وهناك، ووضع الأدوات على الطاولة.

طحن الأصباغ في البداية. «جذور الفوة⁽¹⁾» قال، «والسينابار⁽²⁾، معاً. وصبغة قرمزية أيضاً، القليل من الأزرق، والأخضر، رشة، ونطحن. القليل جداً من الأصفر، ونمزج هكذا، والآن هذا» قال، وأشار إلى دمجانة كبيرة ذات صنبور، سكب بعضاً ممّا فيها في وعاء أصغر. «زيت التريبتين، نضيفه دائماً إلى الأصبغة. وهكذا: نحصل على مزيج. وهكذا: هذا هو لونك».

تناول وعاء نحاسياً كبيراً عن أحد الرفوف، وأراني إياه، ثم جعلني أنظر إلى جوفه، وبعدها وضع هذا الوعاء الفارغ فوق الموقد.

«لا شيء حتّى الآن. ثمّة دكّة، اجلسي عليها. الآن، أظنّ أننا جاهزان». اختار سكيناً كبيرة، وسار إلى خزانة مغلقة. فتحها، وقصّ شيئاً ما لم أتمكن من رؤيته بحرص فائق، من ثم أغلق الخزانة مجدداً وعاد إليّ.

«هذه» قال كورتيوس، ممسكاً بشريحة من مادة بنية مصفّرة، «هذه المادّة التي أمسكها، هي كلّ شيء، ومع ذلك...» تابع وهو يقلّبها بحبّ بين يديه، «إنّها بحدّ ذاتها عديمة الشخصية، عديمة الهوية. إنّها لا شيء بحدّ ذاتها، لا أحد، لكن يمكنها مع ذلك أن تكون ودودة، أن تُحفظ، أن تصبح جمالاً، أن تصبح قباحة، أن تكون عظماً، أن تكون جدار بطن، أن تصبح حبلاً من الشرايين أو الأوردة، أو عقداً لمفاوية، أن تصبح ما تحت - المهاد في الدماغ، أو أظافر. يمكنها أن تكون كلّ شيء، بدءاً من الأجزاء الصغيرة الموجودة في آذاننا، إلى أميال من الأمعاء الملتقّة في أحشائنا. أيّ شيء! يمكنها أن تكون أيّ شيء. يمكنها أن تكون: أنت!».

«ولكن... ما هي يا سيّدي؟!»، سألتُ.

«إنّها البصر، إنّها الذاكرة! إنّها التاريخ! يمكنها أن تصبح رئة رمادية، أو كبداً بنية محمّرة. يمكنها أن تكون أيّ شيء. يمكنها أن تكون أنت!»
«هل يمكنها أن تصبح ديمتي مارتا؟»، سألتُ.

«يمكنها ذلك! أجل! يمكنها أن تأخذ شكل أيّ سطح بدقّة مذهلة!

1- تُعرف أيضاً بنبتة «عروق الصبّاغين»، تعطي لوناً يتراوح بين درجات البرتقالي والأحمر. المترجمة

2- مرّكب سلفيد الزئبق، يتراوح لونه بين القرمزيّ الفاقع إلى الأحمر الآجريّ. المترجمة

خشن، أملس، محزّز، لمّاع، مستو، مبقّع، مُنقّر، ممزّق، مليء بالندوب، بالقشور، زلق! اختاري ما تشائين، لا وجود لأيّ سطح لا تستطيع هذه المادّة أن تكونه»

«هل يمكنها إذن... هل يمكنها أن تكون أمّي؟!»

«كلّا يا طفلي» قال بعد لحظة، «هذا غير ممكن، لا تستطيع أن تكون أبي أو أمّي. لقد ماتا كلاهما أيضاً. كان ذلك ممكناً في السابق، أتمنّى لو أنّه حصل، لكنّ الألوان فات. لقد ذهبوا إلى العدم، هل بوسعك أن تفهمي هذا؟ ليس بمقدورنا إعادتهم من هناك، صورهم محفوظة بداخلنا، ليست صوراً دقيقة، بل ومضاتٌ ونتف. لا يوجد ما يكفي لذلك، لم يتبقّ سطح، وهذه المادّة كما ترين يلزمها سطح. إنّها قاعدتها الوحيدة. لقد فات الألوان بالنسبة لأمّك».

«يؤسفني أنّها لا تستطيع أن تكون أمّي»

«إنّها تتوق كي تأخذ شخصيّة» قال بسرعة عندما رأى دموعي تنهمر، «إنّها تتوق كي تصبح شيئاً ما، ولا تحتاج سوى إلى تعليمات قليلة. هل نرشدّها، أيتها الفتاة الصغيرة، أيتها الطفلة ماري؟ ألا تريد أن تري كيف ستصبح خادمة رائعة، وممثّلة عظيمة؟»

«بلى يا سيّدي»

«حسناً إذن، لم لا تمسكينها؟ خذي، امسكيها. خذي، شمّوها»

وهكذا أخذتها وشممتها.

«إنّها مجرّد شمع!!» قلت، وقد خاب أمني.

«كلّا! ليست مجرّد شمع أبداً! أبداً! الشمع كلّ مقدّس، وهذا... هذا هنا هو أرستقراطيّ الشموع، الأمير بحدّ ذاته بين أنواع الشموع، أعظمُ جامعي التفاصيل، أرقى المقلّدين، المادّة الأشدّ نزاهة! هذا، حتّى هذا، هو جزء من أفضل أنواع شمع النحل».

«أفضل أنواع شمع النحل»، ردّدت العبارة كي أحفظ الاسم.

«صنعتة نحلات العسل الآسيويّة، جينوس آسبس. إذن... هيّا نعمل به»

«جينوس آسبس»، قلت.

ذوّب كورتوس الشمع في الوعاء النحاسيّ، أضاف الأصبغة، وكذلك

بعض الريزين. شرح لي كيف يجب أن نراقب الحرارة، وكيف يجب أن يُمزج الشمع بحرص بالغ، من ثم... ها هو ذا جاهز، وسنبداً أولاً بطبعة وجهي. دهن كورتوس سطح الطبعة بمادة تدعى «الصابون الطري» كي تسهل إزالة الشمع فيما بعد، من ثم صب الشمع في الطبعة بكمية لا تُذكر في البداية، تحوّلت إلى طبقة رقيقة للغاية، وراقبها بحرص. بعد ذلك، أمسك الطبعة بين يديه وحركها يميناً وشمالاً بحيث سال الشمع على سطحها بأكمله، كي تزول كلّ فقاعات الهواء. من ثم، أضاف طبقة ثانية، من ثم ثالثة بعد فترة، ورابعة، وخامسة. الطبقتان الأخيرتان كما قال، تزيدان سماكة الطبعة ممّا يهبها بعض المتانة. بعد بضع دقائق من الانتظار، بضع دقائق فقط، أصبح الشمع جاهزاً، وانتزعه الدكتور كورتوس بسهولة فائقة من الطبعة.

«هل هذا هو وجهي؟!»، سألتُ.

«بالضبط»، أجاب.

تركني مع الوجه، ما يزال دافئاً كأنه حيّ، لكنّه سرعان ما برد. صبّ الدكتور الشمع في بقية الطبقات التي أخذها لرأسي، والتي كشفت كلّ منها عن سرّها. أمامنا هنا، توجد الآن أجزاء مختلفة من رأسي مصنوعة من شمع بلون الجلد، بلون بشرتي بالضبط كما قال الدكتور. شعري أملس ينسدل فوق رأسي، صبّه الدكتور بشمع بني اللون، من ثمّ باشر العمل على جمع كلّ تلك الأجزاء معاً بغية تشكيل النموذج النهائي. كلّ قطعة منها ترتبط بالأخرى، ولا بدّ من تعديل الشمع عند نقاط التحامها، أي أن يُقطع أو أن يُزال من ثمّ يُصَبّ مكانه شمعٌ جديد دافئ لطمس الشقوق. بعد ذلك، يُقَطَّع العنق بشكل مستوٍ من الأسفل، كي يبقى الرأس واقفاً من تلقاء ذاته. الرأس الشمعيّ مجوّف، محشوٌّ بالخرق العتيقة وبقايا القنب وبعض قطع الخشب، توخياً «للمتانة» كما قال الدكتور.

وهكذا، فوق طاولة العمل، ها هو ذا رأسي.

«لقد جمعتُ كلّ ذلك معاً» قال كورتوس، «ولم أفكّكه».

نظرتُ إلى رأسي الشمعيّ: ها أنا ذي في المشغل، عيناى مغمضتان. فتاة، بذقن أبيها وأنف أمّها. أنا موجودة الآن أكثر بمرّتين، كما أعتقد.

في نهاية يومنا الأول ذاك، تناولنا الحساء في المطبخ.

«من فضلك يا سيّدي»، قلتُ.

«أجل، ماذا تريدان؟»

«كنتُ أتساءل يا سيّدي، بشأن أمّي. إلى أين أخذوها؟»

«لا أعرف» أجابني، «لكن قد نكتشف ذلك. الجراح هوفمان يعرف بكل تأكيد، سنسأله عندما يعود في الممرّة القادمة».

«أوّد لو أزور قبرها»

«أجل، أجل، بالطبع. سنسأله»

عندما انتهينا من الحساء، نظفّت المطبخ، من ثمّ قال: «حان موعد الذهاب إلى السرير، يا ماري غروسهولتز».

«أجل سيّدي» قلتُ، وقد انتابني رعبٌ شديد من العودة إلى الغرفة في العلّية.

«بإمكانك النوم في الأسفل إن أردتِ، في المشغل، لكن لا تلمسي شيئاً! انتظري لحظة، قولي لي، ألم تشعرني بالخوف وأنتِ وحيدة في تلك الغرفة؟!»

«شعرتُ بها في أرجاء المكان... كلّ تلك الأجزاء»

«أجل؟»

«وبعد فترة من الوقت، لم أعد أبالي بها»

«حقّاً؟! بعض الناس ينفرون منها. إلى السرير الآن، نامي جيّداً»

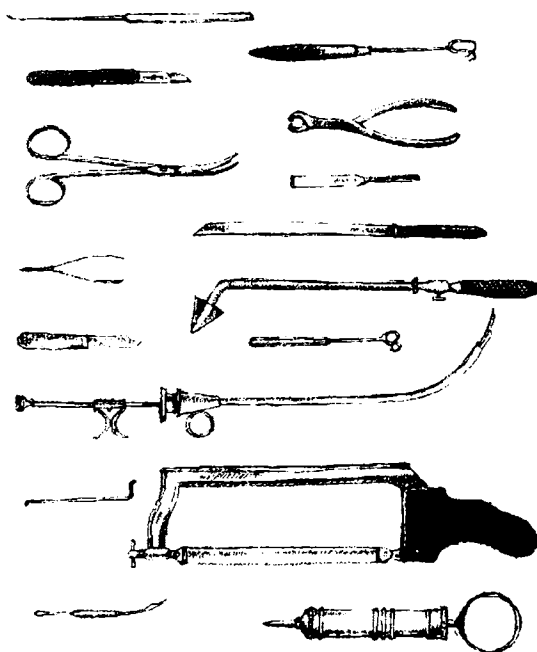
عدتُ إلى المشغل ونمتُ على الأرض. ها أنا ذي، تحت الطاولة، وها هو ذا رأسي الشمعيّ فوقها أيضاً. في الليل، إن صمتُ صمتاً مطبقاً، فكّرتُ أنني سأصبح قادرة على سماع كلّ أجزاء الجسد البشريّ تلك تتنفس. مع رأسي الشمعيّ في الغرفة، شعرتُ أنني أوشكتُ على الانتماء إليها. فكّرتُ أيضاً، أنني إذا كنتُ حريصة للغاية، فقد يبقيني الدكتور معه.

الفصل الخامس

الجراح

يطلب الدكتور كورتوس منّي أحياناً أن أهتمّ بالموقد، وأن أناوله أدواته في أحيان أخرى. كي أكون نافعة له، لا بدّ لي من أن أتعلّم أسماء تلك الأدوات: فرجار وسباتولا، أدوات للصقل وأخرى للتلميع، أمشاط وأسلاك، محراك ومحفرة، مقاشط للجصّ وخيوط كاتكوت لقصّ الصلصال. ثمة مجموعات من سكاكين مختلفة يتنوّع شكل الأثلام على ذراها، بعضها ذات أنوف منحنية، وبعضها الآخر ذات أنوف مبرومة. ثمة أدوات مصنوعة من الحديد، وأخرى من الرصاص، وثالثة من شتى أنواع الخشب القاسي والطريّ وخشب الورد وخشب الكرز. بعضها أملس وبعضها الآخر خشن، بعضها حادّ وبعضها الآخر مثلّم، ويجب عليّ أن أتعلّم أسماءها كلّها. كلّ ما سبق هي أدوات مألوفة بالنسبة للنحاتين، لكنّها مجرد جزء فقط ممّا يستعمله الدكتور كورتوس، الذي يملك الكثير من أدوات الجراحين أيضاً، ويعدّها أساسيّة في عمله. كلّ منها لها اسمها الخاصّ أيضاً، ولا يجوز بتاتاً الإشارة إليها بـ «هذه الأداة»، أو «تلك الأداة»، وقطعاً ليس كـ «ذات الذروة الطويلة المنحنية» أو «المنحنية ذات الخطّاف»، بل لا بدّ من حفظ أصناف جنسها الضخم كلّها وتذكّرها. ها هي ذي عائلة المشارط، بدءاً من المستقيم إلى المحدّب إلى ذي الرأس المدوّر إلى مشرط النواشير. ها هم أولئك أبناء عمومة المقصّات العديدون: المستقيم، الدقيق الزوايا، الموسّع، وذو الفكّين. هذا هو المبرود المقتنى، وذلك هو المسبار المقتنى، ولا تنسوا المُرقيّ الذي يأخذ شكل عملة معدنيّة، ولا أخاه المستدقّ، ولا ابن عمومتهما الذي يشبه المفتاح. لا تخلطوا

بين المروود المستدق والإبرة الشوكية. ثمّة كمّاشات عادية، وثمّة كمّاشات «البجعة» المبسطة. ذلك هو سكّين السادّ، وذلك هو مسبار الأنف. هذا هو خافض اللسان، وتلك هي مجرفة استخراج الحصىّات البوليّة من المثانة. كلّ تلك الأدوات الغريبة الشكل مصمّمة للتنقيب في داخل أجساد البشر، لالتقاط هذا، لانتزاع ذاك، للقشط هنا أو للإرقاء هناك، أمّا الدكتور كورتيوس فلا يستخدمها لغاياتها الأصلية، بل يسخرها كلّها في عمليّة صناعة النماذج الخاصّة، لكنّها بدت لي متعطّشة لاقتحام أجساد البشر. كلّما أمسكت أداة ما من مقبضها، شعرت أنّها تتمنّى أن تغيّر اتجاهها وتشقّ طريقها إلى داخلي. يجدر بك أن تكون قوياً جداً مع هذه الأدوات، لأنّها ذات شخصيّة قويّة الإرادة. يجب عليك أن تُظهر لها دائماً من هو السيّد، وإلا ستنتقّض على جلدك إن تساهلت معها للحظة، للحظة واهية. لقد تمكّنت منّي مراراً، قضمت رؤوس أصابعي أو نهشت راحتي، وهو ما أغضب الدكتور كورتيوس دائماً. تلك الأدوات كانت مهذّبة معه، لأنّه روّضها جميعها، أصبح خانعة كلياً بين يديه.



جاء هاينريتش من مستشفى بيرن مرتين خلال الأسبوع الأول، بصناده المليئة بالأجزاء البشرية، كي ينسخها كورتيسوس. راقبتُ ما يقوم به، وبدأتُ أساعده في المهمّات الصغيرة، وها أنا ذي بين أجزاء بشرية عميقة. تلك القطع المريضة التي تُسلم لنا، غالباً ما تكون قد تعرّضت مسبقاً لهجوم أحد طلاب التشريح في المستشفى، وتمزّقت إلى أشلاء، كهذا الصدر المليء بالثقوب التي حفرها الطلاب. يا لتلك الجلود الصفراء والرمادية، التي تتكوّم على طاولة عملنا! رائحتها تغطي على كلّ الروائح الأخرى، وحتى بعد انقضاء فترة طويلة على اختفاء مصدرها، ستبقى تلك الرائحة التنتنة قريبة جداً منك، بداخل فمك، في أنفك، في عينيك، في جلدك. يا أجزاء الجسم، كنتُ أتساءل، لِمَنْ أنتِ؟! ندبة، نمش، شامة، تجعيدة في لحم بارد، شعُرٌ على ذراع... إلخ، كانت كافية كي تدفعني للتساؤل. لم تعد ترعيني بعد فترة، بل أصبحت مألوفة للغاية، بل شيء ما نترقبه. كورتيسوس علّمني ذلك.

«إنّه بعض الجسد البشري، يا ماري، لا شيء يدعو للفرع. الأجساد البشرية بعد كلّ شيء، هي أشياء يومية»، يقول.

في ختام الأسبوع الأول، جاء الجراح هوفمان، ووقف أمام رأسي الشمعيّ مندهشاً. «حسناً، حسناً، ها أنت ذي مجدّداً. الشبه جيّد يا كورتيسوس، تشابه جيّد جداً!»، قال.

«شكراً لك، سيّدي»، أجاب كورتيسوس.

«لكنّه بالطبع، عديم الأهمية» تعجّب هوفمان، على الرغم من أنّه عجز عن إزاحة بصره عن الرأس على ما يبدو. «لا أفترض يا كورتيسوس أنّه... ولكن لا، حتماً لا!»، أضاف.

«سيّدي؟»

«كنتُ على وشك أن أتفوّه بشيء لا لزوم له، شيء ما أحمق»

«سيّدي؟»

«حسناً، إليك الأمر كورتيسوس، كنتُ سأسألك، سأقترح، أنّك لربّما تستطيع أن تصنع لي شبيهاً، شبيهاً دقيقاً. هل يمكنك ذلك؟ هل تعتقد أنّك قادر على هذا؟!»

«أجل سيّدي، أستطيع ذلك»

«حقاً؟!»

«بكل تأكيد يا سيّدي»

«هل تحسبني أحمق؟!»

«كلاً، كلاً على الإطلاق! إن كنت ترغب بذلك سيّدي»

«أرغب بذلك، أعتقد أنني أستحقّ التكريم بعد كلّ شيء، فأنا أقوم بعمل جيّد جداً. لا أنتظر تمثالاً برونزياً، بل هذا... تمثال كهذا، من الشمع! حسناً، ولم لا؟! سأقدّر لك ذلك»

«يمكننا عمل ذلك، سيّدي»

«جيّد، أجل، جيّد»

توجّه كورتيوس إلى سلّة مسحوق الكلّس، بينما توجّهتُ أنا إلى الرجل المسنّ.

«اجلس يا سيّدي» قلتُ له، فجلس والتوتّر بادٍ عليه. لففته بملاءة، كما لو أنّه جالس في دكان حلاق، وجاءنا كورتيوس بالزيت.

«ينبغي أن أفتح قميصك قليلاً، كي أكشف العنق. أغلق عينيك يا سيّدي». «حسناً»، قال هوفمان.

«وأبقهما مغمضتين»

دهن كورتيوس وجه هوفمان بالقليل من الزيت، فانكمش هذا الأخير على نفسه.

«يجب عليّ أن أبقى ساكناً، وتحت إمرتك. أليس كذلك يا كورتيوس؟»

«يجب أن تبقى ساكناً تماماً» أجاب كورتيوس، «هذا ضروريّ للغاية.

سأضع هاتين القصبتين في منخريك، كي تتمكن من التنفّس إلى أن أقول لك يكفي هذا، كما يجب أن يبقى فمك مغلقاً».

صمت الجراح بعد ذلك، وظلّ صامتاً ونحن ندور حوله مستسلمين لنا.

صدره يعلو ويهبط، وهو الدليل الوحيد على أنّه ما زال حيّاً. عندما أزال كورتيوس العجس، ظهر تحته رجل، متواضع وضعيف، يرمش، غير واثق متّاً. عندها، انتهزتُ الفرصة.

«من فضلك يا سيّدي»، قلتُ للجّراح.

«ماذا تريدن، يا طفلة؟»

«كنتُ أَسْأَلُ إلى أين أخذتم أمّي»

«أَمَلِكُ كما أخشى، ميتة»

«أجل يا سيّدي، أعرف هذا، لكن أين هي؟ أرغب بزيارتها»

«زيارة؟! تعجّب، «يا لها من فكرة!!»

«لقد دُفِنَ أبي في قبر عندما مات. من فضلك يا سيّدي، أين قبر أمّي؟»

«يا طفلة!» أجاب، «لا يوجد قبر»

«لا يوجد قبر يا سيّدي؟! لا قبر بتاتاً?!»

«كلّا، كلّا، ثمّة حفرة. لقد وُضِعَتْ هناك مع العديد سواها من تعساء الحظّ، لكنّها لم تؤخَذْ إلى الطّلاب، ليس إلى المشفى، على حساب كورتيوس. ما كنتُ لأسمح بذلك! مع هذا، إنّهُ قَبْرٌ للمعدمين كما تعرفين، دفنٌ سريع، ولم يكن مخزياً قط. قيلت بعض الكلمات، وأهيل الكلس الحيّ بسرعة، ووُضِعَتْ أَمَلِكُ إلى جوار أولئك الذين ماتوا في ذلك اليوم».

«ولكن... أين هي هذه الحفرة يا سيّدي؟ أين أمّي الآن؟»، كنتُ مصرّة.

«لا تتكلّمي معي هكذا! لا يجوز!»

«أرجوك! أرجوك!»

«لا نحفظ بسجّلات لأمر من هذا القبيل، كما أنّ الكلس الحيّ...

سريع حقّاً⁽¹⁾»

«آخ يا أمّي!»، بكيتُ.

توجّه الجّراح إلى كورتيوس، وقال: «هل لي أن أرى رأسك؟».

«إنّه هناك» أجابه كورتيوس وهو يريه الطبعة، «في الفراغ السلبيّ

المعكوس، لكنّ الشمع سيظهره».

1- في الماضي، تمّت تغطية القبور المفتوحة بالكلس الحيّ (أكسيد الكالسيوم)، خاصّة عند دفن ضحايا أوبئة الطاعون والكوليرا، ظناً أنّه يسرّع تحلّل الجثث، فضلاً عن التخفيف من روائح التفسّخ التنته، ومنع العدوى من الانتشار عبر الهواء. المترجمة

«أرغب برؤيته»

«يمكنك ذلك عندما ينتهي، بعد يومين. تعال لاحقاً. لسنا بحاجة لك الآن، بعد أن أخذنا الطبعة»

«سأترك رأسي معك؟!»

«إنه بأمان تام معنا»

في تلك الليلة، وحيدة في المشغل، بكيتُ في بطانيتي لأنّ أمي لا تملك قبراً أزوره. لم يتبقّ منها شيء، لا شيء بتاتاً، ما عدا إنجيلها الذي لا يحتوي سوى على شيء من تعاستها فحسب. لكن عندها، وأنا أمسح المخاط من أنفي، توصلتُ إلى نظرية عظيمة: ها هو ذا أنفي، أنف أمي. إذن، ها هي ذي، ما تزال موجودة. وهكذا، عثرتُ على نظام أنفيّ عظيم: لقد تركت لي أمي أنفها، ولا يلزمني سواه كي أتذكرها. لديّ فنانان هوائيتان توأمتان، سأتنفّس بواسطتهما الحبّ وأسمه. سعدتُ بتلك الأفكار، وكنْتُ فخورة بنظريتي. ها هي ذي أمي، ها هو ذا أبي، وهكذا أستطيع أن أستمّر.

الفصل السادس

رؤوس

صنع كورتيوس رأساً للجراح. رأس مليء بالتجاعيد، مترهل قليلاً عند الفم، ثمة تقطيب خفيف مطبوع للأبد على الجبهة، وشفاه رقيقتان. «مع رأسك» قال لي كورتيوس، «شعرتُ بالرضا، وأنني أكتشف اكتشافاً عظيماً. أمّا مع هذا الرأس الجديد، فأنا أشعر بالقلق. لا بدّ لي من أن أحسن التصرف أمام هذا الرأس، ولن أشعر بالأسف عندما يؤخذ بعيداً».



عاد الجراح هوفمان، ووقف أمام رأسه الشمعي. لقد فُتِنَ به تماماً! وترقرقت دمعة في عينيه، تنهّد تنهيدة عميقة، وتوسّعت فتحتا منخاريه.

«أجل» قال، «إنه أنا! أقرّ بذلك. يا لغرابة أن أشاهد نفسي من كلّ الزوايا، وأن أمشي... حولي! كأتني لستُ أنا على الإطلاق، بل شخص ما سواي. لم أعرف نفسي بشكل تامّ من قبل، أجل، أحسنت».

لم أعرف ما إذا كان استحسنه موجّهاً لكورتوس أم للرأس الشمعيّ، لأنّه كان يتحدّث بكلّ تأكيد إلى الرأس عندما قال تلك العبارة. بأيّ حال، أخذ هوفمان الرأس، وعاد إلى مستشفى بيرن، ولم يحزن أيّ منا أنا وكورتوس على رؤيتهما يغادران.

بعد يومين، زارنا قسّ المستشفى، وطلب منّا أن نصنع له رأساً. كان متحمساً جدّاً، فوافق كورتوس على ذلك. بعد أن صنعنا الرأس، وعاد القسّ كي يأخذه، انتابه الحزن نوعاً ما، كأنّه كان يأمل برؤية قدّيس يُقدّم له، لكنّه وجد عوضاً عنه رجلاً صغيراً في طريقه إلى الصلح، وله غمّازة على ذقنه.



عملنا معاً أنا وكورتوس على نحو جيّد جدّاً كما أعتقد في ويلسير ستراس، لكنني أعقته أحياناً، أنا أعترف بذلك.

«سيّدي، من فضلك»

«ماذا؟»

«كلّ تلك الأجزاء يا سيّدي، على هذا الجدار، الأجزاء السليمة المرتبة معاً، هل هي موجودة حقّاً بداخل الإنسان؟!»
«أجل، كلّ شخص منّا يملكها»

«مستحيل!»

«بلى!»

«هذا غير ممكن!»

«أقول لك إنه كذلك!»

«إذن، نحن طافحون حتى الحافة! ألسنا كذلك؟!»

«ماري! أنا أحاول أن أعمل! كان المكان هادئاً في السابق! اقرئي كتاباً!»،
من ثم سكت، كأنَّ إلهاماً مفاجئاً نزل عليه. «الأفضل، خذي قطعة الفحم
هذه، وهذه الورقة. اذهبي إلى الزاوية هناك، وارسمي شيئاً ما».

«ماذا أرسم يا سيدي؟!»

«ارسمي... ارسمي تلك»

«ما هي تلك؟!»

«إنَّها البصلة السياسية»

«البصلة السياسية! أجل يا سيدي، إنها أشبه بجرذ مقسوم طولياً إلى

نصفين»

«ارسميها!!»



وهكذا، بدأت بالرسم. عندما لا تكون خدماتي مطلوبة عند الموقد، أو
بمناولة الأدوات، كنتُ أجلس في الزاوية وأرسم.

الرأس الرابع الذي صنعه كورتوس، كان لرئيس المستشفى الذي أراد رأساً لنفسه أيضاً بعد أن رأى رأسي الجراح والقس. إليكم الحقيقة: الناس مفتونون بأنفسهم! لقد جاء رئيس المستشفى إلى ويلسيرستراس، وصُعب كورتوس بهذا الاهتمام.

وضع رئيس المستشفى رأسه الشمعي في بهو مشفاه، وتحين الفرصة غالباً للوقوف أمامه. بسرعة، الناس الذين لا علاقة لهم بالمستشفى، أناس في أتم الصحة والعافية، بل ولربما نابضون بالحياة، أناس مرضهم الوحيد هو الفضول، عبروا بوابات المستشفى السوداء فقط كي يتفرجوا على رئيسها واقفاً إلى جوار رأسه.



رسمتُ أدوات النحت الخاصة بوالد كورتوس، رسمتُ كيلي وراثات، رسمتُ عظاماً وأوراماً، فمن الأفضل معرفتها كلها. رسمتُ مارتا، رسمتُ صفيحة فكّ والدي، ورسمتُ نفسي. أنا لا أجيد الرسم، لا أجيد الرسم بتاتا، ليس في البداية على الأقل، لكنني متحمسة.

«إنّها مجرد خربشات يا ماري» قال كورتوس، «تعالني معي». تبعته إلى المطبخ. هناك، أخذ رغيفاً من الخبز، وانتزع بعض اللب بعيداً عن القشرة، من ثم كوّره ومشى عائداً إلى المشغل. تناول إحدى رسوماتي -مثانة، أو ما يجب أن تكون كذلك- وفرك الورقة بكرة الخبز إلى أن زال

معظم الحبر عنها واستعادت بياضها السابق تقريباً، بينما أصبحت كرة الخبز التي تشربت الحبر سوداء قاتمة.

«عندما ترتكبين أخطاء، وأنت ترتكبين أخطاء بالفعل، اذهبي إلى المطبخ. خبز»

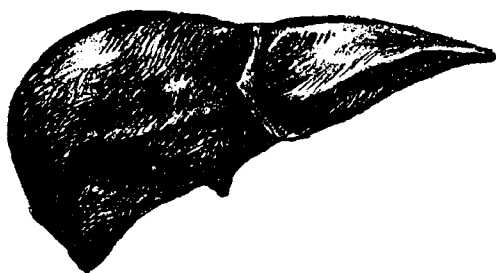
ذات مساء، سألني وأنا أرسم: «ما هذا؟».

«إنه أحد تلك الأشياء» أجبتُ، «كبد».

«حقاً؟!» سألني، «انظري مجدداً! خبز»

لاحقاً، قال لي: «كلاً، ليس بعد، ليست كبداً بعد. انظري مجدداً، ركزي.

خبز».



تعلمتُ أسماء عظام جسم الإنسان من خلال رسمها، درستُ أعضاء التكاثُر، وعدد الحدبات على العمود الفقري، ورسمتُ كل شيء. نظرتُ إلى الرسومات التشرّحية في كتب كورتيوس، ونسختُها بقلم الرصاص. ليلاً، كنتُ أغفو والقلم بيدي. رسمتُ كورتيوس أيضاً.

بفضل رأس رئيس المستشفى الشمعيّ، سمع الناس في مدينة بيرن باسم الدكتور كورتيوس وشارع ويلسير ستراس، وبدأوا يتواصلون معه. اصنع لي شبيهي، يقولون، فيطيعهم كورتيوس. صنع رأس بائع شموع، رأس صانع شفرات السكاكين، رأس مدير بنك، رأس ضابط... وظلّ الناس يتوافدون عليه، شخصاً أو اثنين في كلّ أسبوع.

فتحتُ الباب لأهالي بيرن. «رجاء، من هنا يا سيّدي» أقول، وأقود كلّ زائر إلى مقعد. حدّثوا جميعهم إلى الرفوف المليئة بأعمال كورتيوس، «رائعة، أليس كذلك؟!» أقول، فيردّ الزائر متوتّراً: «رائعة، أجل». أضع المناشف

حول أعناقهم وأجسادهم من الأمام، أرفع باروكاتهم بلطف، أغسل لهم وجوههم، وأجمع شعرهم للخلف. أطلب منهم أن يغمضوا أعينهم، من ثم أضع القليل من الزيت على رموشهم وحوابهم وذقونهم وأعلى جباههم، وأدس القصبات في مناخيرهم بحرص. عاملت أهالي بيرن بمتهى اللطف، وجهزت رؤوسهم من أجل كورتبوس الذي علّق مسروراً: «لم يعد أهالي بيرن يدخلون من هذا الباب مقسمين إلى أجزاء عديدة، بل دائماً وأبداً قطعة واحدة!». الأشياء الوحيدة المفقودة كانت النساء، إذ لم تأت أية امرأة على الإطلاق إلى منزل الدكتور كورتبوس.

التقط كورتبوس كلّ تجعيذة وكلّ مسام، كلّ ندبة وكلّ غمّازة، ورسم منطقتي العينين لكلّ رأس على حدة، بعد أن يملأ صفحات من الورق بملاحظات مفصلة واسكتشات بالألوان المائية. عندما تؤخذ طبعة للرأس، لا بدّ من إغماض العينين توخيّاً للسلامة، لكن لا بدّ من فتحهما مجدداً بعد أن يكتمل الرأس الشمعيّ، كي يبدو حيّاً. صمّم كورتبوس تلك العيون المفتوحة بناء على ملاحظاته ورسوماته، وأضافها على الرأس بعد الانتهاء منه. مع كلّ شخص جديد، لاحظت أنّ وجه كورتبوس نفسه بدأ يتغيّر. لقد بذل جهده بتقليد ملامح كلّ أولئك الغرباء، بتقليد صور تلك الوجوه الجديدة، بتشربها كما يفعل الشمع.

بدأ أهالي بيرن باستكشاف ويلسيرستراس، وبحثت عنه عرباتهم، لكن أحدهم لم يكن سعيداً بهذا العمل الجديد: الجراح هوفمان، الذي رأى تأثير رأسه الشمعيّ يتضاءل بفعل تلك الرؤوس الجديدة، وخشي من أنّ المستشفى سيخسر صانع نماذجه التشريحيّة، فتملّل متشككاً. ما يقوم به كورتبوس الآن، حدّرتنا هوفمان، لا يُعدّ علماً إلّا بالكاد، وإن تابع هذه الممارسة الغريبة - التي لا يمكن أن نعدها سوى مجرد نشاط جانبيّ، فقط لا أكثر - فلن يحصل على دعم مستشفى بيرن بعد الآن. بالفعل، سرعان ما قُطعت أجور الدكتور كورتبوس.

في تلك الليلة، عندما جلسنا إلى المائدة، ألقى كورتبوس خطاباً استثنائياً على الرغم من أنّه أطرق برأسه وهو يتكلّم، كأنّه يخاطب صحن الحساء، لكنني حسبت نفسي - وليس البطاطا والبصل والمرق - المستمعة.

«جعلني هوفمان أصنع النماذج، لا من أجل تعليم من سيصبحون جراحين في المستقبل فحسب» بدأ الكلام، «بل بغية تثقيف الناس أيضاً. نماذج صغيرة للأمراض. لطالما استدعاني كي آخذ طبعة من أحد أجنحة المستشفى، كي أجلس بالقرب من قرحات السفلس على وجه صبي يافع، كي أصنع نسخة للسان امرأة متفسخ، أو لرجل فقد أنفه بسبب مرض ما. في كل مرة، بعد أن أصنع تلك النماذج الصغيرة، يطلب مني أن آخذها من شارع إلى شارع، وأن أعرضها على أهالي بيرن. يفترض بي أن أقول: هذا هو الجدرى، احذروه. أو: هذا مثال عن السفلس، وذاك مثال عن التسمم الكحولى، وهذا الضرر ناجم عن الأفيون. انتبهوا!».

صمت قليلاً، تجشأً، ثم تابع كلامه.

«كان ذلك هو عملي، ولا يُعدّ مفيداً لتشكيل علاقات، لأنه يقصيك عن جميع من حولك. القدوم إلى عتبة منزل شخص ما بعمل كهذا، يدمر السعادة بداخله. لقد طردني الناس! بكيث، واشتكيث للجراح هوفمان، فأعفاني في نهاية المطاف من الزيارات المنزلية. من ثم، بقيتُ بداخل منزلي ولم أعد أرى أحداً، لكنني أشتاق للناس! في النهاية، سمح لي بتوظيف خدم، على الرغم من أن ذلك لم يحظَ برضاه، فجئت أنت إليّ، وغادرت أملك المسكينة».

«لكنني لم أعد وحيداً الآن، بل مرحّب بي. الناس يأتون إليّ، إنهم ينظرون إليّ، وعلى الرغم من أنهم لا يصافحونني أبداً لكنهم ينظرون إليّ. لقد كنتُ وحيداً، ليلاً ونهاراً، مع الموت، مع الأشياء الميتة، لكن الحياة تأتي الآن إلى بابي، وأنا أقول لها: ادخلي، ادخلي، لقد غبت طويلاً، مرحباً بك، مرحباً بك في منزلي! وهذه الحياة الجديدة تعجبني! ولكن الآن يا ماري، أعلن الجراح هوفمان أنه لن يسمح بذلك! حسناً، الجراح هوفمان لا يفهم! لم أعد إلى الوراء! لن أعود! الكلية لديها كلية أخرى بجوارها دوماً، لكنني كنتُ وحيداً بمفردي كالزائدة الدودية، وهذا انتهى بسببك».

انتهى من حسائه، فأخذتُ الطبق الفارغ.

«شكراً لك، يا سيدي»

«أجل»، قال، ولم ير ابتسامتي.

الفصل السابع

هناك، توجد مدينة بعيدة

كسب الدكتور كورتيوس من صنع الرؤوس الشمعية ما يكفيه للاستمرار فحسب، بعد أن قطع المستشفى أجوره. ألقى نظرة على الخزائن، تأكد من وجود المستلزمات الضرورية ومخزون كافٍ من الشمع، واستمر بصناعة الرؤوس فقط، وبتلقي الفواتير: فواتير الإيجار، فواتير المستلزمات، وأخيراً رسائل تطالبه بإعادة رواتب عدّة أشهر إلى المستشفى، بما أنّه كان يعمل في الشهور الماضية على ما يبدو لحسابه الخاص وليس من أجل المشفى.

ذات يوم، استقبل كورتيوس زائرين أجنبيّين. استرقتُ النظر من ثقب المفتاح، وتأكدتُ أنّهما ليسا من المستشفى، وعندها أدخلتهما قائلة: «رجاء، من هنا أيّها السيّدان». أحدهما يرتدي بزّة رمادية، أمّا الآخر فيرتدي بزّة بيضاء، وكلاهما مقطوعاً الأنفاس. ذاك الذي يلبس البزّة البيضاء يحمل دفترًا وريشة وزجاجة حبر صغيرة مسدودة، جاكيتته ملطّخ ببقع زرقاء، أنفه ضخّم للغاية، وذقنه صغيرة جدًّا.

«لقد سمعنا بك» قال لكورتيوس بلغة ألمانيّة جيّدة، لكن من الواضح أنّه أجنبيّ. «أنت مشهور هنا نوعاً ما. تسنّى لنا بعض الوقت، ولذلك أتينا كي نرى أنفسنا»، أضاف.

دعا كورتيوس الرجلين لرؤية الرؤوس الشمعية، الموضوعّة على الرفّ بانتظار أن يستلمها أصحابها. ألقى الرجل ذو البزّة البيضاء نظرة خاطفة عليها، ثمّ جلس بلا استئذان وبدأ بتقليب أوراق دفتره، أمّا الرجل ذو البزّة الرماديّة فاستغرق وقتاً أطول، وتفحصّ الرؤوس بعينه السوداوين عن كثب.

«أنت تشبهين مواطني بيرن» قال بصوت خافت للرؤوس، «أنا أعرفك، أنا أسمعك تتهامسين في ردهاتك الصغيرة، إنه ذلك الصوت المُهْسِس الذي يصدر عنك: غاز الكلمات. أنا أشعر بعدم رضاك».

أدار ظهره للرؤوس، وقف دون حراك للحظة، ثم انحنى واضعاً رأسه بين يديه كأنه يعاني ألماً ما، وتأوّه بصوت خافت: «أين أحظى بالقليل من السلام؟!». تناول نبتة ذابلة من إحدى جيوبه، وتفحصها وقد هدا الآن، ثم غمغم بينه وبين نفسه: «بيكريس هيراشيداس»⁽¹⁾، هاتان الكلمتان تهذّثانه على ما يبدو!

الرجل ذو البزة البيضاء، ظناً منه أنني أزعج ذا البزة الرمادية، طلب منّي الابتعاد عنه: «دعيه وشأنه أيتها الطفلة البشعة، وتعالى إليّ. إنه لا يفهم الأطفال، لقد أنجب أطفالاً من صلبه، لكنّه أرسلهم بعيداً، أمّا أنا فأفهمك أفضل. بوسعي مثلاً أن أحزر أنك ترغبين بمعرفة ماذا أكتب بهذه السرعة المحمومة، أليس كذلك؟ بالطبع ترغبين بهذا! حسناً إذن، ما دمت مصرة، سأخبرك. أنا أتذكر نزّهاتي، ولقد تذكّرت إحداها لتوي. أنا أجمع نزّهات حياتي. يسألني البعض إن كنت قد مشيتُ بعيداً بما يكفي، كي يصبح هذا النشاط جديراً بالتقدير، لكنني أجيبهم أن الأمر لا يتعلق بالمسافة التي تقطعينها، بل بمقدار حرصك على المشي. صدّقيني، لقد مشيتُ كثيراً. بالطبع، لن ترغبي بمعرفة أين مشيتُ، أليس كذلك أيتها الجريئة الصغيرة؟». هكذا لقّبتني: الجريئة الصغيرة، من ثمّ تابع الكلام سعيداً للغاية بملاحظته، وغير آبه بردّ فعلي ولا بكيف سأستقبل كلماته هذه: «يا مشوّهة الوجه الصغيرة، يا وحشاً قاصراً بفستان طفلة... أنت شيء صغير... عواء صغير... فئات لحم بارز صغير... تعليق صغير على البشرية... صغيرة... صغيرة؟!» اختتم كلامه، غير متأكد في النهاية ممّا أنا عليه، بل أنني فقط «صغيرة»⁽²⁾، شيء ما صغير.

-
- 1 - picris hieracioides: الاسم العلميّ اللَّاتيني لنبتة «المُرير الشوكي»، وهي نبتة تنمو على مدار العامّ في مختلف القارّات، ذات أزهار صفراء صغيرة. المترجمة
- 2 - يستخدم الكاتب مفردة «صغيرة» على امتداد الرواية كاسم علم عندما يشير إلى البطلة، وليس كصفة. المترجمة

حكَّ أنفه الحادّ، ونظر إلى حذائه. عندها لاحظتُ للمرّة الأولى أنّ قدميه ملفوفتان بأكياس قماشية مربوطة عند الكاحل، وأنّ حذاءه الحقيقي لا يظهر للعيان. فكَّ الأكياس، وأخرج قدميه منها كاشفاً عن حذائه: حذاء رجاليّ عاديّ من الجلد الأسود، مهترئ في بعض المواضع، إبرزيمه فضيّ. «هالِكُ!» قال وهو يخلع إحدى الفردتين، وناولني إياها. «شمّوها، شمّوها بأنفِكِ هذا».

شممتُ الحذاء، نتن!

«هل تعرفين ما هي هذه الرائحة؟»، سألني.



«هل هي» أجبتُ متردّدة، لأنّ الرجل لم يكن لطيفاً معي، «رائحة قدم متعفّنة؟!».

«باريس» قال، «إنّها باريس».

وهكذا تعرّفتُ على المدينة للمرّة الأولى.

«باريس»، قلتُ.

«لقد رسمتُ باريس بحذائي هذا» تابع الرجل، «فوق جسر بونت نوف، على امتداد شارع رو سان أنطوان، وإلى الأزقة الخلفية الصغيرة. لقد مشى بي حذائي عبر العديد من الشوارع المختلفة، وكتبْتُ عمّا أراه، دوّنته كلّها».

تجاهلتُ النُصب التذكاريّة، والكنائس العظيمة، والمباني التاريخيّة. أنا أتحدّث عن الناس، المبتهجين واليائسين، وأولئك ما بين-بين. أنا أعرفهم جميعهم، أراهم في نزّهاتي وتشملهم ملاحظاتي. افتحي أيّاً من دفاتري، في أيّة صفحة، وسوف تشمين وتسمعين الرائحة القذرة الفظيعة وضجّة باريس. اقريّ أيّة جملة، وستمشين إلى جوارِي وسط ذلك كلّهُ. لقد رأيتهُم بهذا الحذاء: الموسوعيّون المرهقون، نوابغ الكيمياء، مبعوثو الأكاديميّة الفرنسيّة، ممثلون من كوميدي-فرانسيز ومن الأوبرا، أراجوزات من البوليفارات، إسكافيتون بارعون، صانعو الشّعْر المستعار التزقون، حمّالو الشوارع المفلسون، أطباء الأسنان الذين يبالغون بالدقّة دونما داع، أطباء جاهلون، جامعو الخردة، قابلات، مجانيّين، نشالون، أولئك الذين تغطّيهم الندبات وأولئك الذين تغطّي المساحيق وجوههم، ذوو الأصول الملكيّة وأولئك الوضيعون... كلّ مكوّنات حساء باريس الكثيف!».

بدت لي باريس مكاناً مزدحماً إلى درجة لا تُعقل!

«نحن ثالث لا ينقسم» تابع الرجل كلامه، «فردة حذائي اليمني، فردة حذائي اليسرى، وأنا. لقد مشينا معاً عبر الأهوال، ودُسنا على تلك الأشياء. سقطنا أحياناً، نقرّ بذلك، لكننا نهض دوماً».

حملني وأجلسني في حضنه، لم يعجبني ذلك. حضنه لا يلائمني، وملمس فخذه لا يبعث على السرور. كورتبوس، الذي يتظاهر أنه مشغول عند طاولته، كاد يوقع من يده سكّيناً كبيرة تُستخدَم في جراحة الساق.

«لماذا تلبس هذه الأكياس، يا سيّد؟»، سألتُهُ.

«لأنّني لن أسمح أبداً لحذائي، أن يلامس شوارع مبتذلة كشوارع بيرن. أنا أتوه في أيّ مكان خارج باريس، لكن في باريس... يمكنك أن تعصبي عينيّ، وأن تجعليني أدور على نفسي من ثمّ تضعيني في أيّ مكان هناك، وسأعرف مباشرة في أيّ حيّ من أحيائها الستة عشر أنا موجود... وليس هذا فقط، بل سأعرف في أيّ شارع أيضاً، بل وحتىّ أسماء الناس الذين يقطنونه. لقد تركتُ مدينتي -وهذا أمر رهيب بالنسبة لي!- كي أزور ذاك الرجل الذي أزعجته. إنّه في المنفى الآن، مُنِعت كتبه في باريس، وأُحرقت في جنيف».

التفتُ صوب الرجل الآخر، الذي ما يزال مشغولاً بتأمل نبتته. هل هذا هو، فكّرتُ، رجلٌ يؤلف الكتب؟ كتب تسيء للناس؟! «إنّها خادمتي» قال كورتيوس أخيراً، فانزلتُ بسعادة عن حضن الرجل، ووقفتُ بجوار طاولة سيّدي.

أشار الرجل ذو البزة البيضاء إلى الرؤوس الشمعية، وقال: «كلّها معاً، مع ذلك، ستقرّ بهذا، لا ترقى إلى الكثير. لا يتعلّق الأمر بعملك، وهو مقبول تماماً، بل إنّ شخصيّاته هي التي تجعلني في حيرة من أمري. كان بوسعك أن تنتقي أيّ شخص من أيّ شارع في بيرن، وأن تدّعي أنه شخصٌ ما جدير بالانتباه، شخص يجب أن يصطفّ الناس لرؤيته ويحتشدوا حوله، لكنّه ببساطة من العوامّ في حقيقة الأمر».

«أنا لا أفصل شيئاً على آخر أبداً» أجاب كورتيوس، «لا مع أعضاء الجسد ولا مع الرؤوس».

«ربّما يجدر بك ذلك» قال الرجل، «تلزمك وجوه تستحقّ موهبتك، وجوه تتحدّاك. بوسعك أن تستمرّ بنحت التفاهات هنا، لكن فكّر بالتالي: كيف ستتطوّر إن كانت هذه الوجوه باهتة جدّاً، وضيقّة الأفق، ولثيمة، ومغمورة؟ يجب عليك أن تأتي إلى باريس، وأن تجد مكاناً هناك، وعندها ستتحسّن أحوالك. إهدار موهبتك في بيرن، هو مأساة صغيرة! فكّر بالرؤوس التي يمكنك أن تحصل عليها في باريس، أفضل الرؤوس موجودة هناك، وليس هنا. آخ! لا أعتقد أنّك ستأتي، أليس كذلك؟ يا حسرة! لا تبدو لي من النمط الذي يفعل ذلك. حسناً»، من ثمّ اختتم كلامه: «سأعطيك عنواني، فلربّما غيّرت رأيك»، ثمّ مرّق صفحة من دفتره، دوّن عليها اسمه وعنوانه، وكلمة «باريس» مع العديد من الخطوط الحيويّة تحتها. كان اسمه لويس - سباستيان مرسييه.

«وذاك الرجل، مع النبتة» أضاف مرسييه، «سندعوه بمسيو رينو، على الرغم من أنّه ليس اسمه الحقيقيّ. كلاً، سندعوه برينو فحسب، كي لا نلفت الانتباه إليه. والآن، رأسه...» قال مشيراً إلى رينو، «إنّه رأس مميّز، أنا متأكّد من أنّك ستوافقني الرأي. لمعلوماتك، بما أنّك تعجبني، سأهمس

لك بهويته: في غرفتك هذه، يقف أمامك هناك، مؤلف (إميل) و(العقد الاجتماعي). ما قولك؟».

لكننا لم نملك أدنى فكرة لا عن الكتابين، ولا عن هذا الجنتلمان المشهور. «إن جئت إلى باريس» قال مسيو مرسيه عندما لم ترق ردة فعلنا على أخباره إلى المستوى المطلوب، «إن جئت إلى باريس، حيث لا توجد سوى الرؤوس المهمة فقط، لم لا تزورني؟ أود أن أضيفك إلى دفتري، ولكنني لا أستطيع ذلك، لأنك -يا حسرة!- تنحدر من بيرن. ولكنك عازب، أقر بذلك، وحيد مع رؤوسك ومع خادمك الطفلة ذات الوجه الوقح».

«كل الرؤوس الجيدة موجودة في باريس؟!»، سأل كورتيوس مصدوماً. «في باريس، دون سواها» أجاب مسيو مرسيه وهو يهز رأسه مبتسماً. «تعال يا رينو العزيز، فاسمك هو رينو اليوم، علينا أن نغادر»، ثم التفت صوبنا وشرح لنا: «إنهم يلاحقونا في المدينة، ووجدنا أنفسنا قريبين من شارعك فقررنا أن نزورك لبرهة. أما الآن، فلا بد أن الوضع آمن كي نتابع طريقنا. نشكرك على وقتك».

واكبهما كورتيوس إلى الباب، وصافح يد مرسيه النشيطة (قدماه مغلفتان كلياً الآن بالأكياس)، وانحنى أمام المؤلف المنزعج، الذي أشاح ببصره عنه. لم أعط تلك الزيارة أية أهمية.

الفصل الثامن

وهو فصل يدعو للقلق

عاد الجرّاح هوفمان أخيراً بإنذارٍ نهائيٍّ، وغيوم سوداء. عمّا قريب، قال لكورتبوس، بل قبل أن ينتهي الأسبوع في الحقيقة، سيأتي مأمور المحكمة إلى هنا، وسيحجز مستشفى بيرن على كلّ ممتلكات كورتبوس، إلّا إن تمكّن من تسديد ديونه التي لا يستهان بها على الفور. لقد دمّر كورتبوس نفسه، قال هوفمان، وهو يغرق في ديونه، لكن ثمة فرصة واحدة مع ذلك، أملٌ وحيد: قد يتمكّن هوفمان من إنقاذه، هوفمان الذي وصف نفسه أنه رجل طيّب، وأنه صديق كورتبوس الوحيد، تدبّر له غرفة في مستشفى بيرن نفسه، بحيث يبقى كورتبوس في حرم ذلك البناء الصخريّ العملاق المظلم، ويستعين به. سيعتنون به، سيراقبونه، وبوسعه أن يعمل على نماذجه التشريحية من دون أن يشغله أيّ شيء عنها. باختصار، يمكنه كما قال هوفمان أن يكون سعيداً. «هل أنا في ورطة؟!» سأل كورتبوس، «هل أنا واقع في ورطة كبرى؟!». «أجل في الحقيقة يا فيليب، أخشى أنّك كذلك».

«لا أحبّ أن أقع في ورطة! لا يعجبني هذا بتاتاً. أنا قلق، يا جرّاح هوفمان، قلق وخائف أيضاً»

«ليس من الجيّد بالنسبة لك يا فيليب، أن تحمل الكثير من الهموم» ردّ الجرّاح، «دعني أخلصك منها. لم تُخلّق كي تقارع مشاكل العالم، بل كي يعتني أحدهم بك، شخص مثلك تلزمه الحماية دائماً. تعال إلى المستشفى، لقد خصّصت لك لتويّ غرفة هناك. سنقدّم لك وجبات الطعام يومياً،

وستتولّى العناية بكلّ أمورك، ولن تقلق بعد اليوم. لن تغرق في مشاكلك المالية مجدّداً، ولن تلزمك النقود أصلاً بما أنّ المستشفى سيزودك بجميع احتياجاتك. سأحرص على راحتك بنفسى، وأنا فقط من سيعطيك التعليمات بشأن واجباتك، وسأبقى مشغولاً دائماً بروح الجراحة. لذلك، يا فيليب، كن عاقلاً بينما ما يزال بإمكانى مساعدتك. إن رفضت، أخشى أنّ الناس سيأتون إليك وسيرمونك في السجن».

«السجن؟!»، شهق كورتىوس.

«بسبب السرقة من المستشفى. ما فعلته مخالفٌ للقانون»

«لم أكن أعرف ذلك! لم أكن أعلم!»

«لكنك ستكون بأمان يا فيليب، بين جدران المستشفى. فليقّ العالم خلف تلك الجدران، ليفعل ما يشاء، لكنك ستكون آمناً بداخلها»

«سأكون آمناً؟»

«أجل، حقّاً»

«وأصنع النماذج؟»

«بالطبع»

«وليس الرؤوس؟»

«أحياناً، ربّما ستصنع الرؤوس، ما يوجد في باطن الرؤوس»

«ولكنني لا أريد الباطن بعد اليوم، إنّه يثقل عليّ، ما في الباطن يثقل عليّ، ويغيّرني» قال كورتىوس، «أنا أسعد أكثر بصناعة الرؤوس».

«فيليب! هل أنت سعيد الآن؟»

«كلّا، كلّا. ينبغي أن أقرّ أنني لستُ كذلك»

«وهذا لأنك كنتَ تصنع الرؤوس! هذا هو السبب الوحيد في تعاستك حالياً»

«وخادمتي؟ هل ستأتي معي؟ هل ستنضمّ إليّ في تلك الغرفة المخصّصة لي؟»

«هذا الأمر غير مشمول بصلاحيّات المستشفى في الحقيقة، فضلاً عن أنّك لن تحتاج إلى خادمة، بما أنّنا سنقدّم لك كلّ شيء. في نهاية المطاف،

أنت غير قادر على تحمّل أجور خادمة، أليس كذلك؟ لكنني هنا كي
أساعدك، يمكننا أن نجد لها عملاً في قسم الغسيل»
«بين كلّ تلك الملاءات الموبوءة؟! بين كلّ تلك الأمراض?!»، غمغم
سيّدي.

«هل ستأتي الآن يا فيليب؟» سأل الجراح، «أعتقد أنه يجدر بك ذلك».

«حسناً إذن. أجل، قسم الغسيل»

«سيّدي؟ سيّدي؟»، توسّلت له.

«باريس!»، همس كورتيوس.

«هل قلت شيئاً؟!»، سأل هوفمان.

«كلّا على الإطلاق» أجاب سيّدي، «أيّها الجراح هوفمان، هل أستطيع...
هل يمكنكم أن تسمحوا لي ببعض الوقت، كي أجمع حاجياتي بمفردي؟
أنا شخص دقيق جدّاً، وأحبّ أن أقوم بالأمر كما ينبغي بالضبط، وحيداً
بسلام. سيستغرق الأمر منّي أسبوعاً، كما أعتقد».

«جيد جدّاً، سأرسل الحمالين بعد أسبوع. أحسنت فيليب، أنت عاقل.
لكان والدك فخوراً بك!»

وبذلك غادر الجراح، ولم أره بعد ذلك قطّ.

«أنا شجاع جدّاً الآن»، همس كورتيوس ما إن أغلق الباب. «أنا لستُ
خائفاً بتاتاً، لا يمكنك أن تخيفني أيّها الجراح هوفمان! حسناً، حسناً،
يمكنك ذلك. في الواقع، أنت تخيفني!»، قال موجّهاً كلامه للباب المغلق.
«أنا خائف جدّاً، ولكنني انتهيتُ منك ومن بيرن، هذا المكان الباهت الضيق
الأفق، اللثيم، والمغمور. لا توجد رؤوس جيّدة هنا، بتاتاً، ولا حتّى رأسك
يا جراح هوفمان!».

صعد كورتيوس إلى العلّية، وبدأ بتوضيب أدواته.

«هل أستطيع أن أساعدك يا سيّدي؟»، سألتُ.

لم يعجبني

«سيّدي؟» قلتُ، «ما الذي يجري؟!».

«باريس يا ماري» قال، «باريس!».

لم يقل شيئاً عن ذهابي معه، لم يقل شيئاً على الإطلاق!
 «هل سأرافك؟» سألتُه، «بوسعي أن أشعل الموقد، أنا أعرف أسماء
 معظم الأشياء، أستطيع أن أدهن الزيتَ على وجوه الناس، أستطيع أن أدسَ
 القصبات في مناخيرهم، بوسعي أن أقوم بذلك كله، وأن أتعلّم المزيد أيضاً
 مع مرور الوقت. من فضلك يا سيّدي، خذني معك رجاءً!».

توقّف كورتيوس عمّا كان يقوم به، رفعني ووضعني فوق الطاولة، ثمّ
 قرفص بحيث أصبح رأسه بمستوى رأسي. «لقد حصل شيء ما!» قال
 والدموع تنساب من عينيه، «ألم تلاحظي ذلك؟! لقد حصل شيء استثنائي!
 كما يلتحم عظم الكعبرة الصغير بعظم الزند الأطول⁽¹⁾، كما يلتحم الشظيّة
 بالظنوب⁽²⁾، نحن مرتبطان معاً، أنا وأنتِ».

«سيّدي؟!»

«لن أذهب من دونك»

«شكراً لك يا سيّدي! شكراً لك!»

«كلّاً، كلّاً، الشكر لك أنت»



1- عظم الساعد. المترجمة

2- عظم الساق. المترجمة

إلى باريس إذن! إلى باريس، معاً! ولكن... كيف سيتحقق ذلك؟!

للذهاب إلى باريس، عليك أن تكون شجاعاً. كي تكون شجاعاً، عليك أن تباع بعض الأشياء للحصول على مال: باع كورتيوس بعضاً من أدوات والده لقاء مبلغ جيد، واثنين من كتبه. كي تكون شجاعاً جداً، يجب أن تكون مستعداً للقول مراراً وتكراراً: باريس، باريس، باريس! كي تكون شجاعاً جداً جداً، عليك أن تأخذ أوراقك، وتطوي أوراق أمك الميتة بأناقة بعيداً. كي تتشجع، بوسعك أن تتمسك بعظام بشرية، أو بقطع من الشمع المنحوت.

«يساعد الشمع أولئك الأشخاص الذين يعانون» قال لي كورتيوس وهو يعطيني لهاء من الشمع، «من المتعارف عليه في بعض البلدان الكاثوليكية، أنه إن عانى الشخص -أو أحد أقاربه- من ألم حاد في أي جزء من جسده، بوسعه أن يشتري نموذجاً مصغراً مصنوعاً من الشمع للجزء الذي يؤلمه. يا حسرة! إنها نماذج رديئة، لكن المبدأ لا يتغير، ولا يمكننا إنكار المادة المصنوعة منها. سيضعها على المذبح الصحيح في الكنيسة، بحيث يتمكن الرب من تحديد موضع ألم ذلك الشخص، كي يزيله ويشفيه. وهكذا، الشمع يساعد الجرحى».

دفع كورتيوس نفسه ببطء، جرّ نفسه خارج شارع ويلسيرستراس، وذهب كي يحجز مقعدين للرحلة. تقياً بعد ذلك، عند زاوية الشارع تقريباً، ولطخ جاكيتة قليلاً، لكن ذلك انتهى. وضعتُ مارتا، وصفيحة فك أبي، وملابسي القليلة في صندوق جدي مع بعض الضروريات الأخرى، لكنها لم تملأه بالكامل. وضّب كورتيوس رأسي الشمعي بعناية فائقة، «سنحتاجه» قال لي، «كي نتباهى بأنفسنا». وضّب ما بقي من أدواته وأجهزته وكتبه التي لم يبيعها، وحزمها في حقيبة أدوات أبيه القديمة، المصنوعة من جلد متجعد.

غادرنا المنزل الصغير في ويلسيرستراس، بصحبة اثنين من حمالي المستشفى. أعطاهما كورتيوس مفتاح المنزل، وقال لهما إننا ذاهبان كي نتمشى، ومن ثمّ ستتوجّه إلى المستشفى. «نتمشيان مع صندوق؟!»، سألاه. «آه! أجل»، أجاب كورتيوس متردداً، «إنّه خفيف للغاية. إلى المشفى». «سنحمله نحن» قالاً، «ضعه أرضاً». «إنّه ليس ثقيلاً على الإطلاق، لا

يزعجني» قال كورتيوس، «إنه ليس عبثاً أبداً. إن جلبتما أثاثي، طاولتي ورفوف كتيبي، ستكون تلك مساعدة عظيمة!». تلك الأغراض كما أخبرني، ستكون كافية لسداد ديونه ما إن يغادر. «ولكن تلك القطع الشمعية»، أعطى تعليماته للحمالين متحسراً، «كونا حريصين عند التعامل معها رجاءً. إنها في غاية الجمال، وأنا حزين للغاية لفراقها... ولو مؤقتاً».

غادرنا المنزل، وأمامنا كما افترض كورتيوس بضع ساعات قبل أن يكتشف أحد هروينا. توجهنا مباشرة إلى الفندق، حيث تقلّ العربّة الركاب من أمامه. آه كم تأخرت! وكيف أطرق كورتيوس برأسه طيلة الوقت! أخيراً، صدى بوقها، وأخذوا منا صندوق أمي وحقيبة كورتيوس الجلدية، وصعدنا إلى سطحها حيث مقعدانا. تحرّكت الخيول في نهاية المطاف، وبكى كورتيوس مجدداً.

بعد نصف ساعة، خرجنا من بوابات المدينة. وداعاً يا أمي المتوفاة، أنا أنطلق إلى العالم كما فعل والدي من قبل، إلى تلك الأماكن المجهولة، حيث يمكن -من بين احتمالات أخرى- أن يُنتزع فكّك منك.

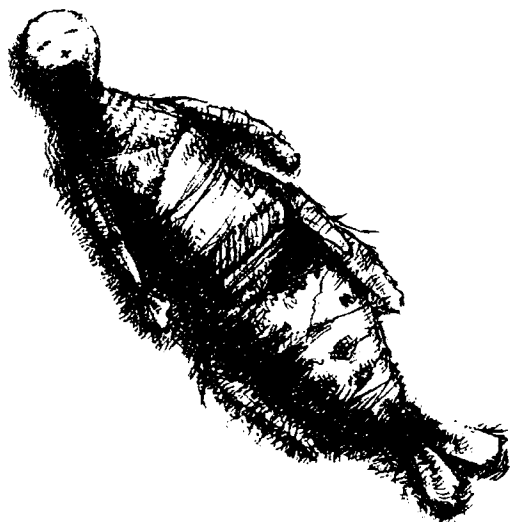
أصبحت بيرن أبعد فأبعد خلفنا
لن أعود إليها أبداً.

الكتاب الثاني

1771-1769

عالمُ خيَّاطٍ ميت

إلى أن بلغتُ العاشرة من عمري



الفصل التاسع

أحدث الأطفال

بقي الدكتور كورتىوس صامتاً تماماً خلال معظم الرحلة، لفّ نفسه بمعطفه، وتحاشى جاهداً النظر إلى ما حوله. في نوشاتل، بدّل كلّ ما يحمله من «التالر» - العملة المستخدمة في مدينة بيرن - إلى الليرات الفرنسيّة. بدّلنا العربّة قبل أن نعبر إلى فرنسا، وتوقّفنا لقضاء الليل في مدينة ديجون. بما أنّ الغرفة الصغيرة التي استأجرها كورتىوس لا تضمّ سوى سرير واحد، لذلك نمّط في أسفله، بينما طوى سيّدي ركبتيه إلى صدره، لكنّه حاول تلقائياً وهو نائم أن يمدّ ساقيه مراراً. أنا، مستيقظة ومنزعجة، رأيتُ قدميه الضخمتين تندفعان نحوي كسفيتين، وتثيران أمواجاً في الملاءة. في الليلة التالية في أوكسير، تكلم سيّدي في نومه، وعدّد أسماء أعضاء الجسد. أخيراً، وصلنا في اليوم التالي.

في البداية، كانت باريس بالنسبة لي عبارة عن رائحة، رائحة ننتة، تعشّش على الفردة اليسرى لحذاء جنتلمان يدعى لويس - سباستيان مرسيه. من ثمّ، ونحن نقترّب من المدينة الحقيقيّة على سطح العربّة، بدت باريس ضباباً عظيماً وسخاً أصفر اللون يلوح من بعيد، قرحةً في السماء تكسر الهواء الشتويّ، شيئاً ما ضخماً، بعيداً عن مرمى البصر، يتنفّس.

أصبح كلّ شيء أقتمّ فأقتمّ كلّما اقتربنا من باريس، ظلال من الأوساخ تتراكم في الهواء. أخيراً، وصلنا إلى بوابات الجمارك عند حدود المدينة، أمامنا مباشرة الآن حاجز يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً، على شكل قوس ضخّم حصين. ظهر رجال الجمارك، أشخاص بمعاطف خضراء لا تبدو عليهم

السعادة، وطلبوا منا بفظاظة أن نترجل، ثم فتشت أيديهم الباردة أجسادنا. أنزلت كلّ الحقائق والصناديق عن العرب، وفتحت وتمّ تفتيشها أيضاً. همس كورتبوس أنه سيموت على الأرجح في أية لحظة الآن، بينما ارتجفت خوفاً من أننا قد نفصل، فكيف لي أن أعثر عليه لو حصل ذلك حقاً؟! فحص رجال الجمارك كلّ شيء، وانتقل رأسي الشمعي الذي صنعه كورتبوس من يد إلى يد، هزّوه، وأعلنوا أخيراً على مضض أنه لا يخالف القانون. خُتِمَت أوراقنا، وأشاروا لنا بمتابعة طريقنا. مرّت العرب من تحت القوس، من ثمّ ببناء رماديّ ضخّم بائس، عرفتُ فيما بعد أنه قلعة السجن التي تسمّى الباستيل.

عادت إليّ رائحة المدينة، وأنا أحصي عدد البيوت المائلة البيضاء. في البداية، افترضتُ أنها الرائحة ذاتها التي عشت في فردة حذاء مسيو مرسيه اليسرى، لكنها أقوى هنا عند مصدرها فحسب. ظننتُ أنها ستخفني! تدافع الناس حول العرب واختفوا، باريستون يغطّيهم الوحل كالشوارع تحتنا، يزعمون بأعلى أصواتهم. أخيراً، وصلنا إلى ساحة كبيرة، ونُصِبَ سلّمٌ على جانب العرب كي ينزل المسافرون عن سطحها، فنزل كورتبوس متقلّلاً عاجزاً لوهلة عن شدّ ظهره، كما كان أسفل جسده مصاباً بالخدر الشديد. نزلت بعده، ووطئت قدماي اللتان يبلغ عمرهما ثماني سنوات مدينة باريس للمرة الأولى، واتّسختا بسببها منذ تلك الخطوات الأولى. بقيت ملتصقة بكورتبوس، وتشبّثتُ بجزء من ملابسه.

«إذن» همس كورتبوس عندما استعاد أنفاسه أخيراً، «مرحباً يا باريس، أنا كورتبوس، فيليب ويلييلم ماتياس. أنا هنا، أنا هنا!». نظر إليّ طالباً موافقتي، ثمّ أضاف: «ها نحن أولاء، يا ماري».

«باريس!»، قلتُ.

استمرت باريس من دون دهشة ظاهرة. «هذا هو العنوان» قال كورتبوس وهو يتناول من جيبه قصاصة الورق المكرّمة، التي دوّن عليها مرسيه عنوانه.

اصطدم الناس بنا، إنهم معرض كامل من الوجوه الباريسيّة، لكن ليس فيها ولو وجه واحد لطيف. أنوف حمراء، عيون صفراء، أسنان بنيّة، شعر

مستعار، رؤوس حليقة، ذكور، إناث، تجاعيد، بلا تجاعيد... جميعهم مشغولون، وكلّهم يحسبوننا عقبة في طريقهم. تمكّن كورتيس أخيراً من عرض عنوان مرسية على أحد الحمالين، وهذا الحمال -شاب حزين، شاحب الوجه- أخذ القطع النقدية العديدة التي قدّمها له كورتيس، وهو يتكلّم بنفاد صبر طويلة الوقت، مع أنّي لم أفهم كلمة واحدة ممّا قاله، ووضع متاعنا بسرعة في عربته اليدوية.

أخيراً، عبر الشوارع المزدهمة الهائجة، عثرنا على منزل مرسية. قرع كورتيس الباب بواسطة السقّاطة مطوّلاً، لكن لم يفتح لنا أحد، وغادر الحمال على عجل بعد أن تركنا هناك مع أمتعتنا. جلسنا على الدرج وانتظرنا، انقضت ساعتان، ثم ثلاث ساعات، ثم أربع، وتساءل كورتيس خلالها ماذا يحدث في بيرن الآن؟ وقال إنّ المستشفى ربّما لم يكن مكاناً سيّئاً في نهاية المطاف، وربّما لم يكن قسم الغسيل تعيساً جدّاً بعد كلّ شيء، ليس تعيساً بعد إعادة التفكير، وأنّ من يعملون هناك لا يلتقطون العدوى بالضرورة عند دعك الملاءات الموبوءة. بدوري، تساءلتُ ماذا يحصل للناس هنا إن ناموا في الشارع كيفما اتّفق.

أخيراً، سمعنا صوت حذاء يقترب، ينقر ويقرع، من ثمّ يتوقّف. خاطبنا صوتٌ ما بالفرنسيّة، فرفعتُ رأسي. رأيتُ لويس -سباستيان مرسية منتعلاً حذاءً من دون أكياس قماشية هذه المرّة، كي يراه الجميع، لكنّه مغطّى بالوحل. لحسن الحظّ، تذكّر أنّه يتكلّم اللغة الألمانية.

«بيرن، أليس كذلك؟ ماذا تفعلان هنا؟ هذا منزلي»

«لقد قلتُ لي» أجاب كورتيس، «إنّه لا بدّ لي من القدوم إلى باريس. لقد كانت رحلتنا طويلة، طويلة حقّاً يا سيّدي».

«هل قلتُ ذلك حقّاً؟ كم لطيف أن يصغي الناس! وهل أنت هنا في زيارة لبضعة أيام؟»

«لقد هربتُ يا سيّدي» قال كورتيس، «لن أعود».

«ستبقى فترة طويلة إذن، أليس كذلك؟ هل تريدني أن أكتب عنك؟ ما الذي ستقوم به كي تصبح جديراً بذلك؟»

«سأصنع الرؤوس كما فعلتُ في بيرن. هذا ما سأفعله»

«أجل، فعلتَ، وجئتُ إلى هنا كي تصنع الرؤوس، لكن الرؤوس الباريسيّة هذه المرّة: رؤوس جديدة بذلك. يمكنك على سبيل المثال، أن تفكّر برأسي»

«أنا أفضل الرؤوس بالفعل!»، قال كورتويس.

«هل لديك مكان تقيم فيه؟» سأل مرسيه، فهزّ كورتويس رأسه نافياً. «اسمع نصيحتي، من الأفضل أن تجد مكاناً للسكن» قال مرسيه، «هل تملك ما لا؟».

«أنا أصنع الرؤوس. أنا ماهر بذلك»

«هكذا تقول، كما أنّك أحضرت هذه الطفلة معك... هذا الوجه الصغير المزعج، هذه الملامح الصغيرة الصاخبة»
«ماري، تدعى ماري»

«إنّها تعجّبُ صغير، احتجاج صغير، إهانة صغيرة، شيء ما صغير على أيّ حال. أجل، أنا أفضل (صغيرة). سأسمّيها: صغيرة»
«إنّها لي»
«حقاً؟!»

«آه أجل، بكلّ تأكيد!»

«من الأفضل أن تنجح إذن. لو فشلت، سيصبح لدينا شخصان فاشلان يتضوران جوعاً، وليس شخصاً واحداً فحسب»
«كان لا بدّ لي من إحضارها معي»
«حقاً؟ ربّما كفعل خير، أليس كذلك؟»
«كانت ستموت حتماً في مغسل المستشفى».

هل كنتُ سأموّتُ حقاً، تساءلتُ، مدفونة عميقاً بين الملاءات؟ ولكن، أيّ مستقبل هذا الذي اندفعنا إليه؟ كم يبلغ طول حباله؟
«كانوا سيطعمونها هناك كما أفترض» قال مرسيه، «وسيكون لديها عمل».

«قلتُ لي إنّ عليّ القدوم إلى هنا. ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه»

«أجل، يجب عليك ذلك حتماً»

قال مرسية لكورتوس إنه شخص متهور لكنه شجاع جداً، وإن باريس قد تبدو مكتظة، لكن ثمة ثقب هنا وهناك في الحقيقة، العديد من الثغرات الصغيرة التي لم يشغلها أحد بعد، يمكن لرجل ما أن يعيش فيها مع خادمته، وربما يعيش فيها سعيداً أيضاً، وهذه الأماكن تعلن عن نفسها أحياناً بواسطة قصاصات صغيرة من الورق، تُلصق على الأبواب الأمامية أو على الجدران. عدد مرسية لكورتوس الأمكنة التي يتوافر فيها شاغر للإيجار: بوسعه أن يستأجر غرفة عند دباغ بالقرب من النهر، مع أن المكان سام نوعاً ما، فقد عثروا هناك قبل بضع سنوات على مستأجر ميت في نومه، ذي لون غريب، وهو ما لم يعجب كورتوس بتاتاً. إن أخذنا خلفيته الطبية بعين الاعتبار، اقترح مرسية، فلم لا يفكر بغرفة في الطابق الثاني من دكان حلاق -جراح⁽¹⁾؟ كلاً، أصر كورتوس، لا يريد شيئاً ذا علاقة بالطب. لقد انتهى من تلك المهنة للأبد، وللأسبب ذاته أيضاً، رفض الإقامة مع صانع عقاير، وصانع سكاكين، وتاجر جملة يبيع الأكاسير، ومع حانوتي.

أخيراً، اقترح عليه مرسية استئجار منزل يعود لأرملة خياط، لديها ابن يتدرب على مهنة والده.

«امرأة؟!»، سأل كورتوس؟

«ثمة وفرة من هذه المخلوقات في باريس»

«ولكن... لا علاقة لي بتاتاً بالنساء!»

«وماذا عن صغيرة هنا؟!»

1- خلال تلك الحقبة، لم تكن مهنة الجراحة مخصصة للأطباء وإنما للحلاقين، الذين يقومون بإجراءات متنوعة تتراوح ما بين الفصادة إلى بتر الأطراف والعناية بالجنود المصابين في المعارك، إضافة إلى عملهم المعتاد بقص الشعر والحلاقة. يجدر بالذكر أن الجامعات آنذاك لم تقدم تدريباً في مجال الجراحة، باعتبارها عملاً يدوياً لا يليق بالطبيب. لاحقاً، عندما تحولت الجراحة رسمياً إلى مهنة طبية، ظلت حتى مرحلة متأخرة اختصاصاً من الدرجة الثانية مقارنة مع الطب السريري، لا يرتادها إلا الأطباء الأقل كفاءة. المترجمة

«لا أظنّ أنها تُحتسب كامرأة، أليس كذلك؟ إنَّها ماري فحسب، وهي ليست مخيفة. أحياناً، أنا أنسى كلياً أنَّها أنثى، لا يبدو أنَّها تنتمي إلى جنس واضح في الحقيقة، أو لعلّها تملك جنساً خاصّاً بها: ذكر، أنثى، ماري. إنَّها ماري الخاصّة بي»

كنْتُ له، أعرف ذلك، لا يهمّني أيّ شيء آخر.

«وفي الحقيقة» استتج كورتوس، «صحبتها تكفيني. كلّاً، لا علاقة لي بجنس النساء، كلّاً».

«هل تريد منّي أن أساعدك؟» سأله مرسيه، «أم أدخل إلى منزلي الآن وأغلق الباب؟».

«أجل أجل، من فضلك، أحتاج إلى مساعدتك. امرأة! إذن، فليكن. امرأة!»
«أرملة خياط»

«حسناً، ها نحن أولاء. أجل»

«جيد. لقد حُسِّمَت المسألة. سأنادي عربية»

«آه يا إلهي!»

«الحياة» شرح مرسيه، «بوسعك القول إنّ حياتك ستبدأ الآن وقد وجدت باريس، ما مرّ منها قبل ذلك لا يُحتسب. انظرا إليكما، أنتما أحدث طفلين في متجر ألعاب مكتظّ. أنا واثق من أنكما لا تفهمان ما فيه بعد، ولا رفاق اللعّب. حسناً، ثمّة متسع من الوقت لذلك. هيّا، لننطلق».

عثرنا على عربية أخرى، ودفع كورتوس المزيد من المال. قادنا مرسيه عبر الطرقات المتعرّجة، إلى أن وصلنا أخيراً إلى العنوان المنشود.

في مكان ما في منتصف شارع «رودو بتي موان» الضيّق، في فوبور سان مارسيل، ثمّة منزل كثيب، وألواح خشبيّة معلّقة بأسلاك صدئة كُتِبَتْ عليها كلمة ما. كلمة هذا المنزل كانت: TAILLEUR (خياط). ثمّة موادّ سوداء دهنيّة معلّقة في جميع النوافذ، التي تلفّها العتمة كلّها. لقد مات خياط هنا. اتّجه مرسيه إلى الباب، وعندما فتحه رنّ جرس معلّق به مرّتين. إنَّها ضجّة صاخبة وسط هذا السكون، صوت حزين، رتّان أليمتان، كأنَّهما تقولان:

هذا. مؤلم. سأتعرف إلى هذا الجرس، وإلى لسانه المبقّع المتكلّس، كأنهما
توأمان من الحصيات الكلوية التي جمعها كورتيس في بيرن.



أخيراً، جاء شخص ما إلى الباب. صبيّ لا يتمتّع بملامح مميزة، وجهه
أبيض شاحب، ولا بدّ أنّه ابن الأرملة. تحدّث معه مرسيه، وبعد لحظة هزّ
الصبيّ وجهه العاديّ هزة لا تكاد تُذكر، من ثمّ استدار ودخل إلى العتبة
مجدّداً، فتبعناه إلى الردهة. لقد خنق الأسى المنزل، لا صوت فيه، فقط
الحفيف الخافت الصادر عن ملابس مرسيه وهو يسير للأمام، بينما كان
حذاؤه صامتاً فوق الأرض المغطّاة. المنزل معتم ومتعقّن، كلّ الأغراض
فيه مغطّاة - فليست نوافذه فقط ما تغطّيها تلك المادّة السوداء - ولا يمكن
العثور على زاوية عارية في المكان كلّّه. مشينا عبر الغرف إلى الخلف،
متلمّسين طريقنا على طول الجدران القاتمة، إلى أن وصلنا إلى حيث تلقى
شمعة واحدة بضوئها الهزيل على العديد من حزم القماش القاتم. عندما
تقدّم الصبيّ من إحدى أكوام القماش، تحرّكت تلك الكومة قليلاً، وامتدّت
منها يدٌ لامست الصبيّ الباهت بحنان، فاكشفتُ أنه نادى تلك الكومة
بـ «أمّي» على الأرجح، وأن ما يوجد بداخل هذه الكومة تحديداً هو أنثى
بشرية، أرملة، التفتت صوبنا الآن.

شارلوت بيكو الأرملة. تغطّي رأسها بقلنسوة سوداء ضخمة، وجهها

محشور بداخل قماش الحِداد القاسي، لكنّ خصلتين من شعرها تمرّدتا وتسلّتا كي توطّرا وجتتها الضخمتين. بشرة وجهها مائلة إلى الحمرة، شفتاها مكتنزتان، وعيناها عميقتان سوداوان. ثمّة أثر ضئيل من الطفولة باقٍ في وجهها، بحيث يمكنكم تخيلها عندما كانت بنتاً صغيرة، قبل أن يترك البلوغ علاماته عليها. إنّها لا تخلو من الجاذبيّة، لكنّ الهموم حلّت محلّ جمالها على ما يبدو.

شرح لها مرسيه، أننا آتينا لاستئجار غرفة.
«الرؤوس»، تلثم كورتوس موجّهاً كلامه لمرسيه كي يُترجمه. «أنا أعمل في صناعة الرؤوس».

طلب منّي أن أخرج رأسي الشمعيّ من صرّته، وأن أحمله عالياً إلى جوار رأسي. أغمضتُ عينيّ كي أعزّز تأثيره، فسمعتُ ضجّة غير راضية. لقد شهقت الأرملة، وترجم لنا مرسيه ما قالت: «لكنّهما متماثلان!». «أجل، آه أجل» قال كورتوس فخوراً بنفسه، وهو يصقّق.
«كيف صنعتها؟!»، سألت الأرملة.

«إنّه عملي»

«وهل بوسعك أن تقوم بهذا مع أيّ أحد؟!»، سألتها، «أم فقط معها?!».
«مع أيّ شخص وأيّ شيء مهما كان» أجابها سيدي، «بشرط توافر السطوح».
«وأنت تجني المال من صناعة الرؤوس؟»، سألت الأرملة وترجم مرسيه.

«أمل ذلك»

«الأرملة تصرّ» قال مرسيه، «على أنّه لا يجوز وضع هذه الأشياء في غرفة نومك. إنّها قواعد المنزل، ولذلك لا بدّ لك أن تستأجر غرفة إضافية تعمل فيها».

أشارت الأرملة إليّ، فشرح لها مرسيه أنني مساعدة كورتوس، فقالت: «كانت لدينا خادمة، لكنّها اضطرت إلى العودة إلى أهلها في الريف».
«أنا أشعل النار» بادرت بالكلام من تلقاء نفسي، «أعرف كلّ الأدوات، أطحن الأصبغة، و...».

لقد نسيْتُ الصبيّ! لقد كان واقفاً هناك طيلة الوقت، وجهه شاحب خالٍ من التعابير.

«كونا لطيفين معنا»، أضافت الأرملة.

«آه أجل، بكل تأكيد!»، قال كورتيوس.

مدّت الأرملة يدها، فظننتُ لوهلة أن كورتيوس ارتعب من فكرة أنّه سيتوجّب عليه تقبيل تلك اليد، لكنّ مربيّه شرح لنا: «النقود!». لقد جاء كورتيوس كي يستأجر غرفة واحدة من هذه المرأة، لكنّها جعلته يستأجر ثلاث غرف خلال عشر دقائق فقط!

«ثمّة أمرٌ أخير» قالت الأرملة، «أوراقك رجاءً. سأحتفظ بها».

«أوراقي؟!»

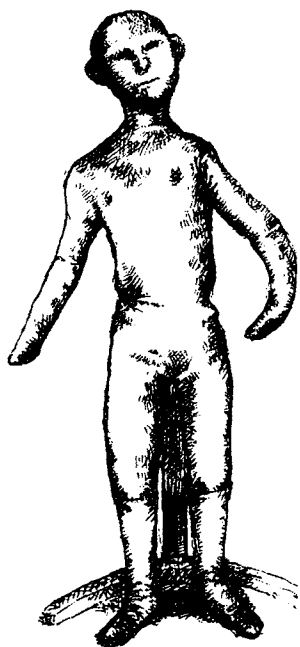
«كضمانة على أنّك لن تهرب، إن تراكم عليك الإيجار».

أعطاه كورتيوس أوراقنا. لم أكن واثقة من أنّ ذلك صائب، إنّها أوراقنا ونحن من يجب أن يحتفظ بها كما أعتقد.

أخذت الأرملة ابنها جانباً، من ثمّ سمعنا صوت الجرس بعد لحظات: لقد خرج الصبيّ الصامت. من ثمّ، قادتنا عبر الغرف المتنوّعة. هنا توجد طاولات عملها، أدواتها، كعب الخيطان، وطبشور الخياطة الأشبه بحصاة مسطّحة. في وسط كلّ تلك الأشياء، على الأرض، فوق طاولة العمل، يوجد عالمٌ خيّاط، عالمٌ أنيق مرتّب في مكانه الخاصّ. ثمّة الكثير من المقصّات، أدوات للثقب والفتق، أدوات لقشط الزغب عن القماش، تشكيلة ضخمة من الإبر، مكايٍ ومخارز، مغازل وأدوات للقياس.

«أعتقد أنّي فهمتها» همس كورتيوس، «وأنا أتعاطف معها».

بالإضافة إلى كلّ ما سبق، ثمّة أربع «دمى خيّاط»، وهي دُمى مصنوعة على هيئة بشريّة مع أنّها تفتقر للرؤوس والأذرع والسيقان، وثمّة ثلاث أخرى أقرب في مظهرها إلى البشر، ولها أطراف ورؤوس على العكس من دُمى الخيّاط، سيقانها تنتهي بما يشبه الأقدام المستدقّة المحشورة في الجوارب، كما أنّ أيديها تأخذ شكل اليد البشريّة بالعموم، ولكنّها كما اكتشفتُ بفحصها عن قرب، مجرد «زعانف» أشبه بقفازات من دون أصابع.



اثنان من تلك الدمى أنثيان، والثالثة ذكر، وكلٌ منها لها الوجه البليد ذاته: ما يشبه الأنف، لا وجود للعيون فعلياً وإنما يعطي ظلُّ الحاجبين انطباعاً بوجود عينين تحته، شفاه حمراء رفيعة مطرزة بالخياط، لا يمكن أن تنفتح مطلقاً. هؤلاء ليسوا بشراً حقيقيين إذن، وإنما أشخاص مصنوعون من القماش، تمت خياطتهم من ثم حشوهم. إنها دمية الدكان، توضع في نوافذه مرتدية ملابس معروضة للبيع. للوهلة الأولى، بدا منزل الأرملة مكتظاً، لكنّ مشغلها لا يضمّ سوى رفاق وهميين كما تبين لنا فيما بعد.

أشارت الأرملة إلى إحدى الزوايا، حيث يضطجع شيء ما ذو هيئة آدمية تحت غطاء أسود. «هنري بيكو»، همست الأرملة.

«تحت هذا الغطاء» ترجم مرسيه نقلاً عن الأرملة، «ترقد دمية خياط صُنِعَتْ طبقاً لهيئة زوج السيّد الراحل. إنها دمية الخياط الأولى التي صنعتها هي وزوجها معاً، وهي مقدّسة بالنسبة إليها. تريد منكما ألا تلمساها أبداً، وهي تصرّ على ذلك».

إذن، حزن الأرملة يتركز هنا، وكأنّ الدمية تحت الغطاء هي قلبها الموجوع. اقتادتنا إلى المطبخ في الخلف، وأشارت إليّ أن أدخل، من ثمّ دلّني على الموقد ومخزن الحطب والفحم، على الطناجر والمقالي، على ألواح التقطيع، على الخطافات التي علّقت عليها أدوات المائدة.

«هل سأطهي لك وجباتك هنا يا سيّدي؟»

«أفترض ذلك يا ماري، أجل»

فتحت الأرملة باباً صغيراً في المطبخ، ثمّة غرفة وراءه في العتمة، صغيرة جدّاً ورطبة، فيها سرير عليه فراش من القشّ، وليس لها نوافذ. استرق كورتيوس نظرة إلى الأرملة، ثمّ نظرة إليّ، وقال: «غرفة، يا ماري. ستنامين هنا».

«أجل يا سيّدي. سيّدي، ألا أستطيع أن أنام في مشغلك؟»

طرح كورتيوس السؤال على الأرملة، فهزّت رأسها رافضة.

«أظنّ» قال كورتيوس، «أنّ هذا يخالف العادة في باريس. حسنٌ أن نفعل كما يفعل الباريسيّون!».

غرفة نوم كورتيوس في الطابق العلويّ، فيها نافذتان، وسرير قاتم اللون عليه فراش متدلّ، لا بدّ أنّ العديد من آل بيكو المحتضرين ناموا فوقه، قبل أن يترك عليه جسد كورتيوس أثراً ضحلاً طويلاً.

«سأكون سعيداً جدّاً هنا!» قال كورتيوس، مع أنّ وجهه يطفح بالرعب.

رنّ الجرس، لقد عاد الصبيّ بعد أن أرسلته أمّه لجلب الطعام، وستتناول وجبةً معاً، كما وافق مربيّه على البقاء. يضمّ منزل آل بيكو غرفة سفرة مظلمة، وهناك جلست الأرملة وابنها وكورتيوس ومربيّه، كي يتناولوا بعض الجبنة واللحومات الباردة. عندما تأهّبت كي أنضمّ إليهم، زعقت بي الأرملة بصوت عالٍ.

على ما يبدو، لا يتناول الخدم في باريس الطعام مع أسيادهم.

«إنّها ليست العادة المتّبعة في باريس» قال مربيّه، «يا صغيرة، أظنّ أنك ستتناولين طعامك في المطبخ».

نظرتُ إلى كورتیوس

«أمامي الكثير كي أتعلّمه»، قال.

«الأجنبيّ» وافقه مرسييه، «هو كائن فظّ، جاهل، عديم الأهمية، يسعى دائماً إلى هزيمته. حبساً في غرفته المستأجرة، سيتلصّص على عالم باريس، دون أن يفقه منه شيئاً. ينبغي على كلّ الأجانب أن يتعلّموا الفرنسيّة، وإلاّ سيبقون محبوسين للأبد».

«إذن، أوّد أن أتعلّم الفرنسيّة»، أعلن كورتیوس.

وافق مرسييه على أن يجد له معلماً. تكلمت الأرملة مجدّداً، وعلى الرغم من أنّي لا أتحدّث سوى القليل جدّاً من الفرنسيّة، لكنني فهمتُ ما قالته هذه المرأة: «لماذا ما تزال هذه المخلوقة هنا؟!».

ذهبتُ إلى المطبخ، وتناولتُ طعامي كما سأفعل دائماً فيما بعد: وحيدةً إلى طاولة المطبخ. لاحقاً، أراني الصبيّ ذو الوجه عديم الملامح أين يُحفظ الماء، وأين دلو الرماد⁽¹⁾ اللازم لفرك الأوعية، ثمّ تركت وشأني كي أنظّف الأطباق، ليس طبق كورتیوس فقط بل كلّ ما استعملوه جميعهم على المائدة. لاحقاً، جاء كورتیوس كي يراني.

«سأبدأ بدروس اللغة الفرنسيّة غداً. لقد وافقت الأرملة على مساعدتي بذلك -ويا لها من امرأة كفوءة- لقاء مبلغ بسيط. سيأتي مرسييه غداً، كي نأخذ له طبعة. ماري، هل أمورك على ما يرام؟!»، لكنّه لم يفسح لي مجالاً للإجابة، إذ أضاف على الفور: «لقد وصلنا! باريس يا ماري، باريس!».

عندما ينغلق الباب، تصبح غرفتي مظلمة لا هواء فيها. أخرجتُ أشياء: صفيحة فكّ والدي، إنجيل أمّي، ومارتا.

عندما تمّددتُ على الفراش ساكنة، خيّل لي أنني أسمع الجدران الرطبة تبكي.

1- كان الرماد الناجم عن احتراق الخشب مستخدماً في الماضي لفرك الأوعية المعدنية مباشرة بغية تنظيفها، كما يمكن مزجه مع الزيوت بمقادير معيّنة لصناعة الصابون.
المترجمة

الفصل العاشر

مجموعة الرؤوس الثانية

أول رأس صنعناه في باريس، كان رأس لويس - سباستيان مرسية، الذي أوضح لنا أنه من غير الضروري أن يدفع أجوراً لكورتبوس بما أنه سيسديه خدمة في الواقع، لأنّ عرض الرأس الشمعيّ هنا وهناك كي يراه الزبائن المستقبلون، يُعدّ الطريقة المثلى لشرح موهبة كورتبوس العظيمة. «جيدّ جدّاً» قال، «أن تعرض رأس صغيرة، ولكن لا بدّ لك من الاعتراف أنه مهما بدا هذا الرأس حيّاً، ومهما بدا ودوداً، فهو مجرد رأس طفلة ذات وجه غريب. يلزمك وجه فيه بعض الشحم، ووجهي» أضاف وهو يقرص خديّه، «هو الوجه الملائم بالتحديد». في الواقع، وجهه مكتنز، هذا صحيح. أصرّ مرسية أيضاً على ألاّ يكتفي كورتبوس بطبعات لرأسه وعنقه، بل أن يأخذ طبعة لجزء من صدره أيضاً، كي يصنع تمثالاً نصفياً ملائماً كما قال، يوحي بأنه من الممكن مقارنة الرجل العاديّ بفلاسفة العصور القديمة، وأنه من الممكن تأمله فقط لأنّه إنسان، وكي نتعلّم كيف ننظر بطريقة أفضل. في الواقع، هذا التغيير في طريقة عملنا جعل المنحوتة تبدو مكتملة أكثر، وأقلّ في آنٍ واحد، كأنّها فقدت جسدها.

مرّر مرسية يده على رأسه الشمعيّ، وقال: «يا لها من خريطة! يا لها من مساحة! كلّ أحياء رأسي الستّة عشر، موجودة هنا!»، من ثمّ أضاف وهو ينقر على أنف التمثال: «وهذه هي كنيسة نوتردام الخاصّة بي».

اصطحب مرسية كورتبوس كي يدلّه على الدكاكين حيث يستطيع شراء مستلزماته في المدينة، ولم أذهب معهما لأنّ الأرملة سألت كورتبوس ما إذا

كان بإمكانني مساعدتها، فوافق. أشارت إلى أرضية المطبخ، وإلى الممسحة،
ثم هزّت رأسها مبتسمة وغادرت الغرفة.
«أكثر ما أحبه يا سيّدي» قلتُ لكورتيسوس لاحقاً، «هو أن أساعدك».



«آه، أجل!»، وافق.

«لقد درّبتني يا سيّدي كي أصبح مساعدتك»

«أجل، بالطبع، لكن ينبغي علينا أن نساعد تلك الأرملة المسكينة، لقد
عانت الكثير! ماري، هل لي أن أخبرك بقصة صغيرة؟ أعتقد أنّها تبدأ هكذا:
كان يا ما كان، كانت هناك عظمة وحيدة، وبقيت وحيدة يوماً بعد يوم. من ثم،
ظهرت عظمة أخرى فجأة، ثم عظمة ثالثة...»

«آية عظمة تلك التي تتكلّم عنها يا سيّدي؟»

«آية عظام تحديداً؟!»

«أجل سيّدي»

«حسناً، دعينا نر. ربّما العمود الفقريّ، ربّما الأضلاع... لا يهمّ».

«لا يَهْمُكَ آيَةُ عَظْمَةٍ بِالضَبْطِ يَا سَيِّدِي؟! أنت... أنت من يقول هذا؟!»

«لا يمكنني أن أحَدِّدها بالضبط، إنَّه مكان جديد تماماً بالنسبة لي. لم أعرف آيَةَ امرأة من قبل، كما ترين. لم تكن هناك آيَةُ امرأة، ولربَّما حصلنا على عظام جديدة الآن، وربَّما يُبنى منها مخلوق ما ببطء. لا أعرف ما هو هذا المخلوق، لكنَّ العظام الجديدة يتلاءم بعضها مع بعض، يتلاءم نعم، لكنَّ الاعتياد عليها يستغرق بعض الوقت. سيتنامى الألم بكلِّ تأكيد، لا بدَّ من القبول به، كمفصل من نموذج الكرة والحقِّ⁽¹⁾، كلُّ منهما يحتكُّ بالآخر، لا بدَّ أن يكون ذلك مؤلماً قليلاً في البداية، حتماً».

كان يومي مقسِّماً بين كورتيوس والأرملة، بين المشغل والمطبخ. أرادت الأرملة منِّي أيضاً أن أكنس وألِّمَّع أرضيات الغرف الأخرى، فتظاهرتُ لأطول فترة ممكنة أنني لا أفهم ما تقوله، واختبأتُ خلف لغتي الألمانية، مما دفعها إلى الإيماء وتقليد ما أرادت منِّي القيام به. أشارت إلى النوافذ القذرة والخرقة بيدها، فانحنيتُ وانتظرتُ إلى أن غادرت، من ثمَّ استدرتُ عائدة إلى كورتيوس وأدواته.

لم يكن لدينا سوى بضعة زبائن فقط في البداية، أصدقاء مرسية من أرباب الأعمال الصغار. أولهم هو إسكافيّ مرسية، الذي عرض عليه هذا الأخيرُ رأسه الشمعيّ. في البداية، لم يتبيّن مسيو أورسان الغاية من تمثال نصفيّ من الشمع - لا تهمة سوى نهايات الأطراف السفليّة، أمّا الجزء العلويّ من الجسد فلا يهّمه بتاتاً- لكنّه وافق على أن نصنع له رأساً، بشرط أن يدفع مبلغاً زهيداً. بعد أن وضع رأسه الشمعيّ ذاك في نافذة دكانه، سرعان ما اكتشف أن الناس بدأوا يلاحظونه أكثر من بقيّة الإسكافيين. لقد تميّز عنهم، إنّه مختلف الآن! لقد شعر الناس أنهم يستطيعون أن يأتمنوا ذلك الرأس على أقدامهم.

بعد ذلك، بدأ جرسنايرن. جلب مرسية أرباب أعمال آخرين إلى المشغل، بينما جهّزتُ الأدوات على الطاولة، أوقدتُ النار، طحنتُ الأصبغة، أمّا المرحلة الأخيرة وهي تطبيق الشمع، فكانت دائماً من اختصاص كورتيوس.

1- كالمفصل بين عظم الفخذ وعظم الورك مثلاً، حيث يأخذ رأس عظم الفخذ شكلاً كروياً يتمفصل مع التجويف الحُقِّي. المترجمة

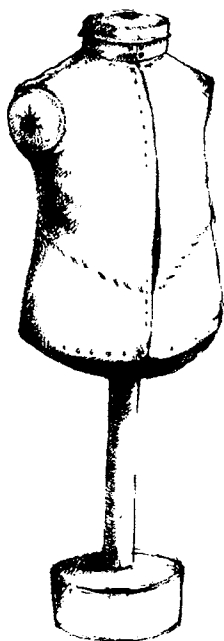
مع الشمع ما بين يديه، بدا سعيداً، يشعر أنه في منزله وعلى طبيعته. مع الشمع، بدأ بفهم باريس.

سرعان ما أخذ الجرس يرنّ من أجلنا أكثر ممّا يرنّ من أجل الأرملة، وكأنّها فقدت حظوتها عنده. ترافقت واجباتي في التنظيف مع درجة من الحرية في المنزل حكماً، لذلك تجوّلتُ من غرفة إلى أخرى في الطابق السفلي، واستكشفتُ كلّ ما فيها. عندما أتيقّن من أنّي بمفردي، سأفتش الدروج والخزائن، لكنني لم أعثر غالباً إلّا على الخواء أو على فضلات الفئران. توجّب عليّ أن أتوخى الحذر كلّما دخلتُ غرفة، فأحياناً بعد أن أستطلع ما فيها، أكتشف أن إدموند ابن الأرملة، كان هناك طيلة الوقت، واقفاً في زاوية أو جالساً من دون حراك، وجهه الجامد مُبَتّ عليّ. غالباً ما ظهر في تلك الغرفة إلى جوار دمية والده الميت، وهو ما منعني من اختلاس النظر تحت غطاءها.

ما إن اعتادت عيناى على الضوء الشحيح في المنزل، حتّى أصبحت قادرة على التنقّل في الظلام، فعرفتُ مواضع الأشياء كلّها، وبدأتُ أرى بصورة أوضح. بوسعي أن أرى الآن شيئاً آخر، يختبئ تحت هذا الحزن. قد يمّوه الحزن ذلك الشيء إن كنتم هنا في زيارة قصيرة، أو إن كنتم ضعيفي البصر، أو إن دخلتم إلى غرف محدّدة كغرفة السفرة أو الغرفة الأمامية، حيث ترتدي دمي الخياط الملابس التي فصلتها الأرملة، ولكنّ هذا الشيء الآخر موجود بكلّ تأكيد: قضم الستائر، قضم الخزف، كما تشقّقت النوافذ واهترأت الملاءات بسببه. هذا الشيء لن يشعل شمعة على الرغم من الظلام، وسيترك الخزائن فارغة، هذا الشيء هو: الفقر، عملُ الأرملة يتدهور. لقد أرسلت إدموند لجلب الطعام مساء اليوم الأوّل لوصولنا، لأنّه لم يكن لديهما شيء منه، ولم يحصلوا على المال إلّا بعد أن دفع لها كورتيوس الإيجار.

ذات مساء، وجدتُ نفسي أحدّق إلى القماش الأسود الذي يغطّي دمية الخياط هنري بيكو الراحل. أنا بمفردي في الغرفة، تأكّدتُ من ذلك. الدمية المحظورة موجودة أمامي مباشرة، سأختلس نظرة خاطفة فحسب! رفعتُ الغطاء، يستلقي تحته هيكُلٌ ذكّر ذي كرش، زوج الأرملة الراحل المصنوع من خشب عتيق ونسيج مهترئ. القماش عند صدر الدمية لم يعد مشدوداً

بإحكام حول هيكلها، بل يتهدّل نحو الداخل، فضلاً عن أنّ الخشب هنا متشقق ومهترئ. تخيلتُ هنري بيكو وهو حيّ، جنتلمان شاحب يتحلّى بآداب السلوك الراقى، خياط في منتصف العمر تزوّج امرأة شابة مكتنزة الجسد، وخاط لها فساتينها، ولا بدّ أنّه أنقن تفصيل الأزياء النسائية، فبعد زواجه بفترة قصيرة، قبل أن تنتهي حياته فجأة، أنجب ابناً. فهمتُ أن ذلك الرجل المدعوّ هنري بيكو كان موجوداً فعلاً، لكنني عجزتُ عن تخيله إلّا كدمية عتيقة تستلقي أمامي في ذلك المساء، أو كنسخة أكثر اكتمالاً بقليل منها، برأس قماشيّ وجسد من مادّة رماديّة باهتة قطبه رخوة، وربما بزرّين باهتّين عوضاً عن العينين. رجلٌ صغير، أكله العثّ.



كنتُ على وشك أن أعيد الغطاء القماشيّ إلى مكانه، عندما سمعتُ ضجّة مفاجئة. الأرملة هنا! لقد تسلّلت إلى الغرفة، ثياب جدادها كتمت صوت تحرّكاتهما!

يا للغضب! ويا للطمات على الرأس! ويا للصراخ، صراخي وصراخها!

كَأَنِّي نَبَشْتُ جُثَّةَ زَوْجِهَا الْمُسْكِينِ، وَكَأَنِّي أَحَدَقُّ فَعْلًا إِلَى جُثَّتِهِ الْحَقِيقَةِ!
اندفع كورتيوس راكضاً إلى الغرفة. «ماري! الذنبُ ذنبي!»، قال عندما فهم الكارثة. «ماري! أنا المُلام هنا! كان الأجدد بي أن أضربك كما أعتقد، كان عليّ أن أضربك مرّة في الأسبوع على الأرجح! لطالما ضُربتُ أنا، أبي وصرامته، كما ترين. لقد قلتُ لنفسِي عندما تركك الجراح معي في بيرن، قلتُ لنفسِي أنه لا بدّ من تأديب الأطفال -أتذكّر ذلك- ولكنتي لم أفعل شيئاً!».

هزّت الأرملة ذات الوجه الأحمر رأسها بحماس موافقة على ما سمعته، لكن لا بدّ أنها عدّت كلمات كورتيوس المرعبة غير كافية، إذ إنّها اقتربت منّي مجدداً بعد أن انتهى، وصفعتني بقوة على وجهي. يا لصوت تلك الصفعة! يا لذلك الصوت الذي تعالَى من جلدها، عندما عاقب جلدي بسرعة، وبعنف! كنت مصدومة ومتألّمة، متألّمة ومهتاجة، وانتظرتُ أن يضربها كورتيوس نيابة عني، أن يصرخ عليها، أن يصبّ غضبه وهياجه عليها.

لكنّه لم يفعل شيئاً!

«سيّدي!» صحتُ، «سيّدي!».

بدا متفاجئاً وغير سعيد البتّة، لكنّه لم يفعل شيئاً، بل همس: «آه يا ماري! من فضلك أيتها الأرملة العزيزة، لا تفعلِي هذا».

لكنّ ذلك لا يُعدّ شيئاً على الإطلاق، ولم يتبعه أيّ شيء ما عدا أنّ سيّدي قضمَ براجمه، وهذا لا يُعدّ شيئاً بدوره. إنّهُ لا -شيء رهيب، لا -شيء مقيت، لأنّه في ذلك اللا-شيء، اكتشفت الأرملة أنّها تملك سلطة مطلقة عليّ.

مُدَّ الغطاء مجدداً فوق الدمية، بوسع هنري بيكو أن يستأنف نومه الميت من جديد. تمّ اقتيادي إلى غرفتي على عجل، وانطبق الباب عليّ من دون شمعة. سمعتُ صوت باب المشغل يُفتح، وكورتيوس والأرملة يدخلان إليه. تُركتُ وحدي، مع خدّي المتورّم.

الفصل الحادي عشر

تطوّر رهيب!

لم تكن هناك أية امرأة في حياة كورتيوس من قبل. ماتت أمّه وهي تلده، قدومه إلى الحياة يعني أن تغادر هي، ولكن ثمة امرأة الآن، اكتسحه حضورها، وسرعان ما سمح لها أن تتخذ القرارات نيابة عنه، ووقف ساكناً وهي تلتقط فئات الخبز عن جاكيتّه.

مع ذلك، بدأ نجم كورتيوس يسطع بسرعة، وأصبح مشغله أعظم غرفة في المنزل. جاء الناس إليها، فوجدوا فيها المؤانسة والأحاديث، ومرسيه الذي يضحك. تضمّ الغرفة كورتيوس والشمع، وتزهو بالألوان. السعادة غير موجودة في المنزل إلا ضمن هذا الحيز الصغير، ومن ذا الذي يستطيع مقاومة مكان كهذا؟! ليست الأرملة بكل تأكيد، لأنها أخذت تزور المشغل باستمرار، تراقب كورتيوس، تدرس أساليبه، وتجلب له النيذ أحياناً مع أنّه لم يطلب منها ذلك، وتجلس بجواره كي تتفحص الرؤوس التي يعمل عليها. عندما تغادر، لاحظت أنها تترك شعرة أو شعرتين في المشغل. اعتقدت أن تلك الشعيرات هي جواسيس، وكلّما عثرت على إحداها التقطتها بسرعة ورميتها إلى النار. أنا والأرملة نتقاتل على كورتيوس، هي ترغب باهتمامه الكامل، وأنا أقف في طريقها، ولذلك أرادت أن تبعدني.

أحياناً، عندما أعود إلى المشغل من المطبخ، أكتشف أن الأرملة كانت هناك في غيابي. سرعان ما بدأت بتقديم كؤوس من النيذ لزبائن كورتيوس، وبعد النيذ بدأت بتقديم بعض المأكولات الصغيرة لهم أيضاً. لم يفعل كورتيوس شيئاً لإيقافها، بل شعر بالإطراء بسبب تصرّفاتّها -الأسوأ: لقد

شكرها!- كما تساقط فئات الطعام طيلة الوقت على الأرض، وسحقته الأقدام حين داست عليه، وتوجّب عليّ التقاطه إمّا بأظفاري أو بالسكين... لكنّ الأرملة كانت أكثر ما يسبّب لي الانزعاج: امرأة بملابس الحداد، بروائحها وشعرها وطريققتها بالقيام بالأمور، تتمطّق بشفتيها، تسوّي فستانها عند الركبتين بيديها، تجلس هناك بلا استئذان. امرأة!

جلست الأرملة هناك وراقبت كورتبوس وعمله، تأملت التماثيل النصفية الشمعية. من ثمّ، أخيراً، ضربت ضربتها! في عصر أحد الأيام، نهضت فجأة واندفعت خارج المشغل، من ثمّ عادت بعد قليل بجاكيت من متجرها. أمسكت الجاكيت، وهزّته أمام وجه كورتبوس، ثمّ أشارت إلى تماثيل يعود لصانع الشموع. كورتبوس، مرتاعاً، لم يفعل شيئاً، لكنّها أمسكت التماثيل النصفية وبدأت بإلباسه. التماثيل النصفية مجوّف، ولذلك تمكّنت من حشر الجزء الخلفي من الجاكيت في جوفه، وهو جزء غير ضروريّ للعرض. من ثمّ، وضعت التماثيل النصفية باستقامة، بحيث صنع كتفا الجاكيت كتفي رجل! صانع الشموع مكسوّ الآن!

صمت

انحنى كورتبوس للأمام، فظننتُ أنه يهوي، لكنّه قرّب ساعديه الطويلين إلى صدره، من ثمّ ضمّ يديه معاً مرتين، بصمت مطبق. من يراه للمرّة الأولى سيعتقد أنه يسحق شيئاً ما صغيراً خلسة، ربّما ذبابة أو ضفدع أو حلزون أو قطيطة، لكنّه في حقيقة الأمر... يصقّق!

انظروا إلى أيّ شخص عارٍ. قد يكون أحداً ما، ومن زمن ما، عظيماً أو مغموراً. لم يتغيّر الجسد البشريّ إلّا قليلاً عبر مئات السنين، ولا يهتمّ بماذا تغطّونه، لأنّه ما يزال يبدو كما هو تحت الغطاء. الآن، اكسوه بالملابس، وستعرفون من هو فوراً! لقد ابتسم كورتبوس لذلك التماثيل النصفية الذي يلبس جاكيتاً، وغالباً ما يشيح الناس ببصرهم إلى الجهة المقابلة عندما يتسم، لأنّ ابتسامته تسبّب لهم الضيق، ابتسامة تحبّب واسعة تكشف عن أسنانه الرديئة كلّها وعن الفراغات فيما بينها، ابتسامة لا تشبه أيّة ابتسامة أخرى. معظم الناس يجدون أمامهم أمثلة عديدة عن الابتسامات المختلفة،

ويعنون ابتسامتهم الخاصة وفقاً لها، لكنّ ابتسامة كورتوس تشكّلت في العزلة، تمرّن عليها في شارع ويلسيرستراس أمام جمهور من أجزاء الجسد الشمعية. كيف سيكون ردّ فعل الأرملة على ذلك الاستعراض؟! نظرت إلى ابتسامته من دون أن تشيح ببصرها، وبعد أن توصّلت إلى استنتاج ما، هزّت رأسها ومدّت يدها إليه.

أرادت منه أن يدفع لها
فدفع.

كانت تلك البداية فحسب! وكأنّه لا يكفيننا وجود امرأة معنا في المشغل، سرعان ما وضع ابنها كرسيّه في زاوية، وبقي جالساً فيه. لم يقل كورتوس شيئاً. في زاويته، أخذ إدموند الأزرار وتفحصها بحرص بالغ من كلا الوجهين، ثمّ رصفها على فخذه، من دون أن تتغير تعابير وجهه إلّا لمأماً.

«لا تلمس شيئاً هنا!» قلتُ للصبيّ، على الرغم من أنّه لا يفهم لغتي الأجنبية. «لا يجب أن يلمس شيئاً يا سيّدي. عليك أن تقول له هذا»، أضفت.

«إنّه يجلس هناك فحسب، ماري»

«ألا يجب عليه أن يقوم بعمل ما؟»

«هلاً أوقدت النار الآن؟»

«كيف نقول: لا تلمس، بالفرنسيّة؟»

علّمني كورتوس العبارة، فردّدتها عدّة مرّات. كلّما رفعتُ رأسي عن عملي، ورأيتُ الصبيّ الشاحب جالساً في كرسيّه مع أزراره يحدّق إليّ وليس إلى كورتوس، سأقول له مجدّداً ألا يلمس شيئاً، ولم تتوقف أوامري هذه إلّا عندما دخلت أمّه.

تلك الليلة، عندما عدتُ إلى سريري، اكتشفتُ اكتشافاً رهيباً!

لقد تركتُ دميتي مارتا جالسة على الكرسيّ في غرفتي، لكنني وجدتها مستلقية عندما عدتُ. مارتا قادرة على القيام بالعديد من الأمور العظيمة، إنّها وفيّة وتستقبلني بالترحاب دائماً، لكنّها تبقى جالسة إن جلست، لن تستلقي، بل تنتظرين حتّى أمّدها. لقد دخل شخص ما حتماً إلى غرفتي! لم

مكتبة

t.me/soramnqraa

أعثر على شعر في سريري، ولا على الأرض، لذلك استنتجتُ أن الصبيّ هو من دخل إلى هنا. ضمنتُ مارتا إليّ، فككتها، ومسحتها قطعة قطعة قبل أن أجمع أجزائها معاً من جديد.

كانت تلك الكارثة الأولى، في سلسلة من الكوارث.

عندما ذهبْتُ إلى المشغل في الصباح التالي، لاقاني كورتيوس عند العتبة. أخبرته بما حصل، وكان آسفاً من أجلي، لكنّه ذكرني أنني تلقّيتُ التوبيخ سابقاً لقيامي بأمر مماثل، وأنا نعيش في منزل الأرملة بيكو، وأنها تملك الغرف جميعها في الواقع.

«أغراضنا في خطر» قلتُ، «ثمّة مَنْ يطمع بها».

غمغم كورتيوس بشيء ما، وقال إنّ الأمور مختلفة في باريس عنها في بيرن. كان الأجدد بي عندها أن أتنبّه إلى ما سيحصل، وأن أهتئ نفسي له، وها هو ذا: لقد طلب منّي ألا أكتفي بالطهي من أجله فحسب، بل أن أطهو للأرملة وابنها أيضاً. فُتح باب المشغل على مصراعيه، لقد كانت الأرملة جالسة في الداخل طيلة الوقت.

«لا يجوز أن تبقى سيّدة كهذه في المطبخ دائماً» قال لي، «هل رأيت يديها؟! إنهما رقيقتان، لكنهما تتعدّبان».

«أعرفهما» قلتُ، «إحدهما صفعتني».

«لقد أرّنتي يديها، تؤلمانها كثيراً»

«هذا مؤكّد، يا سيّدي»

«في الحقيقة، لا أمانع أن آخذ لهما طبعة. إنّها طيّبة جداً معي، وأرغب أن أكون طيّباً معها في المقابل. الأمور في منتهى الغرابة في باريس، وهي تدلّني على الدرب الصحيح. يلزمني الإرشاد أحياناً، لأنني قد أتبع منعطفاً خاطئاً بسهولة وأتوه».

«أنا أطهو طعامك يا سيّدي، أنا أعمل عندك»

«أجل يا ماري، وأنتِ أساسيّة بالنسبة لي، أنتِ نعمة بكلّ المقاييس، ولكن الآن، عندما تطبخين من أجلي، اطهي المزيد فحسب».

«لكنني مساعدتك!»

«هذا صحيح»

«ولستُ مساعدتها»

«لكنني أطلب هذا منك، وعليك أن تنفّذي ما أقوله»

«حاضر يا سيّدي»

«من دون انزعاج، ولا دموع! عليك ألا تبكي، هذا يجرحني هنا»، وضغط بيده على صدره وعلى عضلاته الحيويّة.

«أجل يا سيّدي»

وهكذا، صرْتُ أقضي وقتاً أقصر فأقصر في المشغل، ووقتاً أقصر مع الدكتور كورتيوس الذي لم يلاحظ ذلك على ما يبدو، لأنّه كلّما قضيتُ أنا وقتاً أقلّ في المشغل، تواجد آل بيكو هناك أكثر، الأرملة تأخذ ما تعمل على خياطته إلى هناك، ويرافقها إدموند.

ذات يوم، في المطبخ، انتقيتُ طبقاً، طبقاً لامعاً جميلاً يحمل نقوشاً زرقاء على طراز ديلفت. اخترتُ هذا الطبق تحديداً، ورفعته عالياً، ثم رميته أرضاً. كان حادثاً، قلتُ.

«كوني أشدّ حرصاً!» قال كورتيوس، الذي لا يطبق التعامل بإهمال مع الأشياء.

«هل أرسم لك الآن يا سيّدي؟ ماذا يجب أن أرسم؟»

«لا ترسمي الآن، اكنسي هذه الشظايا. ماري، تقول الأرملة إنك ستُعاقبين لو كسرتُ شيئاً آخر!»

انزلقتُ أكثر فأكثر إلى دور خادمة المنزل. جاءت الأرملة إليّ، دارت حولي ممتعضة، وأخذت قياساتي بأصابعها المكتنزة وبمسطرة خشبيّة. سرعان ما اكتشفتُ السبب: جلبتُ ملابس خادمتها القديمة بوليت، وقصّتها بمقصّ كبير، ثمّ اجتثتُ كجزّار بضعة أجزاء منها، إلى أن أخذ ما تبقى شكلي. أنا الآن مجبرة على ارتداء ثوب أسود خشن، وقلنسوة بيضاء مستعملة ما يزال بعض الشعر الدهنيّ ملتصقاً بها. أمرتني الأرملة أن أغيّر ملابسني، فذهبتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ الباب خلفي.



كانوا جميعهم بانتظاري أمام الباب لرؤية التحوّلات، عندما خرجتُ بزيّ الخادمة. هزّت الأرملة رأسها، وهو ما يعادل قيام كورتيس بالتصفيق. نظر إدموند إليّ، لكنّ ملامحه لم تشِ بشيء.

«تقول الأرملة إنك محظوظة للغاية لامتلاكك هذه الملابس» أخبرني كورتيس، «يا لهذه الملابس الجميلة التي خاطتها لك! اشكريها».

«هل أنا محظوظة يا سيدي؟! هذه الملابس تسبّب لي الحكّة، هل أستطيع أن أخلعها؟».

لم يُسمَح لي بذلك، خرّش القماش بشرتي، وسبّب لي بقعاً ملتهبة عند عنقي وكتفيّ. صُنِعت هذه الملابس من الجِداد، وصبغها حزنُ الأرملة. لا أستطيع أن أتَنفَس جيّداً وأنا ألبسها، كما تتابني الأفكار السوداء بسببها. ألم تستخدم شعرها في خياطتها أيضاً؟! وكأنني ألبسُ الأرملة الآن! حاولتُ أن أفهم سيدي أن هذا كلّ خطأ، لكنّه لا يرى سوى الأرملة عندما ينظر إليّ. المدينة بأكملها، انقلبت إلى أرملة بالنسبة له الآن!

الدكتور كورتوس، محبطاً بسبب خسارته في بيرن وبسبب شعوره بالعرفان، عجز عن إدراك أهمية تلك التحوّلات التي طرأت عليّ. لم يلاحظ أن ما حصل للتوّ كان نقلاً للملكيّة، ممتلكات تنتقل من يد إلى يد. لقد تحوّلتُ إلى خادمة في منزل، لا أتعلّم سوى الكلمات التي تنفع الخدم، مجرد مفردات قليلة، ولم يفعل سيّدي شيئاً لإيقاف ذلك. الراشدون كما فهمتُ، لديهم الكثير من العيوب، وليسوا مثاليين على الرغم من أنّهم عاشوا فترة أطول من الأطفال، وعلى الرغم من أنّهم يقدّمون أنفسهم كقدوة لأولئك الأطفال. إنّهم أضخم حجماً، هذا مؤكّد، والحجم يترافق مع السلطة تلقائياً، لكنّهم يتأثرون بسهولة، ويمكن التلاعب بهم بسهولة أيضاً. لقد هُزِم كورتوس أمام الأرملة، ولا بدّ أنّ بعضاً من شعرها، جزءاً بسيطاً منه، قد وجد طريقه إلى رتيه كما فكّرتُ.

لقد أقنعتُ كورتوس -ذلك الرجل القذر- بالاستحمام، وخاطت له ملابس جديدة من ثمّ أحرقتُ ملابسه القديمة، وآه كيف ربّت على تلك الثياب الجديدة! جعلته يحلق ذقنه، وقصّت له شعره، من ثمّ ألْبسته باروكة كي يصبح مقبولاً في عينيها... وكيف تجاوب سيّدي المسكين مع تلك الهجمات؟! تجسّستُ عليه في غرفته: برأسه الحليق، مرتجفاً في ثيابه الداخليّة الجديدة، أمسك الباروكة بأطراف أصابعه وخاطبها بزهو: «ساميّك في أيّ مكان! أنتِ باروكة الدكتور كورتوس، ذات الضفيرة القصيرة!».

مع هذه الباروكة الجديدة، بوسعه أن يصبح أيّ شخص، أيّ باريي! بالنسبة لي، كلّ ما هو كورتوسي يُنتزَع منه!



الأرملة هي من تتحكّم بكورتوس الآن، كما تحكّم به الجراح هوفمان سابقاً، لكنّ هذا الأخير سمح له بدرجة من الحرّية أكبر بكثير، ولم يطلب منه قط أن ينزع ثيابه أو أن يحلق ذقنه... ومع ذلك، كورتوس، ذلك الرجل العزيز، يتسم طيلة الوقت للأرملة!

تراجعت دراستي مع كورتوس شيئاً فشيئاً، من ثمّ انقطعت نهائياً. سابقاً، كنْتُ أطلب منه أن يخبرني عن الجسد البشريّ، فيطلب منّي أن أجلس من ثمّ يشرح لي مطوّلاً، أمّا الآن فلا يقول سوى: «لاحقاً، يا ماري». «هل يمكنني أن أرسم؟» أسأله، فيجيبني: «لا وقت لذلك». إن رسمتُ صورة، ورجوته أن يلقي عليها نظرة، سيقول: «ماري! أنتِ تتسبّين بالكثير من الضجّة! الأرملة كما ترين، تأخذ غفوة هناك في الكرسيّ. لا توقظيها من فضلك!».

وهكذا، أخذتُ أوراقاً من منزل الأرملة، أوراقاً قديمة مصفّرة لا تستعملها، ورسمتُ عليها كي أتدرب. عثرتُ على أقلام الرصاص الخاصّة بها، وأخذتها أيضاً. رسمتُ كلّ يوم، بلا انقطاع. أتذكّر ما رأيته خلال اليوم، أخزّنه في رأسي، من ثمّ أعيشه على الورق مجدداً في الليل. لم أتوقّف، بل رسمتُ كلّ شيء. كلّ صورة أرسمها وكلّ خطّ أسطره، هما برهان صغير على وجودي.

كثيراً ما خرج الدكتور كورتوس من المنزل بصحبة الأرملة، التي تلهفت كي تعرّفه إلى باريس، لكنّ باريس بالنسبة لي هي مجرد منزل خياط ميت، مجرد السوق القريب منه، والبئر، والمرأة التي تأتي كي تغسل لنا ثيابنا مرّة في الشهر. ذات يوم، وأنا عائدة من السوق، رأيتُ كومة في خندق، كومة من القمامة، من ثمّ لمحتُ شعراً في إحدى جهاتها. عندما اقتربتُ منها، اكتشفتُ أنه رأس، رأس أنثى بشريّة، رماديّ منحني. ثمّة جسدٌ يستلقي ميتاً في الشارع، لكنّ الناس جميعهم يمرّون بجواره دونما اكتراث. ثمّة شخص ما توقّف هنا، وانهار أرضاً، وتجاهله الجميع. شخص مجهول العمر، كان يرتدي ثيابه ذات يوم، ويعيش بيننا! هذه هي باريس، فكّرتُ، ميتون يتناثرون في الشوارع، ولا أحد يهتمّ بهم! طاردتني هذه الفكرة إلى البيت.

عندما ذهبْتُ إلى السوق في المرّة التالية، كان الجسد قد اختفى، ولم يبق

في مكانه شيء سوى بقعة غريبة صغيرة بغیضة. ما هي قواعد باريس؟! هل فيها قواعد أصلاً؟!



(رسمتُ جرذاً عوضاً عن المرأة الميتة)

في بعض الأحيان، يزورني مسيو مرسيه زيارات قصيرة كي يتحدث معي، وعندها سأتلّقى بعض التعليم عن ذلك الموضوع.

«أنا أحبّ باريس حقّاً» أخبرني مرسيه، «لكن في الواقع يا صغيرة، أنا أخشى عليها كثيراً. إنها تكبر كثيراً، وتتضخّم، ولا يمكن إيقافها».

كلّما أتى، أطلبُ منه أن يخبرني أين مشى، فيفعل ذلك. أصغي إليه بانتباه، وأتخيّل نفسي مشغولة في الشوارع. عندما اكتشف مسيو مرسيه أنني أصغي إليه بانتباه تامّ، بدأ بقضاء المزيد من الوقت معي، واصطحبني في رحلات أطول فأطول ونحن جالسان في المطبخ. سأمسك يده، وأغمض عينيّ، ثمّ نسافر معاً.

الفصل الثاني عشر

باريس: جولة قدّمها

لويس - سياستيان مرسية

- نحن عند النهر الآن يا صغيرة. هل أنت معي؟ أجل، ها أنت ذي، إلى جانبي. هذا الجسر المزدحم هو العضو الحيوي لباريس، قلب المدينة تحديداً، لكنه لا يضخّ الدم بل الناس، يضخّهم إلى مختلف أرجائها، ويلقي بهم عن الجسر بطاقة تفوق تلك التي جاؤوه بها. إنه جسر «بونت نوف»، أكبر جسور باريس. عليه، سوف تجددين كلّ شيء: الجميل والقيح، الشاب والعجوز، البائسون، المجرمون، القديسون، الواهبون والآخذون، العباقرة، الدجالون، الرضع والهاكل العظيمة. جميعهم يمتزجون معاً. هنا تولّد المخلوقات وتؤخذ بعيداً، هنا تتمّ عمليّات إنقاذ الحياة، وكذلك عمليّات القضاء عليها أيضاً. على هذا الجسر نهاراً، ثمّة أمواج متجدّدة من بائعي الأغاني. العديد من أولئك المغنّين يعوزهم شيء ما: البصر، أحد الأطراف، أو إحدى الحواس. يأخذون مواقعهم ويغنّون، أغاني صاخبة، أغاني هادئة، أغاني تجعلك تبكين، أغاني تدفعك إلى الرقص، أغاني تهبك السلام، وأخرى تأخذك إلى الحرب. باعة الأغاني هؤلاء موجودون في كلّ أرجاء باريس، إنّها مدينة تغني، لكنّ جسر «بونت نوف» هو عاصمتهم. إنّهم من يتحكّم بحجمه، والجسر بدوره يتحكّم بحجم المدينة.

- هيّا بنا نذهب إلى ساحة دوفين. تأمّلي الآن يا صغيرة مباني قصر «باليه دو لا سيتي» الحزينة، ها هي ذي قمّة سانت شابل في وسطها، أشبه بصندوق مجوهرات زجاجيّ ضخّم. الآن، انظري إلى الأمام، إنّها كنيسة نوتردام تلوح

أمامنا، لكن تعالي معي من هذا الطريق، سندخل هذه المباني التعيسة، سنعبّر بوابة الشقاء. إنها محطتنا التالية، ادخلي، هيا.

- مرحباً بك في عار باريس، الذي يُدعى رسمياً بـ «أوتيل ديو»، أي منزل الرب، ويُعرف أيضاً بـ: حفرة الموت. هنا، يهرول القساوسة والراهبات ناقلين الأمراض من سرير إلى آخر، يفرزونها خطأً، وينشرون العدوى عندما يحاولون أن ينشروا الرب. هذه هي ما يخشاها فقراء باريس: الجدران الرطبة. هذا ما يقوله فقراء باريس بعضهم لبعض: سيتهي الحال بي في المشفى، كوالدي من قبلي. أوتيل ديو لن يطردهم، إنه المكان الذي يأتي إليه فقراء باريس كي يموتوا. القنوط، القنوط، القنوط! اتبعيني! عادة، يتواجد هنا حوالي ستة آلاف مريض، لكنّ هذا الرقم يختلف حسب الموسم بالطبع، فثمة مواسم للموت في باريس. ستة آلاف مريض، لكن لا يوجد سوى ألف أو ألفي سرير فقط! أيّاً كان مرضك، سيرمونك في سرير واحد مع شخص آخر يعاني من مرض مختلف تماماً، ومعدٍ بشدة على الأرجح. زميلك في السرير هو من سيقتلك غالباً! هنا، ينقلون الموتى في العربات مع أولى تباشير الفجر، أو في أحلك ساعات الليل، كي لا يتمكّن أحد من معرفة حصيلة الموت اليومية. إنها مباني الروح الغارقة! لا تأخذي شهيقاً عميقاً، الهواء حول هذه المباني ذو طبيعة شريرة غاضبة، يسوء أكثر فأكثر بسبب النهر الذي يجعل كلّ شيء ثقيلاً رطباً. لا توجد زاوية واحدة جافة في المشفى بأكمله! اعذريني الآن، لأنّه لا بدّ لي من ركل هذا المبنى. أنا أركله كلّما مررتُ من جواره بهذا الحذاء المحبوب، الذي اعتاد على ذلك الآن. الركلة تقشّر جلد الحذاء قليلاً، وتسبّب لي رضوضاً في أصابع قدمي، لكن لا بدّ من ركل المبنى حتماً. ثمة مبان عديدة حول باريس، لا بدّ من ركلها.

- تعالي، ثمة شيء آخر يجب عليك رؤيته. في هذه الباحة الصغيرة التي نسيها الناس جميعهم منذ زمن طويل، بموازاة حائط يقطر ماء وتغطّيه الطحالب، يوجد كوخ صغير. لعلّه زريبة لا تصلح إلّا للخنازير، أو وجار كلبٍ بغیض، لقد اكتشفته خلال إحدى نزّهاتي. بهدوء من فضلك، ألقي نظرة عليه. والآن، يجب عليّ أن أهمس: في داخل هذا الصندوق الخشبي الصغير، يوجد أحد مرضى المشفى: صبيّ ملفوف بخرقة قدرة، يرتجف،

ويغمغم بينه وبين نفسه، إنه طفل ذو رأس ضخمة! الصبيّ كما ترين، هزيل جداً، لكنّ رأسه العملاق ذاك يدفع عينيه إلى الجانبين، كما أنّ وجنتيه هما كرتان عملاقتان... رأسه بأكمله هو قبة ضخمة من التورّم. إنه مصاب باستسقاء الرأس⁽¹⁾، توقّف عن النموّ في الظلام، ويقضم بشراهة عظيمة زال كلّ ما عليها من غذاء. أترين اللوحة المعلقة بعنقه؟ مكتوب عليها: لا تطعموه! اعذريني الآن، لأنّ المجازات ستتغلّب عليّ. أنا أدعو هذا الصبيّ بـ: فرنسا، أمّا اسمه الحقيقيّ فقد ضاع كما أعتقد. «فرنسا» كما ترين هو طفل مصاب بالكساح، يذهب كلّ غذائه إلى رأسه فقط، تاركاً جسده ضعيفاً مُدْنَفاً. كلّما أكل، سيكبر رأسه فقط أمّا جسده فلن ينمو بتاتاً. لا يمكنه أن يمتنع عن الأكل، لأنّه يتصوّر جوعاً دائماً. رأس «فرنسا» ينمو، ويجوّع جسده. إلى متى سيعيش باعتقادك؟ إلى متى سينجو بلدنا برأيك؟ هس! تعالي من هنا، حان وقت الذهاب. لا تتلکّئي هنا، لا يمكنك أن تقومي بأيّ شيء من أجله. لقد تحمّس فقط لأنّه يظنّ أنك قد تطعمينه، إنه لا يكثرث بالناس، بل بالطعام فقط. تعالي، سنغادر هذا الكوخ المظلم الضيق، وسنتسلّق خارجاً إلى الهواء. سنتسلّق إلى أعلى مكان يمكننا بلوغه، وسأجعلك أطول بمئتين وسبعة أقدام. من ثمّ، عندما نبلغ القمة، سننظر إلى الأسفل ونرى كلّ شيء.

- إذن، نوتردام! الزمن هنا يا صغيرة، منقوش في الحجر. إنها أعظم صروح مدينتنا، وأشهر معالمها. إنها أكثر المباني تعقيداً وحكمة. بدعوماتها النافرة التي تتأّ من جوانبها ومن وجهها الخلفيّ كأنّها سيقان مقوّسة عديدة، ألا تظنّين أنها أشبه بعنكبوت عملاق يقطع شبكة باريس المعقّدة الثخينة من طرف إلى طرف، يطعمها زوّارها الذين يتركون لها بعض القطع النقدية على سبيل الإحسان؟ إنها في نهاية المطاف، أوّل شيء جدير بالانتباه ضمن هذه الفوضى الوحشيّة. دعينا نتسلّق السلالم اللولبيّة في هذا الصرح الحجريّ العملاق... سأ تقدّمك، وسأسير أمامك في كلّ زاوية.

هل تسمعين صدى صوتي يتردّد يا صغيرة؟ أحياناً أقرب، وأحياناً أبعد؟

1- ينجم عن تراكم السائل الدماغيّ الشوكيّ في تجاويف (بطينات) الدماغ، ممّا يؤدّي إلى تزايد حجمها ويسبّب ضغطاً على أنسجة الدماغ. أبرز أعراضه عند الرضّع والأطفال هو ضخامة الرأس، وتزايد حجمه بسرعة. المترجمة

السلام هنا تصبح أضيق فأضيق، وتلتف أكثر فأكثر، أعلى فأعلى، إلى أن تبلغ ذلك الارتفاع. من النوافذ الأشبه بالشقوق، يمكنك أن تلمحي المدينة وهي تتضاءل وتصبح أبعد كلما تسلقنا إلى الأعلى. هل تستطيعين سماعي ألهم الآن، وحذائي المحبوب يقرقع على الدرجات الحجرية؟ هذه الدرجات تلتف على مضض الآن، لقد عزفت إيقاعاً وتريد أن تستمر للأعلى، إلى الأبد، لكن ثمة لفة واحدة أخيرة، وها نحن أولاء في قمة البرج الشمالي.

وإذن، ها هي ذي: باريس، كما تبدو من قمة البرج. ماذا أستطيع أن أخبرك؟ سأخبرك بما يلي: باريس تتوضع في منتصف إيل دو فرانس، على ضفاف نهر السين. تقع على خط العرض 48 درجة ونصف وثلاث دقائق في نصف الكرة الشمالي، إلى الشرق من لندن. يبلغ قطرها ميلين اثنين، ومحيطها ستة أميال. ستلاحظين أن المدينة تبدو تامة الاستدارة تقريباً. ألقي عليها نظرة من فضلك، ها هي ذي: باريس، التي كان اسمها الرسمي في السابق هو «لوتيسيا»، وسيفاجئك معنى هذا الاسم: مدينة الطين. بوسعنا أن ندعوها أيضاً: المدينة تحت الأرض، أو ربّما: متاهة الظلال، بل وحتى: العالم مُختصراً. إنها بأكملها هناك، انظري إليها، حية تتحرك. بوسعك أن تري القصور، ذلك هو قصر تويليري. بوسعك أن تري المستشفيات، تلك هي قبة ليزانفاليد. بوسعك أن تري المسارح، ها هو ذا مسرح كوميدي-فرانسيز. بوسعك رؤية السجون، خلفنا مباشرة يوجد سجن الباستيل الرهيب.

ولكن... ماذا يعني كل ذلك؟ كيف يمكن لك أن تتعلميه؟ كيف لك أن تقرّئه؟ هذه الفوضى العظيمة من سطوح المنازل، هذه البلبلة العظيمة من الأبنية والناس، بوتقة الصهر تلك، هذا الحوض العملاق الذي يُسكب فيه كل شيء؟ ثمانمئة وعشرة شوارع، ثلاثة وعشرون ألف مسكن، سبعمئة ألف شخص، كلّهم يقون بداخل المدينة وتوصد عليهم بواباتها - لا يمكنك أن تغادري باريس من دون إذن - وكلّهم، أو معظمهم، يحاولون أن يحيوا، يريدون الأفضل لهم في هذا الوطن، في عالم باريس!

- ومع ذلك، يا حسرة! اسمعيني جيداً يا صغيرة، لقد فهمت حقيقة رهيبة: باريس تختنق! لا يمكنها الاستمرار، لا يمكنها أن تتنفس. إنها تشهق، لكنّ الهواء لا يصل إلى رئتيها اللعيتين. أنت تريدين أن تطرحي سؤالاً يا

صغيرة، أرى ذلك، الجميع يريدون ذلك. تريدان أن تعرفي كيف يستطيع أي كائن أن يتحمل هذا المكان، هذا الوطن البغيض، عاصمة الشقاء. تريدان أن تعرفي كيف يتنفس الناس هذا الهواء المسموم كل يوم، ولماذا يعيشون في مستنقعات البول هذه، وفي الأمكنة التي يملأها البراز. أولئك الذين ما زالت أعينهم قادرة على أن تبصر الضوء، لماذا يختارون أن يحبسوا أنفسهم طوعاً في الأقبية المعتمدة؟ حسناً، سأخبرك بالسبب. إنه بسيط للغاية: العادة. الباريسيّ يربط نفسه بكلّ تلك الشرور، لأنّ هذا المكان -على الرغم من أنّه متسخ وفساد- هو الجحيم الذي نسمّيه وطناً، ولا نغادره أبداً، لأننا نحبه على الرغم من كلّ شيء. نحن نحبه، أنا أحبه.

- هنا تنتهي جولتي. سأخلع فردة حذائي الآن، وأمررها هنا وهناك، أنا ممتنٌ لكلّ ما تهبونني إيّاه⁽¹⁾! أنت لا تملكين مالا يا صغيرة، أليس كذلك؟ إذن، أعطيني قبلة، يا طفلة باريس الغريبة!

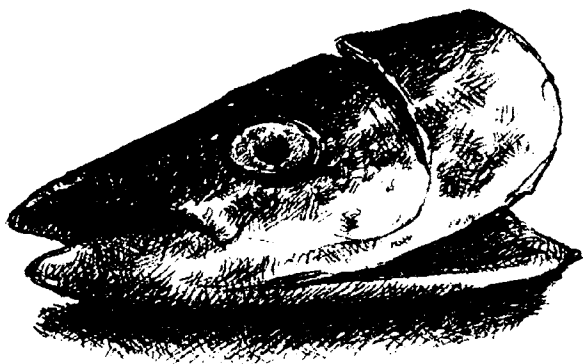
وعندها أقبله على خدّه، من ثمّ يذهب ويتركني في المطبخ، عيناى مغمضتان، وأنا أتخيّل نفسي أطفو فوق المدينة.

1- يقلّد مرسيه حكواتي السوق، فيمد فردة حذائه كي يجمع القطع النقدية التي يهبها له المستمعون. المترجمة

الفصل الثالث عشر

المنبوذة

في المساء، رسمت رؤوس الأسماك التي اشتريتها صباحاً. لا بد من رسم كل شيء، لكنّ مؤونتي من الأوراق المصفرة تناقصت. لففت رسوماتي، وخبأتها في مؤخرة درج في المطبخ. تسللت ليلاً إلى المشغل، حيث رسمت الرؤوس الباريّة التي يصنعها كورتوس. رأسي الشمعيّ الذي صنعه لي في بيرن، لم يعد الآن معروضاً على رفّ، بل ملفوف بخرقة ومخبأ في الخزانة. جلست مع تلك الشخصيات الشمعيّة الجديدة، وشعرت أنها في قمة السعادة لوجودي هناك. إنها تتوق إلى الكلام، فكّرت، لكنّها ليست قادرة على ذلك. ثمّة نوع من الميلانخوليا في تلك الرؤوس الشمعيّة: لم تولّد قطّ، تجسّد الحياة لكنّ الحياة تنأى بعيداً عنها. في اللحظات التي يسود فيها صمت مطبق، أ همس لأنصاف الشخصيات تلك: «سأجلس معك. هل تخافين من الظلام؟! لا تخافي».



لو عشتُم في منزل الخياط الميت آنذاك، لسمعتُم ذلك الصوت، بالكاد ملحوظاً في البداية: تكّات بعيدة، مستنّات تترّ، ضجّة آلة عظيمة تباشر الحياة. لا بدّ من أن تتحلّوا بإيمان عظيم مع ذلك، كي تتمكّنوا من سماع تلك الأصوات، إذ لم يوجد آنذاك سوى أرملة وابنها الذي يأخذ القياسات، طيب أجنيّ نحيل وخادمته الصغيرة، ومنزل في حداد. لقد كان عملاً صغيراً في البداية، لا يجذب الأنظار، وغير واعد بتاتاً، لكنّ الناس يجدون طرقاً متنوّعة للمضيّ قدماً. هناك آلاف المشاغل الشخصية الصغيرة، في أرجاء المدينة: في شارع «رو دي شيان» كما أخبرني مربيّه، هناك أبّ وابنه يصنعان عيوناً زجاجيّة، بدأ كورتيوس باستعمالها في رؤوسه الشمعيّة. على رصيف مرسى «كاي دي مورفوندو»، رجل يتاجر بباروكات الشعر المستعار المستعملة، التي يشتريها كورتيوس أيضاً من أجل رؤوسه الشمعيّة. في شارع «رو سينسيه»، مدرسة صغيرة لصناعة الأزهار، أسستها سيّدة من تولوز، والأرملة تستخدم تلك الأزهار لتزيين مشغل كورتيوس، الذي تحوّل الآن إلى غرفة جلوس. في شارع «رو دو بتي موان»، ورشة صغيرة تنتج تماثيل نصفية من الشمع لرجال أعمال باريس المغمورين. يجد الناس إذن، طرقاً متنوّعة للمضيّ قدماً!



مرّت الشهور، وخاطت الأرملة ملابس للتماثيل النصفية. ذات مرّة، وأنا ألّمع الأدوات، أمسكت الأرملة أحد تلك التماثيل وهي تتكلّم، من ثمّ وضعته من يدها مجدّداً لكن بلا حرص، فاهتزّ التمثال للأمام وللخلف قليلاً. نظر كورتيوس إلى الرأس المتأرجح، وصاح: «آه! ضجّة عظيمة!»، من ثمّ قال: «أن تضعه هكذا! كأنّه شيء في دكان جزّار!».

هذا هو الدكتور كورتيوس، فكّرْتُ، ها هو ذا يعود! لكنّه شعر بالخجل

من نفسه على الفور. بقيت الأرملة صامته، لم تفهم ما قاله لكنها فهمت غضبه، من ثم انهمرت دموعها فجأة. عندما رأى الدكتور كورتيوس ذلك، سألت دموعه بدوره، إلى أن امتلأت الغرفة بنحييهما. يا للأسى على وجهها! وكيف غصّت بدموعها، وهبّ ابنها إلى جوارها على الفور! لم يمض على وفاة الخياط سوى بضعة أسابيع فحسب، ذكرت نفسي، وحزن الأرملة ما يزال طازجاً للغاية، يطبق قبضته عليها. لم تكشف الأرملة عن مشاعر مماثلة مرة أخرى قط، لكنها بدت هكذا في تلك اللحظة: كائن بشري، يسعى إلى البقاء.

من ثم، وهي تجفّف وجهها بمنديلها، تلفّت الأرملة حولها فاكتشفت أنني أراقبها، وأدركت في تلك اللحظة أنني فهمت ما رأيتُه لتوي. انقلبت شفتاها نحو الأسفل قليلاً، نظرتها تتمّ عن الإدراك المطلق، وعندها عرفتُ أنني جعلتُ من نفسي عدوّها اللدود، لأنني فهمتُ ضعفها.

منذ تلك اللحظة فصاعداً، لم تتعامل الأرملة قط مع أيّ رأس شمعيّ إلا بحرص. اكتفت في البداية أن تتحرّك بحذر أكبر، لكنها مع مرور الوقت -أعترف بذلك- بدأت بإظهار المزيد من الرقة فيما تقوم به، كأنها أدركت مدى اهتمام كورتيوس بعمله، وكم يقلق بشأن تلك الذقون والآذان، وكيف يتعاطف مع كلّ طيّة من طيّات الجلد، كورتيوس الذي يعشق الأجفان والشفاه، ويتنشي بالحواجب، ويمسّد بحماس كلّ شامة وكلّ غمّازة. إن كان لدى الشخص شعرتان أو ثلاث نسيها الحلاق تحت أنفه، سيحرص كورتيوس على أن تصبح تلك الشعيرات جزءاً من الرأس الذي سيصنعه. لا يهتمّه وجود دمامل مفتوحة حول الأنف، ولا المسامات الواسعة إلى حدّ أنها مرئية من على بعد عدّة خطوات. لا يهتمّه إن كانت العينان حولاًوين تميلان نحو الخارج، ولا إن كانت البشرة لمّاعة إلى درجة تستدعي طلي الرأس الشمعيّ باللورينش، كي يوحى بوجود بقع من العرق. لقد أحبّ كورتيوس كلّ رأس جاء إليه، وكان وجه الأرملة هو الوجه الذي رآه أكثر من بقيّة الوجوه جميعها، وفي تلك الألفة نما اهتمام.

راقبت الأرملة كلّ ما سبق، وتعلّمتّه.

وعندما تعلّمت، يؤسفني أن أقول هذا، تغيّمت حدود الملكيّات: عدتُ إلى ورشة كورتبوس كلّما تسنّى لي ذلك، ودائماً ما اكتشفتُ تطوّرات جديدة رهيبة. على سبيل المثال، انضمتْ أدوات الأرملة إلى أدوات كورتبوس فوق الطاولة. كانت موضوعة في البداية على حدة، في جهة واحدة، لكنني رأيتُ لاحقاً تلك الأدوات المختلفة، أدواتها وأدواته، تقترب أكثر وتتعارف. ذات مرّة، رأيتُ الأرملة تمدّ يدها إلى مِبْرَل الدكتور كورتبوس، ذاك ذو الساق المستقيمة، المُصمَّم لاختراق الجلد بغية تفريغ الدماطل العميقة، لكنّ كورتبوس يستعمله بنجاح باهر لحفر مجرى السمع في الأذان الشمعيّة. أخذت الأرملة تلك الأداة، واستعملتها لثقب قماش الكاليكو⁽¹⁾... لكنّ الأمور لم تتوقّف هنا، على نحو لا يُصدّق، استعار كورتبوس الخطّاف الرفيع الذي تستعمله الأرملة لفتح عرى الأزرار، واستعمله كي ينحت فوهات المناخير. وهكذا، كما يتبيّن لكم، اضطررْتُ إلى التصرّف قبل فوات الأوان. أنا وحدي القادرة على إعادة النظام إلى المنزل، أنا وحدي القادرة على مساعدتهما. أنا من يفترض بها أن تحافظ على الأشياء في مكانها الصحيح، ذلك كان أحد واجباتي، وهو ما فعلته. لملمتُ كلّ أدوات الأرملة تلك، وربّتها بأناقة في مشغل الخياطة، حيث يجب أن توضع أصلاً. هل تلقّيتُ الشكر على حرصي الفائق ذاك؟! كلّاً! كم تذرّ كلاهما، كم تأوّها، وكم اشتكيا من أنّهما عاجزان الآن عن إيجاد أيّ شيء! أنا سيّئة، قالا، بل سيّئة جداً، وقالت الأرملة إنه لا بدّ من إعادتي إلى بيرن، إلى حيث أنتمي، لأنني أزيح أغراض الناس من مكانها. قالت إنه لا بدّ من طردني من فرنسا، حيث لا يريدني أحد، ولا يرحّب بي أحد. إلى أين سيعيداني؟ تساءلتُ، لكنّ سيّدي رفض أن يطردني، وقرّر تأديبي.

أعلنا لي أنني سأعاقب على خطاياي، فتوقّعتُ أن أضرب، وتساءلتُ من منهما سيقوم بذلك، كورتبوس أم الأرملة؟ لكنّهما لم يضرباني، ويا ليتهما فعلاً ذلك! لقد حظرا عليّ الدخول إلى المشغل، ممنوع عليّ أن أدخل إلى هناك مجدّداً! ممنوع أن أعيش خارج الحدود المسموح لي بها! توسّلتُ إلى

1 - نسيج سميك خشن من القطن الخام، نصف المعالج وغير المُبيّض. المترجمة

سيدي، لكنّه ببساطة ربّت بحنان على قَمّة رأسي، على قلنسوة الخادمة التي أعتمرها، وكرّر على مسامعيّ أنّ القرار قد حُسم. كان ذلك بمنزلة نوع من الوداع، إذ إنني لم أره بعد ذلك سوى بضع دقائق كلّ يوم، وتحت إشراف الأرملة غالباً.

لقد أراني كورتيوس الكثير من الأشياء، والكثير من العاطفة أيضاً. لربّما لم يجدر به ذلك، فكّرْتُ، فلو لم يفعل لبعيْتُ صامته، ولكنّْ خادمة ممتازة، ولما امتلكتُ العديد من الأفكار، لكنّه جعلني أذوّق كلّ هذا - العمل، التفكير، الشمع - ولا يمكنني أن أنتزع ذلك الطعم من فمي، بل سأتمسك به. كلّ ليلة، عندما ينام الجميع في الطابق العلويّ، كنت أتسلّل إلى المشغل حيث تخبرني الرؤوس الشمعيّة بكلّ ما حصل خلال النهار، وكنتُ أرسم أيضاً، أخذتُ كتب التشريح الخاصّة بكورتيوس، أدرسها وأرسم. كم تقبّ لرؤيته، لكنّه لم يعد يأتي قط إلى المطبخ كي يراني، مربيّه هو الوحيد الذي يزورني بين حين وآخر، كي يقرص خديّ بأصابعه الملطّخة بالحبر، من ثمّ يندفع خارجاً كي يتجوّل في مدينته.

وهكذا، في ذلك اليوم بالتحديد، ابتهجتُ في البداية عندما قرّع باب المطبخ، ودخل سيدي.

«ماري!» قال، من ثمّ أضاف: «لقد فقدت الأرملة العديد من أوراق نماذج الخيّاط. هل رأيتها؟».

«نماذج الخيّاط؟! أنا لا أعرف عمّا تتكلّم، صدّقني!»

اهتاجت الأرملة، كلّ تلك الأوراق المصفّرة التي سرقتها، كانت نماذج تعود لزوجها الراحل. اتهمّني بإحراقها، ونعتني بالطفلة الأجنبية الشريرة التي لا تتعلّم أبداً موقعها.

«ماري!» قال سيدي وعيناه تدمعان، «سوف تُضربين الآن».

«كلّا سيدي، كلّا!»

ولكن عندها، قال ذلك الصبيّ ذو الملامح الجامدة شيئاً ما، مجرد ثلاث كلمات سبق لكورتيوس أن علّمني إيّاها: «أنا» و«مَنْ» و«أخذها». من ثمّ، ساد الصمت.

لكنّ ذلك ليس صحيحاً، أنا من أخذتها وليس هو، فلماذا يكذب الآن؟! لماذا قال تلك الكلمات الثلاث، التي تسبّبت بذلك الصمت في المطبخ؟! جرّت الأرملة ابنها خارجاً.

«يجدر بها أن تعتذر منّي يا سيّدي» قلتُ وأنا لا أكاد أصدّق جرأتي، لكنني صمّمتُ على استغلال ما حصل إلى أبعد مدى. «لا بدّ لها أن تعتذر!»، أضفتُ.

«ماري!» قال كورتوس، «يجب أن أعتذر لك، كنتُ متأكّداً من أنّك أخذت الأوراق، ولذلك أنا أسف للغاية».

لم تجعلني كلماته تلك أشعر بشعور أفضل بناتاً.

ولكن... لماذا كذب الصبي؟! لماذا؟! لم يقل لي شيئاً.

ذات مساء، عندما صعدتُ للطابق العلويّ كي أغيّر ملاءات سرير كورتوس، اكتشفتُ شيئاً رهيباً. عندما ألقيتُ نظرة من أحد الأبواب المفتوحة، اكتشفتُ أن الأرملة نزعَت قلنسوتها كاشفة عن حزمة لا تصدّق من الشعر! حول ذلك الشعر العظيم، يتحرّك إدموند برشاقة مسلّحاً بمشط. عينا الأرملة الجاحظتان مغمضتان، إنّها مسالمة الآن. بقيتُ هناك في العتمة، وراقبتُ إدموند يسرّح الخصلات المتشابكة، غارقاً إلى مرفقيه كما تراءى لي ضمن ما ينبتُ على رأس أمّه. هنا أمامي توجد كلّ نعومة الأرملة، التي تبقى محجوبة عن الأنظار طيلة النهار، لكنها تُفكّ وتُسرّح بلطف من قبل الابن في المساء. مشطُ إدموند برقة كلّ نعومة أمّه، قبل أن يجمع كلّ ذلك الحبّ مجدّداً، ويضفره على شكل مصران غليظ من الشعر، ثمّ يلقّه حول رأسها ويثبتّه بالدبابيس، ويخبّئه مجدّداً تحت القلنسوة القماشية السوداء الضخمة. ربطتُ الأرملة بنفسها عقدة القلنسوة تحت ذقنها السمين، وما إن اختفى شعرها عن الأنظار حتّى ظهرت غلاظة قلبها مجدّداً. انفتحت عيناها، والتفتت فجأةً فرأتني عند الباب. هربتُ راکضة، كلّ ذلك الشعر ذكّرني بإحدى الشخصيات في إنجيل أمّي: مريم المجدليّة، هناك في البريّة.

كوفنت على التجسّس على الأرملة في غرفة نومها - «التجسّس» كانت كلمتها هي - أن مُنعتُ من الصعود إلى الأعلى في المساء. «رجاءً يا ماري،

لا تزعجيهما!»، توّسل إليّ كورتيوس. من الآن فصاعداً، لم أعد مسؤولة عن تنظيف غرفة نومه، بل ستتولّى الأرملة ذلك بنفسها. أنا مجرد خادمة مطبخ تقريباً الآن! جلستُ في المطبخ، وكم غضبتُ! غضبتُ إلى حدّ أنني لم أعد قادرة على التحمّل، فاندفعتُ إلى ورشة كورتيوس من دون أن أقرع الباب.



«إن كنتُ خادمة، فيجب أن تُدفع لي أجوري! المتمرّنون يعملون من دون مقابل، لكنني متأكّدة من أنّ الخدم يتلقّون أجوراً»، صرختُ.

«ماري! ماذا تفعلين هنا؟!»

من ثمّ تكلم كورتيوس مع الأرملة، وفهمتُ من خلال إيماءاتهما أنهما يناقشان مسألة النقود. مددتُ يدي، فضحكت الأرملة.

«لا نقود؟!»، سألتُ.

«حسناً، كما ترين» قال سيّدي، «أنا أريد أن أدفع لك، سأدفع لك ذات يوم، لكننا لا نملك الآن الكثير من المال. لاحقاً، سيتوفّر لدينا مالٌ كافٍ،

وسأدفع لك، لكن ليس الآن. الآن يا صغيرة، نحن ندفع لك أجورك نحن نطعمك ونؤويك».

«يجب أن يُدفع لي أجر» قلتُ، «أنا شبه متأكّدة من هذا الأمر!». «حسناً، أجل، قد تكونين على حقّ. أنا لا أعرف عادات باريس، لكنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام». «حقّاً؟!»

«آه، أجل»

قالت الأرملة شيئاً ما، فابتسم كورتيوس ابتسامة صغيرة.

«آه يا ماري، أظنّ أن عليك الذهاب الآن»

«هل هذا ما تعتقده يا سيّدي؟»

«آه... أجل يا ماري، أظنّ ذلك»

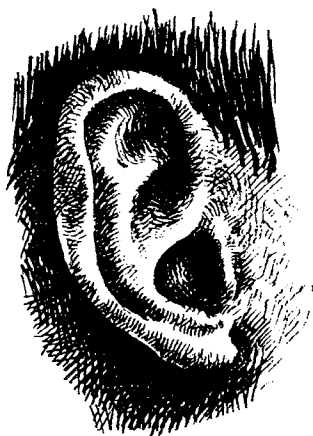
«سأغادر إذن!»

ولم يكن لديّ مكان أذهب إليه باستثناء المطبخ. إن غادرتُ المنزل، فما الذي سيحدث لي؟! لا خيار أمامي سوى البقاء هنا، إنّهُ خيارِي الوحيد في الحياة، وإلا سأفشل كتلك المرأة الميتة التي رأيتهَا في الشارع. فضلاً عن ذلك، لا يمكنني أن أهرب من سيّدي! كيف سيتدبّر أموره من دوني؟! ستلتهمه تلك الأرملة حتماً، وتهضمه.

الفصل الرابع عشر

إدموند، في المطبخ

كنت واقفة على دكة في المطبخ أسلخ أرنباً، ولا بدّ أنّي كنتُ مستغرقة في عملي لأنني انتبهتُ فجأةً لصوت حفيف خافت حولي. لم أكن وحدي إذن، ابن الأرملة يقف إلى جوارِي! حدّق إليّ لفترة طويلة، وحدّقْتُ إليه بدوري. «لا تلمس!» قلتُ له بلغته، من ثمّ أضفتُ بعد لحظات: «شكراً لك». احمرّت أذناه على الفور، كما لاحظتُ. إنه يملك -بوسعي أن أقول هذا الآن- أجمل أذنين صادفتُهما حتّى تلك اللحظة. ظلّ وجهه شاحباً، لم يرتجف، لكنّ أذنيه احمرّتا. أخيراً، هزّ الصبيّ رأسه على نحو لا يكاد يُرى، كأنّه كان يفكّر بمسألة ما بجديّة تامّة، وها هو ذا يتوصّل الآن إلى استنتاج. فتشّ في جيوبه، من ثمّ أخرج دمية هزيلة جدّاً مصنوعة من القماش.



«إدموند»، قال وهو يشير إلى الدمية.

«إدموند؟!»، سألت وأنا أشير إلى الدمية بدوري.

«إدموند»، أجاب.

«إدموند؟! إدموند وإدموند؟!»

أوماً بالإيجاب. لقد سمى الصبي دميته باسمه. فهمتُ على الفور أن هذه الدمية تمت بصلة قربي إلى تلك التي تجسّد الخياط الميت. هنا، في هذا المنزل الكئيب، تتكاثر أشكال العائلة. ثمة عائلة من لحم ودم، وهناك عائلة ثانية أيضاً، عائلة من القماش. قد لا ترون هذا الشعب القماشي في البداية، لأن أهل القماش لا يهتمون إلا بشؤونهم الخاصة فقط، إنهم قبيلة متجهمة عبوس، ولكن بعد فترة، سيعلن النسيج الخشن الذي صنّعوا منه عن وجوده من خلال هيئاتهم البشرية المبهمة، ومن خلال تنهيداتهم التي لا تكاد تُسمع. إنهم يشغلون حيزاً، إنهم أحاسيس بشرية مصنوعة من الخرق، مفعمة بالأمل في الضوء الصحيح. ها هو ذا تجسّد لإدموند، ابنٌ لدمية الخياط. تأملتُ هذا الشيء، وبعد فترة من الصمت والتفكير، غسلتُ يدي، وأخرجتها بحرص: «مارتا» قلتُ، لقد التقى بها إدموند من قبل، لكنّه لم يعرف اسمها.

وضعتُ مارتا فوق الطاولة، فقرّب الدمية إدموند منها بحرص. إدموند الدمية مصنوع من عشر أو اثنتي عشرة قطعة قماشية مختلفة تقريباً، معظمها رمادية اللون، وجسده ملفوف بأكمله بالخيطان كي تبقى أجزاؤه معاً. إنّه مزيج فوضوي من الخرق المقصوفة الممزقة، ولم أتبيّن أين توجد أطرافه بالضبط. لقد رُقِّعت هذه الدمية مراراً وتكراراً على ما يبدو، باستخدام قطع من القماش خاطها الصبي إدموند بنفسه. إنّه صبيٌّ - دمية قماشي منمنم، حارس سرّي، شخص صغير نقلق عليه ونهمس له.

جلسنا معاً إلى طاولة المطبخ، أنا أنظر إلى دمية إدموند، وهو ينظر إلى دميّ مارتا، إلى أن أعاد إدموند دميته إلى جيبه من ثم نهض. انحنى، وغادر من دون أن يضيف كلمة أخرى. فهمتُ أهمية هذا اللقاء، لقد كشف عن نفسه كلياً، بالطريقة الوحيدة الممكنة بالنسبة له: بواسطة دمية قماشية رطبة قليلاً، ولم تكن تلك سوى المرّة الأولى فحسب التي سيزورني فيها إدموند في المطبخ.



منذ تلك اللحظة فصاعداً، سيأتي الصبيّ الشاحب لزيارتي كلّما غادرت والدته المنزل. يجلب معه أضراراً كي يشغل نفسه بشيء ما، ويرتّبها في صفوف على ركبتيه. كان صامتاً صمتاً مطبقاً في البداية، حاولتُ أن أرسمه، لكنني عندما وضعتُ قلم الرصاص فوق الورقة، حيث أبدأ عادة برسم أنف الشخص، احترتُ! لأنّ أنفه لم يبدأ أنفاً حقاً، ولم تبدُ عيناه حقيقيّتين، ولا فمه كذلك، أذناه وحدهما قدّمتا لي العون عندما احمرّتا. في البداية، خشيتُ أن الدمية إدموند القماشية تملك شخصية أكثر من الصبيّ الحقيقيّ، لكنّه بدأ يظهر أكثر فأكثر كلّما ركّزتُ عليه، كـ «خنفساء ساعة الموت»⁽¹⁾ التي لا تظهر إلّا بعد أن ينام الجميع، حينما تبقى أنت ساهراً كي تؤنس الجثّة. ما إن عثرتُ على إدموند، ما إن رسمته بقلم الرصاص أمامي، حتّى بدأتُ أراه بوضوح، كأنّه أحجية بازل قمتُ أنا بحلّها.

شفته مكنترتان، عيناه خضراوان، فتحتا منخريه ليستا متساويتين، لديه بعض النمش على أنفه، وثرمة شامة صغيرة على عنقه من الخلف. رسمته عدّة مرّات، إلى أن اعتاد على ذلك تماماً، حتّى إنّه بدأ ينزعج بعد فترة إن لم أرسمه.

1- نوع من الخنافس يعيش في الخشب العتيق أو الميت، مسبباً أضراراً بالغة. الخنافس البالغة تصدر صوتاً أشبه بتكات الساعة، وساد الاعتقاد سابقاً أن سماعها هو نذير بالموت. المترجمة



آنذاك، كنتُ أحيّا في «ضباب الأجنبيّ» على حدّ قول مسيو مرسيه، ممّا يعني أنني لم أكن موجودة بشكل تامّ. لم أفهم سوى القليل فقط، باستثناء تلك الكلمات التي تخاطبني بها الأرملة. لاحقاً، أصبح لديّ بدوري معلّم، يعلمني كلّما خرجت الأرملة مع سيّدي. عندما أتى إدموند إلى المطبخ، قرّرتُ أنه يتوجّب عليه القيام بما هو أكثر من إخراج دميته وأزواره من جيبه. التقطتُ خرقة -سبق للأرملة أن علّمتني هذه الكلمة- وعرضتها عليه.

«خرقة» قلتُ، «خرقة، خرقة، خرقة».

لم يقل إدموند شيئاً.

أشرتُ إلى النافذة. «نافذة» قلتُ، ثمّ أشرتُ إلى الدجاجة التي تتسكّع في المطبخ. «دجاجة» قلتُ، «دجاجة».

لم يقل إدموند شيئاً.

أشرتُ إلى الزرّ بيده، أشرتُ إليه مرّة ثانية، وثالثة.

أخيراً، سألني بلغته: «زرّ؟!».

«ز-ز» ردّدتُ، «ز-ز».

فقط بعد «قميص» و«ياقة» و«شعر»، فهم إدموند أنه سوف يعلمني

اللغة الفرنسية. ذهبنا إلى غرف ورشة الخياطة التي أصبحت مملكته بعد أن أهملتها أمّه، أنا أشير إلى شيء ما، وهو يخبرني باسمه، من ثمّ يمتحنني به في المرّة التالية. كان في منتهى الجدّة، إن أخطأتُ سيهتَز وجهه ذو الملامح الجامدة قليلاً، لكنّ صوته لن يعلو أبداً، بل سيبقى دائماً لطيفاً وهادئاً.

تعلّمتُ اللغة الفرنسيّة من خلال لغة الخياطين، علّمني إدموند ما يعرفه عن العالم، تماماً كما علّمني سيّدي معارفه الخاصّة. كلماتي الأولى لم تكن «قطّة» أو «جرذاً»، بل بالأحرى «خيط»، «مقصّات»، و«بكرة». تعلّمتُ «وصلة» قبل أن أتعلّم «تصبح على خير»، و«خيش» قبل «كيف حالك؟». تعلّمتُ «كاليكو» قبل «مرحباً»، و«كشتبان» قبل «الترنيمه». تعلّمتُ «مكواة العري» و«خرّامة»، تعلّمتُ «مُطبّعة» و«مكبس»، «قياس الياقة» و«قياس السترة». لقد انغمستُ في عالم الكلمات هذا!

أثمن مقتنيات إدموند بعد دميته القماشية التي تدعى إدموند، كان شريط القياس الخاصّ به: حبل طويل من الجلد الرقيق، يحمل علامات صغيرة وكبيرة على جانبيه كليهما. ثمة العديد من أدوات القياس الأخرى، عصي خشبيّة طويلة تحمل أرقاماً على جوانبها، لكنّ شريط القياس هذا كان ملكاً لإدموند، يربطه على خصره عندما لا يستعمله. أخذ إدموند قياساتي، وبعد أشهر من دروسنا السريّة، لم يعد يرضيني أن أقول له: «اسمي ماري»، بل يجب أن أقول له الآن: «اسمي ماري. قياس كتفي هو إنشان وربيع الإنش، قياس عنقي سبعة إنشات وثمان الإنش، قياس ذراعي من حفرة الإبط إلى حافة الكمّ هو خمسة عشر إنشاً وثلث، قياس ساقي ستّة عشر إنشاً وسُبع الإنش، قياس خصري سبعة إنشات وثلث». بحلول الوقت الذي تعلّمتُ فيه قياساتي تلك مع إدموند، أصبحتُ قادرة على فهم معظم ما يقوله لي.

بعد فترة، طالبتُ إدموند بالمزيد. أردتُ كتباً، كتباً تساعدني على أن أتعلّم، لأنني أردتُ أن أعرف ما هو أكثر من مفردات الخياطين. مع معلّمي إدموند، تقدّمت لغتي، وبلغتُ مستوى معلّمي البعيد، بل إنني تفوّقتُ عليه بعد ذلك، لأنّ الأرملة كانت توقّفي أحياناً وتساءلني: «كيف تعرفين تلك الكلمة؟! لم أعلمكِ إيّاها قط!».

واقفين أمام دمي الخياط في الغرفة الأمامية، سألني إدموند بأسلوبه الهادئ الدقيق: «هل لي أن أعرفك على دمي المتجر كما ينبغي؟ نحن نبيعها إلى بعض المتاجر في شارع رو سان-أونوريه، ربما خمس منها كل عام. بعضها ذكور، بعضها إناث، وها هي ذي. كلها تملك الوجوه نفسها والتعبير ذاتها كما ترين، كلها، بغض النظر عن جنسها. لا يختلف بعضها عن بعض إلا أن البعض منها جالس، والبعض الآخر واقف، بعضها له أئداء وأوراقها أعرض قليلاً، وعددٌ تلك التي تقف يفوق عدد التي تجلس. لقد صُنِعت على هيئتي، ألم تلاحظي ذلك؟! ذكوراً وإناثاً، أنا المقياس العام لدمي المتجر. كانت تلك فكرة أمتي، تحب أن تراني هنا وهناك في رو سان-أونوريه مرتدياً تلك الملابس. هذه الدمى كما أفترض، هي أخوتي وأخواتي».

كم عدد الإدمونديين هناك في العالم؟!
 «شكراً لك يا إدموند. شكراً لك لأنك أريتني الدمى»
 «على الرحب والسعة»

«أنت ثرثار اليوم!»

فكرتُ بإدموند عندما كان غائباً، إنه رفيقي. توالى المساءات التي نقضيها معاً، وتعلّمتُ المزيد من الأشياء. تعلّمتُ أسماء أجزاء الجسد البشري: ذراعان، ساقان، رأس، أذنان، عینان... إلخ، هذا سهل، لكنّه غير كافٍ. «يجب أن أتعلّم المزيد» قلتُ له، «أريد أن أرى الأشياء، لديّ جوع كهذا يا إدموند».

«حقاً؟! ذاك هو المطبخ، وفيه طعام. أنا جائع أيضاً»
 «ليس ذلك النوع من الجوع!»
 «لا؟ ليس هذا؟»

«لا، أريد أن أعرف الأشياء. أريد أن أعرف كلّ شيء! حتّى هنا في هذا المنزل، هناك الكثير ممّا ينبغي أن أتعلّمه. اعتقدتُ أنني رأيتُ كلّ شيء، نظرتُ في كلّ خزانة، أزحّتُ كلّ ستارة، استكشفتُ الرفوف كلّها من أعلاها إلى أسفلها، ولكن عندها، عندما أكون متأكّدة من أنّه لم يبق شيء بتاتاً، عندما أفكر أنني أخيراً نظرتُ في كلّ الزوايا، أرى فجأةً شيئاً جديداً!»

«ماري! هل كنتِ تختلسين النظر هنا وهناك مجدداً؟!»

«هناك مثلاً: أنتِ»

«أنا؟!»

«أنتِ شخص ما»

«أنا كذلك، أعتقد هذا فعلاً»

«لا أعرف كيف تبدو تحت ملابسك» قلتُ، «إنه دُرُجٌ لم أفتحه بعد.
اخلع قميصك، أريد أن أرسمك»

«كلّا!!»

«آه هيا! لا تكن نيّقا! لقد رأيتُ العديد من الأجساد، في بيرن. رأيتُ ما
يوجد بداخل الأجساد. هيا إدموند، دعني ألقِ نظرة»

«ماذا تفعلين؟!»

«أنا أنزع عنك ثيابك»

«آه! لا!»

«سأنزع عنك قميصك»

«آه! أرجوك!»

«أنا أعرف كلّ شيء عن الأجساد. الدكتور كورتويس علّمني»

«يا إلهي!»

«أجل! هل رأيتِ كيف فككتُ أزرار قميصك؟»

«أجل رأيتُ، شعرتُ بذلك»

«سأعلّمك، يا إدموند بيكو! سأعلّم كلّ جزء منك»

«أمي! قد تدخل أمي إلى هنا!»

«لقد خرجتُ»

«قد تعود في أية لحظة»

«لدينا وقتٌ، أنت تعرف هذا»

«أشعر بالبرد»

«إذن اقترب من الموقد»

«يا لنظراتك!»

«أريد أن أراك»

«وكيف تحدّقين إليّ!»

«هل أستطيع أن ألمسك؟»

«يجب أن أذهب»

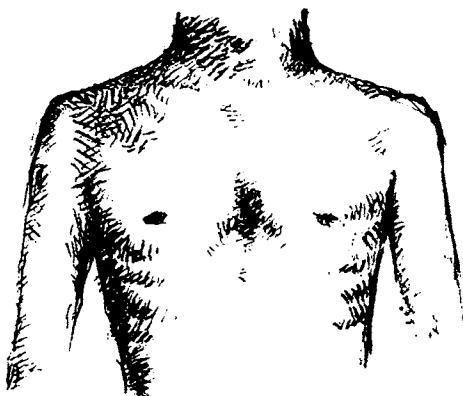
«أنا أرى هيكلك الصغير، أضلاعك، الحياة تتحرّك تحتها! إدموند

بالجلد البشريّ! أنت جميل!»

«ماري! ماري توقفي!»

«أريد أن أنظر! أبعّد يديك يا إدموند. أريد أن أنظر!»

«لا أستطيع! لا أستطيع! يكفيني أنّك تحدّقين إليّ!»



رنّ الجرس، لقد عادت الأرملة. ارتدى إدموند قميصه بسرعة، مرتعّباً.

«إدموند!» نادته الأرملة، «أين أنت؟».

ارتجفت يده بشدّة وهو يركض إليها، ولم يعد بعد ذلك إلى المطبخ طيلة أيام. عندما ظهر أخيراً بذريعة ما، كان ما يزال مترعجاً كما هو واضح.

«آها! ها أنت ذي! لم أعرف أنه يجب عليك أن...»

«أنا أتواجد عادة هنا: في المطبخ!»

«أجل أجل، حالياً، وربما تبقي هنا إلى نهاية الشهر. ربما»

«لماذا شهر؟!»

«لا أظن أنك ستمكثين أكثر من شهر. أمي لا تحبك، وهي معتادة على تنفيذ ما تريده»

«آه إدموند! أرجوك! إدموند، هل ستساعدني بما يخص أمك؟! لا أريد الرحيل. لا أملك مكاناً أذهب إليه!»

«عليك أن تنفذي كل ما تطلبه منك»

«حسناً، سأفعل ذلك، سأبذل قصارى جهدي»

«يجب ألا تكسري شيئاً، ولا تزichi شيئاً من مكانه»

«سأفعل أفضل ما في وسعي»

«تقول أمي أنك تتكاسلين دائماً»

«لم أقصد ذلك! يجب أن يدفع لي مالاً، إدموند. لم يدفع لي أجوري بعد!»

«لا تطلبي مالاً يا ماري، لا تُغضبيهما بأيّة طريقة كانت»

«سأحاول! هذا ليس سهلاً دائماً»

«يجب ألا تنزع قميصي عني»

«لن أفعل يا إدموند، لن أفعل ذلك مرّة أخرى»

«أنت خادمة»

«لم أقل شيئاً»

«أنت الخادمة، وأنا السيّد الصغير في هذا المنزل»

«لم أقل شيئاً»

«وذات يوم، سأصبح خيَاطاً»

«لا شيء»

«ذات يوم، سأصبح خيَاطاً عظيماً. أنت خادمة»

«هل ستساعدني؟»، سألتُه.

«أجل، سأحاول»

«أريد أن أبقى هنا»

«إذن، عليك أن تحسني التصرف»

عملتُ. كنتُ الخادمة، أفضل خادمة استطعتُ أن أكونها على الإطلاق! اختفيتُ، ابتكرتُ نظاماً عظيماً للاختباء، بوسعي من خلاله أن أنسحب إلى أعماق أعماق نفسي، بحيث أبدو المخلوق ذاته ظاهرياً لكنني مختلفة تماماً في الحقيقة. رميْتُ كلَّ أفكاري ومشاعري إلى أعماق ذاتي حيث بقيتُ بأمان، لكنني أصبحتُ أشبه بالأوتوماتون⁽¹⁾ بالنسبة للعالم الخارجي، تعبّثني أوامرهم كما تُعبأ الساعة اليدوية، وأنقذها بطريقة ميكانيكية على النحو الأمثل. أجبرتُ نفسي على التزام الصمت، ولعبتُ دور الخادمة كي أحظى بفرصة للحياة، أمّا عندما أكون وحدي، عندما يكونون بعيدين عني، سأنده نفسي كي تعود إليّ، وعندها أصبح ماري من جديد.

ما زلتُ موجودة!

1- آلة مصمّمة بحيث تتبع أوتوماتيكياً مجموعة محدّدة من التعليمات المبرمجة مسبقاً، من دون تدخّل الإنسان. المترجمة

الفصل الخامس عشر

مواطنُ العام 2440 م

لا بدّ لي من أتحدّث قليلاً عن أمور أكبر، أمور مهمّة ذات صلة بفرنسا، فقد اكتشفتُ فجأةً أنني أعرف شخصيّة مشهورة للغاية، بالصدفة!

بينما انشغل كورتيوس بصناعة التماثيل النصفية الشمعيّة، وإكسائها بالملابس، تزوّج الابن البكر لملك فرنسا من ماري أنطوانيت النمساويّة، في عالمٍ آخر بعيدٍ كما بدا لي. في باريس، خلال الاحتفال الجماهيريّ بالزفاف، اشتعلت بعض الألعاب الناريّة قبل الأوان، فدبّ الذعر بين الناس ومات مئة وثلاثة وثلاثون باريسياً سحقاً تحت الأقدام، من بينهم الكثير من النساء والأطفال. بعد حادث الموت سحقاً تلك، ساء مزاج لويس - سباستيان مرسية إلى حدّ أنّه عجز عن تهدئة نفسه. جمع كلّ دفاتره، واكتشف ثيمة رهيبية توطّر عمله بأكمله، ألا وهي: المعاناة. لبضعة أيّام، عجز عن التنزّه في شوارعه المعتادة.

«أنا أكره هذا المكان الآن يا صغيرة، أكره هذا المسلخ، حفرة القاذورات هذه! يا لنا من وحوش لا مبالية! يا للكوارث التي نتسبّب بها!».

ظلّ مرسية يتحدّث مع سيّدي ومع الأرملة عن هذا الموضوع، إلى أن نهزّته هذه الأخيرة، فجاء إليّ. أجلسه، وقدمتُ له كأس نبيذ من دورق الأرملة.

«أخبرني» قلتُ له، «أخبرني كلّ شيء. عجّل قبل أن يندها عليك مجدّداً!». وهكذا، أخبرني عن الأجساد المسحوقة، عن الصراخ، عن الدماء، وأن الملك لم يفعل شيئاً إزاء ما حصل. من ثمّ، خلع حذاءه ووضعه فوق الطاولة.

«لقد أهينَ حذائي!»، قال.

«لقد فركتُ الطاولة لتوي!»، قلتُ.

«ربّما أنتَ على حقّ بالبقاء حبيسة في الداخل»

«كلّا! لا تقل هذا!»

«يا لهذا العالم! لا أريد صلة به!»

«حقّاً؟! لِمَ لا تحكي لي؟»

«ليتني لا أمشي سوى على أرض كهذا السطح الخشبيّ، مغسولة ونظيفة، أرض جديدة، أرض لم تُكتشف بعد. أجل، ليتني أستطيع ذلك... ولكن حسناً، لِمَ لا؟! أجل، هذا هو! منزل جديد! نعم، نظيف! أجل يا صغيرة، لمعيه بفرشاة الفك هذه!»

اختطف حذاءه عن الطاولة، واندفع خارج المنزل.

تأثّقاً إلى التزّه في مكان أكثر سعادة، بدأ مرسيه بكتابة دليل عن باريس في المستقبل، عن متروبوليس متناغمة خالية من المشاكل، عن يوتوبيا، وعنّون كتابه ذاك بـ «باريس في عام 2440 م». جلب الصفحات معه عندما زارنا، وقرأها لي في المطبخ.

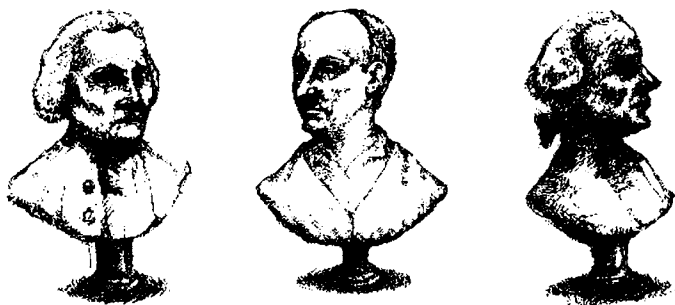
«لن يُسحق الأطفال الصغار أبداً تحت العربات في مدينة باريس عام 2440. الملك شخصيّاً سيتجول غالباً على قدميه، ملتزماً بقوانين السير أينما ذهب، ولا طين في الشوارع. سيتلقّى الفقراء رعاية طبيّة مجانيّة، وفي البقعة ذاتها التي شغلّتها سابقاً تلك القلعة القبيحة، سيُشيّد في عام 2440 معبد باستيل سان أنطوان، معبد للرحمة».

انتهى الكتاب في نهاية المطاف، ونُشر.

في عام 1770، قرأ الكثير من الباريسيّين كتاب مرسيه كي يكتشفوا كيف ستبدو مدينتهم بعد ستمئة وسبعين عاماً بالضبط. إنّه كتاب كُتب بحق، وجعل القراء حانقين أيضاً. لقد وجدوا أنفسهم فجأة يعيشون في باريس في العام الخاطي، لقد مقتوا عام 1770، وفَضّلوا عام 2440 عليه. وهكذا، أصبح مرسيه مشهوراً.

وضعت الأرملة تمثال مرسييه النصفّي في واجهة الدكان، مع لوحة كتبت عليها: «مواطن العام 2440»، كي يتأملها العابرون. منظر الناس الذين تجمهروا أمام النافذة يوماً بعد يوم، هو ما أوحى لها بفكرة عظيمة.

بعد ظهر أحد الأيام، اصطحبت الأرملة كورتيوس بحقيته السوداء الضخمة كي يزورا مرسييه. لاحقاً في اليوم ذاته، عادا بصحبة مرسييه وطبعة جديدة من الجصّ، وسرعان ما عمّدا الرأس الذي وُلد منها باسم جان - جاك روسو. عرفته فوراً: إنّه رينو، ذلك الرجل بالبزة الرمادية الذي زارنا في بيرن برفقة مرسييه! لقد كان مختبئاً، لكنّه عاد إلى باريس ويبدو أنه مريض مرضاً شديداً. في الأسبوع التالي، خرجوا ثلاثهم معاً وعادوا برأس آخر، لكنّه يبدو ودوداً ونشطاً للغاية، وسّمّوه: دنيس ديدرو. بعد ذلك، جاء رأس تعيس يدعى جان لو رون دالمبر. أولئك الأشخاص مشهورون حتماً في العالم الخارجي، لم أعرف ما الذي قاموا به، بل فقط أن رؤوسهم ستُكرّم.



ثلاثة رجال عجايز، يتأملون الموت على نحو مختلف

وضعت الأرملة لافتة ضخمة، كي تعلن أن هذه الرؤوس موجودة في الداخل، وجاء الكثيرون كي يتفرّجوا عليها. هزّت الأرملة رأسها كثيراً، وصفّق سيّدي. خرجت الأرملة مجدّداً، لكن بمفردها هذه المرّة. إنّها منشغلة للغاية!

من ثمّ، نحو نهاية إحدى الأمسيات، جاء إدموند إلى المطبخ، وقال لي أن آخذ نبيذاً وكأسين إلى غرفة أمّته، وساعدني على تجهيز الصينية.

كان سيدي جالساً في غرفة نوم الأرملة، فسكبتُ له النيذ. فكّثت الأرملة قلنسوتها، فانفلت شعرها الكثيف ذو اللون الكستنائي المحمرّ، وبلغ سيدي لعبه عدّة مرّات.

«إدموند!» قالت الأرملة، «ابدأ بتمشيط شعري. اعتاد هنري على تمشيطه كلّ ليلة من أجلي، وتولّى إدموند هذه المهمّة بعد أن مات. والآن يا دكتور كورتوس، راقب بعناية من فضلك، أريدك أن تفهم. أريد أن أقصّ عليك تاريخاً. اخرجي يا صغيرة». تناديني بـ «صغيرة» أحياناً، هذا يسرّها.

خرجتُ من الغرفة، لكنني أحسستُ أن هذه الأمسية ستكون بالغة الأهميّة، لذلك بقيتُ واقفة خلف الباب، وسمعتُ كلّ شيء.

«أنصت إليّ من فضلك. أنا، شارلوت، مجرد أنثى أرملة، لكنني أنوي أن أثقّفك يا دكتور كورتوس. كلّ منّا يعرف الآخر الآن، ولدينا عمل مشترك، لذلك سأكشف عن نفسي أكثر»

«أجل، كلّ منّا يعرف الآخر!»

«إدموند! مشط، مشط شعري! سأكشف عن نفسي لك يا سيدي، من خلال سيرة ذاتيّة لمهنتي، سأخبرك عن زوجي»

«آها! حقاً؟!»، كانت الإجابة المغتمّة.

«والدا زوجي هنري بيكو، كانا يبيعان الملابس المستعملة. إنّها البداية، امتلكا دكاناً صغيراً هنا في فوبور سان - مارسيل، إنّها البداية الأساسيّة. مشط يا إدموند، مشط بقوة أكبر! أوّل ما يجب عليك أن تتعلّمه في دكان الملابس المستعملة، هو أنّه لا بدّ من إبقائه مظلماً قدر الإمكان في الداخل، فمن المهمّ ألا يري الزبون ماذا يوجد هناك. سيدهشك ما يمكن للضوء الشحيح أن يفعله، بقطعة ثياب عتيقة! لن ترى البقع، ولا القطب المفروطة، ولن ترى الرقع. لم أحظّ بحبّ حمويّ في البداية، لكنني وقفتُ خارج الدكان واجتذبتُ الزبائن، أمّا في أيام الإثنين في سوق الملابس المستعملة الكبير في ساحة دو غريفي، فقد صحتُ بأعلى صوتي مناديةً على بضائعنا، وشاهدني الوالدان، ورضيا.

ولكن... مشط يا إدموند، هيّا!

بعنا قمصاناً داخلية مات أصحابها وهم ما يزالون يرتدونها، بعنا تنانير

العاهرات، وقلنسوات عتيقة ذهنية تعود لأرامل ضئيلات لفظن أرواحهن أخيراً. بعنا جوارب مرقعة، ثياباً قديمة مستعملة دسّت أجساداً أخرى أنفسها فيها. كان لدينا قميص في الدكان بعناه سبع مرّات، لسبعة باريستين مختلفين. ملابسنا تدوم وتدوم، وتبقى بعدنا.

في دكاننا، رأينا كيف يحاول الناس أن يتسلّقوا سلّم باريس الزلق، رأينا بائعة في السوق تعتمر قبعة من الدانتيل، تعود لزوجة محام ميتة، رأينا نساء شابّات يخلعن ملابسهنّ كلّها تقريباً في الدكان، ويتقاتلن على تنورة... أحياناً، بينما يشخر الوالدان ليلاً، كنّا نذهب أنا وهنري إلى الدكان، ونجرّب الملابس بأنفسنا. لطالما ألّبسني هنري كسيّدة!

ضفّر شعري يا إدموند، بإحكام، بإحكام!

بعد فترة، لم يرغب هنري إلّا بالملابس الجيدة، وأزعجه منظر قبعات الكتّان العتيقة، ثمّ أخذ يحلم بأردية للأغنياء من الحرير والساتان. لم يفهمه والداه، همّاه وضرباه، وطلبنا منّي أن أوقظه من أحلامه، لكنّهما ماتا بعد فصلين -أحدهما تعرّض بحجر نافر من أحجار الرصيف، فانزلق في صبيحة أحد أيّام شبّاط، بينما مات الآخر في أيّار على إثر إلتان جرح أصيب به بسبب مشبك قديم - وموتهما أتاح له الفرصة كي يصبح خياطاً، لكنّ الخياطة، على العكس من بيع الملابس المستعملة، لم تكن مربحة على الإطلاق.

الآن، اسمع هذا يا دكتور، أصغ إليّ بانتباه. بعض الأعمال ليس لها مستقبل، ولا يجب أن تنطلق أصلاً، بينما يجب أن يُحفّز بعضها الآخر في الوقت الملائم، وإلّا ستفشل. الآن، لدينا مشروع التماثيل النصفية، أنت بارع للغاية يا دكتور كورتيوس، وبوسع الجميع أن يروا ذلك، وعملنا يزداد. ربّما نستطيع أن نعمل في مكان أفضل، لا سيّما أننا نملك رؤوساً شهيرة، ولا أقصد هنا دكاناً في زقاق هادئ، بل دعنا نقل: في بوليفار. قد نعثر على رؤوس أخرى، رؤوس محدّدة ذات قيمة أعلى. نحن هنا أمام مفترق طرق، أنا وأنت. هنري سيكون أقدم على تغيير، لكنّ التغيير قتله، وها نحن أولاء نجرّب بدورنا. نحن نحاول أن نتسلّق درجتين اثنتين من درجات السلّم الاجتماعيّ العظيم، وسؤالنا هو التالي: هل سترافقني؟»

«أجل، أجل، سأرافقك!»، أجاب كورتيوس فوراً.

«وهل ستشبت بي، ولن تتخلى عني؟»

«سأفعل، سأفعل ذلك بكل الطرق الممكنة، ولكن كيف؟ قل لي، كيف نفعل ذلك؟!»

«باختصار يا دكتور العزیز، لقد عثرتُ على مكان. إنه أكبر ممّا يلزمنا غالباً، لكنني حصلتُ عليه لقاء صفقة رابحة. سنستأجره لمدة فصل، وسندفع الإيجار مقدّماً. المبنى متداعٍ نوعاً ما، لكنّه ما يزال متيناً. لقد أفلس فيه مشروع، ممّا أفسح لنا المجال. دعنا لا نفشل مثله! وهكذا يا دكتور كورتيوس، إمّا أن نطفو أو أن نغرق»

«نطفو، نطفو»

«إدموند، أليسني القلنسوة»

سمعتُ الكأسين يُقرعان، فتسلّلتُ للأسفل مجدّداً. أين سنذهب؟ ما الذي سيحصل في أرض جديدة؟ من ثمّ، تساءلتُ فجأة: هل سأرافقهم أنا أيضاً؟! ما الذي سيحلّ بي؟! لم يذكر أيّ منهما مسألة ذهابي معهما، لكنهما لم يقولوا إنني لن أرافقهما، وخفتُ أن أسألهما. وهكذا، ساعدتُ بتوضيب المتاع، وكنتُ نافعة للغاية.

في اليوم الذي جاءت فيه العربات لنقل متاعنا، تبعتهما مرتجفة خائفة من أن أطرّد.

مضت الأرملة وسيدي في المقدّمة

وتبعهما إدموند.

من ثمّ تبعتهم أنا على بعد خطوة. أنا سأرافقهم أيضاً! التفت كورتيوس كي ينظر إليّ، وأوماً برأسه إيماءة بسيطة من ثمّ نظر مجدّداً إلى الأرملة، التي ركزت انتباهها في مكان آخر.

«هذا الشارع لن ينفعنا، يا هنري» قالت مخاطبة دمية زوجها فوق العربة، «سننتقل من هنا، ولن ننظر إليه مجدّداً».

الكتاب الثالث

1778-1771

منزلُ القروء

منذ سنِّ العاشرة، إلى السابعة عشرة.



الفصل السادس عشر

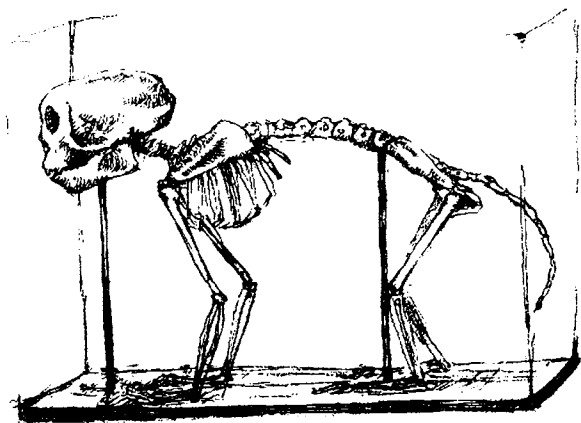
الرجل المُشعر

المبنى رقم 20 في بوليفار دو تامبل، هو بناء خشبيّ يقع إلى جوار خندق عميق وسور المدينة. بأحرف كالحة نوعاً ما، يتباهى المبنى بالغاية منه: «منزل باسكال الشهير حول العالم، القرد الفليسوف: حيّاً، ومنزل أخوته الكثيرين»، فوق العبارة السابقة كُتب: «أوتيل سانج»، أي «منزل القروء».



المبنى أشبه بمعبد مربع، تنتصب ثلاثة أعمدة في واجهته، وله مدخل رئيسيّ ذو باب بمصراعين. انظروا خلفه مع ذلك، وستكتشفون أنه باقٍ في مكانه بفضل دعامتين خشبيتين عملاقتين، أشبه بالعكازين. إنّه منزلنا الجديد! خارج «أوتيل سانج»، الأثاث مكوّم فوق عدّة عربات. كلّ شيء بدءاً

من الأقفاص إلى القدور، من الكراسي إلى الهياكل العظمية الغريبة غير المألوفة. فوق كلّ تلك الأشياء، ثمة ثلاثة مخلوقات حيّة محشورة في الأقفاص، تحدّق إلينا بعيون سوداء، وثمة قروح وبقع كبيرة خالية من الفراء على جلدها: قرودا! بدأت بالزعيق ما إن اقتربنا أكثر من المنزل ذي الدعامتين.



تأملها كورتيوس بدهشة، ثم هتف: «طويلة جداً! نحيلة جداً! مشعّرة!». أطلق أحد القروود عواء مرعباً أليماً أشبه بعويل بشريّ، فارتجفنا جميعنا، حتّى الأرملة.

«طاب يومك» قال كورتيوس للقروود، وهو يرفع قبعته المثلثيّة. دخلنا إلى المنزل الخشبيّ.

يشغل الطابق الأرضيّ بأكمله تقريباً بهوٌ واسع فارغ، يتردّد فيه الصدى. الأجدري أن أقول: شبه فارغ، إذ توجد دكّة للأقدام في إحدى زواياه، يجلس عليها رجل بدين يلبس زيّاً غريباً أشبه بالدبّ، وجسده بأكمله - باستثناء يديه ووجهه - مغطّى بقطع مختلفة من الفراء خيطت معاً. إنّه مربّي القروود المفلس برتراند لو فيلو، الذي يعني اسمه «برتراند المُشعّر»، وهناك ضابط بزيّ رسميّ أسود، يقف على بعد خطوة منه. على ما يبدو، سيُساق لو فيلو إلى السجن بسبب ديونه. في حضنه كومة من الفراء الأسود، كانت في الواقع

باسكال، القرد الفيلسوف، لكن ميتاً. حول لو فيلو وباسكال يدور رجال آخرون، يتحركون هنا وهناك في الغرفة، وهم يأخذون قطعاً من الممتلكات ويكذّبونها قرب المدخل، رجالٌ يرتدون بزّات.

«تلك الحيوانات السوداء الأخرى» قالت الأرملة، «إنّهم مأمورو المحكمة، إنّهم يعضّون».

بينما وقّعت الأرملة الوثائق مع المأمورين والكاتب بالعدل، أشار إليّ مربّي القروء، ولوّح بإصرار إلى أن اقتربْتُ منه. بدا لي متشوّقاً جدّاً للكلام، وحكّ جسده وهو يثرثر، حكّ قبة رأسه، وما تحت إبطيه، وحول مؤخرته، بطريقة غريبة لا بدّ أنه تعلّمها من القروء.



«لقد عملتُ في مهنة القروء هذه بشكل متقطع، منذ كنتُ في الثانية عشرة من عمري. لا مانع لديّ من إخبارك بهذا. كان والدي رجلاً ثريّاً، يتاجر بالكمّون والقرفة، بجوزة الطيب، بالغانيليا، ويجلب معه مخلوقات حيّة جنباً إلى جنب مع التوابل عندما يعود من أسفاره الطويلة. أوّل مخلوق جلبه كان (بان تروغلودايت)، وهي أنثى شمبانزي سمّيتها فلورنس. فلورنس قضمت إصبعي هنا»، قال وهو يريني جذمور إصبعه.

«لكنني أحببتها، وتساءلتُ دائماً وأبداً عن المخلوقات الموجودة على

الأرض، وهكذا بدأت أجمعها بنفسي، وبددتُ كلَّ ثروة والدي عليها. جلبها لي تجّار مختلفون كثيرون، ولم أستطع الاكتفاء منها قطّ! لقد عملتُ مع العديد من حيوانات الآيب، وعددتُ البابون من بين أصدقائي. أنا أفضل القروود على البشر، لأنّها أكثر صدقاً، كما أنّك ستعرفين مشاعرها تجاهك حتماً. لقد تركت مهنة تربية القروود بصمتها عليّ! ذات مرّة، كان لديّ قرودٌ من فصيلة القروود ذات الأنف الأفطس، جاء من الغابات المداريّة البعيدة، لكنّه لم يعيش طويلاً. لم يتجاوز حجمه هذا» قال وهو يشير بيده إلى ارتفاع أربعة إنشات تقريباً، «مخلوق ضئيل، يا له من صغير جميل! سمّيته إيمانويل. ذلك هو هيكله العظميّ هناك، غليتهُ بنفسي» ثم أضاف وهو يلمس رقعة من الفرو على كتفه اليسرى: «هذا هو».

«لقد كلّفني مئتي ليرة. أحبه الناس لأنّه ضئيل الحجم. كان مريضاً كما أعتقد عندما اشتريته... لكن لم يكن أيّ من قرودي جيّداً كباسكال، أليس كذلك يا حبيبي؟ لم يقترب أيّ منها من مستواك. يقولون إنني قتلتك، لكن لماذا أقتلك وأنا أحبّك؟! لماذا أقتلك وقد جعلتني مشهوراً؟! أنت تصدّقيني، أليس كذلك؟»

«أنا أحاول ذلك، يا سيّدي»، أجبته.

«أنت نفسك تشبهين القرد أيّتها الفتاة الصغيرة، بأنفك هذا، وذراعيك النحيلتين. يا له من خطم! لربّما تفهمين كيف كان الوضع، إن أخذنا بعين الاعتبار مظهرك هذا. المنزل بأكمله كان بيتاً للقردة. ذات مرّة، كان هناك ما ينوف على العشرين مخلوقاً في هذا المنزل، ثلاثة منّا فقط بشرٌ. كلُّ قرد كان لديه قفصه الخاصّ، تتنقّلين من قفص إلى آخر، وتفرّجين على حياة الأوتيل، ترين قاطنيه ينامون في أسرّتهم، يمشّطون شعرهم، يعتمرون الباروكات، أو يضعون شامات على وجوههم. كان لديّ شمبانزيّ يلبس زيّ نادل، ويقدم الطعام على صينيّة. يا له من أوتيل! احتشد الناس فيه، وتعلّموا عن أنفسهم من خلال مراقبة القروود. قرودٌ من فصيلة القرد العنكبوت يمضغ سيجاراً؟! سيتذكرونه حتّى نهاية حياتهم. قرد كابوشين يمشّط شعره بمشط مرصّع بالكريستال، بابون يرتشف النبيذ من دورق! يا له من أوتيل! لكنّه لم يدم! بعض قاطنيه، على الرغم من أنّهم نعموا بالغذاء والرعاية، ماتوا خنقاً بملاءاتهم الحريّة».

أشار إلى رقعة على مرفقه الأيسر.
«وجدنا قرد ريزوس صغيراً، غارقاً في مbole من البورسلان»
ثم فرك جزءاً من صدره.

«وهذا آيب من فصيلة بارباري، شق نفسه بحبل الجرس. لم أستطع
أن أحافظ على الأوتيل، واضطرتُّ إلى تسريح فريقتي. ذات يوم، سقطت
الثرثيا، فأحرقت القرد الذي يلبس زي نادل، وقطعته».
ولمس قطعة فراء على ساعده الأيمن.

«تمردت القروود، ولم تهدأ. مع ذلك، كان لديّ باسكال آنذاك، أعظم
الرئيسيات. ليتك رأيته بجاكيت السموكن، وقلنسوته الصغيرة ذات
الشراريب الذهبية! لم أستطع أن أسيطر على قروودي دائماً، بل تفوّقت عليّ
أحياناً. يا له من أوتيل! أوتيلي! لم يشغله القاطنون بأكمله بكل تأكيد، أعترف
بذلك، فالغرف الضيقة في الأعلى كانت فارغة آنذاك».
سوى الفراء فوق عدّة مواضع من جسمه.

«مع ذلك، ظلّ الناس يأتون كي يتفرّجوا على باسكال وهو يحتسي
الكونياك، لكنّ الأمور سارت من سيّئ إلى أسوأ. قالوا إنهم يستطيعون
سماعي كلّ ليلة وأنا أصرخ عليك يا باسكال، وأن صراخي وزعيقك
يزعجانهم كلّ ليلة، لكنك لا تصدر صوتاً الآن! لقد أخذوا كلّ قروودي
الأخرى منّي! قالوا إنني أضربك! أنا لم أضربك قط! ولماذا أضربك وأنا
أحبك؟! من ثم ذهبْتُ يوم الأربعاء إلى قفصك ووجدتك هناك في الزاوية،
وحيداً، هامداً».

صمت عندها، وبدأ بالتربيت على جثة القرد في حضنه.
بعد قليل، قلتُ له: «شكراً جزيلاً لك يا سيّدي، لأنك أخبرتني بكلّ ما
سبق».

استمرّ بالتربيت على الجثة
«من فضلك يا سيّدي» قلتُ، «هل أستطيع أن ألمسه؟».
«هل تريدون ذلك؟!»
«أجل، رجاءً»

«إذن افعلي ذلك، أيتها الروح، بلطف، ومجاناً»

أمسكتُ يد باسكال اليمنى، إنها طويلة جداً، سوداء، وذات مخالب
حادّة، أطول من يدي لكنّها أنحف، فضلاً عن أنّها باردة ومتخشّبة.



«يؤسفني أنه مات!»، قلتُ.

«أجل» قال، «يا للأسف!».

«سيّدي!» ناديتُ كورتيوس بلغتنا، دون تحفّظ. «سيّدي، هل نرسمه
معاً؟!».

«يا لها من فكرة!» أجاب سيّدي، إنه يبتسم، استطعتُ رؤية أسنانه!

«بالفرنسيّة!» قالت الأرملة، «بالفرنسيّة رجاءً يا دكتور كورتيوس. يجب
أن يفهم أحدنا الآخر، ألا تظنّ ذلك؟».

«أجل بكلّ تأكيد، أيتها الأرملة بيكو»

«إذن، دعنا من هذه اللحظة فصاعداً، نتكلّم الفرنسيّة فقط»

لم يقل سيّدي سوى «سيّة»، فحسب!

«باسكال كان عبقريةً» همس لي برتراند، «لن أرى مثيلاً له أبداً. ماذا
سأفعل الآن؟!» سأل وهو يمسك يدي الحرّة، لأنّ يدي الأخرى ما تزال
ممسكة بيد باسكال. «ما الذي سيحدث لي؟!» تابع، «ما الذي سنفعله يا
حبّتي، يا رَجُلِي الصغير؟! أنا عالق!».

نظر إلى الأرملة، من ثمّ سألني: «هل هي المسؤولة هنا؟».

«تظنّ أنها كذلك»، همستُ.

«اعذريني يا مدام» قال على عجل، «هل لديك أية حيوانات؟! أنا بارع للغاية مع الحيوانات».

التفتت الأرملة إلى مأموري المحكمة، وسألتهم: «هذا المنزل لنا الآن، لا بدّ أن تخلوه. يا صغيرة، تعالي إلى هنا قبل أن تلتقطي عدوى ما، تمنعنا من الاستفادة منك. هذا هو طبعك، تبحين عن صحبة كهذه!».

«هل لي أن أساعدك مع أية حيوانات تملكينها؟!» صاح برتراند لو فيلو، «أنا لطيف، أنا لطيف جداً، جداً... أنا...» وهنا لم يستطع أن يتمالك نفسه أكثر، ترك يدي، فتركّ أنا يد باسكال، من ثمّ دفن وجهه في فراء القرد الميت وانتحب. عندما رافقه مأمورو المحكمة إلى الخارج، صرخ: «أنا أرتدي كلّ ذكرياتي، ولذلك لن أنسى شيئاً. أنا ألبس الذاكرة. أنا ألبس كلّ أصدقائي. إنهم قريبون منّي دائماً، وبقونني دافئاً. ستصبح قبعة فاخرة يا باسكال، قبعة فاخرة جداً، وسأحبك دائماً».

ابتدأ الزعيق مجدّداً في الخارج، لكنّه سرعان ما خمد، وبقينا وحدنا.

الفصل السابع عشر

منزل القروود

يا لهذا الخواء! هذا المنزل لا يناسبنا بتاتاً، ولا بدّ أن الأرملة قد ارتكبت خطأ فظيماً. لقد مضت بخططها بعيداً هذه المرّة! ثمة أربعة أشخاص فقط الآن كي يملؤوا هذا الفراغ كلّهُ، نحن الأربعة فضلاً عن آثار الكائنات التي عاشت هنا قبلنا. لعلّ هذا المنزل كان ذات يوم معلماً شهيراً، مكاناً يزوره الناس كثيراً، لكنّ الموت والأمراض جرّده من عجائبه الطبيعية. فقدّ الناس على ما يبدو ولعهم بالقروود، كأنّهم اتّخذوا قراراً جماعياً أنّهم لن يؤمنوا بها بعد اليوم، أمّا نحن فلن ننساها، على الرغم من أنّها ليست موجودة الآن. لا يعود ذلك إلى النشرات الإعلانيّة فحسب، التي تملأ المكان معلنة عن «القروود في باريس!»، فالجدران على امتداد السلالم الضيّقة من أعلاها إلى أسفلها، وعلى امتداد الردهات ذات الأرضيّات غير المستوية، كانت مليئة بآثار الخدوش والتمزيق. السلالم بحدّ ذاتها قُصِمَت! المكان بمجمله أُكِل جزئياً، المنزل مقضوم، ممضوغ بشدّة!

«هل هذا هو منزلنا الجديد؟!»، سأل إدموند بعصبية.

«إنّهُ منزل القروود، إنّه كذلك!» قال سيّدي. إنّه منزل قروود، لا يهتمّ إن كان ذات يوم فندقاً صغيراً، وقبل ذلك مقهى فيه طاولات للقمار، ولا يهتمّ أنه سيصبح منزلاً للشخصيّات الشمعيّة. منزل القروود كان لقبه دائماً.

«يا صغيرة» قالت الأرملة، «كوني نافعة. أفرغي الأمتعة، هيا».

حملتُ صناديقنا وأكياسنا إلى الطابق العلويّ. على أبواب غرف

الأقفاص في الأسفل -بعض قضبانها الحديدية ما تزال موجودة- كُتِبَت أسماء القروود التي عاشت فيها سابقاً: ماري-كلود، فريديريك، كاترين وسيمون، دومينيك، لازار، أوغسطين، أوغستان، نيكولا وماري-آنج، كلوديا وآرنو، جان الكبير، بولين، آلويز وأبيلا. إلى جانب كل اسم، ثمة رسم صغير لحيوان أو لعدة حيوانات أقامت معاً. هكذا، الناس الذين يصعدون السلالم ويلقون نظرة على الغرف، سيعرفون عمّاذ يبحثون تحت البطانيات، أو خلف الستائر، أو فوق سواكف⁽¹⁾ الأبواب.



اختارت الأرملة كغرفة نوم لها تلك الحجرة التي تحمل اسمي «كاترين وسيمون» على بابها، أي تلك التي كانت ذات يوم مسكناً لقردين من فصيلة القروود الزاعقة. اختارت لإدموند غرفة صغيرة إلى يسار غرفتها، قطنتها سابقاً

1- الأسكفية هي الجزء المعماري الذي يتوضع فوق الباب مباشرة. المترجمة

أنثى قرد عنكبوت تدعى بولين. غرفة كورتيسوس تقع إلى يمين غرفة الأرملة، قطنها سابقاً بابون اسمه لازار يزن مئة باوند، تمّ اصطياده وهو بالغ في شرقي إفريقيا. نعيه الذي كتبه برتراند، ما يزال ملصقاً بجانب الباب: مات لازار عن عمر الخامسة والثلاثين، بعد أن ابتلع خشخيشة فضيئة.

أمرت الأرملة ابنها أن يأخذ دمية والده إلى الطابق العلويّ، وأن يضعها في صحن الدرج أمام غرفتها بحيث تواجه الدرايزين، وكأنّ الأب يوشك على الانحناء فوقه كي يلقي نظرة إلى البهو. نُزع الغطاء الأسود عن الدمية، لأنّ الأب سيُعرّض على الملأ في هذا المنزل الجديد.

«ها أنت ذا يا هنري!» قالت الأرملة، «من هناك، بوسعك أن ترى كلّ شيء تقريباً. نحن فخورون للغاية، لأننا نقوم بعمل جيد. لن أخبئك بعد الآن، أريدك أن ترى كيف نتقدّم. في الواقع، أنا أصرّح عنك».

«من فضلك يا سيّدي» سألت كورتيسوس، «أين سأنام أنا؟».

أجابته الأرملة على سؤاله، أن اقتادته مجدداً إلى أسفل الدرج.

«في المطبخ» قالت، «في المطبخ، بعيداً عن أعين الناس».

المطبخ هو غرفة سوداء تالفة، ألواح أرضيتها مقشّرة، وحيطانها مسوّدة بفعل نار الموقد، كأنّ الغرفة بحدّ ذاتها طُهِيت.

«ستضعين فراشك هنا، وستكونين مرتاحة للغاية. إنّها غرفة في مؤخرة المنزل، الأقرب إلى مجاري البوليغار. ستناسبك»، قالت الأرملة.

«أظنّ أنّها غرفة حزينة للغاية!»

«لا شكّ أنّك من يجعلها هكذا!»

«أجل مدام»

«ستبقين هنا، معظم الوقت، وليس في الخارج هناك. سنحظى بجمهور مختلف تماماً هنا، وعندما يتواجد الجمهور في البهو الكبير، ستحبسين نفسك هنا»

«أجل مدام»

«أمّا الآن، فعليك أن ترتبي هذا المكان، منزلنا»

«أجل مدام»

«إذن هيّا، ابدئي!»

حسناً إذن، المقشّة.

«سنسمّي هذا المكان بـ: خزانة عجائب الدكتور كورتيوس» أعلنت الأرملة في البهو، «كلمتا أرملة ويبدو لن تجذبنا الناس، لأنّهما توحيان بما هو مألوف ويوميّ، أمّا كلمتا الدكتور وكورتيوس فلهما وقع خاصّ». «حقاً؟!» تعجّب سيّدي، «وقع خاصّ!».

«وإن فشل مشروعنا، سأبحث عن مهنة أخرى، ولن نُدان كلانا بسبب فشلنا. أنا أرملة، أمّا أنتَ فرجل»

«فهمتُك، أجل. أرملة، رجل. أجل. هكذا ستسير الأمور»

«الأهمّ من ذلك» أضافت الأرملة، لكن بلمسة من عدم الرضا، «اسم امرأة لن يشجّع الناس، إذ لا يفترض بالنساء أن يُدرن أعمالاً، لكنّنا لن نفشل يا دكتور، هذا مؤكّد».

يحتاج المنزل إلى قدر هائل من التنظيف، وانشغلنا أربعتنا بذلك في البداية، مسحنا وكنسنا. بعد عدّة ساعات، أصبح المنزل أفضل على نحو لا يكاد يُذكر، لكنّ كورتيوس أخذ يسعل بشدّة، فاضطررنا إلى إخراجه، ورافقته الأرملة وابنها كي يتمشّيا معه، بينما بقيتُ في الداخل وتابعْتُ العمل.

«مرحباً!» قلْتُ للمنزل بصوت خفيض بعد أن غادروا، فردّ عليّ بصريّ وحفيف. أغمضتُ عينيّ، وشعرتُ بها تتحرّك حولي، كلّ تلك الأرواح الحزينة للقروذ الميتة، تركض صوبي، تقفز عليّ، تلوي شفاهها، وتكشف عن أسنانها.

«إنّك لا تخيفيني»

طقطق المنزل، لقد سقط شيء ما ضمن جدرانهِ.

«أنت مكان ضخم، أعرف ذلك»

زمجر شيء ما في الأعلى.

«سأعيش هنا. لقد جئتُ كي أعيش هنا»

تجمّع الغبار حولي ودار في دوّامات.

«قم بأسوأ ما لديك، ولم لا؟ لكن ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه، سأبقى هنا. من المفروض أن أعمل عليك أيّها المنزل، إلى أن نصبح صديقين».

تعالَت طقطقة، طقطقة بدأت خفيضة من ثمّ تضخّمت وانقلبت إلى زعيق طويل. إنهما الدعامتان، فكّرتُ، الدعامتان في الخارج، تتأقلمان مع وزني. «رجاء» قلتُ، «دعنا نتوصّل إلى تفاهم».

سمعتُ صوت هرولة في الأعلى، كأنّ شخصاً ما أو شيئاً ما يركض في أرجاء المكان، لكنني لم أجد أحداً عندما صعدتُ إلى هناك. هذا ليس صائباً، فكّرتُ، لا يجوز أن يتركوني وحيدة في مكان كهذا، مليء بكلّ تلك الأرواح المتأهبة للهجوم عصراً.

«حسناً إذن!» صحتُ على المنزل، «هيا انطلق واسحق طفلة! ها أنا ذي واقفة هنا، هيا، لن أقاتلك».

فُتِح باب، لكن لم يدخل أحد. لا أحد هنا.

«أعرف أنك لست سعيداً، لكن دعنا نتحدّث معاً، كي نشعر أننا كلينا مرتاحان. إذن، هذا صحيح: لقد ابتلعتني، وهدفي، آه أيها المنزل الكبير، هو أن أغذيّك، وأن أكون مفيدة لأحشائك، أن أملأك! إنّها أنا، عشاؤك! أنا تلك الصغيرة، قطعة مصران الخنزير، قينة البيرة الصغيرة، سأخبرك بكلّ شيء، سأهبك نفسي».

لا يمكنني أن أجزم هل تخيلتُ هذا أم لا، لكنّ المنزل تنفّس نوعاً ما وسمح لي بلمسه من دون أن يغضب، وأن أتعرف على كلّ زاوية فيه. أنا أعيش فيه الآن، في داخل الوحش، وسأجعل منه أفضل الوحوش.

كلّمتُ المنزل وأنا أكنسه، أخبرته من أنا، وماذا تعلّمتُ، وكم أتمنّى أن أعمل مع سيّدي مجدّداً، وأن عمله جيّد، وكيف أراني إدموند دميته، وقلتُ له أن إدموند يؤنسني مع أنّه يبدو صبيّاً صامتاً، وطلبْتُ من المنزل أن يعامله على نحو طيّب، فعلى الرغم من أنّه مغرور أحياناً فإنه ليس بغيبضاً في الحقيقة، بذلك النمش على أنفه وبصدره الأبيض، أمّا أمّه... قلتُ للمنزل أن يتصرّف معها كما يشاء، أن يعرقلها ويوقعها، أن يقضمها في نومها، وأن يجعلها تعيشة بقدر ما يستطيع منزل فخم مجيد مثله أن يفعل.

وأنا أثرثر بكلّ ما سبق مع ذلك المكان الكبير، عندما شعرتُ أن خوفاً بدأ يتناقص، وأنني في بيتي الآن، سمعتُ همهمة خافتة، أشبه بعاصفة تقترب

من بعيد. ظننتُ في البداية أنها مستعمرة القروذ الميتة العظيمة وقد جاءت كي تزورني، من ثم اكتشفتُ أنها أصوات جديدة، لا تصدر عن المنزل المتوتر وإثماً ممّا وراءه، من البوليفار في الخارج. أصوات مصاريع تُفتح، مزاييح أبواب تُسحب، من ثم ألف حنجرة تتنحّج، وهمهمة مئة صوت ترتفع تدريجياً، وكأنّ الحياة تدبّ في بوليفار دو تامبل بحدّ ذاته بفضل تلك الأصوات، إلى أن تلاشى الصمت نهائياً، ولم يعد هناك أية لحظة سكون تقاطع الضجّة العظيمة تلك التي طغت على كلّ شيء، وتضخّمت إلى حدّ رهيب ضمن منزل القروذ الخاوي. بوليفار دو تامبل، ضاحية الملاهي الباريسيّة، ذلك المخلوق الحيّ المزخرف، يستيقظ.

ركضتُ للأعلى، ومن خلال إحدى النوافذ راقبتُ البوليفار يغصّ بالناس، بدءاً من أولئك الذين يصلحون الأواني الخزفيّة المكسورة إلى صيّادي الجرذان، من السقّائين إلى حاملي المحفّات، من باعة الريش إلى صانعي الطوب... أهل باريس قادمون! هنا تمتاز الأضداد: مساعدو صانع الشعر المستعار بوجوههم المطلية بالبودرة، يسرون جنباً إلى جنب حمّالي الفحم الذين يغطّيهم هباب أسود، وما بينهم أهل البوليفار يصرخون: موسيقيّون جوالون، رجال مع دمي، بائعو الألعاب، ممثلون بأزياء برّاقة، رجل يسير بصحبة دبّ ضخم، عميان يعزفون على الكمنجات، أطفال يغنون، عجائز يرقصون، مبتلعو اللهب، مبتلعو السيوف... إلخ، إنّه سيرك ضخم من أشخاص فريدين من نوعهم! آه، هنا كانت الحياة!

تردّد صدى ضجّة البوليفار عالياً في منزل القروذ، فلم أسمع الأبواب تُفتح في الأسفل، ولا الأرملة تدخل، إلى أن وقفت خلفي. أمرتني بفضاظة أن أعود إلى البهو، وأن أستمّر بفرك الأرضيّة إلى أن تزول رائحة الحيوانات القميّة، لكنّ تلك الرائحة لن تفارقنا تماماً.

عندما حان وقت النوم، أخذت الأرملة -وقد احتشدت ظلال القروذ حولها- الفانوس للأعلى، ورافقها إدموند وسيّدي. في العتمة، سمعتُ صياحاً وبكاءً وضحكات تنبعث من البوليفار. بدت الضجّة كأنّها صادرة بمعظمها من المنزل الذي يقع في مواجهتنا بالضبط، والذي يحمل لوحة تقول: «السرير السماوي»، وتحتها كُتب بخطّ أصغر قليلاً: «الدكتور جيمس

غراهام، جاء مؤخراً من لندن». اختلستُ النظر من مصراع إحدى النوافذ، فرأيتُ أشخاصاً يدخلونه في وقت متأخر حاملين الفوانيس، أحياناً رجالاً ونساء معاً، وأحياناً رجالاً وحيدين.

مرّتين خلال تلك الليلة، دفعتُ أيدٍ خفيفة أبواب منزل القروء من الخارج، ممّا تسبّب بضجّة صاخبة. حاولتُ جاهدة ألا أنام، لأنّ خوفي استيقظ مجدداً ولم أكن متأكّدة من أنّ الاستسلام للنوم في مكان كهذا هو أمر آمن، لكنني أغمضتُ عينيّ في نهاية المطاف من شدّة التعب. حلمتُ بقرد يجلس على أحد كراسي المطبخ، ويؤرجحها للأمام وللخلف، محدّقاً إليّ بعينه الضخمتين. عندما جلستُ في فراشي مرتعبة، اكتشفتُ أن هناك شخصاً ما في غرفتي حقاً.

كان إدموند!

الفصل الثامن عشر

أصواتٌ ليليةٌ

«أمي نائمة»، قال إدموند.

«أجل»

«الدكتور نائم»

«أجل. أظنّ أن الوقت إمّا متأخّر للغاية يا إدموند، أو أنه الصباح الباكر»

«إنّه يصرخ في نومه... أقصد كورتيوس»

«أجل، أعرف ذلك»

«لا أستطيع النوم»

«لا؟»

«هل استطعت أن تنامي؟!»

«أجل»

«فكرتُ أن آتي إلى هنا، كي أطمئنّ عليك»

«حسناً، أنا هنا»

«في الحقيقة، كنتُ خائفاً. لن تسمح لي أمي بدخول غرفتها طلباً للعزاء، ستقول لي إنه تصرّف طفوليّ، ولا أريد أن أدخل إلى غرفة الدكتور. كما ترين، أنا خائف من المنزل، ممّا يوجد خلفه... لكنني خائف من المنزل بالدرجة الأولى! أنا مشتاق لبيتي، ولا أظنّ أن هذا المكان سيصبح بيتي على الإطلاق! لا يمكن ذلك. أخشى أن هذا المنزل سيقتلني! هل تظنين أن فيه أشباحاً؟!»

«الكثير من الأشباح!»، قلتُ.

«ظننتُ ذلك! بوسعي سماعها وهي تخذش»

«أنا أعرفها جيداً، لقد جاءت إليّ كما ترى. اليومَ بعد الظهر عندما خرجتم وتركتموني بمفردي، رأيْتُها تتحرَّك في العتمة وسمعتُها تنهّامس. لقد جاءت إليّ، وبسرعة!»

«لا!!»

«بلى! وقضمتني، وضربتني، وكانت على وشك أن تفترسني عندما...»
«متى؟!»

«عندما تكلمتُ معها ووبَّختُها، وأعتقد أننا أصدقاء الآن»

«هل لي أن أصبح صديقاً لها أنا أيضاً؟!»

«قد لا تقبل بك»

«ولِمَ لا؟!»

«لأنَّها مزاجيّة»

«أنا مزاجيّ أيضاً!»

«ولكنَّك لستَ مزاجيّاً مثلها»

«هل هي حانقة؟»

«كن شجاعاً»

«أجل، سأفعل»

«كن شجاعاً جدّاً»

«سأفعل»

«إذن، ربّما، مع مرور الوقت، ربّما أقدمك لها»

«أظنّ... من الأفضل أن تدعني وشأني!»

«لا تقل ذلك! لا تقل ذلك أبداً! ستدفعها إلى الجنون!»

«آسف!! لم أقصد أن...»

«هل رأيته؟»

«من؟!»

«نّمة شبح كان هنا للتوّ! وقف أمامك بالضبط، له أنياب طويلة ومخالب... لكنّه هرب ما إن رأيته»
«حقّاً؟! لم أراه!»
«بلى، كان هناك»
«أنت تحاولين إخافتي!»
«لا»

«سأعود إلى سريري»، قال إدموند بكآبة.
«إدموند! انتظر، لست مضطراً لذلك»
«الأفضل أن أذهب، قد تسمعنا أمّي ولن يعجبها هذا»
«ستكون وحيداً بمفردك»
«أجل، ولكن لو سمعتنا أمّي...»
«بالطبع، عليك دائماً أن تنفّذ ما تطلبه منك أمك»
«كلاً، هذا ليس صحيحاً... لكنّ خوفي تضاعف الآن بعد أن رأيتك، على الرغم من أنّك حاولت أن تخيفيني. مع ذلك، هل لي أن آتي، يا صغيرة؟»
«ماري!»
«أجل، آسف. هل لي أن آتي مجدّداً يا ماري؟! إن شعرتُ بالربّح مجدّداً، هل لي أن آتي إليك؟»
«متى شئت»

غادر إدموند، صعد إلى غرفته. صرخ عليه الشبح مع كلّ درجة تسلّقها، أمّا أنا في فراشي، بالكاد استطعتُ النوم من السعادة!

الفصل التاسع عشر

مجموعة الرؤوس الثالثة

يفرز النحل الشمع من غدد موجودة في جسمه، ومن هذا الشمع يبني بيوته المكوّنة من خلايا عديدة، ومدنه كذلك. بين جدران شمعية صغيرة، يربّي صغاره ويخزّن العسل، كما توجد ممّرات وقاعات كثيرة، بيوت لآلاف النحلات. الشمع أساسيّ لحياة النحل، ومن دونه لن يكون لدى النحل منزل، ولن يوجد سقف فوق رأس أطفاله.



يأخذ الناس الشمع من الخلايا، ويذيبونه بغية تنقيته من الشوائب، من ثمّ يصنعون منه الشموع. شمع النحل يهبنا الضوء، ومن دونه سنعيش في العتمة. كم رأينا من حياتنا بفضل شمع النحل؟ كيف سننير المسارح وقاعات الرقص من دونه؟ كيف للصبيّ الصغير أن يطرد الوحوش من تحت سريره، لولا شمع النحل؟ كيف للمرأة العجوز أن تعرف أنها ما تزال حيّة وسط

العتمة المخيفة، لولا ضوء الشمعة الصغيرة التي تشبّث بها؟ نشعل عود ثقاب، ونضيء شمعة، فنسترجع القليل من ضوء النهار بفضل شمع النحل. في منزل القروء، يُصنَع المستقبل من شمع النحل. يقطّعه سيّدي، ويسخّنه في وعائه النحاسيّ الضخم إلى درجة حرارة تتراوح ما بين 62-64 درجة، ويستتبت منه تلك الرؤوس الباريسيّة. تُبَتُّ الأرملةُ جرسَ هنري بيكو عند الباب، ووضعت الرؤوس الشهيرة في البهو، لكنّ تلك الرؤوس لم تشغل سوى حيّز صغير.

بعد يومين من وصولنا إلى منزل القروء، سمعتهما يتحدّثان عني في البهو. «لماذا تعاملينها بمتهى الصرامة هكذا؟!»

«لأنّها ترزعجني»

«إنّها مجرد طفلة، أيتها الأرملة، كما أنّها تحسّنت كثيراً. لا بدّ أن تعترفي بهذا»

«إنّها من العامّة، وأجنبيّة! يا لوجهها ذاك! لا أطيقه! الأمر ليس بيدي، وجهها يزعجني، كأنّها ماتت لتوها لكنّها ما تزال حيّة. إنّه وجهٌ من كابوس، انزلق إلى الحياة اليوميّة»

«هل هذا فقط هو السبب؟! لا تحبّين وجهها؟!»

«ألا يكفي ذلك؟! إنّه وجه يجلب سوء الطالع»

«أنت واسعة الخيال، أيتها الأرملة بيكو!»

«هكذا أشعر! لا بدّ للمرأة من أن تمتلك مشاعر!»

«أجل أجل، هذا هو حال النساء!»

فوتتُ بعضاً من نقاشهما، من ثمّ سمعتُ المزيد منه لاحقاً.

«أنا ممتنٌّ لك جدّاً!»، قال سيّدي.

«أجل»

«أتمنّى لو تفهمين امتناني، وعاطفتي»

«نحن شريكان في العمل، يا دكتور»

«هل لي أن أكون جريئاً؟ هل يمكن أن تقوم بيننا شراكة أعظم؟!»

«أنا غارقة في الأسى، ولا أفكر بالزواج»

«ولكن يوماً ما؟!»

«لا أستطيع أن أجيبك. لا تضغط عليّ، يجب أن يحظى العمل بالأولوية، ولا مجال للحماقات. الحماقات قتلت زوجي»

«أجل، أجل، فهمتُ، العمل! العمل أولاً! وها نحن أولاء في المنزل، في عمل، أيتها الأرملة بيكو، أنتِ وأنا. في المنزل! المنزل!»

«قد يصبح منزلنا، لو تمكنا من إدارته بالطريقة الصحيحة»، قالت الأرملة. المنزل! المنزل! لو أنني أتمكن من «إدارة» الأرملة كما يجب! العمل هو المهم، ولا شيء آخر. تمنيتُ لو يبقى الحال هكذا دائماً!

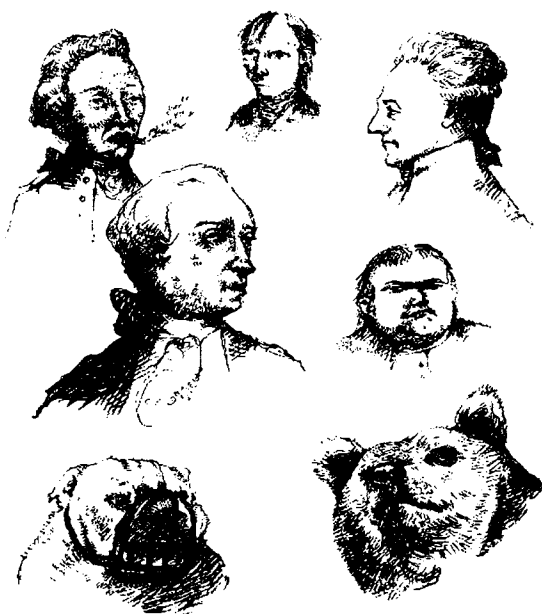
انطلق سيدي برفقة الأرملة كي يزورا أشهر رجال الاستعراض في البوليفار، وسرعان ما صنعنا لهم تماثيل شمعية. ها هو ذا جان بابتيست نيكوليه الطويل العابس، الذي يدير مسرحاً يؤدي فيه البهلوانيون عروضاً على الحبال المشدودة. ها هو ذا نيكولا - ميدار أودينو البدين القصير، الذي يملك مسرحاً كلّ الممثلين فيه أطفال. ها هو ذا الدكتور جيمس غراهام من «السريّر السماوي»، ذو الشعر الأحمر والوجه المبتسم المغطى بالشمس، والذي يقدم الترفيه للبالغين في مبناه.

نيكوليه وأودينو يملكان البنائين الوحيدَين المشادَين من الآجر في البوليفار، أما بقية الأبنية فخشبية. عندما تهبّ الرياح على البوليفار، تتأوه تلك المباني الخشبية وتزعق، كما أنّ منزل القروء يصدر صريراً مميزاً. العلية، وهي الجزء الأكثر هشاشة فيه، تشتكي طيلة الليل وتكلّم نفسها بصوت عالٍ، وتقول كلاماً مليئاً بالشقاء والاتهامات. ذات يوم، عندما صعدت الأرملة كي تستكشف تلك العلية، انزلقت ووقعت، فاندفعت ساقها بأكملها من خلال سقف الطابق الأول. منذ تلك اللحظة فصاعداً، أعلنت أن ذلك المكان خطير وغير آمن، وأوصدت باب العلية، لكنّ العلية لن تُنسى، نادتنا، همهمت وغمغمت، وطالبتنا أن نتذكرها.

كانت الورشة موجودة في الطابق العلويّ من منزل القروء، في حجرة شغلها سابقاً زوج من الشبمانزي المبرقط، وحُظر عليّ دخولها، أنا التي أبقى

في المطبخ في الأسفل. استكشافها ليلاً تطلّب منّي تسلّق الدرج -وبالتالي، سيصدح العواء والنباح من الدرجات الخشبيّة- لذلك اضطررتُ غالباً إلى انتظار أن يغادر الجميع المنزل، كي أصعد وألقي نظرة على الورشة.

عندما سنحت لي الفرصة، تفرّجتُ على البوليفار وما يدور فيه من شتّى الأعمال. إلى يميننا مقهى شطرنج صغير، وإلى يسارنا «مسرح العالم الصغير، لصاحبه مارسيل مونتون». القاطنون في هذين المبنىين، لم يرحّبوا بنا في وسطهم كما أظنّ، لأنهم يشيخون بأبصارهم إلى الجهة الأخرى عندما يحييهم كورتبوس. عندما سنحت الفرصة لي أيضاً، راقبتُ أهل البوليفار عندما لا يعملون. رأيتُ رجلاً مقطوع الساقين يتنقّل هنا وهناك في عربته، ويسبق الكثيرين. رأيتُ رجلاً آخر ينزّه قطعاً من كلاب البولودوغ مكتمّة الأشداق. ثمّة ثالث يأخذ أقزامه الأربعة في نزّهة، ورابع يتمشّى مع دبّ ثقيل الخطى. رأيتُ الدكتور غراهام غرين ذا الشعر الأحمر مجدّداً، يرتدي ملابس فاقعة الألوان ويدخن سيجاراً، وترافقه سيّدة مختلفة كلّ مرّة. يا لها من حياة غريبة متنوّعة هناك! لم أكن لأرى أو أتخيّل كلّ تلك الأشياء، لو بقيتُ في القرية حيث وُلدتُ!



ما بين شخصيات البوليفار تلك، سرعان ما لفت انتباهي طفل قبيح متنمر
مثير للريبة، متشرد يصادق الكلاب الشاردة بالدرجة الأولى. رأيته يلعب
معها، يكشّر أمامها عن أسنانه، يعوي معها، ويبحث عن الطعام إلى جانبها.
عندما دلتُ سيدي على ذلك الصبيّ، دُهِش! حدّق متعجباً إلى جلد الصبيّ
المتقرّح، وشعره الأشعث، وملابسه القذرة.

«هذا... حتّى هذا الصبيّ يا ماري، على الرغم من أنّه ينتمي إلى حضيض
الوضاعة، لكنّه باريسيّ بدوره»

عرفتُ أن الصبيّ القذر سيلفت انتباهه، أنا أعرف ما هي الرؤوس التي تؤثر
على سيدي! تقول له الأرملة دائماً إننا يجب أن نركّز اهتمامنا على الرؤوس
النبيلة، رؤوس الأشخاص المميّزين، لكنّ سيدي يرى النبالة حتّى في حضيض
الوضاعة، ومن الصعب عليه أن يتجاهل أيّ رأس إن أحبه. رأيته عدّة مرّات يحدّق
إلى الصبيّ الهمجيّ، ويدها تتحرّكان على عجل في الهواء، كأنّه يصنع طبعة لوجه
الصبيّ. ليلاً، وللحظة وجيزة، مددتُ يديّ بدوري ولمستُ وجه إدموند.

«آخ! لا تفعلني هذا!»

لقد نزل إلى غرفتي مجدّداً. يأتي أحياناً مرّتين في الأسبوع، وقد تعلّم
أن ينزل الدرج بخفّة فائقة. إنّه تعيش في هذا المكان الجديد، ويحتاج إلى
شخص ما يتحدّث معه، وعندها سيصدر إدموند صوتاً، ببطء، متردّداً. لقد
عاش طيلة حياته وهو يعمل حول صوت أمّه العالي، صامتاً وسط صخبها
اليوميّ. تحدّثنا همساً، ومن خلال تلك الأصوات المكتومة، في تلك
الضجّة الرقيقة، كشف لي إدموند عن نفسه أكثر فأكثر.

«أنا صامت جدّاً، أليس كذلك يا ماري؟ لا أظنّ أنني كنتُ هكذا دائماً،
اعتدتُ أن أركض في المدرسة، وكنتُ صاخباً ولديّ الكثير من الأصدقاء،
لكنني تركتُ المدرسة عندما مرض أبي كي أساعده في عمله. أعتقد أنني
بدأتُ أميل إلى الصمت أكثر فأكثر آنذاك، بعد أن أصبح أبي صاخباً يصدر
أصواتاً في مرضه... لم تكن أصواتاً سعيدة قطّ. وهكذا، تعلّمتُ أن أصمت،
ولم أعد أتكلّم إلّا همساً. لا أمانع الهمس، بل إنني أفضله في حقيقة الأمر،
لأنّ جميع من حولي صاخبون.»

«بماذا ستخبرني بعدُ يا إدموند؟ أخبرني بالمزيد»

«لا شيء، لا شيء بتاتاً»

«ماذا تتمنى؟»

«أتمنى أن أصبح خيَّاطاً بارعاً ذات يوم»

«هذا ما تريده أمك!»

«كلّا، إنها أعظم أمنيات حياتي»

«وأنا يا إدموند؟ أتساءل ماذا سأصبح؟»

«خادمة، كما أعتقد... وماذا سوى ذلك؟»

«أنا أعرف كيف أرسم، بوسعي أن أمزج الألوان، أن أجهّز الوجوه، وأن

أحضّر الشمع»

«عدتِ إلى ذلك يا ماري! لن تقبل أمي بهذا! عليك أن تتعلّمي مكانك»

«ماذا لو لم يعجبني مكاني؟!»

«ستطردكِ أمي بلا تردّد»

«عليها أن تدفع لي أولاً»

«كوني عاقلة، يا ماري»

«أنا أكره ذلك»

«أنت تحصّلين على الطعام، ولديك مأوى»

«أنا سعيدة لأنّك جئتِ إلى هنا. كنتُ سأنسى نفسي لولاك»

«لا أمانع أن أنزل إلى هنا أحياناً»

«أنا أترقّب قدومك»

«لا يجب أن تترقّبي يا ماري، هذا ليس مكانك»

«هل ستأتي مرّة أخرى؟»

«ربّما، لكن لا يجدر بك أن تترقّبي زيارتي»

الفصل العشرون

أصواتٌ من الخارج تقتحم المنزل

بعد ظهر أحد الأيام، عندما كان صبيّ البوليفار الهمجيّ نائماً بالجوار، متكئاً على شجرة حور، خرج سيدي كي يتأمله عن كثب.



لا ضرر في ذلك على الأرجح، لكنّ الصبيّ فتح عينيه، وراقبت عيناه المفتوحتان سيدي. عاد كورتوس بسرعة إلى منزل القروء، لكنّه التفت وراءه بعد بضع خطوات، فلم يجد الصبيّ عند الشجرة. عندما دخل إلى المنزل، اكتشف أن الصبيّ يتبعه، وأنه جالس في الجهة المقابلة بالقرب من مبنى الدكتور غراهام. أخرج الصبيّ من جيبه قطعة نقائق، مسحها بيديه القذرتين،

ثم قضم منها قضمة كبيرة ومضغها بعنف. عندما تفقدته لاحقاً كما طلب منّي سيّدي، وجدته ما يزال جالساً في المكان ذاته، من ثمّ تسكّع بالقرب من منزل القروذ طيلة المساء. برأيي، ذلك الصبيّ يعتقد حتماً أن منزل القروذ يفتقر للحماية، بعد أن رأى كورتيوس، ولاحظ أنه نحيل وضعيف.

خائفاً من وجود الصبيّ الهمجيّ قريباً منّا هكذا، لازم إدموند غرفته ليلاً، خشية أن يزعج الصبيّ الذي بدأ ينام على درجات منزل القروذ الخارجية. لم أجروّ على الصعود إلى الأعلى لرؤية إدموند، لأنني جرّبتُ ذلك ذات مرّة، لكنّ الضجّة التي تعالت عند الدرجة الخامسة جعلت الأرملة تصرخ: «من هناك؟! أنا أسمعك!». بالمثل، لم يكن لا سيّدي ولا الأرملة على طبيعتهما المعهودة، لأنّ الصبيّ الهمجيّ يلحق بكورتيوس كلّما خرج من المنزل، ويمشي وراءه على بعد عدّة خطوات دائماً، كأننا أصبحنا محاصرين ضمن منزلنا وحياتنا.

«إنّهُ هناك دائماً!»، تذرّ كورتيوس.

«تجاهله» قالت له الأرملة، «سيذهب إن تجاهلته».

«بدأتُ أخشى أيّتها الأرملة بيكو، أنك لا تعرفين كلّ شيء»

ارتدى إدموند ملابس أنيقة، وانطلق إلى الشوارع كي يوزّع إعلانات طبعتها الأرملة مؤخّراً. ورّعها على الناس في الحدائق العامة، وفي الشوارع الراقية، والتجمّعات الملائمة.

النحّات الأجنيبيّ المشهور، الدكتور كورتيوس، عبقرئُ الشمع، وأعظم رسّامي البورتريهات في باريس.

السّبه ملحوظ حقّاً! الزبائن مندهشون!

نحّاتُ روسو، وديدرو، ودالمبير، وسواهم

تعالوا كي تروا أنفسكم، أحبابكم، زوجاتكم، بناتكم، أبناءكم، أحفادكم، كأنكم ترونهم للمرّة الأولى

(لقاء تعرفه معقولة)



نتيجة لذلك، لم يزرنا أبطال البوليغار والفلاسفة المشهورون فقط، بل جاء أيضاً شيء جديد: النساء! نساء نتكلم معهنّ، ونصنع لهنّ تماثيل. نساء يدخلن البهو، ويجلسن على كراسينا. يا لأولئك النساء! نساء باريس! بشرة أنثوية ناعمة، مليئة بالتجاعيد، سفعتها الريح، خشنة، تغطّيها القروح، دهنية، نظيفة، تفوح برائحة العرق، قدرة، تفوح بروائح البصل والطحين والشوكولاتة والفراولة. لمسهنّ كورتيوس جميعهنّ، وعندما تلامست أصابعه مع الجلد الأنثويّ، تردّد، وامتلاّت عيناه بالدموع، ولكن أحياناً، قريبتين جداً من وجه زبونة ما، ستتلاقى يداه معاً في تصفيق صامت. محاطاً بكلّ تلك الأنوثة، فكّرْتُ أن مشاعر سيّدي تجاه الأرملة قد تتلاشى! في إحدى اللحظات النادرة، جاء كي يقول لي: «آه! الأنف! تلك الأنوف! آه، نمش على الجباه! آه، ثنيات على الشفتين! شفاه مثالية، مشققة، دبغها النيّذ! آه، يا للرموش المفتولة! آه، غمّازات! آه، عظام الوجنات! يا للشامات! يا للحمرة، يا للبياض، يا للاخضرار! آه، ورديّ! آه، أحمر! يا للأزرق

والأصفر! لقد تأثرت! الأعناق! كم بكيت فوق نقرة تلك الأعناق! الشفاء! الشفاء مجدداً!»، ثم أضاف متعجباً: «سعيد! آخ، أنا سعيد لأنني حي!».

كورتبوس يصنع الأجساد، الأرملة تكسوها بالثياب، إدموند يخطط الأزرار، وأنا أفرك الأرضيات.

أما الصبيّ الهمجيّ فينام على درج المنزل الخارجيّ.

في الأسبوع الثاني على تواجد الصبيّ المتشرّد قريباً منّا هكذا، نزل إدموند أخيراً من غرفته. سمعته ينزل الدرج ببطء شديد. أصغيتُ، إنّه هو بكلّ تأكيد، لأنني أسمع شخير الأرملة الثقيل وسيدي يغمغم في نومه. خطوات إدموند الصغيرة، تتقدّم بحرص فائق، أقرب فأقرب. نهضتُ من فراشي، ووقفتُ إلى جانب الباب، انتظرتُ وانتظرتُ. سمعتُ ضجّة في الخارج بالقرب من الدرج، لا بدّ أنّه الصبيّ المتشرّد يتقلّب في نومه. أصغيتُ مجدداً بانتظار أن أسمع صوت خطوات إدموند قادماً إلى غرفتي، لكنّه توقّف ولم أعد أسمع أيّ شيء، ولا حتّى لوهلة. من ثمّ، سمعتُ صريراً خافتاً، إنّه هو مجدداً. مددتُ يدي إلى مقبض الباب وفتحته، فأعلن الباب أنه يُفتح قليلاً، قليلاً فقط. توقّف إدموند، ثمّة أصوات على الدرج في الخارج. تابع المشي، صرير، فتح بابي أكثر قليلاً، صرير، ثمّة شخص ما وقف على الدرج في الخارج، صرير.

أنا أرى إدموند الآن، وإدموند يراني، بفضل ضوء الفجر الشاحب الذي يتسلّل من مصاريع النوافذ. لا تفصلنا سوى عشرين ياردة على الأرجح، لكنّ كلّاً منّا بقي واقفاً في مكانه. صرير، تعالي صوت آخر عن الدرج في الخارج، من ثمّ ساد الصمتُ مجدداً.

«ماري!»، همس إدموند بصوت لا يكاد يُسمع.

«إدموند!»، أجبته بصوت خافت.

صمتُ

«لقد أتيت أخيراً!»، قلتُ.

«من هناك؟»، زعق صوت ما فجأة، صوتُ أجشّ، يصدر من الخارج.

لم ننطق بكلمة، لا أنا ولا إدموند.

«قلتُ من هناك؟! ما الذي يوجد في الداخل؟! ما الذي تخبّئونه هناك؟
اكشفوا عن أنفسكم»

من ثمّ خبط أحدهم على الباب الخارجيّ بقوة، وهزّه. ثمّة شخص ما في الخارج يحاول الدخول! من ثمّ، تعالت زمجرة حانقة في الخارج، وكأنا أيقظنا وحشاً ما لأننا نهضنا من أسرّتنا في غير الموعد المسموح به، وقُرِع الباب بعنف.

«النجدة!» همس إدموند، «سينهار المنزل فوقنا!».

ركض صوبي، تشبّث به وطوّقه بذراعيّ بقوة.

«دعني وشأني! اتركني!»، هدر الصوت في الخارج بغضب.

«من هناك؟!» صاح صوت آخر، لكن من الأعلى هذه المرّة. إنها الأرملة.

«أمّي!!»، صرخ إدموند.

«إدموند!» صرخت الأرملة، «ما الذي يجري؟! لماذا استيقظت؟! من

هناك معك؟!».

«الأصوات يا أمّي! إنها الأصوات!»

«يا صغيرة! يا صغيرة! ماذا تفعلين؟!»

وعندها، أفلتُ إدموند.

«ألا تسمعين يا مدام؟! ثمّة شيء ما خلف الباب!»

هدرت ضجّة أخرى في الخارج، وتحطّم شيء ما على الباب، من ثمّ دوّت صرخة مرعبة، وهذه الصرخة الأشبه بزعيق وحش جريح هزّتنا من الخارج وتردّد صداها في الداخل، لأنّ الأرملة زعقت بدورها زعيقاً عميقاً أعلى فأعلى، أشبه بصوت بقرة تتألّم. تبعثها صرخة إدموند، لكنّها كانت صرخة ذات نبرة أعلى، أشبه بأرنب يقع في الفخّ، تلتها صرخة أخرى، هذه المرّة من سيّدي في أعلى الدرج، أشبه بأنين حصان. صرخ المنزل بأكمله، اهتزّ وغصّ وعوى كأنّه حديقة وحوش ضخمة تصرخ كلّها معاً. وسط تلك الضجّة، لم أستطع إلّا أن أدسّ صوتي الصغير بين أصوات الآخرين، نحيب فأرة صغيرة أو زُبابة شجر^(١).

1 - حيوان لبون صغير بنيّ اللون يشبه الفأر، لكنّ خطمه متطاوّل مدبّب. المترجمة

فجأة، توقّف القرع والخطب، ولم نعد نسمع سوى عويل وهرولة، كأنّ شخصاً ما يهرب بعيداً.

وقفنا في الداخل نحن الأربعة، كلّ منّا في جزيرته الخاصّة، دون أن نتجرّأ على إصدار صوت، إلى أن سمعنا شخيراً عميقاً يتعالى عن درجات المدخل، كأنّه كلب ماستيف ضخّم. من ثمّ، مرتجفين شاحبين، عدنا في ربنا المكتوم إلى أسرّتنا، آملين أن الشمس وضوء الصباح سيبدّدان خوفنا.

الفصل الحادي والعشرون

كلبٌ يحرس خزانة العجائب

في الصباح التالي، فهمنا ما حصل. أحدهم على ما يبدو، سكير ما، كان يتلصص على منزل القروء، وخبط الباب آملاً بترويعنا، لكنّه داس خطأ على الصبيّ المتشردّ، وكانت جائزته على سوء صنيعه هي الألم، فضلاً عن سنّين مفقودتين لن تنموا مجدّداً.

وقف سيّدي عند النافذة، وتأمل الصبيّ المتتمّر الذي ما يزال نائماً على الدرجة الثالثة. «أظنّ» قال، «أنّ علينا أن نشكره». وقفتُ عند باب المطبخ، بينما فتح سيّدي الباب الأماميّ، وتنحّج.

«أفترض أنك لم تنم جيّداً» قال سيّدي، «لا أحد منّا نام». اقتربنا جميعنا أكثر عندها، كي نرى ماذا سيحصل.

جلس الصبيّ الهمجيّ ببطء، وزمّ شفّتيه، لكنّ كورتيوس لم يتراجع إلى الداخل. زحف الصبيّ درجة للأعلى، لكنّ كورتيوس بقي حيث هو. تسلّق الصبيّ إلى الدرجة الأخيرة، لذلك اضطرّ كورتيوس إلى القيام بالأمر الوحيد الذي ما زال عليه أن يقوم به: مدّ يده إلى جيب صدريته، وتناول قطعة نقدية أعطاها للصبيّ المتشردّ، الذي توقّف فوراً عن الزمجرة.

بدا سيّدي شجاعاً جدّاً آنذاك، شجاعاً أمام الأرملة التي لم تكن معتادة على موقف كهذا. تأتأت وتذمّرت، لكنها لم تعرف ما الذي يجدر بها فعله. «إنّه مخلوق من الحضيض» قالت، «لن يدخل إلى هنا!».

«أنت صبيّ جيّد» قال كورتيوس الجديد هذا، «أنت تعجبني، لكنك متشردّ، وفي الداخل هنا ثمة أشياء حسّاسة. لذلك، ابقَ في الخارج، اصرخ

واضرب هناك كما تشاء، لأنك خلقت للعراء، أليس كذلك؟ لا يجب أن تقيدك العمارة، ولكن لا، لا تدخل».

«في الواقع» تدخلت الأرملة، «ابق خارجاً».

وهي تتلفت حولها غاضبة، اكتشفت أنني أقف قريبة منها أكثر مما يجب، فتذكرت شيئاً ما من ليلة البارحة.

«ليلاً، يا إدموند، لقد رأيتك!»، قالت.

«أجل يا أمي، وأنا رأيتك أيضاً. كم فزعنا جميعنا!».

«كنت ملتصقاً بالخادمة!»

«أنا... أنا...»

«هل تنكر ذلك؟!»

«كلّا يا أمي، لا أنكر»

«لا يمكنك أن تكذب على أمك»

«لا يا أمي، لن أكذب عليك، أبداً»

«ولماذا إذن التصقت بها؟!»

«كنت خائفاً يا أمي، وكانت... قريبة مني»

«إدموند! لا تنس مكانك! مكانك ليس -ولم يكن قط- مع جرد المطبخ»

«أجل يا أمي»

«تبحث عن الأمان؟! تعال إليّ، أنا سأخفف عنك»

«حاضر يا أمي»

«وأنت يا صغيرة، يا حثالة، يا دمل، يا خراء! المسي ابني مجدداً،

وستجدين نفسك في المجرور!».

«أجل مدام، بكل تأكيد مدام»

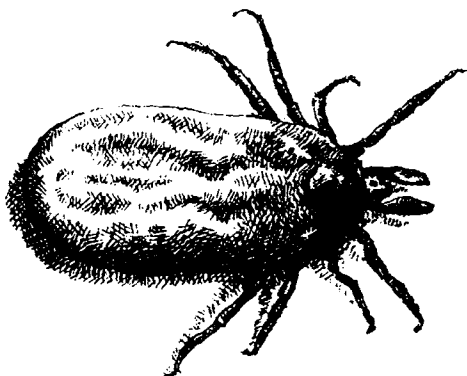
كم أتمنى أن تموتي في عذابك! فكّرت، وتخيلت ذلك في الواقع. لماذا هي شريرة هكذا دائماً، تساءلت، حتى بعد أن عملتُ باجتهاد من أجلها؟! لعلّها تحتاج إلى شخص ما أدنى منها، كي تتأكد من أنّها لا تقف في حضيض السلم الاجتماعي. لعلّ القسوة، هي برهان على نجاحها.

بعد ما قالته، أيقنْتُ أنني لن أسمع بعد اليوم صريراً على الدرج، وأنني سأبقى وحيدة في المطبخ، وسيكتسحني ذلك المكان.

«هذا مقرف!» اختتمت كلامها، «هذا المتشرد افتعل شجاراً صغيراً على عتبة منزلنا، ولكنه ليس سبباً كي ينهار المجتمع بأكمله! لنأمل جميعنا أن كومة القمامة التي تتنفس هذه، ستسام سريعا، وأن المكان سيعود كما كان!». لكن ذلك لم يحصل!

ما إن احتلّ ذلك الصبيّ الهمجيّ درج منزل القروء الأمامي، لم يعد بالإمكان منعه، ولا إيقاف سيدي كذلك. لم يكتف الصبيّ بقضاء الليل على الدرج فحسب، بل أخذ يمضي النهار هناك أيضاً، وسرعان ما دخل في خدمة «خزانة عجائب الدكتور كورتوس»، من خلال أداء مهمّات صغيرة متعدّدة. لم يكتف أن يربط نفسه بكورتوس فقط، بل أرسل مندوبين عنه إلى داخل المنزل أيضاً: براغيث! رأيْتُ دمامل صغيرة على ساعدي إدموند، رأيته عبر باب المطبخ وهو يحكّها، كما اكتشفت الأرملة قراة على مؤخّرة عنقها... ويا لذلك «التبجيل» الذي أبداه كورتوس للقراة، وكيف حوّل انتزاعها من عنق الأرملة إلى دراما عظيمة، وتمّ استدعائي - كانت الصدمة بالغة إلى ذلك الحد! - كي أجلب وعاء من الماء الساخن.

«لماذا ينبغي عليك أن ترى كنتفي؟!» ناحت الأرملة، «هذا المخلوق عالق برقبتي. كلا، لن أفكّ جاكيتي!».



لا بدّ أن يُنسب الفضل بالاهتمام الطّبيّ الذي أبداه كورتيوس، إلى مجيء الصبيّ المتشرّد، لأنّ سيّدي لم يكن سيجرؤ على لمس عنق الأرملة لولا قرادته، وها هو ذا يقرصها ويعصرها. احتفظ بالقرادة الميتة في علبة صغيرة، مسجّاة فوق مخمل أحمر، ووضعها على رفّ الموقد في غرفته، لقد رأيّتها عندما دخلتُ كي أفرغ المبولة.

يترك بعض الناس كلابهم خارجاً في البرد، بينما يدخلها بعضهم الآخر إلى المنزل، ويحملونها في أحضانهم أو يضعونها في أسرّتهم. بوسعك أن تعرف شخصيّة المرء من خلال الطريقة التي يعامل بها كلبه، وهاكم مؤشراً على شخصيّة سيّدي: لم يكتفِ بالإصرار على السماح للصبيّ المتشرّد بالنوم على الدرج الخارجيّ -وكأنّه يستطيع منعه!- بل أعطاه أيضاً غطاء من أغطية سريره. أخيراً، سأل الصبيّ عن اسمه. ردّاً عليه، صدر صوت من أعماق الصبيّ، أقرب للنباح منه للاسم.

«ماذا قلتُ؟» سأله كورتيوس، «حاول مجدّداً، مرّة أخرى».

هذه المرّة، خيّل إليّ أنني أسمع كلمات: «جاك» أنا متأكّدة من ذلك، أمّا الكلمة الثانية فلم أتبيّنها.

«فيزاج؟ آه، بوفيزاج!»، هتفت الأرملة.

بوفيزاج؟! الوجه الجميل؟!

«جاك بوفيزاج» زمجر الصبيّ، وهزّ رأسه موافقاً.

كورتيوس، مع كلّ تلك المقاطع الصوتيّة التي تناثرت على وجهه، أفْتِنَ بما سمعه! يا له من اسم لمخلوق كهذا! عوضاً عن أن يضحك ساخراً من الوحش، اكتفى بالابتسام. «حقّاً، أنت كذلك بالفعل، وجهٌ جميل»، قال له.

مع قدوم الشتاء، كشفت شخصيّة كورتيوس عن نفسها مجدّداً. بعد مفاوضات طويلة سرّيّة بينه وبين الأرملة المصعوقة، دعا سيّدي جاك إلى النوم في الداخل، متكوّراً على نفسه خلف الباب. أنا واثقة الآن، من أنّ إدموند لن ينزل للأسفل أبداً بعد اليوم! يائسة، أعطيته رسالة كتبتُ فيها فقط:

مرحباً يا إدموند، من ماري.

بدا إدموند مصعوقاً بعد أن أخذ الرسالة، فكرمشها بسرعة خاطفة، لكنّ أذنيه احمرّتا مجدّداً كما لاحظتُ.

أمرَ جاك بوفيزاج أن يبقى جالساً عند الباب الأماميّ، وألا يلمس الرؤوس الشمعيّة مطلقاً، لكنّ الأوان قد فات على ذلك، إذ لا يمكنك أن تطرد الكلب إلى الخارج مجدّداً بعد أن تسمح له بالنوم في الداخل، كما لا يجب عليك أن تُدخل مخلوقاً متوحّشاً إلى بيتك. صديقاته القديمات، كلاب البوليفار الشاردة، جاءت إلى الدرج الرئيسيّ وانتحبت من أجله، لكنّها ابتعدت حائرة في نهاية المطاف، وبقي الصبيّ بلا أصدقاء في منزل القروء. وكنْتُ أنا من ستعتني به.

الفصل الثاني والعشرون

أصبحتُ معلّمة

أنا، شيء المطبخ، مخلوق الدهون والسخام، شبح البخار واللهب، أنا الخادمة القذرة بأصابعها المملّخة السوداء، أنا من سأعنتني بهذا الشخص الجديد. ثمّة قواعد عليه أن يتعلّمها، ولا يمكنه أن يبقى في البهو الكبير خلال ساعات العمل، لأنّه -مثلي أنا- ينتمي إلى الغرف الخلفيّة. وهكذا، شغلْتُ أيّامي بأمومة رائعة. طفلي، مهمّتي الشاقّة، تطلّب كلّ صبري ورعايتي وحبّي. لعلّي أفرطتُ بدلاله، وأطعمته الحلويات، لكنني كنتُ صارمة معه أيضاً، فرفعتُ صوتي وهزّزتُ إصبعي في وجهه. هاجمني، لكنني كنتُ آخذ شهيقاً وأعود مباشرة إلى المعركة. كم انزعج إدموند من خدوشي! رأيته ذات مرّة واقفاً في البهو البعيد، يحدّق إلى المطبخ وهو يغطّي فمه بيده مرتعّباً. أنا أدجن مخلوقاً برياً، وهذا ما أبقاني منشغلة دائماً. لا بدّ أن يتبول جاك وأن يتبرز في المبولة، وتعلّم هذا الأمر تطلّب منه شهوراً. سأشتم رائحة، وسأجد بركة من البول أو كتلة من البراز، وسيندفع جاك صارخاً إلى الخارج.

لعلّي بالغتُ بما قمتُ به، لعلّ الأمومة غلبتني فلم أستطع أن أرى بوضوح، لعلّي أنا من جعلته أكثر توحّشاً ممّا كان في الحقيقة. إنّهُ يعرف كيف يتكلّم بالطبع، ولا ضرورة لتعليمه المفردات -وهو ما نسيته أحياناً- وكان يصرخ بأسماء أشخاص في لحظات عذابه تلك، عندما أفلّيه وأهزمه. قد يصيح «إيف ساكرو» مثلاً، وقد يخفّف انزعاجه أن يصيح «جان-بول كليمنسو»، وقد يضرب الأرض بقبضته وهو يكرّر اسم «آن-جيروم دو مارسياك لانفي». مجرد نطقه لهذه الأسماء -أسماء اعتقدتُ أنه سمعها في

البوليغار - يبدو أنه يهدئه نوعاً ما. تعلّم ألا ينوح أو يهتاج عندما تدخل زبونة إلى منزل القروء، لكن لا بدّ له بناء على تعليمات الأرملة من أن يحمي كلّ ما ينتمي إلى منزل القروء.

وجه جاك يفصح تماماً عن أفكاره: حزين، غاضب، خائف، سعيد... إلخ، كلّ تلك المشاعر ستظهر بصراحة على وجهه. إنّ -على العكس من الشمع - أسوأ ممثل، ولا يستطيع إلّا أن يكون نفسه، إنّ عالق مع نفسه، وهي حالة يائسة أحياناً ومزعجة للغاية.

بعد أن بدأ بالنوم في الداخل، أظنّ أنه بدأ يخشى الخارج. لم يحدث هذا فوراً، بل تسلّل الخوف إليه شيئاً فشيئاً. اكتسب بعض الوزن، واعتاد على دفء المنزل. عندما كنّا نتناول طعامنا معاً في المطبخ، حدّثته عن أمّي وأبي، وعن حياتي قبل أن آتي إلى باريس. لو لم أخبره بذلك، تساءلْتُ، فكيف لي أن أكون واثقة من أنّ كلّ ذلك قد حصل حقّاً؟! قد تضمحلّ القصة لو لم أخبره بها، وعندها سأبقى قصيرة ومتجهّمة في المطبخ. ببطء، تشرب جاك كلّ ذلك، وذات مساء فتح فمه وتدفّقت منه الكلمات.

جاك بوفيزاج لديه حكاياته الخاصّة

«برنار بالياك قطع زوجته إلى قطع، وأطعمها للكلاب»

سمعتُ تلك الكلمات، تلك الإشارات الواضحة على الذكاء، فانحنيتُ للأمام وأصغيتُ بانتباه. بعد صمتٍ طويل، استأنف جاك الكلام.

«اللحّام أوليفيه قطع عائلته بالفأس، زوجته وطفليه الاثنين. باعهم كطعام للخنازير، لكنّ الطعام كان كثيراً عليها، فمرضت. جاءت الشرطة».

لم أنطق بحرف، وتابع جاك الكلام. قال كلمات صغيرة، متقطّعة، رسائل يشكرني بها.

«إيسابيل توريسيه وباسكال فيسو، اضطجعا معاً على السرير، ثمّة شخص آخر كان معهما أيضاً، زوجها موريس! موريس كان مشلولاً. ثلاثة أشخاص يصنعون حشداً، كما يقال. أخذه إلى أعلى المنزل، حيث توجد طيور على السطح المستوي في قفص كبير، بناءً أسفل النهر، بالقرب من صوامع الحبوب. وضعوا الزوج في القفص، نقرت العصافير لحمه لكنّ

أَمَّه عَثَرَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، حَيًّا! نَحِيلًا كَهَيْكَلِ عَظَمِيَّ! عَلَى الْعَكْسِ مِنَ
الْعَاشِقِينَ، لِأَنَّهُمَا مَاتَا سَرِيعًا بَعْدَ ذَلِكَ! سُئِنَا فِي سَاحَةِ دُو غَرِيفٍ، أَمَامَ
النَّاسِ! رَأَيْتُ ذَلِكَ!«.

يَا لَهُ مِنْ إِنْجَازٍ! لَقَدْ تَأَكَّدْتُ مِنْ صَحَّةِ تَعْلِيمِي وَغَرَائِزِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ!
أَنْذَاكَ، وَكَأَنَّ كُلَّ الْإِنْتِصَارَاتِ تَتَرَفَّقُ مَعًا، قَاسِمْنِي جَاكَ هَوَايَتِهِ الْخَاصَّةُ،
الَّتِي لَطَالَمَا احْتَفَظَ بِهَا لِنَفْسِهِ دَائِمًا فِي السَّابِقِ: إِنَّهُ كَمَا اكْتَشَفْتُ، هَاوٍ
عَظِيمٌ لِلْجَرَائِمِ، لَا سَيِّمًا جَرَائِمَ الْقَتْلِ فِي بَارِيسَ. سَنَجْلِسُ مَعًا فِي الْمَطْبَخِ،
وَسَيَقْصُّ جَاكَ عَلَيَّ مَزْمَجْرًا حِكَايَاتِ صَغِيرَةٍ دَامِيَةٍ بَائِسَةٍ عَنْ تَعَسَاءِ الْحَظِّ،
الَّذِينَ يَغَادِرُونَ الْحَيَاةَ عَلَى عَجَلٍ. سَمِعْتُهَا حِكَايَةً تَلُو أُخْرَى، إِلَى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ
مِنَ اللَّيْلِ، بَيْنَمَا تَزَايَدَتْ ثِقَتُهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ. احْكُ لِي حِكَايَةً أُخْرَى يَا جَاكَ! أَرُو
لِي قِصَّةَ أُخْرَى! لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُنَامَ مِنْ دُونَ أَنْ أَسْمَعَ حِكَايَةً. تَحْتَ إِشْرَافِهِ،
أَصْبَحْتُ ضَلِيلَةً بِالْأَفْعَالِ الْمَرْوَعَةِ.

حَدَّثَنِي عَنْ حَيَاتِهِ أَيْضًا، بِنَاءً عَلَى الْإِلْحَاحِي: «جَاكَ! يَا جَاكَ! أَخْبِرْنِي!
أَخْبِرْنِي!».

الفصل الثالث والعشرون

جاك بوفيزاج، بكلماته

- لقد رأيتُ عمليات الإعدام شنعاً، لكن ليس المجرمين. أودّ أن أكبر يوماً، كي أرى مجرمًا جيّدًا، دموياً. لقد فاتتني رؤية حنجرة تُذبح في البوليفار، بفارق بضع دقائق فقط! رأيتُ الدم، بل والتزيف أيضاً، لكن ليس الذبح بحدّ ذاته...

«كم عمرك يا جاك؟»، تساءلتُ.

«لا أعرف! كم برأيك؟»

«أعتقد أنك ربّما تكون في العشرين من عمرك. لا أعرف، ربّما تجاوزت الخامسة عشرة؟ لستُ متأكّدة!»

«وأنا لا أعرف أيضاً. حسناً، وماذا إذن؟»

«أين وُلدت؟»

«هنا، في باريس»

«من كان والدك؟»

«لا أعرف»

«وأأمك؟»

«لا، لا أعرف»

«ماذا تعرف إذن، يا قطي؟»، ألححتُ بلطف.

«تبدين كجدة عجوز!»

«أخبرني، ما الذي جرى لك؟»

«لقد تُركتُ عند الميتم، في شارع سان-أونوريه، هذا مؤكّد، وهناك منحني الراهبات اسماً. لم أكن طفلاً ظريفاً -هكذا قالت الراهبات- لأنّ وجهي كان عريضاً، وأصبح أعرض كلّما كبرتُ بلا شك. نادّتي الراهبات بجاك، وهو ما أصبح اسمي، ثمّ أصبحتُ بوفيزاج بسبب جمال ملاحي»
«كيف كانت الحياة؟ في الميتم؟»

«عشتُ، أكلتُ، لم يتوافر الكثير من الطعام آنذاك، لذلك أخذته من أولئك الذين لم يكونوا أقوياء بما يكفي كي يقاتلوا من أجله، ولعلّهم تصوّروا جوعاً بالتالي... هكذا كان الحال. كنتُ صاخباً، أضرب الآخرين، ولا أنصاع للأوامر. ضربتُ إحدى الراهبات ذات مرّة، بينما تأذتُ أخرى بسبب صراخي، أصيبت بالصمم كما قالوا. مات الأطفال في الميتم، لا سيّما في الشتاء. أنا لم أمت، لم يستطع الشتاء قتلي، على الأقلّ ليس بعد. مرضتُ ذات شتاء، وظننتُ أنني سأموت، مستلقياً في المجرور بالقرب من الجدار يوماً بعد يوم، مدفوناً بين القاذورات، لكنني عدتُ على الرغم من ذلك. نهضتُ، أكلتُ القليل، صرختُ قليلاً، ونهضتُ مجدّداً، أفضل وأفضل»
«وبعد الميتم؟»

«لقد أخذوني. أودينو، مدير المسرح، أخذني. كان يأتي دائماً إلى الميتم ويأخذ بعض الأطفال، أربعة أو خمسة منهم في كلّ مرّة، كي يمثلوا على خشبة مسرحه، مسرح أمبيغوكوميك»
«أجل، أعرفه، رأسه موجود لدينا هنا»

بصق جاك، ثمّ قال: «كلّ الممثلين هناك أطفال، أطفال يأخذهم من الميتم دائماً، لأنّهم أرخص، لأنّه ليس مضطراً لدفع أجورهم، بل إنّهم يدفعون له كي يأخذهم من الميتم. مثلتُ هناك، أخذتُ غالباً أدوار حيوانات بريّة. كنتُ مشهوراً، وجاء الناس إلى المسرح فقط كي يروني، لكنّهم لم يرغبوا بالجلوس في المقاعد الأماميّة عندما أفّ أنا على خشبة المسرح، خشية أن أنزل وأضربهم. أنا عصبيّ، لكنّ مزاجي أفضل الآن، كنتُ أضرب أيّ شخص فقط لأنّني أستطيع ذلك، وعندها سيصرخ أودينو في وجهي، لكنّه سيخاف أن أضربه بدوره. كانت لديّ فتاة جيّدة هناك في أمبيغوكوميك،

هنرييت بيريه، تعارفنا جيّدأ وكانت الأولى بالنسبة لي، لكنّها مرضت بين ذراعيّ، وماتت بين ذراعيّ أيضاً. غضبتُ كثيراً، وضربتُ كلّ من حولي، وهددتُ أودينو أن أقتله لذلك أطلق رجاله الضخام عليّ، فكسّروا كلّ عظامي من ثمّ ألقوا بي خارجاً. رموني في ذلك المجرور، وظننتُ أنه مشواي الأخير، لكنني نهضتُ مجدّداً في نهاية المطاف. بعد ذلك، تسكّعتُ بالدرجة الأولى مع الكلاب، التي بقيت بجانبني وآستني، لكننا تقاثلنا أيضاً، وخفتُ. لا أعرف كم بقيتُ معها، فصلاً بعد فصل، كدتُ أصبح كلباً كما أعتقد، لكن عندها جاء كورتيوس، وجئتُ أنتِ. أنتِ امرأة عجوز، وطفلة في آن واحد، جعلتني أتكلّم من جديد. وها أنا ذا هنا، بين الناس مرّة أخرى، أو مع شخص واحد فقط، صغير ومشغول. بقيتُ في البوليغار، كلّ يوم، ما عدا حينما يُسَنَق أحدهم، عندها كنتُ أذهب إلى ساحة دو غريث. إنها الأيام الجيدة! أحب أن أرى شبقاً جيّدأ، إنّه مفيد بالنسبة لي».

بعد أن قصّ عليّ حكاياته، بدأتُ أنظفّ جاك بلطف أكثر. أقنعتة بالجلوس في حوض من القصدير، وجعلته يبدو أكثر فأكثر ككائن بشريّ كلّ يوم. ثمة رجل تحت ذلك السخام، رجل خشن المظهر ذو أسنان فظيعة، يضحك من الأمور التي لا يجوز الضحك منها. شابّ أخرق، عنيف، لكنّه يملك جمالاً معيّناً وسط كلّ تلك الحكايات البائسة. جلده يحمل العديد من الندبات، والحروق، والجروح، وآثار الحكّة، والخدوش. سألتُه عن تلك الندبات واحدة تلو الأخرى، وحَدّثني عنها بعفوية وهو جالس في حوض الاستحمام، واحدة واحدة: «تلك من المسرح، ضربني المعلّم أودينو بشوكة. كنتُ أصغر سنّاً، ولم يجرؤ على فعل ذلك مجدّداً. هذه بسبب كلب أسود، وتلك لأنني جرّبتُ سكيناً، سرقتها، كانت سكيناً جيّدة جدّاً، جدّاً». بناء على تعليمات الأرملة، خاط له إدموند بزة صوفية مبطنّة، كي تدوم طويلاً ما أمكن، وخاط أجزاءها معاً بأربعة صفوف من الغرز، لكنّ جاك سرعان ما مرّقها، فخاط له إدموند بزة جديدة أكثر متانة من الجلد.

حكايات جاك جيّدة جدّاً، إلى حدّ يتعذّر معه إخفاؤها في المطبخ، وسرعان ما انتشرت في المنزل، وبدأت تعلن عن نفسها في غرف الطابق العلويّ، كما فعلت فانتازيات القروء من قبل. على الرغم من أنّ سيّدي

والأرملة لم يصغيا إليها بانتباه، لكنّ قصص جاك تغلغلت فيهما، ووجدت طريقها إلى أعماقهما عبر فوهات منخريهما أثناء النوم، وإلا لماذا سنسمع سيّدي ليلاً وهو يذرع غرفته جيئةً وذهاباً؟! ولماذا ستستيقظ الأرملة دائماً في مزاج سوداويّ؟!

جاك هو مخلوق مختلف تماماً عنيّ، أنا الأشبّه بساذجة تتعلّم حول العالم. التلميذ أصبح معلّماً، وعلمني بطريقته ماذا يعني أن أكون حيّة، وكم عدد طرق الموت. لم تكن لي صلة حقيقية بالحياة قبل قدوم جاك إليّ، كأنني سمعتُ شائعات عنها فقط، همسات صغيرة عمّا يمكن للإنسان أن يفعله، كنتُ قبله دمية في روضة أطفال يحركّها جرد. عندما يغفو جاك بعد أن ينهي حكاياته، أذهب إلى شعب الشمع في البهو. ما زلتُ طفلة بغض النظر عمّا يلقبني به جاك، لكنني أتخلّص من تلك الطفولة وأنا أمشي بين أولئك البشر الصنعتين. في بداية مساء ما، وأنا آخذ الأطباق من غرفة السفرة قبل أن يُسمَح للزوّار بالدخول، لمحتُ إدموند جالساً هناك، متفادياً نظراتي. لقد نأى عنيّ كثيراً منذ قدوم جاك.

«جاك يعرف قصصاً رائعة!»، قلتُ له بسرعة.

«ماذا؟!» سألت الأرملة، «هل تكلمتِ؟!».

«جاك بوفيزاج يعرف قصصاً رائعة، لا بدّ أن تسمعوها»

«اخرجي من هنا»، أمرتني الأرملة.

«قصص؟!» سأل سيّدي، «آية قصص؟!».

«إنّها قصص باريس يا سيّدي، كلّها» تنحنحتُ، «عن المجرمين، عن جرائم القتل... إنّه يعرف كلّ تلك القصص، قصص فريدة من نوعها يا سيّدي، ولا بدّ أنّها تخصّ رؤوساً لا نعرفها. بالطبع، أنا لم أر قط وجوه أولئك الرجال والنساء الذين ارتكبوا تلك الجرائم».

ابتهجتُ لأنّ سيّدي طلب منّي أن أجلب جاك، سيستمع هو والأرملة إلى تلك القصص! توقّعتُ أن أسمع تصفيق سيّدي بعد قليل، لكن ما سمعته لم يكن سوى صراخ الأرملة التي لطمت جاك على أذنيه، فعاد بائساً إلى المطبخ.

عندما صعدتُ للأعلى، وبّختني الأرملة: «أنت تجلبين هذه القبّاحة إلى منزلي! هذا مكان للوجوه الراقية، للجمال والإتقان، وليس للقدارة التي تعرفينها. أنتِ تلقين بنا إلى المجارير، لا تتصرّفي كما يحلو لك هنا!». ألقت نظرة على الأرض، فلمحت ذرّة غبار. «انظري هناك! طين!»، صاحت.

لاحقاً، حاول سيّدي أن يوبّخ جاك. «أنت صبيّ سيّء، سيّء جدّاً» قال له، لكنّ تعابير وجهه لم تتلاءم مع كلماته تلك، إذ بدا لي كأنّه يقول: يا لهذا العمل الرائع يا ماري! لقد تقدّم جاك حقّاً! لقد اعتنيت به عناية ممتازة! أنا أشكرك!

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الرابع والعشرون

فرجة فائقة الأهمية

«يا للأخبار! يا للأخبار التي أحملها يا كورتيوس، ويا أيتها الأرملة العزيزة!»، صاح مرسية وهو يدخل إلى منزل القروء، مفعماً بالبهجة. «إنها بلا شك» قالت الأرملة، «أخبار ستتطلب منك احتساء نبيذنا، كي يسهل عليك إخبارنا بها!».

«لن أرفض عرضك!»، زقزق مرسية.

«أنت لا ترفض أبداً» قالت الأرملة، وأومأت إليّ.

جلبتُ النبيذ بأسرع ما أستطيع.

«حسناً إذن» قالت الأرملة، «إن انتهت استعداداتك».

«عام 1774 يبدأ بصداق»، بدأ مرسية الكلام.

«لينقذنا الرب!» تأوّهت السيّدة، «نحن نعرف ما هو التاريخ».

«مع قدوم شهر كانون الثاني» تابع مرسية من دون أن تتبّط همّته، «بدأت الحمى والأوجاع في كلّ أرجاء جسمه. شباط وصل مع ظهور الطفح. في آذار، ظهرت بقع حمراء لا تزول، وغطّت جسمه كلّ. في نيسان، فاحت رائحته. في منتصف نيسان، تحوّلت البقع إلى بثور سرعان ما امتلأت بقيح سائل، وغطّتها القشور اليابسة مع نهاية الشهر نفسه. في الثامن من أيار، بدأت الآفات بالنزيف. في التاسع منه تمّ استدعاء رجال الدين، وفي العاشر من أيار 1774، لويس الخامس عشر، ملك فرنسا ببركة الربّ، مات بداء الجدري. ستحلّ أيام أفضل يا دكتور كورتيوس، ويا أرملة بيكو! ويا صغيرة

أيضاً! بل حتى أنت أيها الكلب الجديد! ستصبح فرنسا عظيمة من جديد! يحيا الملك الجديد! تحيا الملكة الجديدة! لقد اجتمع البرلمان في فرساي، سيتم إنقاذ باريس الآن!». «

هل مات الملك؟!» سألت الأرملة، وقد بدت مصدومة حقاً.

«مات وتعقن» أجاب مرسيه، «الأجساد الفتية هي ما يهمنا الآن».

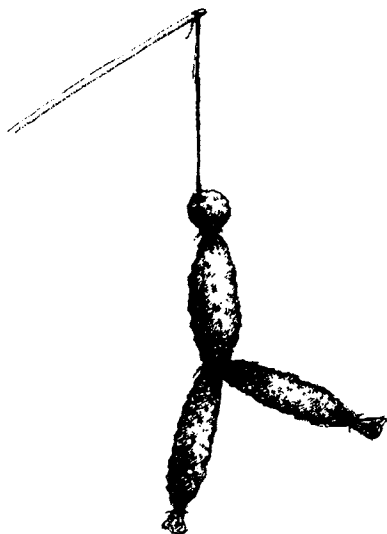
لكن بعد الأخبار، ساد التملل. عاد مرسيه بعد ذلك لزيارتنا سريعاً، واندفع في أرجاء منزل القروء هازأً رأسه بأسى. لقد غيّرت المدينة حاكمها، لكن اكتشاف وجوده مستحيل. عندما لم يحصل أي جديد، عندما سارت الأمور كالمعتاد، انهارت المعنويات، واندلعت أحداث الشغب في الشوارع، وقُتل بعض الناس. مرّت الحشود من أمامنا صارخة، فاهتزّ منزل القروء. أراد جاك أن يخرج، لكن الأرملة منعتة، فأمضى أيامه وهو يتتجب خلف الباب. تمّت السيطرة على الشغب، وتمّ اعتقال البعض وعوقبوا. صرخ جاك بطريقة شنيعة أنه يريد أن يتفرّج على العقوبات تُنفَّذ، وظلّ يصرخ إلى أن وعده كورتيوس باصطحابه في الصباح الباكر، لكن الأرملة رفضت أن تدع سيدي يخرج بمفرده، وقرّرت أنها ستراقبه، وأن إدموند سيرافقها، وذلك لرؤية الإعدام شفقاً، أمّا أنا فعليّ أن أبقى في المنزل وأحرسه.

الأشخاص الذين عادوا إلى منزل القروء، يختلفون عن أولئك الذين غادروه. جلب لي جاك معه تذكّراً: دمية، ليست متقنة الصنع، تشبه الإنسان نوعاً ما لكنّها بلا ذراعين، ولا تملك سوى ساقين متدلّيتين، لا ترتدي ثياباً، ولا تملك لا وجهاً ولا شعراً. إنّها مصنوعة من نسيج بسيط ذي لون واحد، ومحشوة بالذرة اليابسة، وثمة سلك قصير ملفوف حول عنقها. أخبرني جاك أن هذه الدمى تباع دائماً في ساحات الإعدام، يحملها الناس ويوجهونها صوب المنصة. عندما يسقط جسد المجرم، ويبدأ بالتلوي والارتعاش، ستقلّده حركات الدمى هذه التي تتدلّى من خيوطها بين أيدي الحشد، ساقا الرجل المحتضر تشبه الساقين القماشيتين للدمى التي ترفس وتركل، وتبحث يائسة عن موطن قدم.

«شارل ليسكييه!» هتف جاك، «سرق خبزاً!».

بكى كورتيوس وأنا آخذ منه معطفه، «لقد توقّف! أمامي مباشرة! وأنا أنظر إليه!».

«لم أرَ إعداماً منذ ذهبْتُ آخر مرّة أنا وهنري. اعتدنا على الذهاب معاً، أنا وهو، في تلك الأيام السعيدة!»، قالت الأرملة غارقة في ضباب ذكرياتها.



إدموند يرتجف، ووجهه شاحب أكثر من المعتاد. تعرّ في البهو، وسقط أرضاً. صرخت الأرملة، ثمّ حملته جاك للأعلى واستدعينا طبيباً. في تلك الليلة، صعدتُ الدرج حافية القدمين، فرأيتُ الأرملة نائمة في كرسيّ إلى جوار سريره، لكنّ إدموند كان مستيقظاً ونظر إليّ. اكتشفتُ أنه يبكي، لكنني لم أستطع أن أكلّمه، بل عدتُ خائفة إلى المطبخ.

الفصل الخامس والعشرون

مجرمنا الأول

المعدمون يملؤون باريس، أعدادهم تتزايد يوماً بعد يوم كما قال مرسيه، ولا أحد يساعدهم. جارنا مسيو بيه، صاحب مقهى الشطرنج، خسر عمله ومنزله وقطع الشطرنج أيضاً، وتلاه العديدون. أعدت الأرملة قائمة بأسماء الضحايا، أي أولئك الذين فشلوا، وعلقتها في الورشة.

الشخص	المهنة	المصير
التاجر بيير	مقهى لمن يتكلمون اللاتينية	مأمورو المحكمة، السجن
ميشيل رولاند	فطائر	حريق، مشفى، موت
جورجيت أرلان	ممثلة خيال الظل	تسول، العصفورية
هورتنس وآلان ديكسميه	العباب الخفة	الانتحار، أولاً هو من ثم هي
آلان بيه	مقهى الشطرنج	اختنق بقطعة الفيل

ريثما تعافى إدموند من مشهد الإعدام، لم يُسمح له بالنزول إلى الأسفل، بل بقي في غرفته محاطاً بالأشياء الطرية. أعتقد أنه بعد أن رأى ذلك الموت، شعر ببعض منه يتسرّب إليه واستنشق فتاتاً منه، وهو يقاومه بضراوة الآن، لكن تولّد لديّ إحساس رهيب أنه سيموت بدوره.

توالت الجرائم واحدة تلو الأخرى، وكأنا تعلمنا لغة جديدة كانت آذاننا

صمّاء تجاهها من قبل، أمّا الآن ونحن نتكلّم لغة الجريمة، فصرنا نسمعها في كلّ مكان، وها هي ذي -كأنّنا نحن من استحضرها بأحاديثنا- جريمة ضخمة تقع، تاريخ أسود جديد فيه الكثير من التفاصيل، وذاك بالطبع هو من سمح لها بالدخول إلى منزلنا: القصة البغيضة لأنطوان-فرانسوا ديسرو.

«لقد سمّمهم بالزرنينخ» زعق جاك، «زرنينخ في شراب الشوكولاتة! شربته الأمّ أولاً، وسقطت! أنغ! هوت أرضاً! سحب أنطوان جسدها العجوز إلى صندوق، ودفنها في قبو استأجره. يا له من رجل! يا لهذا الزمن الذي نعيش فيه! لم ينته الأمر هنا، لأنّ الابن جاء كي يناديها، وها هو ذا شراب الشوكولاتة، وها هو ذا الابن يسقط بدوره! أنغ! انطرح أرضاً! هذه المرأة، وضعه أنطوان - فرانسوا في صندوق من النمط الذي يسمّونه التابوت، ودفنه في قبر زائف. من ثمّ؟ جاء الأب، والآن احزري ماذا؟».

«شوكولاتة؟ أنغ؟ سقط أرضاً؟»

«كلّا، كلّا ماري، كلّا! أنا آسف ولكن لا! عندما جاء الأب، جلب معه الشرطة، ولا بدّ أن ديسرو لم يملك ما يكفي من الشوكولاتة لهم جميعهم. ارتابت الشرطة بالموضوع، فعلّقت بوسترات على كلّ جدران باريس، وميّزت صاحبة القبو المستأجر ديسرو، فصرخت وصرخت، وعندها نبشوا القبو... وماذا تظنين، يا ماري؟»

جثة، تتفسّخ.

عند سماعه الضجّة، جاء الدكتور كورتيوس إلى المطبخ، فروى له جاك القصة مرّة أخرى. نادى كورتيوس على الأرملة، التي سمعت القصة بدورها، مشمّزة.

سمعتُهما لاحقاً يتشاجران بصوت عال في الورشة.

«أنت لا تميّز أبداً» قالت الأرملة، «لا يمكننا أن نصنع رأساً لأيّ شخص!».

«لكنني مهتمّ جداً برأسه، وأحبّ أن أراه! لا بدّ أنّ ذلك الرأس فيه شيء

جديد، شيء ما لم أره من قبل»

«من فضلك يا دكتور كورتيوس، دعني أقرّر رأس من سنصنع»

«أريد! أيتها الأرملة بيكو، هذه المرة فقط! لا بد أن أصنع له رأساً»
«نحن نصنع رؤوساً للأشخاص الراقين، الجميلين واللامعين»
«هذه المرة فحسب!»

في اليوم التالي، غادر كورتيوس والأرملة معاً. عدتُ إلى المئة، من ثم اندفعتُ للأعلى. إدموند في غرفته، جسده تحت الأغطية ورأسه يستريح على وسادة. ظنته نائماً في البداية، من ثم رأيتُ عينيه مفتوحتين، وكذلك فمه. إنه ساكن للغاية.

«إدموند!»، همستُ.
استلقي فحسب، شاحباً للغاية.
«إدموند!»، قلتُ.

رمش بعينه

«إنه ميت!»، همس إدموند، «رأيتُه يموت! كانت صدمة بالغة! ذلك الرجل المشنوق المسكين! لا أستطيع أن أخرجه من رأسي! أغمضُ عيني، وما هو ذا».

«عليك ألا تفكر به»

«أنا لا أفكر بأي شيء آخر!»

قَبَلْتُه على خدّه، شعرتُ أنه عليّ فعل ذلك، لم أخطط لهذا لكنه حدث فحسب! من ثم، خرجتُ مسرعة وعدتُ إلى واجباتي. إنه يبدو أفضل، فكّرتُ، عاد بعض اللون إلى خديّ بعد القبلّة، ولم يعد شاحباً كقماش الكاليكو.

ذهب سيّدي والأرملة إلى الكونسيرجي⁽¹⁾، حيث يُحتجز المجرم ديسرو، وعادا بعد أن حصلّا لقاء تعرفّة معيّنة على إذن بزيارة زنزانته، كي يصنعا طبعة لرأسه.

«ولكن... هل هذا صائب؟!»، تساءلت الأرملة.

«نحن نرى الكثير من المشروعات تفلس» أجاب سيّدي، «فكّري بعدد الأشخاص الذين سيأتون لرؤيته».

1- قصر ملكيّ في باريس، تحوّل إلى مركز احتجاز رئيسيّ خلال الثورة الفرنسيّة، وسُجن فيه ما يقارب ثلاثة آلاف شخص بمن فيهم ماري أنطوانيت. المترجمة

«ألن نبدو كأننا نحتفل بما فعله؟!»

«لا لا، لقد روّعنا ما فعله أكثر بكثير من سوانا. نحن أكثر من أغضبناهم جرائمه، ولذلك يجب أن نحدّق إليه وجهاً إلى وجه. أشعر أنه يجب علينا ذلك، أيتها الأرملة العزيزة»

«لكن هل ينتمي المجرم إلى بقية الرؤوس الموجودة هنا؟! ألن يبدو ذلك كأننا نقرّ بعدم وجود فرق بينها؟!»

«سيبدو مختلفاً عنها»

«كيف؟!»

صمت كورتبوس، تملل، نظر باتجاه آخر من ثمّ نظر إلى الأرملة مجدّداً. «الرجال العظماء في بهونا أيتها الأرملة، سياسيون، كتاب، فلاسفة... إنهم رجال العقل، ونحن نعرض رؤوسهم، أمّا ديسرو فهو مجرم، فقد عقله السيطرة وسمح لجسده أن يقتل. ولذلك، إليك اقتراحي: سنصنع له تمثالاً كاملاً! كلّ جزء منه، بالطول الكامل، وليس تمثالاً نصفياً. سنصنع للرجل الشرير تمثالاً بالحجم الكامل! هذه المرّة، سنقول: هكذا يبدو هذا المجرم بالضبط، المجرم الذي كان يمشي بيننا!».

لم تعلق الأرملة، وتابعتُ كنس الأرض. في بداية المساء، خرجوا جميعهم معاً مجدّداً، وتركوني وحدي كي أحرس المنزل. حتّى إدموند ذهب معهم، كي يكتسب بعض الشجاعة والصلابة، بعد أن أصرت أمّه على أنّه لا يشبه أباه أبداً، وليس هشاً مثله. إنّه ضعيف في هذه المرّة فقط، قالت. كم كان نحيلاً! وكم ترنّح على قدميه!

«لا تأخذه» قلتُ، «إنّه يبدو مريضاً».

«ومنذ متى يقوم الخدم بإعطاء الأوامر؟!»، سألتني الأرملة.

«فكرتُ بذلك فحسب»

«لا تفكّري! أفكارك لا تلزمن!»

عندما عادوا، بدا جاك كأنّه يرقص من الدهشة. مضى سيّدي مباشرة إلى الورشة، أمّا الأرملة فذهبت إلى سريرها وهي ترتعد وتتعرّق. إدموند، شاحباً وتعباً، جاء إلى المطبخ كي يحكي لي ما حصل.

«كان يبكي عندما رأيناه، بكى طيلة الوقت، ممّا سبّب مشاكل مع طبعة الجصّ، وردّد بلا انقطاع: سيقتلونني، سيقتلونني! ثبّته جاك في مكانه، كي يتمكن الدكتور كورتيس من أخذ طبعة لوجهه، وعندما نزع الدكتور الجصّ بعد أن جفّ، قال الرجل: هل سيكون الأمر هكذا؟ هل سيصبح كلّ شيء مظلماً فجأة؟! عندما خرجنا من زنزانته، قال: أبانا الذي في السماوات! آه يا إلهي! آه يا إلهي! آه يا إلهي! آه يا إلهي! ثمّة موتٌ في كلّ مكان!». قبلته على خذه مجدّداً فوقف جامداً بلا حراك، ولم يهرب. أمسك يده، فاحمّرت أذناه للحظات فقط، من ثمّ اعتراهما الشحوب من جديد. لم يستطع أن يزيح ديسرو من تفكيره، وناذته أمّه -كانّها تحزر دائماً متى يكون بالقرب مني!- فذهب إليها، ولكن... حصل شيء آخر! قبل أن ينسحب، انحنى للأمام، وشعرتُ بخفق جناحي عثة تقترب من وجهي ثمّ تبتعد. لقد قبلني إدموند! احتضنتُ خدي بيدي حيث قبلني، إلى أن ضحك جاك مني. فكّرتُ بتلك القبلّة ليلاً، مراراً وتكراراً. لم يقبلني أحد من قبل!

لم أرَ تمثال ديسرو إلّا بعد أن انتهى صبه، حين فرغ منه الدكتور كورتيس ونادانا كي نأتي وننتفّج. أنطوان - فرانسوا ديسرو كان رجلاً هزيلًا، وجهه شاحب وغير متناظر، لكنّه ليس وجهاً فريداً من نوعه بعد كلّ شيء، بل ينتمي إلى ذلك النمط اليوميّ المألوف، ولن يلفت الأنظار في أيّ شارع من شوارع باريس... ولكن عندها، بعد قليل، بدا لنا رأس مجرم في نهاية المطاف، سيماؤه رهيبه!

«قد يقودنا هذا» فكّر سيّدي، «إلى فهم أعظم للناس! على الأقلّ، التمثال سيثبت لنا أن رجلاً كهذا يمكن أن يكون موجوداً. سنصيد البربريّة بالشمع!». أنطوان - فرانسوا ديسرو الحقيقيّ ألبس ثوباً أبيض، وقبّة بيضاء تشبه تلك التي يعتمرها الأسقف، وأعطى صليباً. تمّ تحطيم أطرافه بمطرقة، من ثمّ أُحرق ما تبقى من ذلك الرجل النادم حيّاً. ذهب جاك لرؤية العقوبة، وأخبرني بما حصل عندما عاد.

ديسرو الشمعيّ، كان أوّل شخصيّة نصنعها بالحجم الطبيعيّ. عرضناه واقفاً، منحنيّاً قليلاً نحو الأمام، حاملاً بيده فنجاناً وصحناً من البورسلان.

خبرُ عرضه هنا اجتذب الكثير من الناس، أشخاص لم يكونوا مهتمين برؤية روسو أو ديدرو، لكنهم جاؤوا خصيصاً كي يروا ديسرو، وبدا لهم بغياً على نحو رائع!



وبهذا، دخل «منزل كورتيوس» نطاق عمل المجرمين. ثبتت الأرملة حبلاً على طول الأرضية، وقسمت البهو إلى قسمين، وضعت الوجوه الجيدة في أحدهما، بينما خصّصت الثاني لتمثال ديسرو. ما إن انطلق العمل في مجال المجرمين، حتى أصبح من الصعب أن يتوقف، جاك يتحدث بلا انقطاع عن الأجساد التي يتم العثور عليها مقطعة في الأزقة الخلفية، بينما يصرخ إدموند في نومه إلى أن تدخل الأرملة إلى غرفته وتهذهه.

ذات صباح، وأنا أضع لهم الفطور على الطاولة، قالت الأرملة متعجبة: «إن دعونا المجرمين إلى منزلنا، فماذا نصبح؟!».

«شجعان؟!»، اقترح سيدي.

«إنه نهمٌ خطير، يا دكتور كورتوس!»

«أشكركِ لأنك سمحت لي بصناعة تمثال لديسرو. هل لاحظتِ كيف تحسّن عملنا؟! أنت سيّدة راقية كما أرى!» قال كورتوس، وفي بادرة نادرة متسرّعة، لمس ذراعها.

«انا أرملة في حداد!» ذكرته، «وذاك هو زوجي هناك، في أعلى الدرج».

لقد زاد ديسرو من أرباح خزانة العجائب، وهو أمرٌ لا يمكن إنكاره. حكّت الأرملة قلسوتها، وهزّت رأسها موافقةً على كلام كورتوس، لكن على مضض. أرادت أن تبقى دمية زوجها الميت بعيداً عن الطابق الأرضي، حيث المجرمون، إذ ما إن أثبت ديسرو قدرته على جني الأرباح حتّى انضمّ إليه مجرمون آخرون، افتتن بهم كورتوس. سبق له أن أخذ طبقات لأجزاء جسد رجلٍ شُيق في بيرن، لكنّه لم يفهم الشخصيات هكذا من قبل، وأثر أولئك المجرمون عليه بشدّة، ففرك رقبتة وفركها إلى أن انسلخ جلدها، ودرس الأساليب التي نقدوا بها جرائمهم. «أحياناً» قال لي، «أشعر أنني متّ كلّ الميتات، وأني أنا من ارتكب كلّ تلك الجرائم». لعلّها كانت فائقة القوّة، رؤوس المجرمين تلك، لأنّها قادته إلى أعماق الناس. كان أشبه بطفل عند البئر، يتشبّث بحافة جسد ضخّم مقطوع عند العنق، وهو ينظر إلى الأعماق مرعوباً، ولكن متشوّقاً إلى رؤية المزيد، ينحني أكثر فأكثر صوب الأعماق الدامية، مخاطراً أن يفقد توازنه ويهوي إلى الداخل. إن سقط، فقد لا يتمكّن من الخروج مجدّداً!

في الصباحات الباكرة، كنتُ أختلط بالمجرمين الميتين في البهو، أكنس حولهم، وأجهّزهم كي يراهم أشخاص جدد في العرض القادم.

الفصل السادس والعشرون

عن الحكّة

بحلول الوقت الذي أخذنا فيه طبعات للمجرم الثالث، كان هناك أشخاص آخرون نصنع لهم تماثيل أيضاً، أشخاص يسرون الأرملة: طياران عبقریان هما الأخوان مونتغولفييه، اللذان يستطيعان كما قيل لنا - أنا لم أر ذلك بعيني - أن يحلقا في السماء بواسطة مناطيد ضخمة من الحرير، وكذلك تماثل لمؤلف موسيقيّ تغطيه ندبات الجدري يُدعى غلّك، ولخصمه أيضاً، وهو مؤلف موسيقيّ نحيل وسيم يسمّى بيتشيني. يا لهؤلاء الأشخاص الذين صاحبتهم!

ساعدني جاك ببعض المهمّات الأساسيّة في الورشة، كحمل أكياس مسحوق الكلس، أو نشر الخشب من أجل القوالب، لكن لم يُسمَح له بتأثراً بالاقتراب من التماثيل. إنّه أخرج، وفظّ جداً، ويزعج الأشياء. الأشياء تخاف من جاك، جاك الذي يحطّم الزجاج والبورسلان من دون أن يقصد، لانيّة له بالتخريب لكن لا يمكنه فعل شيء إزاء ذلك، كما أنّه يدفع الناس إلى البكاء. مع ذلك، أراد أن يقترب أكثر من مجرميه هؤلاء. ذات ليلة، استيقظتُ على نحيب وصراخ رهيب، ليست أصوات القروء، بل أصوات مرعبة تشبهها، وكأنّها صدى لها يتكرّر بعد سنوات. عثرنا على جاك في الورشة، وقدماه في دلو من الجصّ. آملاً أن يثبت براعته لكورتيسوس أن يأخذ بنفسه طبعة لقدميه، مزج جاك الكلس بنفسه، لكنّه بعد أن وضع قدميه في دلو حديديّ ضخم مليء بتلك المادّة، علق فيه! يجب أن يُستعمل الكلس على شكل طبقات رقيقة فوق الأنسجة الحيّة، ضُع قدميك في وعاء عميق مليء به،

وسيحجزهما هناك إلى أن يسلخهما ويشويهما. لم يستطع جاك سحب قدميه من الدلو، ولم أستطع أنا ذلك، ولا سيّدي، ولا حتّى الأرملة، أمّا كلّ ما استطاع إدموند فعله فكان البكاء: «افعلوا شيئاً! افعلوا شيئاً! افعلوا شيئاً!». الألم رهيب، ولذلك سكبت الأرملة لجاك بعض البراندي، وأمسكتُ أنا يديه، وهو يصرخ ويصرخ. كان الجصّ قد برد عندما تمكّن كورتيوس أخيراً من تكسيّره، وتحرير قدمي جاك. لم يسمح جاك للقروح أن تترمّم كما يجب، بل نقرها وحكّها، وظلّ يعرج طيلة حياته بسببها.

«مسحوق الكلّس» قال كورتيوس لجاك الموجدوع (كان سماع هذا الدرس مجدّداً، كالموسيقى بالنسبة لأذنيّ!)، «لا يعرف شيئاً عن الحياة. إنّهُ مادّة ميتة، لا يكشف إلّا عن العقم عندما يسطع الضوء عليه. إنّهُ يكشف وقائع ليس لها شخصيّات، بوسعه أن يُظهر المسامات والتجاعيد، بوسعه أن ينسخ، ولكن دائماً من دون شخصيّة. بمزجه مع الماء، يتحوّل مسحوق الكلّس إلى جصّ، وهذا المزيج يولّد حرارة لبعض الوقت، لكنّها حرارة بلا شغف. إنّهُ ساخن، هذا صحيح، ولكنّه لا-شيء ساخن، ولا يفهم النسيج الحيّ. أمّا الشمع فعلى النقيض منه، الشمع جسديّ، الشمع جلدّ».



أصيب منزل القروء من أعلاه إلى أسفله، بالحكّة. عانى جاك أولاً من حكّة في قدميه، لكنّها كانت مجرد البداية، إذ سرعان ما اجتاحت الحكّة جسد كورتيوس بأكمله، فخدش جلده وعرّز أظافره فيه، مزّقه وجرحه، ملقياً باللّائمة في هذا العذاب الغريب على العديد من المجرمين. عندما يحكّ جاك نفسه، سنعرف كلّنا بذلك، إذ إنّهُ لن يستطيع السيطرة على نفسه، سيجلس على الأرض متأرجحاً للأمام وللخلف، أو سيحكّ شارد الذهن وهو يحدّق من النافذة إلى البوليغار. حتّى الأرملة بدورها شاهدناها أحياناً وهي تربّت على رأسها باهتياج، أو تفركه بضراوة بواسطة سكّين الزبدة.

أحياناً، كنْتُ أسمع سيّدي ليلاً يخرج إلى صحن الدرج، كي يزور دمية هنري بيكو. ربّما مرّة في الشهر، في تلك الساعات السريّة حينما لا يراه أحد، سيأخذ مقصّاً صغيراً من عدّة الأرملة، من تلك المقصّات التي تسمّى «توبيه»، ويمزّق قطبة في الدمية بحيث لا تلاحظ الأرملة ما يحصل. مع مرور الوقت، انفرط ظهر الدمية وسقط عنقها، وتراكمت خلفها كومة صغيرة من النشارة وقطع الخشب ازداد حجمها بالتدريج على إثر التمزّقات الصغيرة، وما زالت بانتظار أن تُكنس. الأرملة بيكو، التي لم تلق نظرة على الدمية منذ أن غيّرت اتجاهها، تذكّرت فجأة واندفعت كي تعانق الدمية عناقاً حميماً بموجة من الحبّ والحزن المتجدّد. أصلحت زوجها، رقّعته، وخاطت أجزائه معاً بإحكام، وهي تتذكّر صفات وانتصارات الراحل الحبيب. بعد عدّة أيّام، عاد هنري بيكو إلى مكانه مجدّداً، لكنّه أصبح «هنري» أكثر من ذي قبل، أمّا سيّدي فأصبح أكثر تعاسة.

لكنّ الحكّة استمرّت... أصبْتُ أنا بها، وكذلك إدموند، أعرف ذلك.

«لقد بلغت عمراً معيّناً الآن يا إدموند» علّقت الأرملة ذات صباح على مائدة الفطور، «لم تعد طفلاً، أنت في السابعة عشرة الآن. ستحصل معك أحداث جديدة، بدايات جديدة، قياسات جديدة، أشخاص مختلفون».

«أيّ أشخاص جدد، يا أمّي؟»

«أريدك أن تنضج يا إدموند، وثمة أمر آخر يجب أن تفكّر به، أمرٌ يجب على أيّ شخص في عمرك وصفاتك أن يفكّر به!»

«وما هو يا أمي؟»

«أن تتزوّج» أجابت الأرملة، ثم صمتت كي تفكّر، وأضافت: «إدموند مع النساء!».

حاليّاً، كان إدموند بلا نساء، فعندما يُجبر على الاقتراب من الجنس الآخر - باستثنائي أنا- ينقلب إلى دمية خيَاط ميتة. إدموند مثلي أنا، ابتكر نظاماً خاصّاً به للاختفاء، إذ يتمكّن في هذه الحالات من تحويل أحشائه إلى نشارة خشب ونتف من القنب، فضلاً عن أن كلّ دمه سيتركّز في أذنيه. عندها، يتحوّل إلى «لا-أحد» بالمطلق، ولن تعود إليه الحركة إلّا بعد أن تبتعد الفتاة عنه. بعد عدّة دقائق من الوقوف ساكناً بمفرده بانتظار أن تعود إليه الحياة، سيتدفّق الدم ببطء من أذنيه عائداً إلى جسده، فيلّل كلّ نتف القنب تلك، إلى أن تتحوّل مجدداً إلى رتتين وكبد وأمعاء ومثانة.

المرشحة الأولى للزواج بإدموند، كانت ابنة تاجر قطن بالجملة. فتاة ذات وجه أحمر، عيناها صغيرتان أشبه بعيني خنزير، أهدابها بيضاء، وتفوح منها رائحة البول. والدها أشبه بخنزير يلهث، وأمها خنزيرة ذات كرش. على ما يبدو، أمور حظيرتهما تسير على ما يرام، وتريد الأم أن تجمع بين العمل والخنزرة! جلست الفتاة بجوار إدموند كما طُلِبَ منها، وحدّقت إليه بتركيز، لكنّ إدموند لم يتحرّك بتاتاً. خاطبه والدا الفتاة، لكنّه لم ينطق بحرف، لذلك غضبا نوعاً ما، وبدت الفتاة مستاءة، وشعرها الأبيض بالكامل تقريباً تغطّي بالدهون أمام عيني! أخيراً، أمسكت الفتاة يد إدموند، وعلى الرغم من أن وجهها الأبيض شحب أكثر فأكثر، لكنها تذمّرت قليلاً من ثمّ أفلتت يده. لم ترجع قط، لا هي ولا والدها.

في تلك الليلة، سمعتُ طريقة خافطة على بابي.

«مرحباً، ماري»

«من هناك؟»

«إنّه أنا، أنا إدموند. هل لي أن أجلس معك قليلاً؟»

«ادخل، وأغلق الباب»

«شكراً لك»

«إدموند، لقد كنتَ رائعاً اليوم، مع أولئك الضيوف»

«حقاً؟!»

«بكل تأكيد»

«ماري! لا أريد أن أتزوج!»

«لا، لست مضطراً لذلك. يجب أن تبقى هنا معي»

بقي إدموند معي طيلة نصف ساعة، وأراني دميتي التي تدعى إدموند، وكان منزعجاً بسبب تلك الصدمة. تمنيتُ لو يضع دميتي جانباً، لأنها أشبه بشخص ثالث يجلس بيننا ويحرمنا من الخصوصية. عندما أعادها إلى جيبه أخيراً، فعل ذلك فقط كي ينهض ويغادر.

زيارة تاجر القطن ذاك، لم تكن إلا الأولى من بين أهوال عديدة أُجبرَ إدموند على خوضها. هناك ابنة خياط وجدت إدموند «سخيفاً»، وابنة حلاق - جراح تساءلت ما إذا كان إدموند «موجوداً أصلاً». لم تجده أيُّ منهما مقبولاً، بل منفرّ وغائب على نحو مُستهجن. إنهما فتاتان عمياوان حمقاوان لا تستحقّاه! وشكرتُ حظي بسعادة على ذلك! وهكذا، تركته الفتاتان هناك، لكن أمّه لم تنته من صيد العرائس بعد.

أنا وإدموند جزء أساسي من المنزل الحكّاك العظيم، بل لعلنا محرّكه. التقينا مجدداً في ذلك الصيف الأخير، كأنا عرفنا أن الوقت بدأ ينفد منا، وأنه لا بدّ لنا من الاستكشاف ما دام متاحاً لنا. ليلاً، ثمة صرير على الدرج. الليل لنا، وفيه سنوجد.

سيأتي إدموند ليلاً، عندما يكون جاك مستغرقاً في النوم.

«انظر إليك!» أقول، «يا له من منظر!».

«ها أنا ذا»

سننظر ونتكلّم.

«طولي خمسة أقدام، وخمسة إنشات، وثمان الإنش»، قال.

«رأسي بمستوى قلبك، أليس كذلك؟ دعنا نستمع إليه، هاك! إنّه صوت إدموند. يا لهذه الضجّة العظيمة التي تصدرها!».

ستحدث، سيمسك كلُّ منا بيد الآخر، من ثم سيغادر إدموند مجدداً.

المنزل بحدّ ذاته أصيب بالحكّة، ومع الازدهار العظيم الذي طرأ على عملنا، تمكّنت الأرملة وسيّدي من شراء منزل القروء، وما إن اشترياه حتّى باشرا بتجديده، وغطّيت جدران الطابق الأرضيّ بورق قرمزيّ.

«كلّما دخلتُ إلى المنزل» قال كورتيوس، «أشعر أنني أدخل إلى باطن عملاق ما، وأن الجدران الحمراء هي جدران حجرات صدر بشريّ ضخم».

جلبت الأرملة وكورتيوس أغراضاً زينا بها البهو، اشتريها من رجل يصنع ديكورات للمسارح. ابتاعا ساعة كبيرة، هي في حقيقة الأمر مجرد لوح من الخشب على شكل ساعة، وجهها المطليّ يعلن دائماً عن التوقيت ذاته. ابتاعا أيضاً خزانة أنيقة ثلاث الساعة، مصنوعة بدورها من لوح مدهون ولا يوجد فيها درجّ واحد يُمكن فتحه، مع أنّها تبدو حقيقةً تماماً! فضلاً عن ذلك، اشتريا قواعد خشبيّة للتماثيل، طُلّيت بحيث أصبحت أشبه بالرخام. ليلاً، عندما يشخر جاك، سنذهب أنا وإدموند إلى البهو، وننزلق من شيء جديد إلى آخر، متظاهرين أننا باريسيّان ثريّان، وأننا جئنا إلى مملكتنا. في تلك القاعة الكبيرة، ستشعرون أنكم موجودون في قصر فخم، مع أنّ النوافذ لا تطلّ على حدائق غنّاء بل على البوليغار الموحل، وعلى منزل الدكتور غراهام في الجهة المقابلة.

«توماس - شارل تيكّر صاحب المطبعة» قالت الأرملة لإدموند أثناء تناول الفطور، «لديه ابنة تدعى كورنيلي. فكّر بذلك، يا له من مستقبل! يا له من مستقبل مضمون!».

الفصل السادس والعشرون

أحدث رؤوسنا العظيمة

حصلنا على دكتورين جديدين!

في ساحة لويس لو غراند - التي لم أزرها قط - افتتح الدكتور فرانز أنطون مسمير عيادته في شباط 1778، بعد أن قرّر مؤخراً من فيينا، وسرعان ما أصبح لديه زبائن عديدون. إنّه قادر على علاج - كما ورد في منشور دعائيّ أعطاني إياه إدموند - كلّ الأمراض، بدءاً من الشلل إلى الإسهال، من العناية إلى رائحة الفم السيئة، من إبهام القدم الأفحج إلى داء الهربس، من جنجل العين إلى السادة، من حصيات المرارة إلى الغرغرينا، من الصرع إلى الودومات، من الهستيريا إلى الفواق، ومن العقم إلى سلس البول. إنّه رجل المعجزات، يضع يديه على أجساد المرضى، فيشعرون بقوة غريبة تسري فوقهم! تعرّفْتُ إلى الدكتور مسمير شمعياً، وليس شخصياً. وجهه مسطح تماماً، وليس له امتداد بالمنظر الجانبيّ، كأنّه كبُر ووجهه ملتصق بمقلّة!



الدكتور الثاني كان مندوب أمريكا الحرّة، د. بنجامين فرانكلين. لم أر هذا الرجل أيضاً، ليس شخصياً - على الرغم من أنّ سيدي والأرملة ذهبا لحضور مقابلة معه - لكنني أملك سبباً وجيهاً كي أتذكره: أنا في غاية الامتنان للدكتور بنجامين فرانكلين، بسبب شعره الطويل الرماديّ، لأنّه السبب الذي أعادني كعاملة إلى الورشة. كان الوقت ضيقاً للغاية آنذاك، وثمة العديد من الرؤوس التي ينبغي إنهاؤها بين يدي سيدي، فلزمته مساعدة. وهكذا، تذكّرني أخيراً! المهمّة الأشدّ سأمًا واستهلاكاً للوقت، هي تثبيت الشعر على الرؤوس الشمعية. عادة، توضع باروكة ببساطة فوق الرأس، بما أنّ أيّ شخص ذي شأن، سواء ذكراً أم أنثى، سيضع فوق رأسه باروكة مصنوعة من شعر إنسان آخر، أو من شعر حصان، لكنّ هذا الدكتور الأمريكيّ لا يضع فوق رأسه سوى شعره الحقيقيّ.

«هذه الأداة هي إبرة ذات مقبض حلقيّ، وعنق طويل، وذروة بوليبيّة، يا سيدي»

«أجل، إنها هي يا صغيرة! كيف تعرفين هذا؟!»

«أنت من علّمني ذلك يا سيدي، في بيرن»

«هل فعلتُ؟! أجل، حقّاً! أعتقد أنني علّمتكِ، لقد نسيْتُ ذلك، لن أنسى مجدّداً. هل تعرفين لماذا تُستخدم؟»

«تستخدم لتقييب الأنسجة أثناء العمليات الجراحية، لكنك تستعملها لغرس الشعر شعرة شعرة في فروة الرأس الشمعيّ»

«حسناً، أجل، أجل، هذا صحيح تماماً»

«هل يجب عليها ذلك؟»، سألت الأرملة.

«كي ننجز أمورنا أيّتها الأرملة. وقتنا ضيق جدّاً»

«ولكن من دون كلام يا صغيرة، اجلسي صامّة»

«حسناً، مدام»

«وكأنّك لست موجودة هنا على الإطلاق!»

«حسناً، مدام»

وهكذا، عدتُ منتصرة! درستُ بنجامين فرانكلين بعناية فائقة، رأسه أشبه بدرنة عملاقة، بحبة بطاطا لها وجه رجل. ذقنه ضخمة، مزدوجة، مليئة بما يشبه التجاعيد، وجنتاه ضخمتان تندفعان للأعلى، وجبينه عريض. في مركز الوجه، ثمة أنف منتفخ، تجاوره عيانان رماديتان لهما أجفان ثقيلة منسدلة، وهناك طيَّتان عميقتان تحيطان بالفم.

«هذه الشخصية» قلتُ، «قطعت كلَّ تلك المسافة من أمريكا؟».

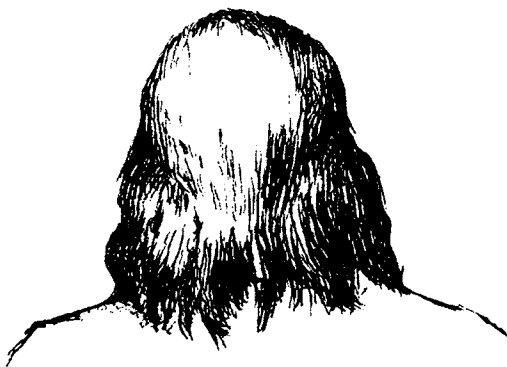
«أجل يا صغيرة»، قال سيدي وهو يهزُّ رأسه موافقاً.

«وكأننا نتعلَّم عن العالم! أليس كذلك؟»

«يمكنك أن تقولِي هذا في الواقع»

«لا سبب لإصدار الضجَّة!»، هتفت الأرملة.

شعرة شعرة، جعلتُ فرانكلين يبدو كفرانكلين. خيَّطتُ الشعر الطويل الرمادي الذي قصَّته الأرملة من رأس بائع كستناء عجوز عند جسر «بونت نوف»، كان بحاجة ماسّة إلى المال. بذروة الإبرة المدوّرة، أغرز أحد طرفي الشعرة في الشمع، فتبقى في مكانها بعد أن أسحب الإبرة. كرّرتُ ذلك آلافاً وآلافاً من المرّات، وأنا أنظر إلى صور الدكتور الجديد أمامي. يمكنكم العثور على صور رخيصة لوجهه في كلِّ أرجاء باريس، في المطبوعات الورقيّة، على علب النشوق، علب الكبريت، المراوح، بل وحتى مبالو الغرفة! ونُقش تحتها: «انتزع البرق من الآلهة، وأخذ صولجانها من الطغاة».



«لعلك الآن» قلتُ وأنا أقف كي أنأمل الشعر، «ستدفع لي أجوري أخيراً».
«عليك أن تصمتي هنا» قالت الأرملة، «لا يجب أن نسمع صوتك على الإطلاق!».

«سننظر بذلك يا ماري» قال سيدي، «سنفعل بكل تأكيد. كوني صبوراً»
ابتسمتُ وأنا أتابع تثبيت ما تبقى من شعر الدكتور فرانكلين، لربّما
سأصبح أخيراً جزءاً حقيقياً من العائلة، وقد يُسمح لي أيضاً بالزواج من أحد
أفرادها، إن كان عملي جيداً بما يكفي!

جاء الكثيرون لرؤية ميسمر وفرانكلين الشمعيين، وجاء بعضهم أيضاً
خلال النهار لرؤية كورتيوس والأرملة يعملان في الأعلى. وهكذا، بوصفي
عاملة في الورشة، تسنّت لي رؤية أشخاص جدد كل يوم. أحدهم يدعى
جان - أنطوان هودون، وهو نحّات مشهور جداً، ولو لم أعرف ذلك للقبته
بـ: رجل آخر أصلع صغير.

«بالطبع، اسمك ليس مجهولاً بالنسبة لي» قال هودون مخاطباً سيدي،
«أنت تصنع تماثيل للصووس والمجرمين. أنت تحرم الجميع من النعمة،
لا تبحث لا عن السمّ ولا عن الكرامة في الهيئة البشرية، بل عن الانحطاط
فقط! أنت متشائم، لا تحبّ أخوتك في الإنسانية، أنت لا تعرف الموسيقى».
«أنا أحبّ الرؤوس» أجاب سيدي بلطف، «أنا أحبّها حقاً».

«عملك يليق بالشوارع، ربّما. مادّتك رخيصة، يمكن الحصول عليها
بسهولة، شائعة، لا دقّة فيها، لا فطنة، لا ألمعية»

«الشمع هو... جلد»، قال كورتيوس.

«إذن فالمرمر هو الروح»

«لقد صنعتُ حياتي من الشمع!»

«ابقَ مع المجرمين!» قال هودون، «يستحقّونك. لكنّ هذا الرأس...»
وأشار إلى فرانكلين، «يُحقّر بسببك. أنت تهينه!».

في شباط 1778، عندما أصبحتُ جزءاً رسمياً من الورشة، ثمة رجلٌ عليل
أدرد في الثالثة والثمانين من عمره، هو فرانسوا - ماري آرويه، المعروف

للعالم بفولتير، عاد إلى باريس بعد أن قضى ثلاثين عاماً تقريباً في منفاه في سويسرا. جُنَّ جنون باريس، وأغدقت الأوسمة على هذا الرجل المرتعش. نتيجة لذلك، أصيب فولتير بالنزيف.

ريثما يتعافى، حُجِرَ عليه في منزل الماركيز دو فيلت على ضفة نهر السين. تجمّع حشد قلق في الخارج أملاً برؤيته، لكن لم يُسَمَح إلا للضيوف رفيعي المستوى بالدخول، ومن بينهم الدكتور بنجامين فرانكلين. سُوح للنحات الأصغر جان أنطوان هودون بالدخول في مناسبتين، بغية أخذ اسكتشات، من ثمّ اندفع عائداً إلى الاستوديو الخاصّ به، حيث حبس نفسه ولم يخرج إلا بعد عشرة أيام. لقد عقد العزم على أن يكون ما سينحته، أعظم أعمال حياته. نقر على المرمر ليلاً ونهاراً، ونحت ببطء الفك السفلي البارز، والشفيتين الرقيقتين المبتسمتين. تجسّدت أفكاره في عظام الوجنة الغائرة، والرؤوس الصلعاء العجوز، والأعناق المليئة بالتجاعيد الأشبه بأعناق الدجاج.

في منزل الماركيز عند النهر، يرقد رجل عجوز يتناقص شبهه بفولتير يوماً بعد يوم. الآن، كي تروا فولتير الحقيقي، عليكم أن تذهبوا وتصطحبوا عائلاتكم إلى استوديو هودون. هناك فولتير، الذي يحافظ على برنامج زمنيّ منتظم ولا يخذل أحداً، من الحادية عشرة صباحاً إلى السابعة مساءً يومياً، يتسم بلا توقّف.

زاره سيّدي، «لا ألوان! لا حياة!» قال لنا، لكنّه عضّ براجمه.

«لو نستطيع الحصول على فولتير!» تحسّرت الأرملة، «فكر بمن سيزورنا!».

«أريد رأس فولتير!» قال كورتيسوس، «أريده بشدة إلى حدّ أنني أتوجّع».

انضمّ كلاهما إلى الحشد المتجمهر أمام منزل الماركيز يومياً، وفي كلّ يوم رُفض السماح لهما بالدخول، وفي كلّ يوم كنّا نجلس في الورشة معاً أنا وإدموند، نتحدّث ونحن نعمل، وبدأتُ أظنّ أن الحياة ستبدو هكذا لو تزوّجنا. يخرجان كلّ يوم، تفرع الأرملة باب منزل الماركيز بلا طائل، بينما يحمل كورتيسوس حقيبة والده الجلديّة الضخمة المليئة بزجاجات الماء والمراهم ومسحوق الكلس. أخيراً، في الثلاثين من أيار، بعد أن نُقِلَ

الرجل العجوز إلى مسكن أحد الخدم خلف المنزل، وبعد أن قاما برشوة خادِم - رشوة لا يشير إليها سيدي والأرملة سوى بـ: مبلغ معيّن - سُومِحَ لهما بالدخول، لأنّ كلّ شيء انتهى آنذاك: مات فولتير! وأخذ سيدي طبعات لجثته.

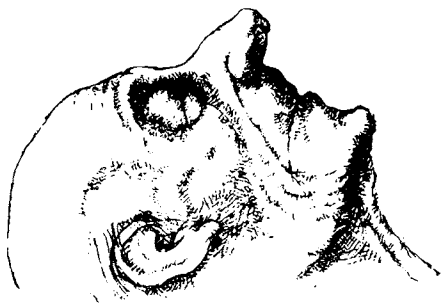


Fig. 1.

لا بدّ أن يجهز تمثال فولتير بأسرع وقت ممكن، لكنّ الوجه الذي أخذ سيدي طبعات له كان متهدّلاً، يفتقر إلى الحياة.

«أعرف أنه ميت!» قال إدموند، «هذا وجه ميت! لقد كنت عند قبره يا أمي». «ليس قبره» قالت الأرملة، «لقد أوضح لي الدكتور كورتوس يا إدموند، أنه من المقبول أن نأخذ طبعة لوجه رجل عظيم توفي. أخذت طبعات مماثلة للملوك، هذا مقبول تماماً».

«كان المجرمون أحياء عندما رأيتهم! أمّا هذا الرجل فميت، مجرد شيء ميت!».

«إدموند! إدموند!» قالت وهي تمسح دمعة من عينيه، «أنت مفرط الحساسية. من فضلك، اضبط أعصابك بأيّة طريقة!».

أدخل سيدي تعديلات على الفيلسوف، فسوّى ملامحه وبدّلها، وصنع من طبعة الشمع وجهاً من الجصّ أكثر اكتنازاً، عيناه مفتوحتان، يتسم. درس سيدي الرأس الذي نحته هودون، فضلاً عن العديد من صور الفيلسوف

المطبوعة. راقبتُ وجه سيّدي شخصياً يتبدّل ويتغيّر، إلى أن اكتسب ملامح وجه فولتير ذاتها، من ثمّ رَوّض الشمع والجصّ إلى أن أصبحا فولتير! يا له من رأس رائع تحمله بين يديك! بعد انقضاء أربعة أيّام مرهقة فحسب على موته، عاد فولتير إلى الحياة في بوليفار دو تامبل.



Fig. 2.

فولتير هذا بدا نابضاً بالحياة كأنّه يوشك أن ينطق، واجتذب العديد من الناس. «في خزانة عجائب الدكتور كورتيسوس» كانوا يقولون، «ما يزال فولتير حيّاً!».

«إنّه رأس مشهور» قالت الأرملة، «رأس متوهّج».

توافدت أعداد ضخمة من الناس إلينا، فتضخّم منزل القروود وتضخّم، ممّا تطلّب توظيف شخص إضافي في داخل أبوابه: فلورنس بيللو، وهي امرأة ضخمة ذات وجه لَمّاع، تقوم بتحضير وجبات الطعام للعديد من أرباب المهن في البوليفار. أحياناً، كانت تطبخ في منزل القروود، وغالباً ما جهّزت لنا

طعامنا أيضاً. فلورنس لا تحب أن تتكلّم، ولا تردّ عندما يثني أحدهم عليها، بل تضحك ضحكة صغيرة تكشف عن لسان يقفز للأعلى وللأسفل، وعن أسنان صغيرة متأكلة. ستضحك حتماً بهذه الطريقة، كلّما مدحها أحدهم.



«شكراً لك، فلورنس. الحساء لذيذ!»، قال سيدي.

«لَللَّيْلِ، لَللَّلِيلِ»، ردّت فلورنس.

«أخيراً تذكّرنا مذاق الطعام»، قالت الأرملة.

«لِللِّلِّ، لِللِّلِّلِّل»، ردّت فلورنس أيضاً.

عَلِمْتُهَا كَيْفَ تَعْدُ الْأَطْبَاقَ السُّوَيْسِرِيَّةَ الَّتِي يُحِبُّهَا سَيِّدِي، مِثْلَ
الـ «رُوشْتِي»، وَهُوَ بَطَاطَا مَبْشُورَةٌ مَطْهِيَّةٌ بِالدَّسَمِ، وَالـ «فَلَايْشْكِيْزَه»، وَهُوَ
رَغِيفٌ بِاللَّحْمِ وَالْبَصَلِ، يُحَضَّرُ بِمَزْجِ عِدَّةِ أَنْوَاعٍ مِنَ اللَّحُومِ مَعًا، مِنْ ثَمَّ
يُشَوَّى فِي صِينِيَّةِ الْخُبْزِ.

«لللللل، لللللل»، ضحكت فلورنس وهي تضع كبداً في المفزمة.

جاء المزيد والمزيد من الناس، ولذلك اصطحبت الأرملة إدموند لزيارة مطبعة مسيو تيكو.

الفصل الثامن والعشرون

ملابس جديدة

مع الازدهار جاء الطوب، ومع الطوب جاء البناؤون الذين طوّقوا جدران منزلنا به، قطعة فوق قطعة، أعلى وأعلى وأعلى، إلى أن ارتدى منزل القروء الخشبيّ العتيق حلّة جديدة جميلة من الآجر، كما أضيفت أربع دعامات من الطوب لتقوية الدعامتين الخشبيتين. «هذا ليس مقبولاً» قال مرسيه في الورشة، «لن ينتج عنه خير! لا يجب أن يكون هناك طوب في البوليفار! سيكرهونكم بسبب ذلك، وسينتقمون منكم يوماً ما».

«ومن أنت حتّى تقول أموراً كهذه؟!»، سألته الأرملة.

«أنا مرسيه، شخصيّاً»

«وبناء على ماذا تقول هذا الكلام؟!»

«أنا صديقك القديم! هل نسيت أنني أنا من عرّفتك على كورتوس؟! انظري للأسفل، ها أنا ذا هناك، صنعتني يداها الماهرتان»

«أجل بالفعل، أشكرك لأنك ذكّرتني بذلك! لقد اعتدتُ على تماثيلنا، إلى حدّ أنني أنسى أحياناً ماذا يوجد أمامي. لقد أردتُ أن أزيل ذلك التمثال منذ شهور مضت! جاك، خذ ذلك الرأس بعيداً، لا تقلق حول الطريقة التي يجب أن تتعامل بها معه، لأننا سنذّبه لاحقاً».

«ولكنّني مرسيه!»

«أجل، أعرف، ويا للأسف! أليس بوسعك أن تكون شخصاً آخر؟»

«لقد ألّفتُ كتاب باريس في عام...»

«أجل أجل، لكنك تدرك أنه فقد أهميته منذ زمن طويل. عليك أن تفعل شيئاً جديداً، أليس كذلك؟ وأن تخبرنا عنه لو فعلت؟ احرص هذه المرة على أن يكون شيئاً يدوم طويلاً».

«أرجوك! أيتها السيّدة العزيزة! لا تذيبي تمثالي!»

«انتهينا من ذلك. نحن لا ندير عملاً خيراً هنا»

«أحب أن أتفرّج عليه هناك!»، قال مرسييه يائساً.

«نحن لا نقبل سوى أفضل الرؤوس أو أسوأها، أمّا رأسك فهو كالثعلبية العظمى من رؤوس الناس، يقع في نقطة ما بين-بين. أنت تفهم هذا، أليس كذلك؟»

غادر مرسييه صامتاً.

كان على حق في البداية بما يتعلق بالطوب، فالجيران يهزون رؤوسهم وقبضاتهم كلّما مروا بنا في الشارع، كما ييصق بعضهم. أحياناً، في عتمة الليل عندما يكون جاك نائماً، يفرغ البعض دلاء القاذورات على درجنا الأمامي. من بين كلّ أبنية البوليغار، ثمة ثلاثة فقط مشيّدة من مادة أكثر صلابة من الخشب: «البهلوانيّون العظماء» لنيكوليه، «أمبيغوكوميك» لأودينو، و«خزانة عجائب الدكتور كورتيسوس» حالياً.

بعد أن استقرّ في حلّته الجديدة، سمعنا ضجّة جديدة تصدر عن منزل القروء، أشبه بفم ضخّم يكرّز على أسنانه. أصدرت العلّية صريراً موجعاً، أعلى بكثير ممّا قبل، وانخسفت أرضيّة بعض غرف الطابق العلويّ تدريجياً بمقدار إنشين. ذات مرّة، بينما كانت الأرملة تسير على صحن الدرج، انخلع لوح من ألواح الأرضيّة من تلقاء ذاته، وقفز في الهواء، وكاد يلطمها على وجهها.

بحلّته الجديدة، حرّض منزل القروء ثورة في ملابسنا جميعنا. بدأ ذلك حتماً مع الأرملة، التي أضافت إلى زيّها الأسود المعهود بعض الألوان الجديدة، بعض القصاصات الأرجوانيّة وبعض اللون الكحليّ إلى أكمامها، كما طوّقت قلنسوتها بشريط من الحرير البنفسجيّ. فضلاً عن ذلك، اشترت عصا للمشي من تلك التي يستعملها السادة، مصنوعة من خشب النخيل،

ذات قبضة فضيَّة مجدولة، ولم نعد نراها من دون تلك العصا إطلاقاً. بدا لي أنّ موجة جديدة من الشامات اكتسحت جلدها، بقع ونتوءات صغيرة لم تكن موجودة من قبل، ولم تكن ستظهر لولا الطوب. تلك الكتل والنتوءات كانت أشبه بميداليّات على صدر جنديّ، أوسمة جميلة، برهان إضافي على تقدّم الأرملة الهائل.

بالنسبة إلى سيّدي، لم يجلب الطوب له سوى المزيد من التصلّب، كأنّه يتوق لتحويله إلى كرياتيد⁽¹⁾. أعلنت الأرملة عدم رضاها عن بزّته القطنيّة، لأنّها بزّة تنمّ عن شخصيّة لا تفهم الطوب كما قالت. أخذ إدموند قياساته، وصنع له شخصيّة جديدة من المخمل الأسود، سبّبت لسيّدي أوجاعاً في الظهر وتشنّجاً غريباً أسفل فخذيه، لكنّها دفعته أيضاً إلى التصريح أكثر فأكثر عن ولعه بالأرملة بيكو، وامتنانه لما فعلته من أجلنا جميعنا.

بعض الناس لا يمكن احتواؤهم في الملابس، بعض الناس ينبضون بالحياة، بعضهم ليسوا سوى فوضى وحركة، وتلك الكائنات الحيويّة - سواء التي تمشي على ساقين، أو على أربعة أطراف - عدوّة للخيوط. جاك بوفيزاج لم يُخلَق للملابس، لقد بذل أقصى جهده، لكن عبثاً! وما يزال يسبّب الإزعاج لكلّ ما حوله، حتّى بعد أن ارتدى ملابس فاخرة. ذات مساء، بسبب حرّكاته الخرقاء، أسقط مجرماً فتحطّم رأسه الشمعيّ. جمع كورتيوس البقايا بحزن، بينما انطلقت الأرملة إلى الفعل، وصرخت بأعلى صوته: «مقصّات! ماء ساخن! شفرة!»، وانطلقت لاجتثاث الحيوان من جاك. في أيام الحرير تلك، أعلنت نهاية الفرو! تلك الأرملة، التي تخبّي شعرها الكثيف تحت القلنسوة، حرمت صديقي جاك البائس من شعره المشعّث. قصّت لبدته الهائلة، من ثمّ حلقت ما تبقى منها، وتخلّصت من شعره كما تخلّصت من بزّة كورتيوس القطنيّة. تساقط الشعر على ملاء عتيقة فُرشت أرضاً، كي تتلقّى توحّشه الذي تهاوى عليها بنعومة، مرفقاً بمستعمرة ضخمة من القمل، ألقيتُ بها إلى لهب الموقد. إن كان هدف الأرملة هو أن تخلق شخصاً أنيقاً لطيف

1- عمود حجريّ ضخّم منحوت على هيئة امرأة، يدعم الأبنية. من أشهر الأمثلة عليه تلك الأعمدة في تلّة الأكروبوليس في أثينا. المترجمة

المظهر، فلا بدّ أنّها فشلت فشلاً ذريعاً، لأنّ جاك بدا رهيباً بلا شعر، أكثر من السابق. جلسْتُ إلى جواره وهو يريّت بحزن على رأسه الحليق، الأشبه بقذيفة مدفع مجزوزة.

حتّى أنا لم أنجُ من ثورة الخزانة، من حرب الملابس تلك، من ذلك الانتصار الشهير للجديد على القديم. أعطتني الأرملة ثلاثة فساتين سوداء من فساتينها، ثلاث أخوات متواضعات، بسيطة للغاية وشديدة الشبه بملابس العاملات، كما أعطتني قلنسوة جديدة، خيطة من نسيج جيّد لكنّه ليس ممتازاً. مع ذلك، لقد أصبحتُ جزءاً من العائلة! شكرتها على الأثواب، شكرتها بحرارة، فكشّرت.



حتّى دمية هنري بيكو تألّقت بدورها فوق صحن الدرج، بقميص جديد من الدانتيل الأبيض، ذي أزرار لؤلؤيّة.

حرمّت الأرملة إدموند من الكاليكو -نسيجه المفضّل- وألبسته الحرير... وكيف ناح! ناح بصوت عالٍ لم نعهده بتاتاً! من غرفته، ومن غرفة الأرملة، سمعنا ضجّة صاخبة لعائلة تتشاجر: «رجاء يا أمّي، لا، لا أريد

ذلك!»، «لن أقبل بهذا يا إدموند! لن أقبل به!»، «لا يجب أن يحدث هذا، أنا أقول لك يا أمي. إنها غلطة رهيبة!»، «أنت تقول؟! هراء! ما هذه الوقاحة الجديدة؟ من أين اكتسبتها؟! ارتد هذه الملابس الآن! إن اضطررت لنزع ملابسك بنفسي، سأفعل! سترتدي هذه!».

بيزته الحريرية البيضاء الجديدة، بدا إدموند أمهق تقريباً، كلّ جسده بلون واحد ما عدا أذنيه. «ها هو ذا إدموند!» أتذكر أنني فكرت مباشرة، وأنا أتأمله بملابسه الجديدة. معظم الناس لا يهتمون به، ولا يشعرون تجاهه بأية مشاعر على الإطلاق. لقد كان منسياً، واعتقدت أن ذلك يناسبه، وكنْتُ شاكراً لذلك، لكنني أراه الآن ببيزته البيضاء الجديدة مكشوفاً كما لم يكن من قبل. ثمّة أوردّة زرقاء على صدغيه، أنهار رقيقة ناعمة تجري في بلاد اسمها إدموند. كيف نستكشف بلاداً كهذه؟! أين نجد مستكشفين ملائمين؟! لقد رأيته بتلك البزة البيضاء، رأيته بكل تأكيد ذات صباح باكر، في الوقت الذي يُفترض به أن يرتدي ثياب النوم، لكنه جاء إليّ بتلك البزة البيضاء الرهيبة. لم يقل شيئاً، بل اقترب وجهه الجامد الملامح مني، اقترب أكثر فأكثر إلى أن تلامست شفتاي مع شيء ما أشبه بالقطن، لكنه كان في الواقع شفتي إدموند بيكو. من ثمّ، قبلة أعمق من كلّ القبلات السابقة لأنّ فمه انفتح! إنه إدموند، تحت الملابس، بداخل ذلك الشخص، لكنه توقّف على الفور.

«آسف» قال، «أنا آسف!».

«ولماذا الأسف يا إدموند؟!»

«أنت جميلة»، قال.

«إدموند! إدموند! حقّاً؟! حقّاً?!»

«لا أريد أن أذهب. أنا آسف»

«إدموند؟»

«أنا آسف جدّاً».

لكنّه لم يقل لي لماذا هو آسف. عندما وضعتُ أصابعي على شفتي، اختفت تلك البزة البيضاء عن ناظريّ.

لقد أعلنت الأرملة أن ابنها متاح للزواج، وكأَنَّها علّقت إعلاناً على جدران منزل القروء من الخارج، لكنّ الإعلان أصبح عتيقاً، واختبر كلّ أنواع الطقس. أغرقه المطر، تجمّد، ثمّ جفّ، ثمّ تجعّد واصفرّ في الشمس، فقد بياضه وتعدّرت قراءة المكتوب عليه. مع ذلك، فجأة، على نحو لا يُصدّق، رآه أحدهم هناك. ثمّة شخص قرأ ما كُتِب على ذلك الإعلان بعناية، وفهمه، بل قرأ أيضاً الكلمات الختامية المكتوبة بخطّ صغير: قدّم طلبك في الداخل، وفعل ذلك!

الفصل التاسع والعشرون

إشهار عامّ، زفاف كورنيلي تيكّر

لعلّي لم أكن صادقة تماماً، لعلّي خلطتُ بين الطوب وبين الملابس. نسيْتُ أن أذكر أن الملابس خيَطتُ من أجل مناسبة معيّنة، وأن تلك المناسبة كانت زواج إدmond بيكو من كورنيلي أدريين فرانسواز تيكّر، ابنة صاحب المطبعة في شارع سان لويس.

مطبعة تيكّر، مسؤولة عن الإعلانات في كلّ أرجاء باريس. لا تُطَبَع فيها فقط إعلانات «خزانة عجائب الدكتور كورتيس: الأفضل والأسوأ، أهل باريس جميعهم موجودون في الداخل!»، بل تُطَبَع أيضاً برامج مسرح «كوميدي - فرانسيز»، ومسرحيّة «أندروماك» لجان راسين، ولا ينتهي الأمر هنا... المطبعة تعمل ليلاً ونهاراً، وطيلة يوم الأحد أيضاً، ولا تتوقّف بتاتاً. إنّها نشيطة ككلّ رؤوس باريس الثرثرة. آلات الطباعة تفتح وتنغلق، وتقذف آلافاً وآلافاً من الكلمات، إلى أن تدوخوا: أحرف على قطع معدنيّة أو خشبيّة صغيرة، تُرَصَف بانتظام من الخلف إلى الأمام، تُدهن بالحبر، من ثمّ تُرَصّ على الورق الذي سيقفز موجوعاً. آخ! يا لأولئك الأشخاص! سيَطبعون أيّ شيء، ينهون الباريسيّين إلى أحدث الكتب، أحدث الأدوية، أخبار الإفلاس المروعة، الأهميّة الفائقة لجوارب المطاط، وأحدث موادّ تبييض الأسنان. كم عدد الجدران في باريس، تساءلتُ، التي تغطّيها مطبوعات تيكّر وحدها فحسب؟! كلّ تلك الكلمات التي تكشف عن كلّ تلك الحيوانات، كلّ تلك الأعمال، كلّ تلك الآمال، كلّ تلك الأحلام المستقبلية، كلّ تلك القطع الصغيرة من المجموع البشريّ. مطبعة تيكّر هي التي تطبع نشرات إخباريّة عن عقوبات

الإعدام، وقدّاسات الكنائس، وإعلانات عروض مسارح الدمى، وكذلك إعلانات عن الأشياء المفقودة: كلب بودل، سلحفاة، عصا للمشي، علبة نشوق⁽¹⁾. «مفقود: غطاء فروو للدين»، «مفقود: ملقط هليون فضي»، «مفقود: أداة مزخرفة لإطفاء الشموع»، «مفقود: مظلة حريريّة»، «مفقود: ساعة ذات وجهين»، «مفقود: طائر توكان»، «مفقود: كلب محبوب»، «مفقود: طفلة».

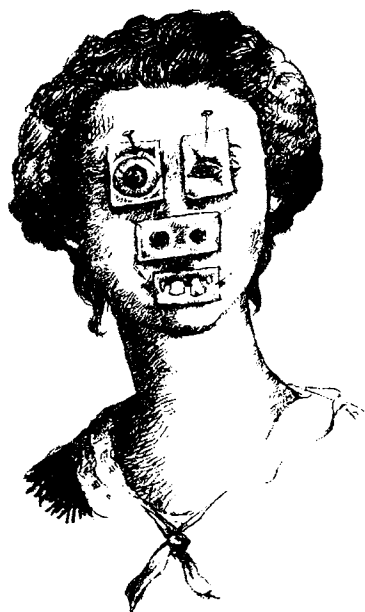
مفقود، مفقود، مفقود: لمصلحة كورنيلي آدريين فرانسواز تيكّر. مفقود: هنري إدموند بيكو، نموذج دمي الدكان. لقد ضاعت فرصتي للأبد! جلستُ تائهة في المطبخ، لم يفكر أحدهم بتأتا بسؤالي! لم يأت أحدهم إليّ على الإطلاق، كي يسألني هل يجدر بنا تزويج إدموند أم لا! لم يخطر ببال أيّ منهم أنني قد أهتمّ لذلك، لم يفكر أيّ منهم قط بأية صلة تجمعني به، ولذلك لم يروا حزني، ولم يسمعوني أبكي ليلاً، حتّى جاك ابتعد عني. أنا الخادمة البائسة، عديمة الشأن!

أخيراً، وجدت الأرملة مشترياً لابنها. عندما ضاع إدموند المسكين ببزّته الحريريّة البيضاء، اندمج عملان مزدهران معاً، وحمل ذلك الزواج معه بضعة آلاف من الليرات إلى منزل القروء. ذهب الصبيّ الشاحب كي يعيش في مطبعة تيكّر، حيث سيتعلّم مهنة جديدة مربحة، وسيدبرها بنفسه ذات يوم. لم تشأ الأرملة أن يبقى مستقبلها مرهوناً بـ «خزانة العجائب» فقط، بل أرادت ضماناً أعظم من خلال أعمال موثوقة أكثر. أرباح مهنة الطباعة تفوق أرباح الخياطة، بل تفوق أيضاً أرباح الشمع!

كثيراً ما ذهبت الأرملة لزيارة إدموند، لكنني لم أره قط. في لحظاتي الهادئة، عندما أكون وحيدة، سأغمض عينيّ وأتخيّل أنني أشقّ الأرملة، وأذبح كورنيلي من فمها إلى فوهة شرجه، جالسة طيلة الوقت في المطبخ، لا أنتظر قدوم أحد. لم أستطع النوم في تلك الليالي الوحيدة، لذلك سرقتُ من كورتيوس ومن الأرملة. منحنيّة تحت ضوء الشموع، سرقتُ إدموند من كورنيلي أيضاً، حاولتُ ذلك. سرقتُ شمعا وصلصالاً، سرقتُ أوراقاً وأقلام

1- النشوق هو مسحوق التبغ، اعتاد الناس في الماضي على استنشاقه عبر الأنف ابتغاء لتأثيره السريع. المترجمة

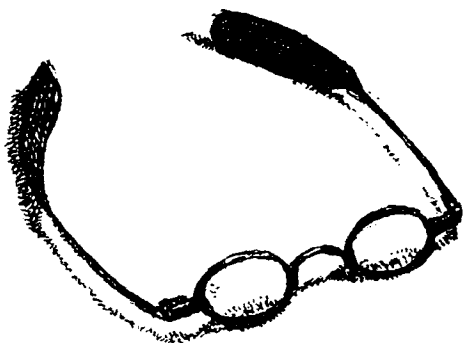
رصاص وأسلاكاً للقوالب. صنعتُ رأساً شمعيّاً صغيراً لإدموند بحجم القبضة، أو بحجم القلب، كلاهما له الحجم ذاته. من العسير أن أتذكر وجهه، من العسير أن أسترجعه. نظرتُ إلى الدمى في شارع سان أونرويه عساها تساعدني، وبدأتُ دائماً من الأذنين. سرقة الأشياء أصبحت عادةً، وكذلك أن أقرفص وأزِمَ عينيّ ليلاً كي أصنع رؤوسي الصغيرة، رأس إدموند فقط، لا يهتمني سواه. حتّى لو لم أستطع أن أعثر عليه تماماً، لكنني سأنجح بلا شك يوماً ما، لو وازبئتُ على العمل.



(مدام بيكو الجديدة، رسم من خيالي)

لعلّ احمرار عينيّ الدائم، هو ما لفت انتباه سيّدي أخيراً. أنا قلق عليك، قال لي وهو يفتح أجفاني كي يفحص عينيّ... وكأنتهما المشكلة! لقد ظنّ أنهما مصابتان بمرض ما. لن يكثر معظم الناس بعلة مماثلة، لكن سيّدي اهتم على الفور بمشكلتي الصغيرة، فأخذني إلى رجل وضع أقراصاً صغيرة من الزجاج أمام عينيّ، وأعلن أنني «ضعيفة البصر»، وأني أحتاج إلى شيء ما يساعدني

على رؤية الأشياء القريبة، أما الأشياء البعيدة فلا تهمنا كثيراً. هذا «العلاج» يُسمى: نظارات صدغية تطوى باتجاهين. قاس الرجل محيط رأسي، وأعلن أنه سيصنع ساعدين للنظارة لا يتجاوز طولهما ستة إنشات، يُثبتان على الصدغين. فولاذ، سألنا، أم فضة؟ فنظر إليّ كورتيوس، ثم قال: «بودي أن يكونا من الفضة، لكننا سنكتفي حالياً بالفولاذ». ما سأضعه على وجهي، كلّفنا عشرين ليرة.



«عمياء؟! هتفت الأرملة عندما عدنا، «عمياء! عمياء!».
«لستُ عمياء! لستُ عمياء!»، قلتُ.

«يا كورتيوس! إن كانت عمياء، فكيف ستفنعنا؟! سنحتاج إلى مساعدة إضافية»، قالت.

«انا لستُ عمياء يا سيدي»، قلتُ.

«يا للضجة التي تصدرها!» قالت الأرملة، «وليس فقط أمامنا، بل إنها تبكي أيضاً في المطبخ. رأيته قبل يومين وهي تضرب رأسها، فضلاً عن أنها مهملة. لربما لن تقول شيئاً يا كورتيوس، لكنني لاحظتُ أن عملها أصبح سيئاً للغاية، وها هي ذي الآن تتجهّم!».

«يا صغيرة» سألني سيدي، «هل تأكلين جيداً؟».

انزعج جاك بوفيزاج من نظارتي، واعتقد أنها تشير إلى وجود عيب فيّ، كأنني أنا نفسي مصنوعة من الزجاج، وخشي أن أنكسر وأتبعثر.

«ما زلتُ كما أنا يا جاك، كما كنتُ دائماً، لكنني أرى الأشياء أوضح الآن، أكثر دقة، وأقرب! كأنني أراك كما يجب للمرّة الأولى!»

«لماذا تنظرين إليّ هكذا؟!» صاح، «ما الذي تريه الآن؟! ما الفرق؟!».

«انظر بنفسك، خذ»

«لا! لا أريد! لن أفعل! لا يجب ذلك!»

أنا أرى أفضل الآن، أراهم جميعهم على نحو جيّد، أخيراً. رأيتُ كلّ الثقوب في الجلد البشريّ، رأيتُ المفززات في العيون، والشّعيرات على ذروة الأنف. رأيتُ كلّ الحقائق الصغيرة المدهشة للوجه البشريّ، التي لم أعرفها من قبل. هل رؤية الكثير أمر جيّد؟! هل ستجعلني سعيدة؟! لن أسعد إن لم أره، أريد أن أنظر إليه وحده فحسب، وهنا يوجد الجميع ما عداه! لم أستطع في البداية أن أجد مغزى للعينين الثاقبتين البصر، لكنني لم أستطع أن أتوقّف عن النظر. حتّى الأطفال لديهم تجاعيد، لم أعرف ذلك سابقاً! ما زال كلّ شيء كما هو، لكنّه أكثر وضوحاً الآن.

«أسنان فلورنس يبيلو تترك علامات صغيرة على شفّتها»، لاحظتُ.

«حقّاً يا ماري؟! هذا أمرٌ هام!»، قال سيّدي.

«الندبة على جبين جاك، تصبح زرقاء نوعاً ما أو خضراء، أو حمراء... تبعاً لمزاجه»

«حقّاً؟! ها ها»

«الأرملة بيكو لديها نقطة صغيرة على منخرها الأيسر»

«لا لا لا، لا توجد أية نقطة!»

«بلى، يوجد»

«لا أحد يعرفها أفضل منّي!» قال سيّدي، لكنّه مضى مع ذلك كي يتأكّد.

«أجل! فعلاً! لم ألاحظها سابقاً! أصغرُ شامة!»، قال عندما عاد، وهي حقيقة دفعته إلى البكاء.

آنذاك، تركت النظارة آثارها على أنفي كلّما نزعته. كنتُ هناك بين الظلال، أزحف في البهو، أغسل الأطباق، أنا امرأةُ الشعر الصغيرة الضائعة، لكن قبل أن تتحوّل القرحة الصغيرة على أنفي في مكان النظارة إلى تقرّن سميك، وصلت زائرة مميّزة، وانقلب كلّ شيء رأساً على عقب!

الفصل الثلاثون

السَرِّ يُفْتَضَح

زار الكثيرون منزل القروء، من مختلف محطات الحياة الباريسيّة. زارنا الأرستقراطيّون وبائعاتُ السمك، الرجال الذين يعملون على الأسطح وأولئك الذين يعملون في المجارير، رجال يلحّنون الأوبرا وأولئك الذين يصنعون الطوب في الباحات الخلفيّة. وهكذا، في نهاية المطاف، لربّما لم تكن زيارة أحد أفراد العائلة الملكيّة حدثاً استثنائياً.

تلك الشخصيّة الملكيّة التي زارتنا -شخصيّة واحدة فقط- هي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، فتاة صغيرة. باريس -وفرساي أيضاً- كانت ما تزال مهتمة بفولتير آنذاك، وقرّرت صاحبة السموّ الصغيرة أنها تريد أن تعرف المزيد عن ذلك الفيلسوف المشهور، ولا بدّ أنها علمت أن بوليفار دو تامبل يضمّ قاعة تغصّ بأولئك المشهورين فضلاً عن سيّئي الصيت، المصنوعين جميعهم من الشمع، والذين يشبهون شخصياتهم الحقيقيّة الحيّة بالضبط، ومن بينهم مسيو فولتير بحجمه وهيئته الدقيقة. إن رغبت صاحبة الجلالة الصغيرة برؤية صورة الفيلسوف الفقيد، إذن فلا بدّ لها أن تزور هذا المكان. وهكذا، حدثت معجزة صغيرة في حياتي، ضربة حظّ سعيدة رائعة.

دخلتُ إلى منزل القروء، تحيط بها حاشيتها. لم ترتّب موعداً للزيارة، بل جاءت هكذا في الصباح برفقة الحاشية، قبل أن نفتح المنزل أمام الزوّار. حسّنُ أنّها فعلت ذلك، فلو أبلغتنا مسبقاً بقدمها لما كنّا موجودة في البهو أنفص الغبار عن الرؤوس الشمعيّة عند مارنّ جرس الخياط الميت، ولم أكن من سيفتح المزلاج، ولا التي ستقدّم إليها الزائرة.

مدام إليزابيث فيليبين ماري هيلين بوربون، حفيدة لويس الخامس عشر، الأقل أهمية بين أبناء وبنات ابنه البكر الراحل، وأخت الملك الحالي لويس السادس عشر، لا يتجاوز طولها أربعة أقدام وأحد عشر إنشاً. جسدها مكتنز قليلاً، عيناها رماديتان رقيقتان، وبشرتها ناصعة البياض، لكنّها تفاصيل بوسعنا أن نغض النظر عنها. الأهمّ، هو أنّ أنفها ضخمة، ومائل كأنوف البوربونيين. أمّا ذقنها؟ ذقنها -كيف لي أن أخفي بهجتي- فطويلة جداً وبارزة! هل أنا مضطرة لنطق الحقيقة المسكوت عنها؟! لم تكن فتاة صغيرة جميلة. هل من الضروريّ أن أقول ذلك؟!

نزعْتُ نظّارتي

تلك الصغيرة المملّكية تشبهني

أنا أشبه الصغيرة المملّكية.

أجل، أنا في السابعة عشرة، أجل، وتبلغ قامتي إن خلعتُ حذائي أربعة أقدام وثمانية إنشات. سأعترف على مضض أن ذقني الأشبه بالمصباح -التي تشبه ذقن والدي أشدّ الشبه كما أعتقد- أعرض من ذقنها وأكثر بروزاً. أعترف أن عينيّ بُنيتان، ولونهما ليس رمادياً شاحباً جميلاً كعينيهما، أجل، أجل، لكن انظروا إلى الأنفَيْن: أولاً إلى ذاك الوالتريّ، ومن ثمّ إلى البوربونيّ!

إنّهما شبه متطابقين!

وكأنّ العالم تضاعف فجأة!



مَيَّزْتُ كُلَّ مَنْا الأخرى على الفور! ماذا سنفعل بهذه الحميمية الغريبة المثيرة للاضطراب؟! أردتُ أن أقبلها وأن أدفعها في آن واحد، أن أصرخ وأن أهمس، أن أرقص وأن أهرب. يا لها من فتاة! تشبهنى تماماً! صحيح أن بصرها حاد، وأن ثيابها غالية بكل تأكيد، لكنها تشبهنى حتماً، بلا أدنى شك! هل لاحظتُ ذلك؟! أجل، أظن أنها لاحظت الشبه، أظن أنها تعرف كل شيء عني مسبقاً. أردتُ أن أعطي نفسي، وأن أنزع كل ملابسني في الوقت ذاته. خُيِّلَ لي أنني عرفتُها طيلة حياتي!

وكيف خفق قلبي في صدري، مبتهجاً، خائفاً!

الشبه يكسر الحواجز أحياناً، ويشيدها في أحيان أخرى.

واقفة أمامها، انحنيتُ لتحيّتها، لكنني لم أستطع أن أصمت. أردتُ أن أخبرها بكل شيء. «مات والدي» بدأت الكلام، «كان واقفاً خلف المدفع عندما انفجر. مات أمي أيضاً، فجأة».

«صاحبة السمو، مدام إليزابيث دو فرانس»، أعلن أحد أفراد الحاشية عندما دخلت الأرملة إلى البهو، فشحب وجهها مباشرة، وانحنت.

لكن الأميرة سمعني!

«أبي مات» أجابتنى بصوتها الرقيق، «وأمي كذلك، قتلها داء السل. هل سترينني أشخاص الشمع؟».

«يا صغيرة!» قالت الأرملة، «إلى المطبخ!».

لكنني لم أصغ إليها، بل أخذتُ الأميرة في جولة على المعرض. أولاً فولتير، من ثم الدكتور بنجامين فرانكلين، من ثم الدكتور ميسمر. أمام هذا التمثال الأخير، التفتت مدام إليزابيث وفاجأتني: إنها تريد أن تتعلم النحت، قالت، وسألتني إن كان بوسعي أن أعلمها صناعة تماثيل الشمع. «أنا؟!»، سألتُ.

«إنها تقوم بتركيب الشعر فقط، يا صاحبة الجلالة»، قالت الأرملة.

«أجل» قلتُ، «لكنني أعرف أكثر بكثير».

«يا صغيرة!» قالت الأرملة، «هذا يكفي! اذهبي إلى المطبخ. إنها مجرد خادمة، سموك».

«هل ترغبين برؤية ما صنعتُه؟»، سألتُ.

«لم تصنعي شيئاً يا صغيرة!»، اعترضت الأرملة.

«من فضلك، يا صاحبة السموّ. من هنا، هل لي أن أريك؟»

«جاك!» قالت الأرملة، «خذها إلى الخارج».

«جاك! لا تفعل ذلك!»، قلتُ. كنتُ جريئة بوجود شبيھتي إلى جانبي، جريئة بنظّارتي الجديدة.

«أودّ أن أرى ما صنعتُه»، أجابت الأميرة.

أخذتها إلى المطبخ، وقلبي يدوّي كالرعد في أذنيّ. أغلقتُ الباب بوجه الجميع، ما عدا الأميرة. جررتُ صندوقي، وفتحتُ غطاءه: هناك، ها هي ذي كلّ رؤوس إدموند التي صنعتُها.

«صنعتُها بنفسِي» قلتُ، «كلّها، واحداً واحداً».

«من هو؟»

«صبيّ، من الذاكرة»

«مَنْ؟»

«هذا لا يهمّ الآن، لقد رحل بعيداً»

«هل صنعتِ كلّ هذه الرؤوس بنفسك؟»، سألتني الأميرة.

«أنا، بمفردي»

«إنّها رائعة!»

«قولي هذا مرّة أخرى!»

«ربّما يجب عليك أن تعلّميني صنعها»

أعدتُ الرؤوس إلى الصندوق، وعندما فتحتُ الباب، كان الجميع بانتظارنا. أريتُ الأميرة أولئك المجرمين الرائعين، من ثمّ تقدّم جاك خطوة صوبنا، ولم يعد بالإمكان إسكاته.

«فكتور جولي» قال، «قطّع عروسه».

«يا إلهي!»، همست مدام إليزابيث.

«أودري فيرون» تابع جاك وقد دبّ فيه ذلك الحماس المعهود، «نباشة»

قمامة، قتلت أختها جاكلين بسبب شيء ما وجدته في الوحل، ساعة معطوبة. جزّت عنق شقيقتها بشظية حديد صدئة».

«فتاة مسكينة!» همست لي الأميرة، «كيف تعيشين هنا مع أشياء كهذه؟!». «وهذا هنا» تابع جاك الذي لا يمكن إيقافه بعد أن يبدأ، على الرغم من نظرات الأرملة القلقة، «هذا هو أنطوان فرانسوا ديسرو. في صندوق، وضع...».

«اسكت! اسكت! توقّف رجاء!» صاح أحد أفراد الحاشية. «كيف تعيشين مع وحوش كهذه يومياً؟!» قالت الأميرة دون أن تنظر إلى مجرمينا الأعزّاء، بل رمقت بنظراتها سيّدي، والأرملة، وجاك. لقد أخبرتني عن مشاعرهما نحوي، إنّهُ أمرٌ رهيب برأيها أن تترعرع فتاة مثلي في مكان كهذا، بصحبة أولئك المجرمين! وغادرت سريعاً. يا لها من زيارة! يا لها من عطلة!

ابتسمتُ ابتسامة واسعة، ابتسمتُ إلى أن أغلِقَ الباب وأُصِِدَ بالمزلاج، لكن سرعان ما تلاشت ابتسامتي. آن أوان الانتقام! فُتِحَ باب المطبخ، وكذلك صندوقي.

«ما هذا؟!»، سألتني الأرملة.

«رؤوس، يا مدام»

«إنّها ملفوفة بقماش الموسلين الخاصّ بي!»

«أعترف أنني أخذتُ بعض الموسلين. أعترف بذلك بمحض إرادتي، كما أخذتُ الكثير غيره أيضاً. ولمَ لا أفعل؟ بعد كلّ شيء، أنتم لم تدفعا لي أجوراً لقاء عملي قط!»

في البداية، لم تستطع الأرملة أن تحزر رؤوس من هذه، وكيف يمكن لها ذلك؟! لم ترَ مطلقاً إدموند كما أراه أنا، إنّهُ شخص مختلف تماماً في عينيها، لكنّ سيّدي -الخبير العظيم بالبشر- عرف!

«هل هو.. هل هي... إدموند؟! أظنّ ذلك! لماذا الكثير من الإدمونديين، يا ماري؟!»

«مَن؟! مَن?!»، صاحت الأرملة.

ضربتني بقوة على رأسي، بأحد تماثيل إدموند النصفية الصغيرة المصنوعة من الشمع.

ومن الشمع، انتقلت إلى الفحم: حبستني في مخزن الفحم.

جلستُ هناك لساعات طويلة، وجاء جاك لزيارتي.

«ماذا يفعلان؟» سألتُه، «ما الذي يجري؟».

«الأرملة تكسر كل شيء، تحطم الرؤوس كلها»

«إنّها تحطم ابنها!! ستضربني، أليس كذلك؟»

«لن تحصيلي على طعام. إنّها أوامر الأرملة»

«هذا من طبعها! إلى متى؟»

«لم تقل. تريدك أن ترحلي»

جاء سيدي إلى باب مخزن الفحم.

«أنا أحاول إبقاءك هنا»، قال لي.

«شكراً لك يا سيدي»

«أو سأعثر لك على مكان آخر تذهبين إليه»

«لا! يجب أن أبقى معك!»

«أنا أخشى ممّا ستفعله الأرملة لو بقيت هنا! إنّها مهتاجة! أخشى حقاً من

أنّها سوف تؤذيك، لا يعجبها أبداً أن تفكرني بابنها. أنا أرتجفُ عندما أفكر

بالعقاب الذي ستفرضه عليك!»

«من فضلك يا سيدي، لا يمكنني أن أتوقّف!»

«آه يا ماري، أنا أحاول أن أقوم بالشيء الصحيح. لديّ فكرة! لقد كتبتُ

رسالة»

«يجب أن أبقى هنا، إنّهُ بيتي»

«لم نقرّر شيئاً بعد يا ماري، قد يحدث أيّ شيء»

لكنّ القرار حُسم بسرعة فائقة! جاء رجل في مهمّة رسمية، وكان جاك

هو أوّل من أخبرني بقدومه، قائلاً إنّ عليّ أن أرتّب هندامي وأن أصعد إلى

الورشة على الفور. هناك، كان كورتوس والأرملة جالسين جنباً إلى جنب

إلى أحد طرفي الطاولة، بينما جلس الرجل الغريب عند طرفها الآخر.

«هل أنتِ» سألني الغريب، «آن ماري غروسهولتز، التي تعيش تحت وصاية صاحبي هذا المنزل؟».

«وصاية؟ يا سيدي؟!»

«أجل ماري» قالت الأرملة، «عليك أن تجيبي بنعم».

«ماري؟!» تعجبت، إذ لم أسمعها قط تناديني بهذا الاسم، من ثم قلت للرجل: «أنا خادمة هنا. أنا أثبت الشعر».

«أنا هنا كي أعرض عليك وظيفة، قيد التجربة: ستصبحين معلّمة لسموها مدام إليزابيث دو فرانس. هل تقبلين بذلك؟»

لم أقل شيئاً. لم تخرج أية كلمات على الإطلاق من فمي.

«هل هذا غير مقبول بالنسبة لك؟»، سألني الرجل.

لم أستطع أن أتنفس، كل ما استطعت القيام به هو أن أهز رأسي بعد مرور بعض الوقت.

«أظنّ ذلك في الحقيقة» قال الرجل، «سيدفع للوصيين عليك شهرياً لقاء خدماتك».

«أجل سيدي ولكن... أليست نقودي؟!»

«عليك أن تفاهمي مع الوصيين عليك هنا»

«أعتقد أنها نقودي. كما ترى يا سيدي، لم تُدفع لي أجوري قطاً!»

«هذا ليس من شأني، يا مدموزيل. من فضلك، دعينا ننتهِ من هذا الأمر. لقد حدّدت موعد وصولك خلال أسبوع... أظنّ أن هذا أيضاً مقبول بالنسبة لك».

«أجل سيدي»

«سنوفر لك الطعام والإقامة، بالطبع»

«اعذرني يا سيدي» قلت وقد بدأت أفهم ما يجري، «سأعيش هناك، أليس كذلك؟».

«أجل في الحقيقة، هذا ضروريّ من أجل وظيفتك، إنّها قيد التجربة كما تفهمين»، ثم قال لسيدي وللأرملة: «قد تغيب القاصر لمُدّة أسبوع واحد فقط، وربما ليوم واحد لا أكثر... لكن إن أثبتت جدارتها، فقط تبقى هناك وفقاً لمشيئة مدام إليزابيث، وبموافقتكما بما أنّكما الوصيان عليها».

«أجل يا سيدي، شكرًا يا سيدي»
«أوراقك ستبقى هنا» قال لي، «بناءً على طلب الوصيين».
«إنها تنتمي إلينا!»، قالت الأرملة بأسلوب فاتن!
«منذ بيرن»، أضاف سيدي.
«اتفقنا» قال الرجل، «هل فهمت؟».
«أجل سيدي»

بقيت الأرملة صامته نوعاً ما بعد ذلك، والمرارة تلوح على وجهها.
لمحّتها مرّة أو مرتّين وهي ترمقني بنظراتها. بقي جاك بعيداً عني، لكنني
سمعتُه ينوح في المطبخ ويخمش الأرض. مكتبة سرّ من قرأ
«لا أريد أن أذهب»، قلتُ لسيدي.
«هذا لمصلحتك، إلى أن تهدأ الأمور مجدداً».
«هل أنت من كتب رسالة إلى القصر؟»

«من الواضح أنّ الأميرة الصغيرة في غاية الحماس، لقد جاء الرجل
على الفور» أجابني، لكنّه أوماً بالإيجاب إيماءة صغيرة، لما تمكّنتُ من
رؤيتها لولا نظارتي. لقد حاول أن يساعدني، هذا أكيد، لكن من المستحيل
أن أتصوّر رسالة من سيدي تؤثر على قصر فرساي! أودّ لو أصدّق أن ذلك
التأثير كان حاسماً!

«سيدي، كيف لي أن أغادر؟!»
«ماري! كوني عاقلة»
في المساء، في المطبخ: الأرملة.
«هناك أفراد من العائلة الملكية» قالت، «يعيشون في القصر. الملكة على
سبيل المثال، تعيش هناك، ويحبّها الجميع».
«أعتقد ذلك، مدام»

«قد تلتقين بهم، أولئك الأشخاص، من وقت إلى آخر»
«أجل مدام»
«يجب أن تحسني التصرف دائماً، إياك أن تجلبي العار علينا! امدحي
عملنا دائماً!»

«أجل مدام»

«ثمة المزيد: عليك أن تحصلي على موعد للدكتور كورتوس كي يأخذ طبعة لرأس الملكة. يسعدنا أن نصنع لها تمثالاً وهي ما تزال حية، هي وكلّ الأشخاص البارزين، لكنّ الملكة هي الأهم، لأنّها من تحظى بالشعبية»
«حسناً مدام، سأحاول. مدام، هل لي بسؤال؟»

«أسألي»

«كيف هو إدموند؟»

احمرّ الوجه الضخم، ارتجف الجبل، اهتزت الذقن، لكنّ اللهب خمد ما إن تكلمت: «ابني مع زوجته».

«مدام» قلتُ وأنا أغصّ فجأة، «أردتُ أن أتزوّجه! ألم تحزري ذلك؟!». «أنت؟! أنت?!»

«ليتني فعلتُ!»

«أمنياتك... ما هي؟! أنت لا شيء! لم يتمنّ إدموند أن يكون معك، وكيف له ذلك؟! من سيتمنّي ذلك أصلاً؟! كيف لابني أن يتزوّج خادمة أجنبية؟! ألا تعرفين كيف يسير العالم؟!»

«سأذهب إلى القصر» قلتُ، «لقد تمّت دعوتي للذهاب إلى هناك».

«ستبقين دائماً وأبداً جرد مطبخنا، يا ماري»

كرهتها كرهاً شديداً، آنذاك وللأبد، بلا نهاية. هل لي أن أصف كراهيتي لها؟! ستسمّ هذه الصفحات! لن أبوح بها!

في آخر ليلة قبل رحيلي، جاك -كالقروود القديمة- ضرب منزل القروود. حطّم الجدران بقبضتيه، وكسّر الأثاث الخشبيّ الزائف، بضربة في هذا الاتجاه وضربة في الاتجاه المعاكس، رفس وناح متألماً. صرخ طيلة الوقت، ولم يستطع أن يكبح رقصة تمرّده، عوى كأنه حيوان تحت التعذيب. برحيلي، سينقلب عالمه الهشّ رأساً على عقب، ولا شيء بتاتاً يمكن أن يقنعه أنه لم يُنبذ. ترك سيّدي المتوترّ العاصفة تهدأ من تلقاء نفسها، بينما صعدت الأرملة إلى الأعلى كي تحسب تكلفة الأضرار. عندما خمد غضبه أخيراً، ربّنا المنزل معاً أنا وجاك، وكنسّ الحطام.

«جاك» قلتُ وأنا أربّت على رأسه الضخم، «سأغيب لفترة قصيرة، لكنني أشكرك، أشكرك جزيل الشكر على دموعك».

في الصباح التالي، انطلقتُ مع مرسية -ذي المظهر الرثّ هذه الأيام- ومع كورتيس، وجاك الذي يعرج خلفنا حاملاً الصندوق الذي يضمّ ثيابي، ومارتا، وصفيحة فكّ والدي، ورسوماتي التي نجت من غضب الأرملة لأنّها كانت مخبّأة في درج المطبخ. توقّف الناس عندما مرّ سيدي بهم في البوليفار، خلعوا قبعاتهم وانحنوا له كعادتهم آنذاك، «صباح الخير دكتور كورتيس»، «الطقس رائع اليوم، يا دكتور كورتيس» قالوا له. اتّجهنا إلى ساحة لويس لو غراند -حيث عمل الدكتور ميسمر ذات مرّة- ويا لها من ساحة فسيحة! شعرتُ بالخوف، وأردتُ أن أحتمي بأحد أطرافها، لكنّ مرسية دفعني بلطف للأمام. اشتريا لي تذكرة لعربة «الكارباس»، وهي عربة فرساي التي تجرّها ثمانية أحصنة، ويلقّبها الناس بـ «مبولة الغرفة».

عندما رفعني إلى العربة، همس لي جاك من بين أسنانه المطبقة: «لا تسمح لي لأحد بإيذائك. أخبريني إن فعلوا ذلك».

«إنّه مجرد قاعة خدم ضخمة» قال مرسية، «لا تبقي طويلاً هناك، البقاء هناك لا ينفع أحداً... ولكن يا صغيرة، حتّى أنا سأعترف بهذا: إنّها مغامرة عظيمة!».

«صغيرتي العزيزة» قال سيدي، «فتاتي، سنفتقدك. سأناديك بماري اليوم. آه يا ماري! من ستغرز الشعر اليوم؟ من ستجلس بجانبني؟ لمن سأحكي عن تقدّمي؟»

«وداعاً يا سيدي» قلتُ، «وشكراً لك».

من ثمّ، انطلقت «مبولة الغرفة».

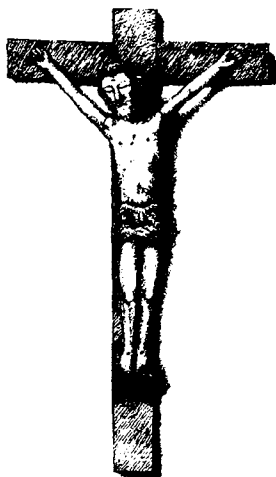
متشبّهة بمارتا في حضني، تأملتُ باريس تتابع حياتها بلا اكتراث. ابتعدت العربة عن بوليفار دو تامبل، وعن منزل القروء، وعن مطبعة تيكرو، ووصلتُ إلى مدخل فرساي، من ثمّ اندفعت عبر الحقول، وكلّ ما رأيته كان جديداً بالنسبة لي. أنا وحيدة! سأصبح معلّمة الأميرة إليزابيث! حيّاني قصرُ فرساي. أدركتُ ظهري لباريس.

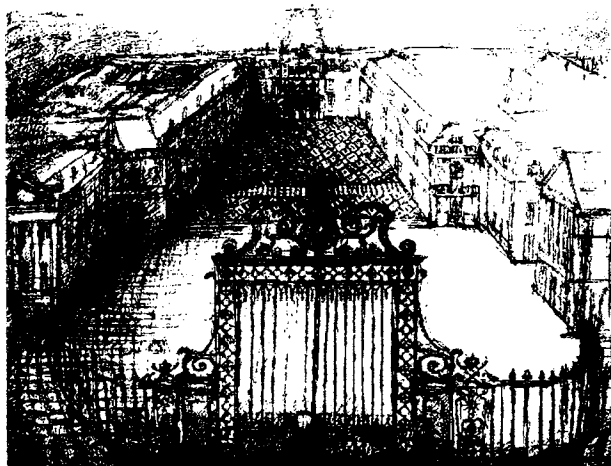
الكتاب الرابع

1778-1789

خزانة في فرساي

يبدأ منذ أن كنتُ في السابعة عشرة،
ويينتهي عندما أبلغ الثامنة والعشرين





الفصل الحادي والثلاثون

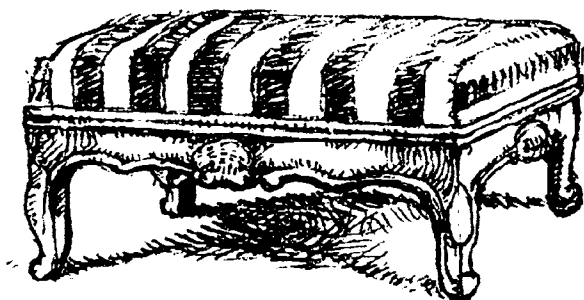
وفيه التقي لقاء وجيزاً برّبة عملي الجديد، وأتعرّف إلى مسكني

رأيتُه قبل أن أصل إليه، يكبر ويكبر كلّما اقتربتُ منه العربة، من ثمّ يكبر أكثر فأكثر إلى أن يحجب السماء. عندما توقّفنا أخيراً، دُهِشْتُ لرؤية بشر عاديّين هناك، بالحجم الذي أعرفه! القصر هو مدينة كاملة، تتألّف من مبنى واحد. كيف نشقّ طريقنا خلال شيء كهذا؟! إنّهُ يغيّر كلّ مفاهيمكم السابقة عن الحجم. شعرتُ أنّي يونس المسكين، وهو إحدى شخصيّات إنجيل أمّي، لكنّ الحوت أمامي ذهبيّ. هل يُعقّل وجود مكان كهذا؟! وكيف لي أن أتّي كي أعيش فيه؟! أمّي، أردتُ أن أناديها، انظري، انظري أين أنا! أنا في القصر! لقد دُعيتُ للدخول إليه.

جاء حاجب يرتدي زياً أزرق للقائي. سينقلون صندوقي لوحدهم، أمّا أنا فعليّ أن أتبعه. قادني فوق الرصيف (بلاطاته بحجم شواهد قبور ضخمة، يمكن للناس أن يستلقوا في الفراغات ما بينها ولن يراهم أحد بعد ذلك)، من ثمّ عبر البوّابات (أطول كما أعتقد من كلّ مباني باريس)، وعبر مدخل الخدم (فتحة أشبه بمصرّة واسعة)، عبر الردهات (أمعاء)، مروراً بالغرف والأشخاص (طعام يُهَضَّم). مشى الحاجب بسرعة فائقة، وتعثّرتُ في هذا القصر الشاسع، كلّ ما فيه يشمخ عالياً فوقّي، سواء الناس أو المكان. تشبّنت انتباهي لوهلة بسبب مجموعة من الأشخاص الصاخبين، فتهدّأت عن الحاجب، لكنّه عثر عليّ وأمرني بصرامة واقتضاب بآلا أوّخره أكثر.

أنظرُ إلى الأعلى: سقوف مزخرفة، أنظر إلى الأسفل: أرضيّات خشبيّة

منقوشة، أنظر إلى الأمام: ظَهَرُ الحاجب بالزِّي الأزرق، يبتعد عني أكثر فأكثر. أنظر حولي: أناس، أناس في كلِّ مكان. أخيراً، رأيتُ نافذة مكسورة في ردهة هادئة، فسررتُ للغاية بسببها، شعرتُ أنني أملك فرصة للنجاح هنا! فتح الحاجب باباً، «انتظري هنا» قال، «ولا تلمسي شيئاً»، ثم أغلق الباب وغادر. نظرتُ حولي، أنا في مكان ما في الطابق الأرضي، في غرفة مليئة بأشياء باهظة الثمن، مميزة، غاضبة. لم أعرف من قبل أن الساعات قد تكون ممتعة هكذا، ولا أن الشمعدانات قد تستاء من إلقاء ضوئها عليّ. لم أدس قطّ على سجادة لا ترغب بوجودي، ولم أشعر قط بعدائية رفّ موقد رخاميّ، ولم أرَ مطلقاً دكة مذهبة تبدو قوائمها الصغيرة السمينة على وشك أن تستهدف كاحليّ. لم أدخل غرفة كهذه من قبل قط!



عشتُ فوق خشبة مسرح في منزل القروء، أمّا هنا فتوجد أمامي ساعة حقيقية وليس مجرد لوح من الخشب مدهون على شكل ساعة، ساعة حقيقية تتكثك وتعدّ الثواني. الموقد هنا حقيقيّ، مصنوع من الرخام، وليس خشباً مدهوناً يقلّد المرمّر. يعيش هنا أناس من لحم ودم، وليس نسخاً مقلّدة عنهم من الشمع... لكنني شعرتُ في تلك اللحظة -وما زلتُ أشعر هكذا حتّى الآن- أن بيتي الحقيقيّ كان بين ديكورات المسرح المصنوعة على عجل، وليس بين تلك الأشياء التي صنعها حرفيّون ماهرون. وقفتُ في منتصف الغرفة، وحدّقتُ إلى تلك الأغراض طيلة نصف ساعة كاملة، إلى أن دخلت خادمة أخيراً، امرأة شابة شاحبة، وانشغلت بالغرفة. لم تنظر إليّ، وكأنني لم أكن موجودة على الإطلاق.

«هل سأنتظر هنا؟»، سألتها.

لكنّ الخادمة لم تقل شيئاً

«هل ستأتي بعد قليل؟»

لم تقل شيئاً

«ما اسمك؟»

هزّت رأسها

«هل يمكنني أن أجلس؟»

«أرجوك!» قالت، وبدت في غاية الاضطراب! «يجب عليّ ألا أتكلّم، هذا ليس مسموحاً».

«مع من يمكنني أن أتكلّم؟!»

«أنا مجرد خادمة حقيرة. لا يجب عليك أن تسأليني أيّ شيء»

فُتح الباب، فتجمّدت الخادمة في مكانها، وسمعنا صوت عجوز مستبّدة يهدر من العتبة: «هل كنت تتكلّمين يا باليه؟ لا تدعيني أقبض عليك أبداً»، فاخفتت الخادمة على الفور.

ببطء، دارت العجوز حولي، من ثمّ جلست على كنبه. «لماذا أنت هنا؟» سألتني، واستغرقت لحظة حتّى فهمتُ أنها لم تخاطب الكنبه. «أنا لا أفهم» تابعتُ، «بعض الحظّ، لن يدوم الأمر سوى هذا اليوم فقط، ولن نضطرّ للتواجد في الغرفة ذاتها مرّة أخرى. للمدام نزواتها بين حين وآخر، والعزاء الوحيد هو أنّها ستجد بكلّ تأكيد أمراً آخر يثير اهتمامها أكثر منك، لأنك لا تبدين مشيرة للاهتمام بتاتاً. ستأتي المدام بعد قليل، عليك أن تنحني، وأن تخاطبها بسموّك أو بمدام إليزابيث. عليك أن تنفّذي تعليماتها بدقّة، أيّاً كان ما تطلبه منك، لكن إياك أن تلمسيها! لا تلمسيها أبداً، هذا ممنوع!».

سمعتُ صوت شخص يركض، وبعد لحظة، دخلت إليزابيث ذات الأربعين عاماً محمّرة الوجه.

«آها! ها أنت ذي أخيراً!» قالت إليزابيث، «رائع!».

«سموّك؟!»، قالت المرأة العجوز كي تحضّني على الكلام.

«سموّك»، قلتُ وانحنيت.

«أنا في غاية السعادة لأنك هنا. لم أفكر بأي شيء آخر منذ رأيته! ففكرت بكل الأمور التي سنقوم بها معاً! فتاتي أنا، رفيقتي بالذات، هذا ما أنت عليه! أختي كلوتيلد، إنها متزوجة الآن من شارل إيمانويل ملك سردينيا، آه، وأنا سأتزوج قريباً أيضاً، لم يكن لديها قط فتاتها الخاصة، ليس مثلك بأي حال! ولكنك هنا الآن! سأكتب إليها وأخبرها عنك. يقولون لي إنها أصبحت بدينة جداً! كم أشتاق لها! حسناً، ماذا سنفعل؟ هل نرسم؟ هل نلعب الغمضة؟ هل نذهب في نزهة؟ لا بد أن أخبركِ عن نزهااتي»

«سموك» همست، «ظننتُ أننا...».

دقت الساعة الشريرة في تلك اللحظة، فشجبت الأميرة. ارتعش وجهها المدور، وبدأت الدموع تتجمع في عينيها الرماديتين.

«حان الوقت، مدام إليزابيث»، قالت المرأة العجوز بقسوة بالغة.

«آه، لا، لا، لا!»، همست إليزابيث.

«عمّاتكِ، مدام إليزابيث»، قالت المرأة العجوز.

«عليّ أن أذهب الآن، لا بد أن أذهب، يا فتاتي العزيزة» قالت لي إليزابيث، «لا يجوز أن تنتظر العمّتان أبداً، لأنهما تكرهان الانتظار، جدّي كان يجعلهما تنتظرانه طويلاً، فأبغضتا ذلك. أنا سعيدة جداً لأنك هنا. أنت غالية عليّ! سأراك لاحقاً. ما أروع أن تكوني هنا! أرشديها إلى غرفتها، هلاً فعلتِ يا ماكو العزيزة؟»

مع تلك الكلمات، اختفت الأميرة الصغيرة، وتركتني مع مدام ماكو. «لا شك أنها ستخفق مجدداً»، غمغمت ماكو ما إن انطبق الباب. «لن آخذكِ إلى غرفة» قالت من دون أن تنظر إليّ، «لا تظني ولو للحظة أنني سأفعل ذلك. انتظري هنا».

غادرت العجوز، وظهرت خادمة مختلفة بعد بضع لحظات.

«اتبعيني من فضلك»، قالت.

خرجنا من الغرفة ومشينا قليلاً، ثم توقفنا أمام خزانة طويلة وعريضة ذات بابين، مثبتة بالجدار، كان صندوقي موضوعاً بجانبها. «يمكنكِ أن تفتحي أحد البابين»، قالت الخادمة.

فتحت أحدهما.

«إنها خزانة!»، قلتُ.

«أجل» أجابتنِي، «إذن تفضلي، إنها خزانتك».

«هل أضع أشيائي فيها؟»

«ستمكنين فيها»

«في الخزانة؟!»

«ستأمين هنا، ستقضين وقتك هنا، كي تكوني قريبة منها عندما تطلبك.

نامي على هذا الرف، وضعي أشياءك على الآخر فوقه. ستجدين أن الخزانة عميقة بما يكفي»

«خزانة؟!»

«أجل، حقاً. خزانة»



توضع الأشياء في الخزائن، أما البشر فيستلقون على الأسرة، حسبُ هذا بديهيّاً، لكنّ ثمة طرقاً مختلفة في فرساي ولا بدّ لي أن أتعلّمها. لقد علّمني سيّدي ذلك عندما وصلنا إلى باريس: من الضروريّ أن نتعلّم قواعد

الأمكنة الجديدة. قد لا تختلف الخزانة كثيراً عن الغرفة التي لا نوافذ لها في منزل الخياط الميت، تلك التي مكثت فيها. هل هناك بشرٌ يا ترى في كلّ خزائن القصر، ولن يُفَتَح أيّ درجٍ هنا إلّا عندما يريدون شخصاً ما؟! ماذا يحدث، تساءلتُ، لو أنّ الدرج لم يُفَتَح قط، وبقي المرء مستلقياً هناك، يتضوّر جوعاً آملاً أن تُطَلَب خدماته سريعاً؟! هل سيقطات على العناكب والذباب؟! لاحقاً، عرفتُ أن الخدم في بيوت الأرستقراطيين في سائر أرجاء أوروبا، ينامون في الخزائن لضرورات عملهم، كي يبقوا قريبين من مخدوميهم. جورج الثالث ملك إنجلترا، حشر خدمه في أدراج خزانة خارج غرفة نومه، دوق أوربينو وضع خادماً في درج طاولة مكتبه، بارونات بافاريا علّقوا خدمهم على مشاجب المعاطف التي صمّمت خصيصاً لهم، ويقال إن دوقة بلوا كانت لديها خادمة محبوبة عاشت أربعين عاماً في مرحاض فارغ. شعرتُ بالتعاطف مع الأغراض في تلك الليلة، عندما تمدّدتُ على رفّ الخزانة. كم كانت معتمة!

الفصل الثاني والثلاثون

زاويتي الصغيرة في القصر

باب خزانتي يُفَتَّح من الداخل ومن الخارج، إذ يوجد مقبض في كلّ جهة منه. مع ذلك، عندما انطبق عليّ وأنا مستلقية هناك فوق الرفّ / السرير، خُيِّلَ إليّ أنني في تابوت! عندما استيقظتُ من غفوة قصيرة، خبطتُ على الباب مرتعبة من أنني دُفِنْتُ حيّة! لقد حلمتُ أنني ميتة، ملقاة في مجرور البوليفار. حتّى بعد أن تذكّرتُ أين أنا، تفقّدتُ المقابض باستمرار، كي أتأكّد من أنني أستطيع الخروج! يا لها من ليلة بائسة!

في صباح يومي الثاني في القصر، اقتادوني إلى تلك الغرفة المستاءة مجدّداً. سرعان ما دخلت السيّدّة العجوز، من ثمّ جاءت إليزابيث أخيراً بصحبة رجل يلبس زيّاً دينيّاً.

«حسنًا، يا فتاتي، سوف نصلي الآن»، قالت.

صلينا وفقاً لتعليمات القسّ الذي يتلقّى اعترافها، آبيه مادييه. أعتقد أنه مجرد قطعة بشرية مزيتة، هل خلقه الربّ هكذا يا ترى؟ آه يا قلب يسوع الأقدس، أحبك، أبجلك، أدعوك في كلّ يوم من أيام حياتي، وخصوصاً في ساعة موتي. O vere adorator et unice amator Dei, miserere nobis. آمين⁽¹⁾».

بعد ذلك، قالت لي إليزابيث: «أنت تصلين على نحو ممتاز!».

«شكراً لك، سموّك»

1- ترد باللاتينية في الرواية، وتعني: «آه أيها العابد الحقيقيّ والمحَبّ الوحيد للربّ، ارحمنا». المترجمة

«ثمة شخص أريدك أن تقابليه، شخص عزيز جداً عليّ»

ذلك الشخص يعيش مثلي في خزانة، لكنها مبطّنة بالمخمل، ومحمولة، ولا مفرّ في حقيقة الأمر من تسميتها بالصندوق. إنّهُ مصنوع من الجصّ الملون، وليس ضخماً، إذ لا يتجاوز طوله قدماً واحداً في حقيقة الأمر، كما أنّ صناعته ليست متقنة. إنّهُ رجل مثاليّ، مبسّط، مشبع بالعاطفة، يجسّد مخلص البشرية. سبق لي بالطبع أن التقيت به من قبل، هذا الرفيق، أو بمئات مثله، إنّهُ يحظى بالشعبية الفائقة، مألوف للغاية، وكانت أمي تحبّه.

«لا يمكنك أن تحمليه» قالت إليزابيث، «لكن بوسعك أن تنظري إليه».

«لديّ دمية» قلتُ، «اسمها مارتا. هل ترغبين...».

«أنا أمضي ساعات طويلة معه، أشعر أنه حيّ يصغي إليّ»

«لا» قلتُ، «إنّهُ مجرد جصّ ملون، لا يمكنه أن يسمع شيئاً».

«سأضعه جانباً الآن» قالت، وعاد يسوع إلى صندوقه بعد أن تلقى قبلة.

أرغب أن تقبّلني إليزابيث هكذا أنا أيضاً.

«من الرائع أنّك دعوتني إلى هنا» قلتُ، «أشكرك جداً».

«هذا ليس ضرورياً»

«أعتقد أننا سننسجم معاً، نحن أشبه بتوأمتين، أنا وأنتِ»

«لا أظنّ أننا متشابهتان إلى هذه الدرجة!» قالت، «قد يكون هناك شبه

عابر، ربّما. سمعت بعض التعليقات حول ذلك، ولكنّ أنفك -اعذريني-

ضخم، أليس كذلك؟ وذقنك! ثقي بكلامي، إنهما بارزان، وهما -إن أخذنا

كلّ شيء بالحسبان- مخيفان نوعاً ما... ولكن لا تقلقي، لا يهمّني مظهرك.

كلّاً، ربّما يوجد بعض الشبه، لكن لا أعتقد أننا متشابهتان كثيراً، وكيف يمكن

ذلك؟! أنا أخت الملك! آه، لا تحزني هكذا! يا لك من مخلوق سخيف!

كيف للمرء أن يشعر بالأسف إزاء شيء له وجه كهذا؟! أنا أحبّك أكثر عندما

لا تبدين حزينه هكذا. تعالي الآن، سأريك شيئاً آخر».

أخذتني إلى غرفة تزيّنها العديد من رسومات الهواة، خاصّة رسومات

الصلبان والقديسين.

«آه! انظري إلى كلّ تلك الرسومات!»، قالت بحماس.

نظرتُ إلى الرسومات، ثم إلى إليزابيث.

«إنها لي!» قالت، «أنا رسمتها».

لم أقل شيئاً

«ما هو رأيك بها؟»، سألتني

«أعتقد، سموك، من فضلك سامحيني» قلتُ، «أعتقد أن علينا أن نباشر

الدراسة على الفور».

«يا فتاتي؟!»

صمتُ قليلاً، من ثمَّ عرفتُ ألا خيار أمامي، فقلتُ: «أنت لا تنظرين

حقاً... أليس كذلك؟ ليس بعد. أنا متأكدة من أنك ستفعلين، لقد علّمني

سيدي كيف أنظر، وتطلب ذلك مني تدريباً طويلاً قبل أن أتمكن من رؤية أيّ

شيء على الإطلاق»

احمرّ وجهها بشدة

«لا يجب أن أكذب عليك، سموك» قلتُ، «إن أردنا أن نتقدّم معاً، إن

كنتُ سأقدّم لك نفعاً، لا يجب أن أكذب».

«أنا إليزابيث، أميرة فرنسا»

«أجل، سموك»

«حسناً»، وضربت الأرض بقدمها.

لم أعرف ماذا ستفعل، ساد صمتٌ طويل من ثمَّ قالت أخيراً: «يكفي لهذا

اليوم»، وأرسلتني مجدداً إلى خزانتي.

عندما لا تكون خدماتي مطلوبة، أمرتُ أن أمضي الوقت في الخزانة بقدر

ما أستطيع. من البديهي أنني سأضطرّ للخروج منها أحياناً، لكن من الممنوع

أن أبتعد أكثر من الغرفة الجانبية حيث يوجد دلو لقضاء الحاجة. إنها خزانة

كبيرة، والرف ليس أضيق بكثير من سريري في منزل القروء. بوسع الإنسان

أن يعتاد على كلّ شيء تقريباً!

كنتُ مرتاحة بما يكفي في الخزانة، وتسنى لي الكثير من الوقت للتفكير،

أكثر ممّا حظيتُ به يوماً، وتمحور بعض ذلك التفكير حول إدموند حتماً،

وحول عدم وجود مكان كافٍ كي يضطجع بجوارِي في هذه الخزانة -

التابوت، وأن الأمور يجب أن تسير هكذا على الأرجح بما أنه سُرق مني. تمنيتُ لو بقي معي رأسٌ واحد من تلك التي نحتّها له، لساعدني كثيراً، لكنّ الأرملة حطمتها كلّها. يجب ألا أفكرّ بإدموند بعد الآن، يجب أن أنساه، لأنّه ليس لي.

حاولتُ جاهدة ألا أفكرّ به، لكنهم تركوني وحيدة لفترات طويلة، بحيث أصبح إدموند «المكان» الذي أتوق لزيارته، مع أنّه متزوّج. تساءلتُ هل يفكرّ بي أحياناً، وهل سيستغرب عندما يعرف أنني في فرساي، أعمل لدى صاحبة السمو؟ سأقول له إنّ الوظيفة المملكيّة، ليست رائعة كما يتصوّر.

بقيتُ طويلاً في خزانتي بأيّ حال، وتقتّ إلى إدموند بشدّة، إلى حدّ أنني شعرتُ بشبحه يكبر حولي، يأكل دماغي، من ثمّ يأكل قلبي ببطء. استلقيتُ هناك وحدي، طويلاً. لعلّ دمي الخياط سترصدني حتّى الموت، أنا التي أتوق بشدّة إلى مَنْ صُنِعَتْ تلك الدمى على هيئته! لذلك، أجبرتُ نفسي على التطلّع قدماً، على أن أحاول طرد الشبح، وأن أشغل نفسي عنه.

في فرساي، يمكنني الحصول على شموع بقدر ما أرغب، ثمّة مخزون وافر منها دائماً. مستلقيّة هناك، سأصغي نهاراً إلى ضجّة المكان وإلى الجنود يسرون في الخارج، أمّا ليلاً فسأسمع الجرذان التي تتراكم في الردهات، وصراخ القطط المتوحشة التي تقتات على فضلات المبنى العظيم.

بوسعي أن أتعلّم أيضاً! أعطوني كرّاسة ذات غلاف من الورق المقوّى: «دليل فرساي»، الذي يضمّ قائمة مفصّلة بكلّ الأشخاص الذين يعملون في القصر، بدءاً من منزل الملك إلى دائرة أفراد الحاشية. قرأتُ هذا الكرّاس ذا العنوان المملّ مراراً وتكراراً، كي أمنع شبح إدموند من القدوم إليّ، وحاولتُ أن أتخيّل الأشخاص الذين يحملون تلك الأسماء. حاولتُ أن أتصوّر طبيبي الأسنان / الجرّاحين الخاصّين بالملك: بورديه ودوبوا - فوكو، فتخيّلْتُ أن الأوّل قد يكون جنتلماناً بديناً، أمّا الثاني فمغرور قليلاً. مررتُ على قائمة من خمسين شخصاً مسؤولين عن الاصطبلات المملكيّة، وانتقلتُ منها إلى قسم معنون بـ «Bouche du Roi» أي «فم الملك» يختصّ بطعامه، ثمّ تأملتُ بإعجاب قائمة من أربعة رجال مسؤولين فقط عن غسيل أطباق الملك (وما

زلتُ أُنذِرُ أسماءهم حتّى الآن: سُفال، كولون، ميلوشو، ودي رولبو. أظنّ أنني أحببتُ مسيو دي رولبو). تتبّع أصابعي أسطراً طويلة من الشخصيات البارزة في منزل الملك، صفحات وصفحات من الناس، إلى أن وصلتُ إلى منزل الملكة (ما زلتُ أذكر أربعة من بين آلاف الأشخاص في ذلك الجيش العظيم: كولاس، مورا، كاريه، ولُوكان، يشكّلون الجناح الأصغر بين ستّة عشر شخصاً مسؤولين عن فواكه الملكة).

أخيراً، وصلتُ إلى منزل مدام إليزابيث دو فرانس، في الصفحة 226 من «الدليل» المطبوع بخطّ صغير. أحصيتُ عدد الأشخاص في هذا المنزل، وهو المنزل السابع المُدرّج هنا، والأصغر بين بقية المنازل. ثمة ثلاثة وسبعون شخصاً، يخدمون فتاة واحدة في الرابعة عشرة من العمر! بدءاً من القسّ إلى المعرّف إلى مدام ماكو، التي تُلقّب هنا بـ «الوصيفة الفخرية». بعد ذلك، ترد قائمة من: المرافقات النبيلات (15)، فارس فخريّ واحد، والقائمون على الاصطبلات (4). تحت عنوان «الحجرة»، هناك خادمتان أساسيتان مسؤولتان عن غرفة النوم، وخادمتان ثانويتان (16)، وحجّاب لغرفة النوم (4)، وحجّاب لغرفة تبديل الملابس (4)، وحاجب مسؤول عن الأثاث، وصبيبة لخدمة الغرف (4). بعد قسم «الغرفة»، أُدرّج طبيب مدام إليزابيث (لُومونييه)، وجراحها (لُوستونو)، وطبيب أسنانها (بورديه)، الذي يشغل نفسه أيضاً بأسنان الملك، نظرة صغيرة إلى داخل الكلّ الأعظم). أُدرّج أيضاً أمين مكتبة مدام إليزابيث، والمكلّف بالقراءة لها، وسكرتيرها، ومعلّم الهاريسكورد، ومعلّم القيثارة، ومعلّم الرسم، ومجموعة من الخدم: حائك البسط (2)، المسؤول عن الملابس (2)، حمّالون (4)، المكلّفون بأعمالها الرسميّة (2)، ملّمع الفضة (1)، وأخيراً خادمة واحدة مصنّفة في حضيض الموظفين، والمسؤولة عن مهام مقتضبة لم تُذكر، واسمها لوسي باليه.

أغلقت الكرّاس، أطفأت الشمعة، وجلستُ دائخة في العتمة. استدعيْتُ شبح إدموند مجدّداً، لأنني كنتُ وحيدة للغاية.

الفصل الثالث والثلاثون

يتعلق بوظيفتي كـ «فتاة»

لدى سمو الأميرة إيزابيث

في اليوم الثالث لوصولي، أرسلت إيزابيث بطلبي مجدداً، لا كي نرسم، بل كي نلعب الغميضة، هواية الأميرة المفضلة. يجب عليّ أن أغمض عينيّ، وأن أعدّ إلى المئة، من ثمّ أحاول العثور على إيزابيث وصديقاتها. عندما فتحتُ عينيّ، لم أرَ أيّاً منهنّ بل الأثاث فقط، لكنني لم أستغرق سوى لحظات فقط كي أعثر عليهنّ مختبئات في الغرفة المجاورة، مجموعة من السيّدات ذوات الصفة الرسميّة، يستمتعن بمزحتهنّ الرائعة. تجمّعت بعض الأنسات الطويلات عند عتبة الباب، فشقتُ طريقي بينهنّ - بـ «طريقة غير لائقة»، تلقّيتُ التوبيخ بسببها لاحقاً، فوجدتُ إيزابيث التي تأكل من صحن مليء بالكعكات اللذيذة، لكنّها لم تعرض عليّ واحدة.

«كو كو!» قلتُ، «ها أنت ذي» ولمستُ ذراعها.

«لا!!!» زعقت ماكو، «لا! أبداً! إيّاك أن تلمسيها!».

جرّنتي المرأة العجوز عبر الردهة، إلى صالون بسيط لم أره من قبل.

«مدّي يدك»، أمرتني.

فعلتُ ذلك

سمعتُ صوت الريح، من ثمّ ضربتني عصا. ارتفعت، من ثمّ هوت على يديّ مجدداً. في المرّة الثالثة، سحبتهمما بعيداً.

«لا لا» قالت المرأة العجوز، «لا بدّ أن أضربك ثلاث مرّات».

مددتُ يديّ مجدّداً وأنا أبكي، ولقنتني العصا درسي للمرّة الثالثة. لعلّي
لستُ كبيرة على تلقّي العقاب، لعلّ قصر قامتي هو ما يشوّشهم.
«في المرّة القادمة، سأضربك عشر ضربات! لا تلمسيها! كرّري ورائي:
لن ألمسها»

«لن ألمسها»

التفتُ للخلف، إليزابيث تقف ورائي! لقد كانت هنا طيلة الوقت!
«أنا من تقول: كوكو، لا أنتِ!» قالت، «كما أنّ لعبّة الغميضة يجب أن
تستمرّ نصف ساعة على الأقلّ! أنت لا تلعبينها بطريقة صحيحة».
«حسناً» قالت ماكو، «علينا أن ننضج، علينا جميعنا أن ننضج».

في اليوم التالي، انطلقنا إلى العمل. وضعتُ ورقة أمام إليزابيث، فأمسكتُ
قلم الرصاص. أدركتُ أن الورقة والقلم ليسا حميمين بالنسبة لها، واكتشفتُ
مباشرة أن مدام إليزابيث ليست مطلعة على التشريح. القلب على سبيل
المثال، ذلك العضو الأشدّ صخباً وبالتالي الأسهل اكتشافاً، يتوضّع برأيها
- لا شكّ أن هذا مستوحى من اللوحات الدينيّة العديدة - في مركز الصدر.
تساءلتُ لماذا توجد كليتان، ولماذا توجد رتتان، وهل ازدواج الأعضاء هذا
مرتبط بطريقة ما أو بأخرى بالحمل التوأمي؟ تعجّبتُ عندما أخبرتها أن
الأحشاء تتوضّع عموماً في الموقع ذاته من أجساد البشر، وأصرّت بعناد
على أنّ أحشاء الرجل تختلف عن أحشاء المرأة تماماً، ولم تسمح لي أن
أعارض رأيها. رسمتُ الخطوط العامّة للجسد البشريّ، وحاولتُ أن أشرح
لها محتوياته، لكنّها لم تصدّقني. فهمتُ أن بعض الأمعاء كبيرة وبعضها
دقيقة، لكنّها ظنّت أنه من السخيف أن يمتلك البشر جميعهم، بغضّ النظر
عن حجمهم، نوعي الأمعاء هذين كليهما. لذلك، قرّرتُ أن الطريقة المثلى
لإيضاح شروحاتي، هي الاستعانة بكائن بشريّ. طلبتُ مساعدة إليزابيث،
وسرعان ما جاءت بالييه خادمة الغرفة.

«مرحباً بالييه»، قلتُ.

لم تعجبنني، ليس مسموحاً للفتاة المسكينة أن تتكلّم.
«من هذه؟»، سألتُ إليزابيث.

«إنّها باليه» أجبت، «إحدى خادماتك».

«لم أرها هنا من قبل»

«ومع ذلك، هذه هي باليه»

باليه تعمل في خدمة إليزابيث منذ ست سنوات، لكنّها تقوم بعملها من دون أن تُسمّع أو تُرى، ولا تترك أثراً أكثر من شبح. القصر مليء بأناس على شاكلتها كما أعتقد، ربّما المئات منهم، يعيشون صامتين ويقدمون خدماتهم للعائلة الملكيّة، التي لا تراهم بتاتاً.

«باليه» طلبتُ منها، «هل يمكنك أن تقفي في منتصف الغرفة من فضلك، وأن تمدّي ذراعيك هكذا؟»، فنقّذت ذلك.

«هذه هي باليه» قلتُ لإليزابيث، «نحن نعرف كيف تبدو من الخارج، لكن كيف تبدو من الداخل؟ ماذا يوجد في خزانة باليه؟ دعينا نتظاهر أن أضلاعها هي أبواب الخزانة، وأنا سنفتحها عند عظم القصّ، من المركز إلى المحيط. ما الذي سنراه؟ ما الذي تضعه باليه على رفوفها؟».

«ملاءات السرير، سأقول» غمغمت إليزابيث.

لم أعلّق على جوابها



وأنا أشير هنا وهناك بعصاي، تعلّمت باليه الكثير عن الأعضاء الموجودة بداخلها، التي كانت تجهل وجود أيّ منها سابقاً، كما تعلّمت إليزابيث أيضاً بدورها. صمّمتُ على البقاء خارج خزانتي لأطول فترة ممكنة، لذلك حاولت أن أطيل الزمن الذي نقضيه أنا وإليزابيث أكثر فأكثر، وأصررتُ على أن درسنا لن يكتمل إلّا بعد أن أشرح لها عن الكلية، من ثمّ عن الكبد، من ثمّ القلب.

«هذا صعب جدّاً!»، قالت إليزابيث.

«لكنّنا نحرز تقدّماً»، قلتُ.

«لماذا يجب عليّ أن أعرف ماذا يوجد بداخل جسد خادمة؟!»

«لأنّ الأعضاء ذاتها موجودة بداخل أجساد البشر أجمعين، يا مدام. كلّ البشر يملكون الأحشاء نفسها»

«لا أظنّ ذلك»

«لكنّه صحيح»

«هل أنت متأكّدة؟!»

«أجل مدام»

«هذا رهيب!»، قالت، وبدأ لي أنها تنظر إلى باليهه باستياء بالغ الآن.

عندما درنا حول باليهه، احمرّ وجهها، وأجفلت قليلاً عندما لمستّها. «إنّه جسدك فحسب» قلتُ لها، «مجرّد جسد بشريّ كأيّ جسد آخر، لا شيء يستدعي القلق. ابقي ساكنة، نحن نحاول أن نتعلّم».

رؤية جسد بشريّ حقيقيّ ساعدتنا، هذا مفيد دائماً. عندما بدأت إليزابيث تفهم كيف يعمل الجسد البشريّ، تحسّنت رسوماتها. علّمتّها أن تتخلّى عن التفكير بقواعد القصر وقوانينه وردهاته، وأن تركّز على ما يوجد بداخل الجسد. الآن، أماننا قصر آخر نتجوّل بداخله، زحفنا بمخيّلتنا تحت جلد لوسي باليهه، وتسلّلنا بين أحشائها وعظامها. عندما انتهت جولتنا في «قصر باليهه»، طلبتُ من إليزابيث أن تشير إلى الموقع الصحيح وأنا أقول بصوت عالٍ: كلية! مثانة! مريء! أمعاء دقيقة! رتّان! مستقيم! قلب! الحبل الشوكيّ!

الحجاب الحاجز! البنكرياس! الطحال! الصفاق الراجي! الشريان الطنبوبي السفلي الجاني! الحدة البنكرياسية الثرية! لقد أحرزنا تقدماً.
لاحقاً في الردة، لمست باليه بطنها وهمست لي متعجبة: «هنا، في الداخل، يوجد الاثنا عشري، وهو اختصار لـ *intestinum duodenum digitorum*».

«والذي يعني؟»

«المعيّ بعرض اثني عشر إصبعاً»

«أجل باليه، تذكرينه على نحو جيد جداً»

«شكراً لك، مدام»

«شكراً لك، ماري!» صححت لها.

«شكراً لك، مدام»

عندما انتهى درس الرسم، اجتمعت مرافقات إليزابيث النبيلات المفضلات لديها لتحيّتها، فتياتُ تناديهنّ بـ: بومبه، رايج، وديمون. من ثمّ، أعادوني إلى خزائني. استلقيتُ هناك في الظلام وفكرتُ بإليزابيث، وغمغمتُ باسمها للرفّ فوقيّ، إلى أن جاء شبح إدmond وتمدد بجاني.

خلال أساييبي الأولى هناك، لم أر سوى جزء صغير من ذلك البناء الضخم خارج خزائني. رأيتُ صالون إليزابيث، والغرفة التي ندرس فيها، ورغبتُ برؤية المزيد. لم أر سوى القليل في حياتي، لكنني سمعتُ الكثير ولمحتُ الآخرين، وكان القصر بمنزلة إغواء عظيم حقاً. تساءلتُ ما الذي يوجد هناك، خلف غرفنا الصغيرة. قيل لي ألا أغادر جناح إليزابيث أبداً، لكنني أردتُ ذلك، على الأقلّ لأنني أعتقد أن هذا سيساعدني على إبعاد شبح إدmond الذي يثير اضطرابي. بعد ظهر أحد الأيام، سنحت لي فرصة عظيمة خلال استراحة الغميضة. ماكو كانت مشغولة في مكان آخر باجتماع مع العمّتين، فأعلنت إليزابيث ومرافقاتها أنهن سيختبن، وأنني سأحظى بشرف البحث عنهنّ في جناحها. انطلقن ضاحكات، أغمضتُ عينيّ وعددتُ إلى المئة، وسمعتُهنّ يدخلن إلى إحدى الغرف، فأخذتُ شهيقاً عميقاً وانطلقتُ بالاتجاه المعاكس. تجوّلتُ في القصر، اكتشفتُ جغرافيا جديدة رنت خطواتي فوقها.

ركضتُ هنا وهناك في أرجاء المتاهة الملكيّة، عبر ردهات أجهلها، إلى غرف كبيرة مذهّبة، أمام كلّ أبواب القصر تقريباً، هناك أشخاص ينتظرون، يقفون أو يجلسون على الأرض، وجميعهم بلا استثناء يحملون أوراقاً بين أيديهم. سألتُ أحد الرجال منذ متى ينتظر هنا، فأجابني: «بحلول تشرين الثاني، سأكون قد انتظرتُ ثلاث سنوات بشكل متقطع». هناك رجلٌ آخر يبدو وجهه رمادياً، كأنه تشرب لون الجدران الحجرية بسبب الانتظار طويلاً. تسلّقتُ الأدراج وفتحتُ الأبواب، وقال لي العديد من أولئك المنتظرين إنه لا يجدر بي أن أتواجد هنا. عندما سمعتُ عاصفة من الأقدام تقترب، شعرتُ بالقلق. تساءلتُ ما إذا كانت لعبة الغميضة ما تزال مستمرة، أم اتخذت منعطفاً غريباً، بحيث اضطرتُ المختبئات إلى البحث عن الباحثة المخفية. سيسعدني العثور على إليزابيث الآن، لأنني تهتُ تماماً.

عندما مرّت بالقرب مني مجموعة رجال بالزيّ الأزرق الموحد، اختبأتُ خلف غطاء موقد غير مشتعّل، كي ألنقط أنفاسي وأستجمع قواي. هدأ قلبي من تلقاء ذاته، فانتبهتُ إلى صوت طرق خافت، وتساءلتُ إن كان هناك شخص آخر يقرع الأبواب مثلي في فرساي بحثاً عن طريقه. استجمعتُ شجاعتي، وقررتُ أن شخصين تائهين هما عزاء أفضل من شخص واحد، وفتحتُ الباب، فتوقّف الطرق على الفور.

«من هناك؟!»، قال صوت رجل من الجهة الأخرى.

«أرجوك»، كان كلّ ما استطعتُ قوله.

«لا يجب أن تدخلني! لا يجوز أن تدخلني على الإطلاق! هذا ليس مسموحاً»

«أرجوك يا سيّدي!»، لم أستطع أن أقول أيّ شيء آخر.

«إنّها غرفة خاصّة! غرفة خاصّة! غرفة خاصّة! الإزعاج ممنوع!»

«لستُ متأكّدة بالضبط...»

«من هناك في الخارج؟ من أنت؟»

تأثّأتُ، لأسباب ليس أقلّها الحرارة غير الطبيعيّة التي تنبعث من الغرفة.

هل أزعجتُ يا ترى شيطاناً يقطن في القصر؟!

«من أنتِ هناك؟ أفصحي عن نفسك»

حاولتُ أن أشرح أنني معلّمة النحت، معلّمة سموّها، مدام إيزابيث.
لا أعرف إن كانت غمغمتي مفهومة، لكنّ الصوت في الغرفة الحارّة أجاب
أخيراً: «آه! حسناً، ادخلي، ادخلي».

فدخلتُ

الفصل الرابع والثلاثون

صانع أقفال فرساي

في الداخل، رجل ضخّم البنية نوعاً ما، في العشرينيات من عمره،
يلبس مئزرًا من الجلد، ويشمّر عن ساعديه منحنيًا فوق مسبك، حاملاً بيده
مطرقة صغيرة.



«حسنًا، أغلقي الباب، وإلا سيدخلون جميعهم»

نفذت ما قاله، فاستأنف الرجل عمله مباشرة، وأخذ يطرق قطعة صغيرة
من المعدن. إذن، طرقات المطرقة هي ما سمعته عبر الجدار قبل قليل، وليس
قرعاً على باب! مستغرقاً في عمله، لم ينظر صانع الأقفال إلّا لبضع دقائق.

قصر فرساي شاسع للغاية، فكّرْتُ، ولا بدّ أنّ العديد من الحرفيّين يقيمون فيه. لقد عثرتُ على صانع الأقفال هذا بالصدفة، ولو فتحتُ باباً آخر، لربّما وجدتُ صائد جرذان يصنع المصائد، أو صانع ساعات مشغولاً بساعاته، أو حتّى صانع شموع يذيب شمع النحل.

وقفتُ في الزاوية عند الباب، وراقبتُ الحرفيّ أمامي، آملة أنه سيرشدني إلى كيفية العودة إلى جناح مدام إليزابيث ما إن ينتهي من عمله هذا. هذا الرجل لديه جبهة عريضة مضحكة نوعاً ما، أنف رومانيّ كبير، شفتان مكتنزتان، وعينان زرقاوان كبيرتان مميّزتان، غالباً ما يزمّهما ويقربهما من القطع المعدنية المتوهّجة التي يعمل عليها، وهو ما دفعني إلى الاستنتاج أنه قد يتفّع من استخدام نظّارة. ثمّة طيّة من الشحم تحت ذقنه، ولديه ثديان أنثويّان، وهو يربّت عليها كلّها من حين لآخر بيديه السميتين الخاليتين من البراجم. لا يبدو أنه يتنفس من أنفه، بل يستعمل فمه لاقتناص الأكسجين. بملقط معدنيّ، التقط الرجل القطعة التي يعمل عليها، وغمسها في حوض ماء عميق، وعندها هسهست القطعة متدمّرة، وأصدرت ضجّة استقبلها صانع الأقفال بابتسامة. التفت صوبي، زمّ عينيه، هزّ رأسه من ثمّ مَدّ يده إلى جيب مئزره وتناول منديلاً فرشه بعناية على منضدة قريبة. من ثمّ، مَدّ يده في جيب آخر وأخرج قطعة مهروسة نوعاً ما من فطيرة الكاسترد البارد، وضعها فوق المنديل، وتراجع خطوة للخلف كي يتأمّلها. أخيراً، تناول موسى جميلة من جيب ثالث، وفتح شفرتها ثمّ قطع فطيرة الكاسترد إلى نصفين غير متساويين. تناول القطعة الأكبر بيده السمينة، ثمّ نطق أخيراً: «لا تخبري أحداً. هذه جائزتك».

تقدّمتُ خطوة كي آخذها.

«هل تحتاجين حقاً إلى كلّ تلك الكميّة؟!» سألني والفتات يغطّي شفّتيه، أمّا حصّته فكانت آمنة في فمه. «إنّها قطعة كبيرة، وأنّ صغيرة الحجم. هيّا، ما رأيك لو قطعناها مرّة أخرى إلى نصفين؟»، أضاف.

قُطعت الفطيرة مجدّداً، إلى جزأين غير متساويين أيضاً، فانحنيتُ كي آخذ الجزء الأصغر.

«أرى أنك مترددة» قال صانع الأقفال قبل أن أمدّ يدي إلى القطعة، «لا أقصد أن أجبرك على أكلها. بوسعي أن أحتفظ لك بها لوقت لاحق، إن كنت تفضّلين»، وأخذ القطعة الأخيرة المتبقية من الفطيرة. «أو لربّما سأبتلعها عوضاً عن ذلك؟» قال، وهو يقرب حصّتي من فمه. «هل أفعل؟» سألني، من ثم، من دون أن ينتظر ردّي، وضع القطعة بين شفّتيه المكتنزتين، مضغها، ابتلعها، ثم قبل الهواء راضياً.

«قد تمرض الآن»، قلتُ.

«ولكنني أحبّها!» قال وهو يرتّب على معدته بحماس بالغ، «والكعكات محظورة عليّ. إنّها تقول لي: قطعة واحدة فقط يومياً، لا أكثر» من ثمّ تابع همساً: «ولذلك أغش! بالطبع، أنا أغش، لقد تعلّمتُ كيف أصبح بارعاً بالاحتيال». صمت لوهلة، وبدأ مسروراً ينظر إلى ما صنعه ويتأمّله. تأكّد من أنّ القفل جفّ تماماً، ثم زيّته ولمّعه. أخيراً، انحنى مقترباً منّي، وتفحصتني عيناها الزرقاوان الكبيرتان.

«حسناً إذن، يا عجوز، هل نركّبه معاً؟»

«أجل سيّدي» أجبتُ، «أودّ ذلك».

أمسك يدي بإحدى يديه، وتناول القفل الجديد باليد الأخرى، وقادني خارج مشغله الصغير إلى ردهة طويلة. انعطفنا عند الزاوية، وتوقّفنا أمام باب بلا قفل، واستطعتُ أن ألمح جزءاً ممّا يوجد خلفه: غرفة واسعة، حسنة الإضاءة، سقفها العملاق مزدان بالرسوم، وثمة ألواح ضخمة من المرايا تغطّي إحدى جهاتها وتعكس النوافذ في الجهة المقابلة. الغرفة مليئة بسيّدات وسادة مختلفين أنيقين، كلٌّ منهم مشغول بالآخر. لم أزر مكاناً مثالفاً كهذا من قبل، لمعانه قد يصيبكم بالعمى.

«هل الملكة موجودة هنا؟ دلّني عليها»، قلتُ.

يجب عليّ أن أحاول أخذ طبعات للملكة، أنا لم أسّ تعليمات الأرملة أن أجلب جزءاً من هذا التألّق الذي لا يُعقل، وأعود به إلى قذارة البوليفار. أجفل صانع الأقفال من سؤالي، ألقي نظرة على القاعة ثم زمّ عينيه وهزّ رأسه. «كلّا» قال، «لا ملكة هنا، فقط الزينات».

لم تكثرث «الزينات» - يقصد السيدات - بنا. فرش صانع الأقفال منديله على الأرض، وركع على ركبتيه. ركعتُ إلى جانبه، وأخرجتُ مسامير متنوعة وأدوات من عدّته من جيب المئزر، وناولتها له عندما احتاجها. ركب القفل في مكانه، إنه يلائم الباب تماماً. نظرتُ إليه، ثم قلتُ له إنه جيّد جداً. «هل تعتقدين ذلك؟ لقد صمّمته بنفسي؟ أجل، أنا أحبه»

سمعتُ أشخاصاً يتحرّكون خلفنا، التفتُ، فرأيتُ عدّة حراس تتوسّطهم السيّدة العجوز ماكو. أشارت إليّ بالاقتراب منها، وفهمتُ بسبب قوّة إشارتها تلك أنها غير سعيدة بتاتاً، على الإطلاق. ودعتُ صانع الأقفال، الذي ما يزال راکعاً فوق منديله وهو يحدّق من ثقب القفل.

«ستغادرين إذن، أليس كذلك؟» قال، «استمتعي بوقتك».

«سأتي مجدّداً، أعدك بذلك»، همستُ.

عندما رأيتُ صورتني تنعكس إلى ما لا نهاية في تلك المرايا، ناشزة عن المكان وبعيداً عن بيتي، فكّرتُ أنني قد أسقط في داخل تلك المرايا وأغرق. مشيتُ ببطء، صوب مدام ماكو، التي دفعتني خارج الغرفة وقادتني عبر البهو. أصرتُ أنها عاجزة عن النطق بسبب وقاحتي، لكنّها كانت أبعد ما يكون عن ذلك، لأنّها وبّختني طيلة الطريق إلى جناح مدام إليزابيث، وقالت لي إنّ عليّ أن أتعلّم مكاني. لقد أرسلوا العديد من الحراس للبحث عنيّ، قالت، وقيل لها إنّ غريبة قزّة شوهدت وهي تفتح أبواباً لا يحقّ لها فتحها. «لم يُبنَ هذا المكان كي تتسلّى فيه» قالت بصوت كالفحيح، ويدها العظيمة تقبض على مؤخّرة عنقي، وعندها رأيتُ الغرفة الرهيبة - مع أنّها لم تعد تُرهبني الآن، بعد أن رأيتُ غرفة أفخم منها - وها هي ذي مدام إليزابيث. «كو كو» قالت، ولكن بفتور، من ثمّ التفتت إلى السيّدة العجوز وأضافت: «إنّها فتاتي يا مدام ماكو، وليست فتاتك».

«لقد عثرنا عليها...»

«اتركيها على الفور!»، قالت إليزابيث بثقة.

أفلتت ماكو عنقي

«هل أجعلهم يضربونك مجدّداً؟»، تساءلت إليزابيث.

مددتُ يديّ

«اطرديها» قالت ماكو، «لكن اضربها أولاً».

«لن تعودى إلى منزلك أبداً» قالت لي إيزابيث، «قبل أن تعلّمينى كلّ شيء».

«لقد خالفتِ القواعد!»، صاحت ماكو.

«أودّ بشدّة» قالت إيزابيث بصرامة جديدة رائعة، «لو نستأنف لعبة الغميضة».

«يجب أن ننضج»، قالت المرأة العجوز.

«وهذه المرّة يا ماكو العزيزة» تابعت إيزابيث، «قررتُ أنك من ستحظى بمتعة الاختباء، وسنعدّ نحن للمئة».

«ولكننى لا ألعب دور المختبئة أبداً!»

«لقد حان دورك منذ وقت طويل. إذن، واحد، اثنان، ثلاثة... عليك أن تركضى يا ماكو، وأن تختبئى. أنت تعرفين القواعد، هيّا اركضى. سنأتى ونبحث عنك، اذهبي واختبئى، لكن ليس في مكان قريب أو سهل، أو سأغضب بشدّة» ماكو، مترددة، غادرت الغرفة.

«اجلسي» قالت إيزابيث، «لديّ شيء أقوله لك».

«لقد أحسنتِ صنعاً!»

«شكراً لك، لقد فاجأتُ نفسي! أنت من ألهمتنى، بهروبك هكذا! ولكن لا تفعلين ذلك مجدّداً يا فتاتي، يا جسدي!»

«أجل، أعدك بذلك»

وهكذا جلسنا، امرأتان متشابهتان، صغيرتا الحجم بالنسبة لعمرهما، على كنبه مصمّمة لأشخاص أكبر حجماً، وتبادلنا الحديث.

الفصل الخامس والثلاثون

فقراء ومساكين مدام إليزابيث، بكلماتها

«سأخبرك عن أناسي» قالت إليزابيث، «الناس الذين أجمعهم وأصنّفهم هنا»، وفتحت دفترًا جميلًا مغلفًا بالجلد في حضانها.

أخوها، أي الملك، هو من أوحى لها بفكرة جمع الناس في دفتر. إنه مشغول دائماً بكتابة كل شيء، قالت لي، لأنه يحبّ القوائم حباً جماً. إنه يحفظ «دليل القصر» كله تقريباً عن ظهر قلب، كما دوّن عدد الدرجات في «درج الملكة»، وعدد النوافذ في القصر بأكمله، وعدد المرات التي أرسل فيها جدّهما بطلبه (بضع مرّات فقط، كما تتذكّر). إنه يعرف العدد الدقيق للثواني والساعات والأيام والسنوات، التي عاشها شقيقهما دوق بورغونية قبل أن يموت بسلّ العظام، كما يعرف العدد الدقيق للسنوات والأيام والساعات والدقائق ما بين مولده ووفاته والديتهما. الملك يحصي كل شيء ويدوّنه، لديه كراسات وكراسات مليئة بالقوائم.

«فكرتُ أن أفعل ما يفعله أنا أيضاً، بطريقتي الخاصة» قالت، «وهكذا بدأتُ بجمع أناسي. هناك العديد من المباني حول القصر، أماكن بغیضة حقيرة، وهناك أرى هؤلاء الناس. آه! إنهم يسبّبون لي حزناً رهيباً! أدوّن ملاحظة عنهم، وأعطيتهم بعض المال، من ثمّ أقول لهم إنني أنا، إليزابيث دو فرانس، سوف أصلي من أجلهم. لهذا السبب، أحتفظ بالملاحظات كما ترين هنا، اقربي».

ناولتني قائمة طويلة تضمّ أسماء الأشخاص، وما يعانون منه. بارُس رينو: ساق مكسورة، مادلين غوليه: آلام في المعدة. أغنس جيبه: صداع، جان بيلنجر: إصبعه الصغيرة وأنف ابنته، أوديل أندرلان: الكليتان، رولاند

روجر: صراخ والدته، روز بينسون: تغيّر لون جلدِ ظهرها، ألفونس بارلان: الجوع، دومينيك مولان: حامل مجدّداً، بيير لوفيسك: مات ابنه، هوغويت سالقيا: مسامير القدم وآلام الأسنان والعمى، فرانسوا فنسنت وزوجته أوليفيا: العقم، أولين كوتار: بقع.

«أنا أصلي من أجلهم جميعهم»، قالت.

وعندها خطرت لي فكرة!

«بوسعك أن تقومي بما هو أفضل»، قلتُ.

«احترسي يا جسدي! انتهي!»

«بوسعك أن تنحتي أمراضهم»

«أنحتها؟!»

«أجل، فكّري بذلك: أمراض الناس المؤلمة، منحوتة بالشمع!»

«نماذج مصغرة من الشمع؟!» فكّرت إليزابيث قليلاً، كأنّها تتخيّل نفسها وهي تمسك أحد تلك النماذج بين يديها. «آها! هل بوسعنا أن نأخذ تلك النماذج إلى الكنيسة؟! يا إلهي! هل يمكننا ذلك؟! بوسعنا أن نستعملها كنذور، أليس كذلك؟ ندور تعبديّة مختلفة؟ في منتهى الدقّة؟ من المؤكّد أن الربّ سيستمع إلينا، وسيرى كيف نقوم بعمل جيّد هنا. آه يا جسدي، أنت ذكيّة جدّاً في الحقيقة، على الرغم من وجهك الحزين! أجل، آه، أجل!«.

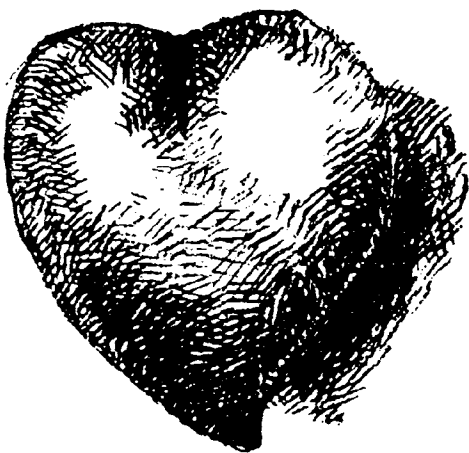
غير واثقة ممّا يجب عليّ قوله، مددتُ يدي كي أمسك يدها.

«لا! ابقِ بعيدة! لا تقتربي! ولكنّها فكرة جميلة مع ذلك!»

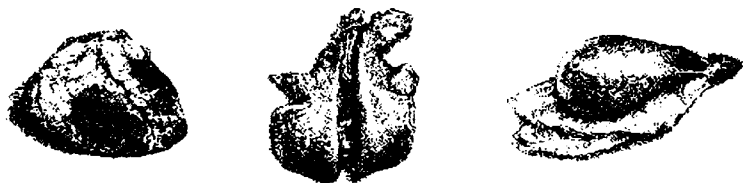
لم نفتش عن مدام ماكو بتاتاً بعد ظهر ذلك اليوم، بل عثرت عليها إحدى مرافقات الملكة النبيلات بعد عدّة ساعات، مختبئة خلف بساط معلق. عندما شرحت لها ماكو أنها تختبئ من إليزابيث الصغيرة، سألتها المرافقة عن السبب: هل هي خائفة من الأميرة؟! ذاعت القصّة، وانتشرت انتشاراً واسعاً إلى حدّ أنّ الناس بدأوا يتسمون كلّما رأوا السيّدّة المستبدة. لقد تداعت سلطتها! وتذرّعت شيئاً فشيئاً بتشكيكة واسعة من الأمراض الوهميّة، كي تحمي نفسها.

في الصباح التالي، استيقظت على صوت باب خزانتي يُقرع قبل شروق الشمس. ارتديت ملابسني في العتمة، وتم اقتيادي إلى الغرفة التي علقت فيها سابقاً رسومات مدام إليزابيث، لكنها غير موجودة الآن! ثمّة طاولة وُضعت في المنتصف، تغطيها الأدوات والشمع والصلصال. مررت أصابعي على الأدوات ولمست الصلصال، ثم رفعت الشمع أخيراً إلى أنفي.

«سأناديك» قالت إليزابيث ويدها تعجنان الصلصال الطري، «سأناديك بـ: قلبي». بعد أسبوع، قدّمت لي كهدية ذلك القلب الذي صنعته من الشمع، على نحو رديء ولكن ها هو ذا. سألتها إن كان بوسعي أن أعانقها، فقالت لا قطعاً، ولا يجوز حتى أن أفكر بذلك، لكنني كنت في غاية السعادة فلم أستطع أن أسيطر على نفسي، بل كررت طلبي مرّة ثانية، فرفضت مجدداً ولكن بنبرة أقلّ حزمًا. لذلك، شعرت أن بإمكانني المحاولة مرّة ثالثة، ولم أطلب منها إذنًا هذه المرّة. طوّقتها بذراعيّ، وشعرت برأسها يستلقي على كتفي. استنشقت رائحتها، رائحة دافئة عميقة، أشبه بملفوفة صغيرة ناضجة. بقيت إليزابيث بهذه الوضعية، إلى أن سمعنا صوت مدام ماكو في الخارج، فتركتني بسرعة وعادت إلى عملها. دسست القلب في جيب مريّلي، واحتفظت به بين أشيائي منذ ذلك الحين.



بناءً على اقتراحى، أحضروا إلينا أعضاء حيوانية عديدة من المطبخ، كي نتفحصها ونشقّها ونرسمها، ممّا يساعدنا على فهم مواقعها ووظائفها بصورة أفضل. قلب بقرة، رتّنا خروف، مثانة خنزير... إلخ. بعد أن رفضت في البداية، سرعان ما أصبحت إليزابيث سعيدة بغمس أصابعها في تلك الأعضاء. جُلبت لنا أيضاً كتب ضخمة رائعة، فيها لوحات يمكن أن تُفرد وتطوى، تعرض تفاصيل جسم الإنسان. إنّها معلومات مفيدة، درسناها بحرص ثمّ باشرنا العمل.



انفتحت كلّ منّا على الأخرى ونحن نصنع النماذج، أريتها مارتا، وحدّثني إليزابيث عن أسرارها. أعظم أمنياتها كما قالت لي، هي أن تتزوّج، أمّا أسوأ كوابيسها فهي أن ينتهي الحال بها عانساً كعمّتيها. أخبرتني أنهم رتّبوا ذات مرّة زواجها بابن ملك البرتغال، لكنّ ذلك الارتباط المُقترح ألغى بطريقة ما أو بأخرى، وأعلنوا أن ابن ملك البرتغال «غير ملائم». قال لها الملك إنهم سيجدون لها عريساً آخر بكلّ تأكيد، وإن عليها أن تتحلّى بالصبر، وها هي ذي صابرة كما طُلبَ منها، لكنّ مسألة زواجها لم تُطرح مجدّداً على الرغم من أنّها ترى أحاها بما يكفي.

«لا أريد أبداً أن أشبه عمّتي أديليد ولا عمّتي فكتوار» قالت إليزابيث، «إنّهما لا تفعلان شيئاً سوى التدمر طيلة النهار، وتناول الطعام والشراب، وتبادل الحديث عن أمور تافهة. إنّهما تملّان أيّامهما فحسب، يوماً بعد آخر، بالأمر ذاتها مراراً وتكراراً، بانتظار أن تضطجعا ذات يوم وتموتا... هذا هو كلّ ما تتطلّعان إليه! آه يا قلبي، أنا أشعر الآن أنني أقوى لأنك هنا معي. لا أريد مستقبل عمّتي! يا ربّ السماوات، افعل ما تريده بي، ولكن جتّبي ذلك المستقبل!».

رتّبت مدام إليزابيث برنامجاً خاصّاً بها، كي تذهب خارج حدود القصر

بحثاً عن أولئك المحتاجين، وصنعنا نذوراً تشرحيّة جديدة كلّما عادت. ذات يوم، سألتها إن كان بإمكانني مرافقتها، فعبست للحظة، من ثم وافقت بسعادة. أولئك الفقراء والتعساء يعيشون بالقرب من القصر، قالت لي، لكن بعيداً عن الأنظار، مختبئين خلف الغابات في أكواخ بائسة متداعية. ذهبنا إلى هناك بالعربة، يرافقنا حارسان. سألتها عن السبب فقالت: «للحماية. الناس غير راضين البتّة أحياناً، ولا يخفون سخطهم دائماً».

عندما سمعوا صوت عربتنا، خرج الناس من منازلهم. أوّل ما خطر بذهني، هو أنّ وجوههم وأجسادهم تشبه بيوتهم البائسة. اقتربوا من عربتنا، فطلبت إليزابيث منّي أن أفتح النافذة.

«مرحباً بكم، صباح الخير»، قالت.

انحنى الناس، وخلعوا قبّعاتهم.

«كيف حالكم؟ كيف تسير أموركم؟»

واحدّاً تلو الآخر، تقدّموا منها وأخبروها بتفاصيل صغيرة عن معاناتهم، وأروها أحياناً الأمراض التي أصابتهم. لن تعطيهـم إليزابيث قطعة نقديّة، إلّا بعد أن يتكلّموا ويكشفوا عن عذابتهم.

«هل تجدّينهم فاتنين، يا قلبي؟»، سألتني.

«هل يتضوّرون جوعاً؟»

«لست متأكّدة! ماذا تعتقدين؟»

«كيف انتهى المطاف بهم هكذا، مع أنّهم قريبون جدّاً من القصر؟!»

«يوزّع عليهم الطعام»

«ولكنّه ليس كافياً!»

«كما أنّي أزورهم»

«كيف تبدو بيوتهم من الداخل يا ترى؟!»

استوقفها سؤالي، فقالت: «في الداخل؟! لم أفكر بذلك قط!».

«ألا تشعرين بالفضول؟!»

«أجل، أعتقد ذلك»

«إذن، دعينا نرّ»

فتحتُ باب العربة، وفوجئت بالناس يتعدون كي يفسحوا لي طريقاً، وتبعني إيزابيث. مشينا إلى أحد الأكواخ المتداعية، وسألتُ المرأة البائسة التي تجلس أمامه إن كان بوسعنا الدخول. قالت شيئاً ما لم أفهمه تماماً، لكنني دفعت الباب. الظلام دامس في الداخل، واستغرقتُ بعض الوقت كي أتبين ماذا يوجد في الكوخ على الرغم من صغر حجمه: أرض قدرة، سرير مرفوع فوق قطع الطوب، أغطيّة مبقّعة متيّسة فوقه، حيطان مسوّدّة بفعل العفن، إناءان مبعوجان، دكّة محطّمة. المكان بأكمله يفوح برائحة أشبه بأحشاء حيوان متفسّخ، تُرك كي يحتضر منذ زمن طويل. لا شيء آخر، سوى كلب مربوط بسلسلة، رفيق المرأة الوحيد على ما يبدو، ويتبع النظام الغذائي نفسه كما هو واضح. بالنظر إلى ذلك المخلوق، يمكنكم أن تفهموا بدقّة تركيب هيكله العظمي. نفش فراءه، وب نظرة من الهياج الشديد كشف عن أنيابه العفنة، ولم يتوقّف عن النباح علينا، فتمسّكت إيزابيث بيدي. لو أفلت ذلك الكلب من قيده، أنا واثقة من أننا سنصبح الوجبة الوحيدة اللاتقة التي تناولها يوماً!

«رهيب!»، شهقت إيزابيث.

خاطبتنا المرأة مجدّداً، ولكن بلغة لم أسمعها من قبل، أحرفٌ حَلَقِيّة غريبة، نخرات، وصرير، فمها المفتوح قليلاً بقي ساكناً بلا حركة وهي تتكلّم، وكأنّ هذا هو الأمر الأساسي. ليست المرأة حقّاً من يتكلّم معنا بشهقاتها وزعيقها، بل جسدها هو الذي ينطق، جسدها الذاتي المهمل يصدر تلك الضجّة، ويوبّخنا بعفويّة. إنّه صوت مكتوم لروح عاجزة، ينبعث من تحت جلد هذا المخلوق البائس المتداعي. من ثمّ، تحرّكت المرأة حركة مفاجئة، واندفعت للأمام، انحنت وطوت جسدها إلى نصفين، فاندفعنا هاربتين بأقصى سرعة.

لقد بقينا نصف دقيقة فقط على الأرجح قبل أن نندفع خارجاً، ونستشق الهواء النظيف، لكنني لن أنسى ذلك المكان أبداً، لن أنسى تلك الغرفة البائسة، ولا الكلب، ولا المرأة.

انظري بعيداً عن الكوخ البائس! انظري إلى أيّ شيء آخر! خلف منازل القرية كنيسة صغيرة، ومقبرة كبيرة فيها العديد من القبور التي حُفرت حديثاً.

عدنا إلى العربية

«كيف يمكن أن تصبح آية امرأة هكذا؟!»، تنهّدت إليزابيث.

«ليس خلال يوم وليلة بكل تأكيد»

«هل يمكننا مساعدتها؟ هل تظنين أن هذا ممكن؟!»

«لست متأكّدة. في بعض الحالات، الموت هو المساعدة الوحيدة الممكنة»

«يجب أن أحاول مساعدتها! يا إلهي! يا قلبي العزيز، أي نوع من الأرواح

هي؟!»

«إنّها مجرد امرأة»

«آه! رهيب! ماذا بوسعي أن أفعل؟! ماذا بوسعي أن أفعل؟! النذور!

المزيد والمزيد منها! ماري، ساعديني!»

في طريق العودة إلى القصر، بدا لنا العالم من حولنا كأنّه بدأ يستعيد لونه.

لم أعرف من قبل أنّ العالم قد يتغير بهذه السرعة!

مع كلّ جولة لنا، بدأت جدران المُصلّيات الجانبية في كنيسة سان سير

تكتسي تدريجياً بأجزاء بشرية من الشمع. في البداية، لم يكثرث أحد بهذه

الإضافات، ولم يتخيّل أحد أن أعدادها ستتزايد. جلبنا كلّى ومثانات، أذرعاً

وعيوناً وقلوباً، أكباداً ومعدّات. تلامست أيدينا مرّة أو مرّتين، ونحن نمّرّ أمام

هذا اللحم المصنوع من الصلصال أو الشمع جيئة وذهاباً، وأحسست بوجود

رفقة هناك، بتقارب عظيم بين أجزاء الجسد.

مرّت ثلاثة أشهر، وحن موعد عودتي إلى منزل القروء، لكنني شعرتُ

بالتوتر إزاء الرحيل. أنا أفضل البقاء مع إليزابيث! عندما أخبرتها بذلك، قالت

إنه أمر في منتهى البساطة: سيكتب أحدهم رسالة إلى منزل القروء، ويبلغهم

أنه لا يمكن الاستغناء عن خدماتي هنا. ردّ سيّدي -أو لربّما الأرملة نيابة

عنه- أنه لا بدّ للقصر من تعويضه عن غيابي في هذه الحالة، وهو ما حصل.

لم أر تلك الرسالة قطّ، لكنني كنتُ في غاية الارتياح لأنني لن أغادر. لا

أرغب أبداً بالعودة إلى منزل القروء، ليس الآن. هذا محزنٌ، لكن كلّما عشتُ

فترة أطول في تلك الخزانة، أصبح من السهل عليّ أن أنسى أنني عشتُ في

أيّ مكان سواها.

الفصل السادس والثلاثون

على السطح

قضيتُ وقتاً أطول فأطول مع إليزابيث بصناعة الأعضاء البشرية، أدخل إلى غرفتها حالما تستيقظ، وتخبرني هي بكلّ مجريات يومها. تسألني مراراً وتكراراً ما إذا كنتُ سعيدة، «سعيدة جداً» أجيبها، أنا في منتهى السعادة، حقاً! بعد فترة، أضفيتُ مصداقيةً على وجودي هنا، لأنني بطريقة ما أو بأخرى أعمل على أن تشعر الطفلة الملكية بالراحة. أرسلت إليزابيث بطلبي في أوقات مختلفة غريبة يومياً، وسرعان ما تلقيتُ تعليمات مشددة بعدم الابتعاد عن خزانتي كثيراً، لأن الأميرة قد تحتاجني في أية لحظة. إن لزمني شيء، فكلّ ما عليّ فعله هو أن أنادي، وعندها سيأتي إليّ أحد الخدم الآخرين. أحياناً، كنتُ أجلس في زاوية تلك الغرفة الممتعة، بينما تجلس إليزابيث ومرافقاتها النبيلات لتناول وجبتهم المسائية. بومبه، كما اكتشفتُ هي الماركيزة دي بومبل، رايج هي الماركيزة دي رايجكور، أما ديمون فهي الماركيزة دي مونستيه-ميرانثيل. إنهن ثلاث سيّدات شابات جميلات، وزميلاتُ الأميرة في الدراسة كما عرفتُ. ابتسمن لي، وناولنني أحياناً قطعة من الشكولاتة، أو بسكويتة، أو بعض السكر، كما ربتن على رأسي.

عندما تدخل إليزابيث إلى أيّ اجتماع رسمي، سأتمركز بالقرب منها، وسأقف ساكنة تماماً، مشدودة القامة. مجرد معرفتها أنني قريبة منها، وأن بإمكانها أن تلقي نظرة عليّ في أية لحظة، يخفّف رعبها. أحياناً، يوقفني حاجب ما في أغرب الأماكن، خلف الحواجز في القاعات الضخمة مثلاً،

بحيث يتسنى لها أن تلقي عليّ نظرة خاطفة مرّة أو مرّتين خلال الأمسية، أو أن تقررص أنفي أو تلمس ذقني، ممّا يمدّها بالراحة.

ذات مساء، اصطحبني أحد خدمها الذين يرتدون زيّاً موحّداً أزرق بسرعة إلى سطح القصر، وأمرني أن أنتظرها هناك في بقعة معيّنة، وأن أبقى في مكاني إلى أن يرسلوا بطلي. حشرت نفسي عند الدرابزين بين مزهريتين حجريّتين كبيرتين، فوق غرف مدام إليزابيث بالضبط. إنّهُ موقع مثاليّ لرؤية كنيسة سان سير، والقناة الكبرى في حدائق القصر الممتدّة بعيداً، كأنّ وظيفتها هي شرح قواعد المنظور الهندسيّ. على الرغم من أنّي أعيش في خزانة، لكنّ هذا الامتداد الشاسع لم يعد غريباً عنيّ. أمرني الخادم أن أبقى في موقعي، كي تتمكّن إليزابيث التي خرجت في مهمّة رسميّة من رؤيتي هناك في الأعلى إن فتحت نافذة عربتها، فتشعر بالسعادة.

بقيتُ في مكاني، مخبّئة عن الأنظار، وراقبت الناس يمشون في الحديقة الشاسعة. هطل مطر خفيف، لكنّني بقيتُ هناك، لأنّ التعليمات تقتضي ذلك. بعد فترة، حلّ الغسق، ولم أعد قادرة على رؤية القناة أو الحدائق بوضوح، ولم أعد قادرة على سماع الكثير بعد قليل، باستثناء بعض الضحكات والتحيّات من مكان ما بداخل القصر، وصراخ بضع قطط في الأسفل. لا بدّ أنّهم نسوا أمري، فكّرتُ، ولكنّني سمعتُ في تلك اللحظة خطوات شخص يسير على السطح مقرباً مني. أيّاً كان هذا الشخص، فقد توقّف بالقرب مني، انحنى فوق الدرابزين متمسكاً بإحدى المزهريتين الحجريّتين كي لا يسقط، وحدّق إلى الأسفل ثمّ انشغل بما يشبه عصا طويلة. كدتُ أسقط عن الدرابزين وأنسحق فوق الرصيف، عندما سمعتُ ذلك الصوت: رقيقي على السطح أشهر سلاحاً، وأطلق منه النار! صوّب مباشرة على القطط في الأسفل، دوى انفجار قوي، ثمّ رأيتُ وميضاً وسمعتُ صرخة، أظنّ أنّها صرخة قطّة. من ثمّ، بعد لحظات، دوت طليقة ثانية لم يتبعها صراخ هذه المرّة. خشيتُ أن يحسبني قطّة فيطلق النار عليّ، لذلك ناديتُ: «أرجوك، أرجوك يا سيّدي، أنا في الأعلى هنا معك. لا تطلق النار عليّ! لا تطلق النار!».

«من أنت؟ من هناك؟!»

قفز الرامي إليّ، وأصبح وجهه الأبيض الكبير أوضح كلّما اقترب مني. إنه صديقي القديم، صانع الأقفال الذي يرتدي معطفاً ضخماً. «أنت! قلتُ،» أنا سعيدة للغاية! آسفة لأنني لم أجلب لك معجّات بعد. لقد انشغلتُ كثيراً».

«آه!» قال عندما اقترب مني بما يكفي كي يميّزني، «آه، لا بأس.»
«ماذا تفعل؟!»

«لا تكوني عاطفيّة! ثمة الكثير منها» قال، «قطط في كلّ مكان، فرو وروائح في كلّ زاوية من القصر، لذلك آخذ على عاتقي بين حين وآخر أن أخفّف المشكلة. تعالي واجلسي»، قال صانع الأقفال وهو يربّت على الجزء المائل من السطح.

«المطر يهطل» قلتُ، «أتساءل هل يجدر بي أن أنزل أم لا؟»
«تعالي، إنه مبلّل قليلاً فحسب. سأمسحه بنفسي. هيّا، تعالي الآن. اجلسي، اجلسي، أنا مصرّ على ذلك». وهكذا، جلستُ إلى جواره، وشعرتُ بدفئه. قاسمني معطفه، وهكذا جلسنا جنباً إلى جنب، في العتمة.
«هل تحبّين المكان هنا؟» سألني، ثمّ أضاف: «حسناً، سأقول لك، أنا أحبه، وكثيراً ما أصعد إلى هنا. أعتقد أحياناً أنه المكان الوحيد -فضلاً عن مسبكي- المليء بالسلام في كلّ هذا القصر. آه! كم أحبّ هذه اللحظات!». «آه!»، قلّدتُ تنهيدته.

«ها نحن أولاء، في الأعلى، على السطح»
«على السطح!» قلتُ، «ولا يوجد أحد بالقرب منّا. بوسعنا أن ننظاها أننا وحيدان، وأنه لا يوجد أحد في الأسفل. فقط نحن وهذا الليل!». «يالها من فكرة! أظنّ أنني سأسرّ حقّاً لو لم يوجد سوانا! أنا رجلٌ عمليّ جدّاً، ويديا ماهران عموماً. أعتقد أنني سأندبّر أمري على نحو ممتاز، لو وجدتُ نفسي في جزيرة مهجورة، بل لعلّي سأكون سعيداً بعيداً عن الناس، سأعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله آنذاك! لكنّ الناس موجودون دائماً، لا ينقطعون. ثمة كتاب رائع يتحدّث عن الحياة على جزيرة مهجورة، لقد قرأته عدداً لا يحصى من المرات. هل تعرفينه؟»

«لا أظنّ ذلك»

«حياة روبنسن كروزو ومغامراته العجيبة الرائعة، البحار من يورك، الذي عاش ثمانية وعشرين عاماً وحيداً على جزيرة غير مأهولة على الساحل الأمريكيّ، بالقرب من مصبّ نهر أوروونوك العظيم، بعد أن تحطّمت سفينته هناك وجنح إلى الشاطئ، ومات الركّاب جميعهم ما عداه، وكيف أنقذه القراصنة بعد ذلك، بقلمه»

«إنّه عنوان طويل!!»

«بل كتاب رائع!»

«لنتظاهر بأننا وحيدان هنا في الأعلى» قلتُ، «وبأنّ الطوفان قد غمر العالم كلّه».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«يا للروعة!»

«أليس كذلك؟»

«أجل»

«لا قوانين، لا معارك، لا لقاءات، لا إتيكيت»

«ستنفوّق على نوح نفسه!»

«ولكن بالطبع، قد تساعدنا المعجّنات، أليس كذلك؟»

وهكذا جلسنا، نحن الاثنين، هناك على السطح، وحيدَيْن، نتحدّث عن جزر غير مأهولة، وعن الزبدة والطحين والبيض ممزوجة معاً وساخنة، وعن الأقفال والنوابض، إلى أن عكّر صفو السلام الذي ننعم به خادم بالزّي الأزرق، اقترب منّا حاملاً مظلة. اعتقدتُ في البداية أنه قد جاء كي يطلب منّي النزول للأسفل، لكنّه ليس ذاك الذي جاء بي إلى هنا، ولم يتكلّم معي بتاتاً بل لم تلتق عيناه بعيوننا، وإنّما حمل المظلة فحسب فوقنا كلينا. اعتقدتُ أن ذلك أمرٌ غير عاديّ، لكنني سرعان ما نسيْتُ وجوده، وتابعنا الحديث أنا وصانع الأقفال. بقينا معاً على السطح لساعتين على الأرجح، إلى أن ظهر خادم إليزابيث أخيراً. لقد فاتتني رؤية عربتها تعود! تمنيتُ ليلة سعيدة لصانع الأقفال، ثم تركته هناك على المقعد فوق السطح، مع الخادم ذي الزّي الأزرق والمظلة. لقد كان مساءً جميلاً جداً كما أعتقد، لولا أنّني فوّتُ رؤية العربة.

الفصل السابع والثلاثون

عن النساء: أفقيّاً وعمودياً

لاحظ العديدون أن مدام إليزابيث تحرز تقدماً على صعيد علاقاتها الاجتماعية، بينما انسحبت مدام ماكو إلى سريرها أكثر فأكثر، حيث توجّعت من أمراض عديدة وأكلت بسكويت اللوز المفضّل لديها. زرناها أنا وإليزابيث في شقّتها العفنة في الطابق الثالث، فرحّبت بإليزابيث، تلك «الطفلة الوفيّة الرائعة»، وشكرتها لأنّها جاءت كي تطمئنّ على «صديقتها العجوز»، لكنّها لم تخاطبني بكلمة. عندما سألتها إليزابيث عن مكان الألم بالضبط، احتارت ماكو، ولم تستطع أن تحدّد بدقّة. «في كلّ مكان من جسدي»، كان كلّ ما استطاعت قوله، وبغضب أيضاً، لذلك دوّنت إليزابيث هذه الكلمات في دفترها، من ثمّ صنعنا امرأة كاملة مصغّرة من الشمع، ووضعناها بجانب النذور الأخرى في الكنيسة. عدنا إلى مدام ماكو كي نخبرها إليزابيث بذلك، لكنّها تأوّهت وتقلّبت في سريرها، وأدارت لنا ظهرها.

«المرض» قالت، «لا يعرف آداب السلوك».

نعمت إليزابيث بحريّة عظيمة في ذلك الصيف، أمّا ماكو فشارفت سلطتها على نهايتها، عطست وتعرّقت خلال الأسابيع الأخيرة من تولّيها لمنصبها، ووعدتنا دائماً أنّها ستعود، لكنّ إغراء السرير كان أعظم. الفراش الثقيل لفّ نفسه حول السيّدة العجوز، تحوّل إلى عظامها ودعامتها، فلم تعد تقوى على النهوض منه. امتصّها ذلك الفراش، امتصّها حتّى النخاع -أعتقد أنه امتصّ بدانة ذلك الجسد العجوز- وكلّما تفاقم مرضها ازدادت صحّة

الفراش، وأصبح أضخم وأسمك. ياله من فراش متوحش، يتوسّع ويتمدّد، ويمتصّ الحياة من السيّدة العجوز!

في غياب ماكو، بعد أن أخذت السيّدة العجوز تستسلم أكثر فأكثر إلى فراشها، تابعتا الزيارات التي نقوم بها أنا وإليزابيث خارج القصر، وصنعنا الكثير من الأعضاء الشمعيّة للكنيسة. ذات مرّة، طلبنا السماح لنا بالدخول إلى منزل فقير، فرفض الشابّ البائس الذي يعيش فيه ذلك.

«إنّه يشعر بالخزي» قالت إليزابيث، «لا بدّ أنّ هذا هو السبب!».

«أو لربّما ببساطة» أجبتها، «لا يريدنا أن ندخل إلى بيته».

«لا يريدنا؟! ولمّ لا؟! ما عينا؟!»

«إنّه منزله، وهو السيّد فيه»

«أخي هو من يملك هذا المنزل!»

«حقّاً؟»

«أجل»

«إذن يجب على أخيك أن يرمّمه»

«أخي مشغول بمشاكل البلد بأكمله، أمّا أنا فأذهب إلى القرية. أنت لا

تعرفين شيئاً عن ذلك، هذا ليس من شأنك»

لقد استاءت كثيراً. إنّها تتصارع دائماً مع نفسها كي تتصرّف بأفضل طريقة ممكنة، ثمّة تناقضات عديدة بين ما يقولونه لها وما تراه بعينها، لذلك تتقدّم وتردّد، بما أنّها تفتقر إلى السلطة والمعرفة. إنّها فتاة تحاول أن تشقّ طريقها في العالم، كلتانا كذلك.

في مهمّتنا الكبرى للبحث عن كلّ المرضى، عثرنا على مريضة أخرى داخل القصر بالإضافة إلى مدام ماكو. بعد ظهر أحد الأيام، فتحت مدام إليزابيث شخصيّاً باب خزانتي، وصاحت: «دو لامبال! تعالي بسرعة يا قلبي! أغمي على دو لامبال مجدّداً».

«أجل، أجل، سآتي، ولكن من هي دو لامبال؟!»

«آه، أنت لا تعرفين أحداً، أليس كذلك؟! إنّها سيّدة لطيفة، لكنّها هشّة جداً. توفي زوجها في ريعان الشاب، وبدأ يغمي عليها طيلة الوقت منذ وفاته.

لقد أغمي عليها ذات مرّة عندما شمت بالصدفة رائحة بنفسج، ومرّة أخرى لا شيء إلا لأنها رأت كركنداً مرسوماً في لوحة. عندما اشتكت أنطوانيت من الصداغ، أغمي على لامبال أيضاً، تعاطفاً - كما افترضنا - مع أنطوانيت! ببساطة، كلّ شيء يسبّب لها الإغماء. أليس هذا رهيباً؟! »

« هل ستكون الملكة موجودة معها؟ هل تظنين ذلك؟ »

« بكلّ تأكيد! لامبال هي الأثرة لديها. يا للمسكينة! »

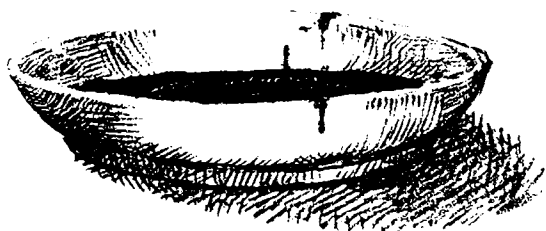
وجدنا المغمى عليها المنهارة ممدّدة في أحد صالونات فرساي، ولم تكن قد استعادت وعيها بعد. وقفت صديقاتها من نساء البلاط حول جسدها الشاحب الرخو، وتهامسن مشتمات التفكير.

نظرتُ حولي

« أين الملكة يا مدام إليزابيث؟ أيّ منهنّ هي الملكة؟ »

« الملكة؟ آه، يا قلبي العزيز، أنا لا أرى الملكة في أيّ مكان »

دار فريق من الأطباء حول الجسد الرخو، وقاموا بفصاده. اقتربنا أنا وإليزابيث، واستطعنا إلقاء نظرة أفضل ما إن تنحى أحدهم جانباً. دو لامبال ما تزال حيّة بكلّ تأكيد، صدرها المسطح يعلو ويهبط. انحنيتُ كي أتفحصها عن قرب، إنّها « فتاة » الملكة. رأيتُ دم ماري تيريز، أميرة دو لامبال، في وعاء صغير من البورسلان، وأحد الأطباء يحدّق إليه.



« أين مكان الألم؟ »، سألتُ إليزابيث.

« الأعصاب يا مدام، أعصابها هشة »

« شكراً لك » قالت إليزابيث وهي تبتعد، « ذلك كلّ ما تلزمنا معرفته. »

«عذراً» همستُ للأطباء، «هل ستأتي الملكة عمّا قريب؟».

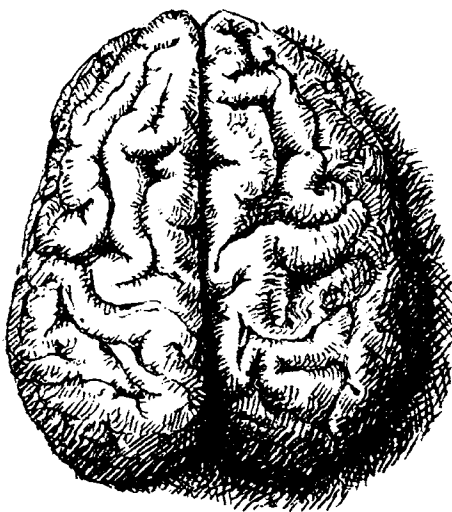
«الملكة؟! وما شأنك أنت بها؟!»

«أنا مع مدام إليزابيث» قلتُ، «صاحبة السموّ الشابة هي من تسأل»، كذبتُ.
«أرادت الملكة أن تبقى إلى جانبها» قال أحدهم، «ولكنني لم أسمح لها
بذلك. هذه السيدة الشابة شوهدت وهي تختلج، ورؤية الاختلاج تحرّض
الإجهاض. لذلك، أبعدت الملكة على الفور، نظراً لأن وضعها الصحيّ حرج».
«منذ متى؟»

«منذ حوالي خمس دقائق»

«تعالى يا قلبي!»، نادتنى إليزابيث.

صنعنا دماغاً من الشمع للأميرة دو لا مال، التي سرعان ما تعافت بعد ذلك.



عندما نكون وحيدَيْن، تسألني إليزابيث عن الرجال وأجسادهم. أخبرتها
بكلّ ما أعرفه، وصنعتُ نماذج لهم كي تفهمهم على نحو أفضل، كما أطلعنا
على بعض الكتب التي جُلبت إلينا. فكّرتُ بإدموند مجدّداً، على الرغم من
أنّ جسده بدا نائياً وفاقداً للحياة كخرقة. لا بدّ أن أكون عاقلة، قلتُ لنفسِي،
لقد تمّت تربيتي كي أكون عاقلة، عليّ أن أتناسى الألم. ذهبنا ذات مرّة لرؤية

كلب وكلبة وَضِعَا فِي قَفَصٍ وَاحِدٍ، لَكِنَّ مَا رَأَيْنَاهُ لَمْ يَعْجِبِ إِلِيزَابِيثَ بَتَاتًا،
كَمَا أَتْنِي شَعَرْتُ بِالْغُثَيَانِ وَالْأَضْطِرَابِ. مَعَ ذَلِكَ، قَالَتْ إِلِيزَابِيثُ إِنَّهَا يَجِبُ
أَنْ تَكُونَ مُسْتَعِدَّةً لِلزَّوْاجِ، فَهِيَ تَصَرَّرُ دَائِمًا عَلَى أَنَّهَا سَتَزُوجُ عَمَّا قَرِيبَ.
«هَلْ سَتَزُوجِينَ، يَا قَلْبِي؟»، سَأَلَتْنِي.

«لَا مَدَامَ، لَا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ»

«أَجَلْ، لَا أَظُنُّ أَنَّكَ سَتَزُوجِينَ. أَنَا أَسْأَلُ بِدَافِعِ التَّهْذِيبِ فَقَطْ، بِأَيِّ حَالٍ.
عِنْدَمَا أَتَزُوجُ، سَأَخْذُكَ مَعِي، سَتُبْقِينَ دَائِمًا بِالْقَرَبِ مِنِّي»
جَعَلَتْنِي أَرْسِمُ لَهَا شَفَتِي رَجُلَ، كَيْ تَتَدَرَّبَ عَلَى تَقْبِيلِهِمَا.
«لَا! قُلْتُ، «هَذَا لَيْسَ صَحِيحًا عَلَى الْإِطْلَاقِ! أَنْتِ تَرْقِمِينَ شَفَتِيكَ يَا
مَدَامَ، أَلَمْ تَقْبَلِي أَحَدًا مِنْ قَبْلِ؟»

«بِالطَّبَعِ فَعَلْتُ! بِالتَّأَكِيدِ! حَسَنًا، لَا، لَيْسَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ. هَلْ فَعَلْتِ أَنْتِ؟!»
«أَجَلْ، بَوَسَعِي الْقَوْلَ إِنَّنِي فَعَلْتُ»
«آه يَا قَلْبِي! هَلْ فَعَلْتِ ذَلِكَ حَقًّا؟! هَلْ قَبَلْتِ شَخْصًا مَا مِثْلَكَ؟»
«أَجَلْ» أَجَبَتْهَا، «سَأَعْلَمُكَ».



شفتان للتدريب

قَبَّلَتْهَا

«لَقَدْ قَبَّلْتَنِي!!»

«كي أعلمكِ!»

«جيد جداً»

قبَّلْتُها مجدداً، قبلة أعمق.



شفَتَا مدام إليزابيث

«أجل، هذه هي الطريقة الصحيحة»، قلتُ.

«هل أنت متأكدة؟!»

«متأكدة تماماً»

«هذا مقرف!»

«ليس صحيحاً، لا، ليس كذلك»

«حسناً إذن، لنجرّب مرّة أخرى»

وهو ما فعلناه، ثم تدرّبنا مجدداً، بين حين وآخر، وأبقينا ذلك سرّاً. أحياناً، كنّا نشير بلطف إلى حيث توجد الأعضاء في جسدنا، ونمسّد عليها برقة.

«دلّيني يا مدام، على مكان قلبي، المسيه»

«دلّيني يا قلبي، على حيث توجد رئتي، ورحمي»

يا له من جسد ملكيّ! أنا -التي أكاد أكون توأمها- استمتعتُ به! عزف كلٌّ من قلبينا، قلبينا الأثوئين الصغيرين، الموسيقى ذاتها للآخر طيلة الوقت. ذات صباح، وُجِدَت مدام ماكو أخيراً مختنقة فوق فراشها المتنفخ.



حتى بعد أن أُخِذَتْ جِثَّتُهَا بعيداً، تلكَّأت نبضة من نبضات قلبها في الفراش لبعض الوقت، إلى أن انكمش الفراش وتقلَّص حجمه الضخم عائداً إلى تواضع أ أيامه السالفة، ثم أُحْرِقَ في الباحة. وهكذا، من صيف مرض ماكو، انتقلنا إلى خريف مدام دو غويمنيه المرعب.

غويمنيه العصا، غويمنيه الصارمة، غويمنيه ربّة الشقاء. ذقنها تكاد تكون غير موجودة، ولا بدّ أنّ غياب الذقن هو ما يجعلها غاضبة دائماً، توبيخها لا ينقطع، واهتمامها لا يتوقف، ونظراتها لا تُفهم. ستُنَبِّذ المتعة، إذ لا بدّ من تحويل إليزابيث إلى امرأة، وهذه العملية - كما تبين لنا على الفور - ستكون مؤلمة. الألعاب: سُترمى بعيداً. حبال القفز، الكرات، الكلاب الصغيرة، الخيول القزمة... كلّها ممنوعة. «اجلسي! اجلسي!»، كان الأمر الذي ملأ تلك الأيام الخريفية! مُنِعَتْ بومبه السخيفة من الدخول، بعد أن تمّ القبض على إليزابيث وهي تتهامس معها خلف أحد الأبواب، ويا للتوبيخ الذي

تلقتّه بسبب سلوكها السيّئ ذاك! سُوح لها برؤية رايح الخجول مرّة في الأسبوع، أمّا ديمون الصامته فسُوح لها بالبقاء بشرط أن تبقى صامته، وهو ما حصل، وما أصبح دورها الدائم: الصامته! غريمي، يسوع المسيح المصنوع من الجصّ، بقي خارج خزانته معظم الوقت.

عندما فقدت إليزابيث أعصابها ذات مرّة -وهو ما تكرر كثيراً في البداية- تركتها غويمنيه ترفس الأرض وتركل الأثاث، لكنّ تلك السيّدة عديمة الذقن لا تُهزَم، إنّها عصا على هيئة امرأة. فتحت النوافذ على مصاريعها، وقالت لأميرتي أن تصرخ كما تشاء، فلن ينقذها أحد. إليزابيث، بوجهها المنتفخ البائس، لم تجد أمامها خياراً سوى أن تصمت. في مرّة أخرى، عندما عضّت إليزابيث يد غويمنيه، تلقت صفعه.

«أنا أميرة!»، صرخت.

«إذن تصرّفي كأميرة»، قالت غويمنيه.

انتزعت غويمنيه كلّ البهجة التي كانت موجودة يوماً بداخل تلك الفتاة، واستبدلتها بالجلوس مشدودة الظهر، وبالصمت. قبل انقضاء وقت طويل، توقفت إليزابيث عن المشاركة بالحديث إلّا فيما ندر، خشية أن يناقض أحداً ما كلامها. بقيت منزوية في خزانتي، تطلبني إليزابيث أقلّ فأقلّ، لكنني تأقلمت مع هذا الجوّ الخريفيّ الجديد الصارم، حافظت على نظافة ملابسي، وانحنيت أمام غويمنيه كلّما تسّنى لي، ولذلك سمحت لي بالبقاء، على الرغم من أنّنا كلتينا أنا والأميرة، خشينا أن يتمّ إرسالنا بعيداً. ما بين أواخر تمرّدها في تلك الأيام الخريفية، وما بين شتاء إذعانها، لم تبق إليزابيث بمفردها قط، بل جلس شخص ما بجوارها دائماً، واكتشف خطأ بالطريقة التي تحمل بها فئجانهما، أو بكميّة ما تأكله، أو بتصرّفاتهما. أحياناً، إن كنت حذرة، قد أتمكّن من إمساك يدها أو اختلاس قبلة منها على عجل في الغرفة التي نصنع فيها نماذج الشمع. كثيراً ما ردّدت على مسامعها أنني فتاتها، وجسدها، وأنني لن أرحل. تصديقاً لذلك، وجدت اسمي مطبوعاً في «دليل القصر» الجديد، أنا العضو الأدنى مرتبة بين أفراد الكادر التعليميّ المخصّص لها:

مسيو لوروا: أمين مكتبة مدام إليزابيث

مدموزيل بايان: معلّمة

مسيو سيمون: معلّم الكلافاسان⁽¹⁾

مسيو بوالي: معلّم القيثارة

مدموزيل غروسهولتز: معلّمة الشمع

درستُ تلك الصفحة بإمعان، وقرأتها بصوت عالٍ عندما كنتُ وحيدة. قبل أن ينقضي زمن طويل على طباعتها، وجدتُ نفسي أخيراً في حضرة الملكة.

1 - آلة وترية قديمة، تعدّ أصل آلة البيانو. المترجمة

الفصل الثامن والثلاثون

حوادث صغيرة، مرتبطة بأحداث على مستوى الأمة

بدأ الأمر مع رنين أجراس كنيسة سان سير الملكية، وأجراس كل الكنائس الأخرى في فرساي، من ثم وصلت الأميرة دو لامبال إلى ردهتنا. فتحتُ باب خزانتي قليلاً، وتلصصتُ من بين كومة بطانياتي. إنه كانون الأول، ونحن تحت رحمة طقس غويمييه، والبرد قارس. ملفوفة بأغطيتي، رأيتُ الأميرة المندهشة تصل، والقلق البالغ بادٍ على وجهها، يرافقها خدم ونساء يبدون جميعهم مذعورين.

«مدام إليزابيث» صاحت وهي تقرع باب غرفة نوم أميرتي، «الملكة! الملكة في المخاض!».

على طريقتنا الخاصة، كنّا أنا وإليزابيث نتحضّر لمولود العائلة الملكية الجديد. لقد صنعنا اثني عشر طفلاً شمعيّاً صغيراً، ربّناهم في صفّ متّسق -كانّهم في مهجع- في كنيسة سان سير، وأجلّنا كلّ طلباتنا الأخرى في الوقت الراهن، لأنّ ولادة الطفل الملكي هي كلّ ما يهمنّا الآن. «كلّ من في القصر» قالت إليزابيث، «قد أعياهم الترقّب»، وها هي ذي اللحظة الحاسمة قد حانت أخيراً، الأجراس تُقرع، والأميرة دو لامبال تصرخ.



هرولت دو لامبال في حالة من الذعر المطلق، أشبه بدجاجة هزيلة تقوقى في مزرعة، ودبّ النشاط في ردهتنا. جالسة في خزانتي، ما زلتُ بثوب النوم والقلمسوة، مددتُ ساقيّ إلى أسفل الرفّ، لففتُ نفسي بالبطانيّات، وألقيتُ نظرة إلى يساري، ثمّ إلى يميني. لقد سُدتْ كلّ النوافذ المكسورة على امتداد الردهة درءاً لبرد الشتاء، لكنّ هذا الأمر لم ينجح، إذ إنني أرى بخاراً كلّما تنفّستُ.

بعد مضيّ وقت طويل، ظهرت إليزابيث مرتدية ملابسها، ترافقها ثلاث من السيّدات النبيلات، واتّجهن إلى غرفة المخاض الملكيّة. انحنى الخدم لها في جانبي الردهة عندما مرّت، وكذلك فعلتُ أنا، لكنّها توقّفتُ أمامي. «آه يا جسدي! يا قلبي! ماذا تفعلين؟!» قالت لي، «سأحتاجك اليوم أكثر من أيّ وقت مضى، ارتدي ثيابك بسرعة، إن احتاجت الملكة إلى صلواتنا، عليك أن تركضي إلى مشغلنا كي تصنعي فوراً طفلاً صغيراً من الشمع، وتهرعني به إلى سان سير. تحرّكي يا قلبي، يا فتاتي!..»

وهكذا، في يوم مولد أوّل طفل لماري أنطوانيت النمساويّة ولويس السادس عشر ملك فرنسا، ارتديتُ ملابسني أمام الجميع في تلك الردهة الباردة، تحت أنظار العديدين الذين يستعجلونني. عندما انتهيتُ -وقد تأخّرتُ كثيراً كما أوضحوا لي- تابعت إليزابيث الصغيرة طريقها، مصمّمة على أن تصبح عمّة، والتحقتُ بمؤخرة موكبها خلف الماركيّزة دي مونستيه-ميرانثيل. كلّما تقدّمنا، تدافع الناس حولنا أكثر فأكثر، لأنّ كلّ من في القصر على ما يبدو يستमितون كي يكونوا أقرب ما يمكن إلى مكان ولادة الطفل البوربونّي الجديد. بما أنّ إليزابيث هي أخت الملك، لذلك انشّق بحر الناس أمامها، ومررنا بينهم كأننا موسى، أمواجهم تتلاطم خلفنا وتسدّ الطريق بمجرد أن نعبّر. شعرتُ أن القصر يصبح أدفاً كلّما تقدّمنا إلى مركزه، واستمتعتُ بذلك في البداية. الناس يتدفّقون إلى مركزه منذ أن قرّعت الأجراس، يتزايد عددهم أكثر فأكثر، يعلو صخبهم، وتشتدّ الحرارة كلّما اقتربنا من غرفة الولادة.

أشدّ الأماكن حرارة -أقرب إلى فرن خبّاز- كان غرفة نوم الملكة في ذلك الصباح الباكر، والجزء الأشدّ حرارة في ذلك المكان الذي يغلي،

الجزء الأشبه بجمر متوهج في قصر فرساي، كان بطن الملكة ماري أنطوانيت المنتفخ. ينص القانون الفرنسي على تواجد أشخاص محددين عندما تلد الملكة، كي يتأكدوا من الطفل وُلد فعلاً من رحمها.

وصلنا في الوقت الملائم، لم يولد الطفل بعد. جلست إليزابيث بالقرب من الصفّ الأمامي وسط الشخصيات البارزة الأخرى التي تجلس على كراسٍ ذات مسندين، أما الحضور الأقل أهمية فُخصّصت لهم مقاعد عادية. ثرّكت وشأنني، لم أستطع أن أرى شقيق إليزابيث الأكبر، الأب المستقبلي، الملك شخصياً، لكن لا بدّ أنّه موجود في مكان ما من الغرفة. انسللتُ من مكاني، ودفعتُ بعض المنتظرين من النبلاء الرفيعي المستوى، إلى أن حصلتُ على موقع ملائم يتيح لي رؤية معقولة. أخيراً، هناك أمامي، رأيتُ ماريا أنطونيا جوزيفا جوانا، أو ماري أنطوانيت، ملكة فرنسا.

رأسها الملكي يتعرق بسبب مشقة اللحظة، وجهها طويل وعيناها رزقاوان شاحبتان، متباعدتان أكثر ممّا يجب نوعاً ما. اختفى الرأس عن ناظريّ لكنني عثرتُ عليه مجدداً، بعد مناورة بسيطة: أنف رومانيّ بارز، شفة سفلية ناتئة أكثر من العلوية، وذقن مدوّرة جميلة. فقدتُ رؤية الرأس مجدداً، من ثمّ عثرتُ عليه. فوق كلّ تفاصيله، ثمة جبهة عريضة جدّاً، تغطّيها حبّات العرق الكثيف في هذه اللحظة. نسيّتُ برد الصباح القارس نهائياً في تلك الغرفة الحارّة، ونسيّتُ أنه كانون الأول.

جلست الملكة، فاضطربنا جميعنا، لأننا أردنا أن نراها على نحو أفضل. يا لها من مخلوق! يا لعنقتها الطويل الأبيض! يا لكثفيها المائلتين! عندما أخذت شهيقاً واستلقت مجدداً، اهتاج الحاضرون كلّهم، وغابت تماماً عن ناظريّ.

تلقّتُ حولي بحثاً عن موقع يسمح لي برؤية أفضل، لا توجد أفاريز للنوافذ، والمقاعد القليلة الموضوعة تحتها مليئة كلّها. في تلك الغرفة المشغولة بكلّ ما فيها -معظم ما فيها بشر الآن- لم أر سوى مكان واحد فقط يضمن لي رؤية جيّدة لا يعيقها شيء. في إحدى الزوايا، توجد خزانة من خشب الماهو غاني ارتفاعها خمسة أقدام، سطحها العلوي فارغ، ربّما

أستطيع أن أجلس فوقها وأن أراقب ما يحصل، دون أن يعيقني أحد. حاولت أن أتسلق جدرانها المطعمة، لكنها صقيلة للغاية، وسرعان ما انزلت قبل أن أرتفع كثيراً. حاولت أن أفتح الأدراج كي أتسلقها كالسلم، لكنها كلها مقفولة... هذه الخزانة الصقيلة تطبق فكوكها الخمسة بإحكام! مع ذلك، أنا متأكدة من أنها المكان الأمثل بالنسبة لي. انتظرتُ بقلق، توافد المزيد من الناس، وغابت الملكة عن بصري أكثر فأكثر، لكن لم يفتني الكثير، لأنها لم تغمغم سوى ببضع جمل مكتومة، ولم يجبهها أولئك الواقفون حولها سوى ببضع عبارات لا تكاد تفهم أيضاً، لم تصرخ ولم يصرخ مولودها بعد، أنا واثقة من أنني أملك وقتاً كافياً.

أخيراً، لاحت فرصة أمامي. ساد الهرج والمرج في الغرفة، ليس بسبب لحظة الولادة بل في محاولة مفاجئة لتثبيت البساط المعلق على الجدار، خشية أن ينتزعه الحشد بطريقة ما أو بأخرى ويرميه على الملكة. دبّت الفوضى، ووقف الناس جميعهم تقريباً، فاغتنمت الفرصة كي أستعير كرسيّاً جررته نحو الخزانة ووقفتُ عليه. أخيراً، تمكّنتُ من رفع نفسي فوقها، وها أنا ذي: رؤية ممتازة، لا يعيقها شيء!

الآن، يوجد ما ينوف على الخمسين شخصاً في الغرفة، الملكة مستلقية في سريرها، يحيط بها أطباؤها وأفراد عائلتها، تتكلم قليلاً وتحاول أن تتظاهر كما خمنتُ، أنه لا وجود لحشد ضخم من الناس مجتمعين حولها وينتظرون منها أن تسليهم. وهكذا، انتظرنا كلنا، وراقبنا منطقة ذلك البطن الحارّ المغطى حالياً بملاءات رقيقة، ولكن لم يحدث شيء. بعد فترة، تأملتُ الغرفة المذهبة من حولي، وتفحصتُ حشد النبلاء الجالسين تحتي: ربطات العنق رخوة، الجباه رطبة، مراوح السيّدات اليدوية ترفرف، ومساحيق التجميل تسيل على وجوههنّ. الأميرة دو لامبال التي تجلس في الصفّ الثاني، بدت متهيجّة أكثر من سواها بسبب الحرارة. من ثمّ، بالقرب من الصفّ الأوّل، رأيتُ وجهاً أعرفه: إنّه صديقي، صانع أقفال القصر! ما أروع أن يحبّ أهل فرساي هذا الرجل كثيراً، بحيث يسمحون له بالتواجد في مناسبة كهذه!

تأوّهتُ الملكة أنطوانيت بصوت عالٍ، من ثمّ، بدأ العرض الحقيقيّ.

ثمّة الكثير من النشاط والضجّة تصدر عن أنطوانيت، والكثير من النصائح التي يقدّمها الأطباء، كما شحبت الأميرة دو لامبال بشدّة. تهامس الناس فيما بينهم، وتحركوا هنا وهناك كي يلتقطوا على نحو أفضل كلّ شهقة، وكلّ أنة، وكلّ دفعة، وكلّ انقباض، وكلّ شهقة، وكلّ جهد تقوم به الملكة. لهتت المرأة المسكينة وحبست أنفاسها، وأصبح وجهها أحمر قانياً. دفعت وصاحت، لكنّ الطفل لم يخرج، لم يخرج بل بقي بداخل رحمها لفترة طويلة، وخلال لحظات الصمت التي تخلّلت ذلك، عندما استلقت المرأة المسكينة لاهثة، جلس الحضور مجدّداً وتبادلوا الحديث، ثمّ هبّوا واقفين عندما تأوّهت الملكة. استمرّ الأمر على هذا الحال، يقف الحضور ويجلسون وفقاً لأمواج مخاض الملكة، إلى أن بدأ الطفل أخيراً بالظهور حوالي الساعة الحادية عشرة. سرعان ما برز الرأس الأحمر بأكمله، تلاه جسد ورديّ مائل إلى الحمرة، وذراعان، وساقان، وتعالّت صرخاته الأولى. يا للفرحة! في الأعلى، على سطح الخزانة، فكّرتُ بيني وبين نفسي: أنا أعرف ذلك الشيء! إنّه الحبل السريّ، تماماً كما قال الدكتور كورتيوس أنه سيكون، وها هو ذا الغشاء المخاطيّ الذي حدّثني عنه، وبعد قليل ظهرت المشيمة كما وصفها لي! رائع! يا للدروس الجديدة التي أتعلّمها! يا للمعجزات التي يمكن للمرأة أن تقوم بها! انظروا، انظروا إلى الحياة الجديدة التي تولّد منها!



أصبحت الغرفة حارّة إلى درجة مرعبة، وفاحت رائحة فظيعة من الخل والكحول مصدرها الأطباء. أرخيتُ قلنسوتي وثوبي، وفعل العديد من الحضور الأمر ذاته. خلال تلك اللحظات الأخيرة، جاء الطفل إلى العالم، وتدافع الناس أكثر فأكثر إلى الأمام، لكن ما إن أصبح الطفل حرّاً، حتّى اندفع به الأطباء خارجاً بأقصى سرعة بعد أن لقوه بالأغطية. لا بدّ أنّ الملك رافقهم كما أفترض، لأنني لم أراه في أيّ مكان عندما خطر لي أن أبحث عنه. بعد ذلك، خلّت الغرفة نوعاً ما وتمكّنتُ من رؤية الملكة مجدّداً، التي تراجعت أهمّيّتها فجأة إلى المرتبة الثانية في هذه الدراما! شحوبها مخيف كما لاحظتُ، وتساءلتُ ما إذا كانت قد ماتت، فالدّم يلطّخ الملاءات، لكنّها جلست ونادت وسط تلك الحرارة.

لم يسمعها أحد

الحشد يصفق ويصفق، لأنّ الطبيعة على ما يبدو أمر مذهش، لا سيّما عندما تطبّق نفسها على ملكة! من ثمّ، انشغل الحضور بصوت عالٍ بجنس المولود: فتاة أم صبيّ؟ ابن بكر أم ابنة بكر؟ وانتقلت الإجابة همساً في أرجاء الغرفة، همسة خائبة الأمل: ابنة! ابنة! ابنة! ابنة!

لكنّ أحداً لم يلتفت إلى الملكة!

من موقعي أعلى الخزانة، لوحتُ بيدي كي ألفت انتباه الناس. «الملكة!» صحتُ، «الملكة!»، فمن موقعي المؤاتي رأيتُ أن جلالتها تختلج.

ومع ذلك، لم ينتبه أحد!

لكن بعد لحظة، أحدهم رأى ما يحصل لها: أميرة دو لامبال الشديدة الشحوب كعادتها، التي سيغمى عليها كعادتها، بدأت تلوح بذراعيها وقد رأت الملكة، لكنّها عجزت عن النطق لهول الصدمة. وقفت كي تمسك شخصاً ما من عنقه كما أفترض، كي تنبهه للخطر. تأتأت، وبدأت عيناها الكبيرتان تنغيّمان، من ثمّ تقوّس جسدها نحو الخلف وانهارت أرضاً، وأسقطت كلّ ما اعترض طريقها، الكثير من الأشياء في الواقع، فتحطّم البعض منها مصدراً ضجّة صاخبة. نتيجة لذلك، صبّ الناس اهتمامهم على الأميرة المغمى عليها، ونسوا الملكة.

وهكذا، بعد أن نُقِلَت الأميرة دو لامبال إلى الخارج، وبعد أن يُسْتُ وَأَنَا
أَلَوَحْ بذراعيّ، لاحظني أحدهم أخيراً: صانع الأقفال! واقفاً هناك، وسط
الحشد المتدافع، عاجزاً عن سماعي في تلك الضجّة التي تصمّ الآذان، لكنّه
نظر مباشرة في عينيّ فأشرتُ بالحاح إلى الملكة. عندما رأى سموّها تختنق
فوق سرير الولادة، ألقى نفسه بشجاعة بين الناس، لكن ليس صوب الملكة،
وإنّما بالاتّجاه المعاكس - لعلّ ذلك مرتبط بقاعدة «لا تلمسوا» السائدة
هنا، ولذلك لم يستطع أن يفكّر بطريقة أخرى نافعة - فدفع الناس جانباً،
إلى أن تمكّن من الوصول إلى النوافذ المغلقة كتلك التي في ردهتي درءاً
لبرد الشتاء. مستعيناً بذراعيه فقط، بدأ بخلع الألواح الخشبيّة التي تسدّها،
وتمكّن من فتحها أخيراً فاندفع الهواء النقيّ إلى الغرفة. من ثمّ، قام أشخاص
آخرون أقلّ شجاعة وقوّة بفتح نوافذ أخرى، فاندفع كانون الأوّل إلى الغرفة،
لكنّهم لم يعرفوا لماذا قام صانع الأقفال بفتح النوافذ، ربّما اعتقدوا أنه يريد
أن ينادي على الحشود المتجمهرة في باحة القصر. بالتالي، اضطرّ صانع
الأقفال البطل الآن إلى شقّ طريقه بالقوّة في داخل الغرفة، كي يعود إلى
الملكة التي ما تزال مستلقية على سريرها، شاحبة للغاية، والملاءات تحتها
منقوعة بالدم كما لاحظ الجميع... ورآها كلّ الموجودين هذه المرّة.

ساد الهرج والمرج، طُلِبَ الماء الساخن لكنّه لم يصل قط. وخزّ الأطباء
صاحبة الجلالة الشاحبة لكن بلا طائل، ففصدوا دمها من قدمها إلى أن ملؤوا
خمس طاسات منه - وهي الكميّة التي يعدّونها ملائمة كما افترضتُ - إلى
أن ظهرت بعض علامات الحياة على الملكة أخيراً. طيلة ذلك الوقت، لم
يفارقها صانع الأقفال البطل، والدموع، الدموع بكلّ تأكيد، تملأ عينيه. هل
ماتت؟! شهقت الملكة أخيراً، وتحسّنت الأمور، وارتسمت راحة لا توصف
على وجه صانع الأقفال. غطّى وجهه بمنديله كي يخفي دموعه، لقد كانت
تجربة مثيرة جداً في الواقع!

عندما وقف صانع الأقفال إلى جوار السرير، انحنى الحضور أمامه، كي
يشكروه كما افترضتُ. من ثمّ، رأيته يستدير، ويلقي عليّ نظرة خاطفة ثمّ
يهزّ رأسه. استمرّ الناس بالانحناء، وعندها بدأت أفهم! فهمتُ أمراً جديداً،
لا يُصدّق!

لقد تزوّجت الملكة صانع أقفال!

وصانع الأقفال الذي تزوّجته، يدعى لويس السادس عشر!

أردتُ أن أهّل! أردتُ أن أخبر أحداً ما بذلك، ولكن من؟! لا أستطيع أن أخبر إدموند، من إذن؟! قرّرتُ أن أكتب رسالة إلى سيّدي كي أعلمه بما حصل، وأن أخبر جاك عن «نقيض الإعدام» هذا، من ثمّ داهمني القلق: إن كتبتُ تلك الرسالة، سيتذكّرني الدكتور كورتوس، وستساءل الأرملة لماذا لم أحصل بعد على إذن يسمح لهما بنحت تمثالٍ للملكة! على الرغم من ذلك، ما أروع الذي حصل! أنا أعرف الملك! أعرفه! أنا الصغيرة! وصققتُ تصفيقاً صغيراً كما كان كورتوس سيفعل.

هذا الملك، أنا أعرفه! كدتُ أتقاسم قطعة معجّات مع هذا الملك، الذي أمر بإخلاء الغرفة على الفور، وأن تُترك الملكة وحيدة، فاندفع الجميع خارجاً. هذا الملك، ريفيقي على السطح، من تقاسم معي مظلة، أمر خدمه بإخراج كلّ من كان حاضراً، من ثمّ اندفع خارجاً هو شخصياً، مترحّاً، كي يرى ابنته الصغيرة. عندما بحثتُ عن إليزابيث، وقد أخذتُ تماماً باكتشافي المذهل، اكتشفتُ أنها غادرت أيضاً بصحبة مرافقاتها. لقد تُركتُ وحدي.

من ثمّ، دخلت المرضعات، فنادتهنّ الملكة طالبة طفلها. هدأنها، الطفل كما قلن موفور الصّحة. أرادت الملكة أن تراه، أن ترى البوربونّي الصغير، وليّ عهد فرنسا الذي أنجبته. لا، قالت المرضعات، لا ليس وليّ عهد، لا قطعاً، بل فتاة، ابنة، وليس وليّ عهد، نخشى أن هذا صحيح، نحن متأكّدت يا مدام، فتاة، لونها ورديّ، فتاة معافاة ولكنّها فتاة بجميع الأحوال. أجل، أجل، نحن واثقات ممّا نقول. من ثمّ، الملكة، وقد أرهقتها مجريات يومها والحشود التي راقبتها، بدأت بالبكاء.

راودني الشكّ أنني لم أعد أنتمي إلى هذه الغرفة، هذه الغرفة أصبحت مكاناً خصوصياً، لكنني بقيتُ في مكاني، أنا آخر أفراد الحشد الصاخب. فكّرتُ أن أغادر، ولكنّ الملكة أمامي في نهاية المطاف، وهي ليست مشغولة الآن، والوضع هادئ. هل آن الأوان أخيراً؟ هل هو الوقت المناسب كي أفاتها بمسألة أخذ الطبعات؟ لن نقوم بذلك على الفور بالطبع، لكن لعلّي

أرتّب موعداً للدكتور كورتيس. بعد كلّ شيء، إنّها فرصة لا تتكرّر كلّ يوم! أصبحت الغرفة أكثر هدوءاً شيئاً فشيئاً، وخَفَّتْ نحيب الملكة، وهو ما حسَبْتُهُ علامة مؤاتية. نزلتُ بهدوء، وقفزتُ عندما أصبحتُ أقرب إلى الأرض، فتسبّب ارتطامي ببعض الضجّة. هذا الارتطام جعل الملكة تفتح عينيها وتنظر إليّ، ابتسمتُ، وتقدّمتُ صوبها بضع خطوات، ابتسامتي تكبر، بل إنّني كدتُ أضحك كما أعتقد، ولكن قبل أن أطرح اقتراحي بلطف، فتحت الملكة فمها ونطقت هذه الكلمات غير الملائمة:

«شيطان! الشيطان بعينه!»

تبخّرت كلّ آمالي بلحظة! ذعرتُ، وتنامى ذعري لأنّها بدأت تصرخ. في خضمّ عذاب من الانزعاج وخيبة الأمل القاسية والرعب، اندفعتُ بعيداً عن صراخ زوجة صانع الأقفال. اندفعتُ عبر الباب، من بين بضعة أشخاص ما يزالون هناك، وركضتُ طيلة الطريق إلى خزانتي. ألقيتُ بنفسي في داخلها، وشفقتُ بابها خلفي.

اختبأتُ تحت البطانيّات!

الفصل التاسع والثلاثون

خادمة وملك

بعيداً عن عتمة خزانتي الضيقة، وجدت نفسي بعد يومين أقرب حتى من غرفة نوم الملكة نفسها إلى مركز القصر. لا تديري ظهرك أبداً، انحني، لا تتكلمي إلا عندما يخاطبونك، لا تقتربي أبداً أكثر من ثلاثة أقدام ونصف القدم، وحتماً، حتماً، لا تلمسي! لقد التقيتُ بالملك من قبل، كنتُ على سجليتي آنذاك، وتبادلْتُ الحديث معه بحرية، بل وتقاسمتُ معه معطفه ذات مرّة، لكنّه كان آنذاك صانع أقفال القصر فحسب، مجرد شخص واحد بين العديد من أمثاله في فرنسا، آلاف منهم كما أتخيّل، بما أنّ الكثيرين يصرون على استخدام الأقفال لمنع الآخرين من الوصول إلى أشياءهم، لكن ثمة ملك واحد فقط للبلاد بكلّ تأكيد. إنها القاعدة، وإلا ستندلع المذابح.

لقد رأيتُ بورترية الملك سابقاً، صورته الجانبية منقوشة على كلّ العملات النقدية الفرنسية، لكنّ رأس الملك على النقود ورأسه الذي يأكل المعجنات لا يتشابهان إلا قليلاً، ولذلك لم أعرفه. مع ذلك، وفي هذه اللحظة، صاحب الجلالة لويس السادس عشر ملك فرنسا ببركة الربّ، يجلس على كرسيّ، أمامي.

«حسناً، ماري غروسهولتز»، قال.

«جلالتكم» قلتُ، وانحنيتُ حتى الأرض.

«حسناً، لا بدّ لي من القول إنّ الملكة أفضل بكثير الآن. لن يتكرّر ما حصل. في المرّة القادمة لن نسمح إلا بحضور من تفرض الضرورة القصوى

تواجهه حصراً، لن نسمح بحضور أحد بتاتاً فوق الأثاث على سبيل المثال.
في المرة القادمة: الخصوصية فقط»

«أجل يا صاحب الجلالة»، أجبتُ وأنا أفكر طيلة الوقت: هاتان هما شفتا الملك، وخلفهما أسنان الملك ولسانه معاً في تجويف ملكي واحد، ولورتا الملك، وغدد الملك اللعابية أيضاً، من ثم ممرٌ ملكي يسمّى بالبلعوم، يمتد إلى أعماق الجسد الملكي.

«أخبريني» قال، «ألم تملكي فكرة عمّن أكون؟!».

«بتاتاً يا صاحب الجلالة، ظننتكم صانع أقفال»

«أنا فخور بذلك، ولكن هناك، فوق سطح القصر، مع الحاجب بالزي الرسمي؟»

«حجّاب أختكم يلبسون الزي ذاته أيضاً!»

«إليزابيث مولعة بك كثيراً، أليس كذلك؟ لقد تزايدت ثقتها بنفسها أخيراً، ما كان ينبغي أبداً أن نسمح لمدام ماكو بالإشراف عليها. موثٌ والدينا كان رهيباً بالنسبة لها، وكذلك موثٌ شقيقنا، لقد تقاربنا نوعاً ما لبعض الوقت. إنها تصبح أحياناً، كما ترين، عصبية قليلاً، دموع وما شابه، ولكنها أفضل، أودّ أن أفكر هكذا، إنها أفضل مؤخراً بكل تأكيد، وهي طريقة أخرى كي نقول: أحسنت، وشكراً لك، من أجل إليزابيث، ومن أجل اهتمامك مؤخراً بالملكة. هل أستطيع أن أقدم لك أي شيء بالمقابل؟»

ها هي ذي فرصتي، يقدمها لي الملك شخصياً!

«قبل أن آتي إلى هنا يا صاحب الجلالة» قلتُ، «وظّفتني صانع تماثيل شمعية، موهوب جداً، في باريس. لو منحتموه إذنكم يا صاحب السمو كي يصنع تماثلاً واقعياً لوجهكم، أعرف أن هذا التمثال سيصبح دُرّة مجموعته».

«آه، لا يعجبني ذلك بتاتاً!»

«سيد شكّم فنّه»

«حقاً؟! لا أعتقد. هل كنت تلميذته؟»

«أجل، في بيرن في سويسرا، مسقط رأسي. لقد علّمني»

«حرّاسنا من سويسرا، يتمركزون حول القصر، في داخله وخارجه،

لحمائتنا شخصياً، ولا يسعنا الاستغناء عنهم. أنا لا أجهل السويسريين، كلاً
 في الواقع. ومعلمك ذاك، هل كان معلماً جيّداً؟
 «آه، أجل، رائع حقّاً»
 «وهل كنت تلميذة جيّدة؟»
 «درستُ باجتهاد وتعلّمتُ الكثير»
 «حسناً إذن، بوسعك أنت أن تصنعي لي تمثالاً»
 «أنا يا صاحب الجلالة؟!»
 «أجل أنتِ»



«أنتم لا تعنون ذلك حقّاً!!»
 «بلى، حتماً»
 «لا لا، لا أستطيع ذلك!»
 «لا تستطيعين؟!»
 «حسناً، الأمر هكذا: أستطيع، ولكن لا يجب عليّ أن أقوم بذلك»

«وَلِمَ لَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُومِي بِذَلِكَ؟»
«لا، هذا لن يكون صائباً على الإطلاق!»
«وإن قلتُ أنا أنه صائب؟»
«ولكن من فضلكم، يا سيّدي، هذا من أجل معلّمي!»
«أنا أقول إنّه من أجلك»
«سيجرّحه هذا الأمر كثيراً»
«وليكن، فليُجرّح»
«لن يسامحني أبداً!»
«سيسامحك. سنقول إنّها أوامر الملك»
«هذا الأمر أكبر منّي»
«إذن اكبري يا فتاة، اكبري كي تصبّحي على قدره»
«ستكون جريمة، يا سيّدي»
«ليست جريمة يا غروسهولتز، أو لن أقبل بذلك أبداً»
وهكذا - ساعدوني! - فعلتُ ذلك بنفسي!

كنا في إحدى حجرات الملك الخاصّة، القرية من مسبكه الصغير. في البداية، أكلنا كعكة بالتوت، من ثمّ خلع الملك جاكيت البروكار، وارتدى معطفاً بسيطاً. هذه الغرفة تغصّ بمجسّمات الكرة الأرضيّة، والخرائط. ثمة مجسّمات لأبنية غريبة الشكل، والكثير الكثير من الأدوات العبقرية: المجاهر، آلات السُّدس⁽¹⁾، أجهزة التيودوليت⁽²⁾، أجهزة الأوريري⁽³⁾، وتشكيلة ضخمة من شتّى الأدوات التي لم أسمع بها قطّ! حول الغرفة، بين مجسّمات الكرة الأرضيّة والكواكب، هناك مئات الكتب المرتّبة بشكل

1- آلة كانت تُستخدَم لقياس الزوايا بين الشمس والأفق، بغية تحديد موقع السفينة.
الترجمة

2- جهاز لقياس الزوايا الأفقيّة والعموديّة، ما يزال مستخدماً في الوقت الحالي.
الترجمة

3- نموذج ميكانيكيّ متحرّك للمجموعة الشمسيّة، يمكن بواسطته حساب مواقع الكواكب بعضها نسبة إلى بعض، وسرعتها بشكل دقيق. الترجمة

دقيق، كموسوعة ديدرو بكلّ أجزائها، وكذلك -كم أتوق لإخباره بذلك- كتاب «باريس في عام 2440» لمؤلفه ل. س. مرسيه!

نظّفتُ وجه الملك، وضعتُ قليلاً من الزيت على حاجبيه ثمّ فركته. وضعتُ قصبتيْن في فوهتي ذلك المنخار الملكي الكبير، فعلتُ ذلك! وضعتُ الكلس على الوجه، غطيْتُ وجه الملك كأنني أحجبه، فعلتُ ذلك! كلّ شيء هادئ، أنا والملك بمفردنا فقط! وحيدان في العالم بعد كلّ شيء! نزعْتُ الجصّ، نظّفتُ وجهه، وأخذتُ كلّ القياسات الضرورية. سماكة الرأس من الأذن إلى الأذن: 18 إنشاً، محيط العنق: 22 إنشاً وثلاث الإنش، ماري تقيس!

لديّ رأس الملك الآن، ولكن ليس رأس الملكة. خشيْتُ أن أطلب المزيد، لكن لا بدّ لي أن أفعل!

«يا صاحب الجلالة، هل لي أن أطلب شيئاً آخر بعد؟»

هزّ الملك رأسه

«سأدين لكم بالفضل يا صاحب الجلالة، لو ساعدتموني كي أحصل على موعد لسَيّدي، كي يأخذ طبعة لرأس الملكة»

للحظة، استولى عليه الغضب، بدافع الحماية.

«إزعاج الملكة ممنوع! الملكة ليست شيئاً يُدفع ويُقرص، ولا شيئاً يتمّ التلصّص عليه بناء على رغبة العوامّ، ولا شيئاً يحذّقون إليه! أين اللباقة؟! لا، لا، لا يجوز إزعاج الملكة»

«حاضر، يا صاحب الجلالة»

«لن أسمح بذلك»

«كما تشاؤون جلالتيكم»

«هذا يزعجني»

«أجل جلالتيكم، أنا أشكركم يا صاحب السموّ»

نظر الملك حول الغرفة منزعجاً، كأنّه تاه بين تلك الكرات الأرضيّة العديدة. «لن نتحدّث مجدّداً» أعلن وهو يهزّ رأسه، «لن يكون ذلك صائباً بتاتاً! لن يكون صحيحاً على الإطلاق! لقد تشوّشتُ عندما التقينا للمرّة

الأولى في مسبكي، كما ترين، حسبتكِ أختي! كان عليّ أن أحزر أنك لست أختي من نظارتك! لكنني أرى الآن بوضوح أنك لست هي. كلا، بتاتا، أنت مجرد رسم كاريكاتيريّ عنها. لعلك لست الملامة، حسناً. هذا لن يتكرّر! أنا الملك، وأنت مجرد غروسهولتز. طاب يومك، طاب يومك».

ولم أرَ الملك عن قرب مجدداً لسنوات عديدة!

لاحقاً، في مشغلنا، رويثُ لإليزابيث كلّ ما حصل.

«أنا، أنا ماري غروسهولتز، شممْتُ رائحة عرق الملك!»

«أنت فظة جداً، يا قلبي. لا داعي لتذكيرك أنك فتاتي أنا، أنا وحدي،

وليس سواي!»

«لقد أخذتُ طبعة لرأس الملك، ولا بدّ أن أرسلها إلى سيّدي في باريس»

«أنت فتاتي أنا، أليس كذلك؟!»

إنّها تغار فوراً!

«أجل، يا مدام إليزابيث العزيزة» طمأنّتها على الفور، «بالطبع أنا فتاتك».

«ولن تتركيني؟»

«كلا، لن أفعل، إلى أن ترغبي أنتِ بذلك»

«لن أرغب بذلك أبداً»

«قولي ذلك مجدداً، أرجوك»

«لن أرغب بذلك أبداً، يا قلبي»

«إذن، هل لي أن أقبلك؟»

«أظنّ ذلك»

وضّبتُ الطبعة الجصيّة في صندوق ملأته بالقشّ، وأرَفَقْتُها برسالة أعدتُ كتابتها عدّة مرّات إلى أن رضيتُ عنها:

سيّدي العزيز،

أمل أن أمورك تسير على أفضل ما يرام في باريس. أنا أفكر بك كثيراً، وبكلّ التماثيل الشمعيّة، وكلّي ثقة أن العمل يسير على أفضل وجه. أنا مشغولة جداً هنا، أعمل كلّ يوم لمصلحة الأميرة إليزابيث. لا أظنّ أنني أبالغ لو أخبرتك أنني أصبحتُ المفضّلة لديها، وأظنّ يا سيّدي أنها تعترم إبقائي

معها دائماً في القصر، وهو ما سيسعدني كثيراً. أنا ممتنة جداً لك، وأقدر العناية التي أوليتها لتعليمي، وأشكرك بكل تواضع على ذلك. سأفكر بك دائماً بامتنان عظيم! هل لي أن أقول أيضاً، همساً، إنني قد خدمتك بلا أجر لزمّن طويل جداً، وآمل أنك كنت راضياً عن عملي. باختصار، هل لك أن تعفيني من خدمتك يا سيدي، وأن ترسل أوراقي إلى هنا؟

أرفق لك في هذا الصندوق، طبعة واقعية لجلالة الملك لويس السادس عشر. أصرّ جلالته على أن آخذ الطبعة بنفسي، وأنه لن يمنحني سوى فرصة وحيدة. طلبتُ منه أن يسمح لك بالقدوم، لكنّه رفض، فاضطرتُّ لإكمال العمل بمفردي. من فضلك سامحني على ذلك، لكنني أخذتُ الطبعة بشكل صحيح كما آمل، ولا يلزمها سوى ألمعيتك العظيمة كي تكتمل. من فضلك، قبلها كأنّها دفعة مالية منّي، واكتب رسالة للقصر كي تتنازل عن خدماتي لمصلحة الأميرة إليزابيث، وأرسل أوراقي أيضاً. مكتبة سرّ من قرأ شكرًا لك،

المخلصة: صغيرة، المعروفة سابقاً بماري غروسهولتز، خادمتك القديمة من بيرن.

وصل الردّ بعد أسبوعين، ولم يكن من سيدي:

أيّها المخلوقة الصغيرة،

لقد أزعجت سيّدك أكثر ممّا تتصوّرين. ظننتُ أنه سيموت مع كلّ ذلك العناء الذي واجهته معه، خلال الأيام الأخيرة.

افهمي أن اسمك هنا هو «قذارة»، وأننا لن نرسل إليك أوراقك.

لقد استلمنا الطبعة، لكنك استغرقت سنوات كي تقدّمي لنا القليل فحسب! يتتابني الغثيان كلّما فكّرتُ بهذا.

ما هو نفع الملك بلا ملكة؟! احصلي على طبعة للملكة، وبأقصى سرعة، وإلا سنجرّك إلى هنا، وسنعرف عملنا معك.

انطلقني

بإخلاص،

ش. بيكو (الأرملة)

طويْتُ الرسالة -التي تفيض بعدم الرضا- بحرص، واستعنتُ بسَلَم
استعرثُهُ من باليه كي أضعها على أعلى رفّ في خزانتي، الرفّ الذي لا
أستخدمه أبداً. مع ذلك، وعلى الرغم من وجودها في الأعلى، باغتتني
الرسالة في نومي تحت ثلاثة رفوف في الأسفل.

الفصل الأربعون عن الألعاب وما لكياها

سرعان ما استجّدت ظروف معيّنة، لكنّ الحميميّة الحديثة بيني وبين إليزابيث شغلتنني عن التفكير بها.

«آه يا قلبي الأعزّ» قالت إليزابيث وهي تفتح باب خزانتي، «لقد حصل أمرٌ لا يُعقل! لقد أرسلوا بطلي! سأذهب بعيداً، سيحدث هذا، سأتزوّج! سأفقدك يا قلبي الأعزّ، لكنني سأتزوّج! سأرحل بعيداً من هنا، وسأترك كلّ شيء خلفي. سيكون كلّ شيء على ما يرام! آه يا ربّي! حمداً لك، حمداً لك من أعماق قلبي!»

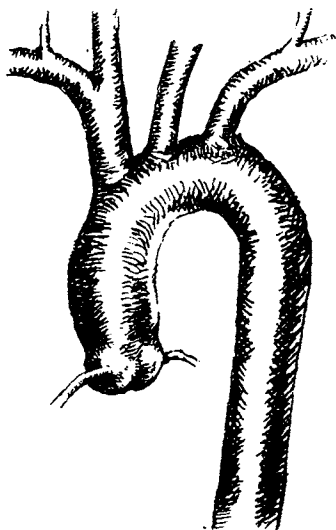
«لا! قلّتُ، لأنّ القلب هو اختصاصي، لن تبعدني عني».

«لقد أعلنوا عن ذلك! سأتزوّج بدوق أوستا! دوق أوستا!»



دوق أوستا

بالنسبة لي، «أوستا» Aosta بدت مثل «أورتا» Aorta أي الشريان الأبهر الموجود فوق القلب. أرّنتي إيزابيت بورتريهاً لدوقها ذاك، ولم يعجبني. انشغلت كثيراً ولم يعد بوسعها الانضمام إليّ في مشغلنا، ولذلك قالت لي إنه عليّ قضاء وقتي بنسخ البورتريه، سيسعدها أن تملك صورة ثانية للدوق، صورة بوسعها أن تطويها وتحملها معها طيلة الوقت.



الشريان الأبهر عند الإنسان

اتّسخت الصورة التي رسمتها، واهترأت بسبب انشغال إيزابيث الدائم بها. فيما بعد، قرعت إيزابيث خزانتي، وقالت: «لا يفترض بي قضاء المزيد من الوقت معك بعد الآن».

«هل أمرت مدام غويمنيه بذلك؟»

«لقد تمّ تعيين مدام غويمنيه كمشرفة على ابنة الملك البكر. مدام ديّان دو بولينياك ستشرف على منزلي الآن. أرسلت رايج بعيداً، وسيُسمح لديمون بزيارتي مرتين شهرياً فقط. لديّ مرافقات جديدات الآن، أنا أنضج، أشعر بذلك»

«وأنا؟» سألتها، «ماذا قرّرت مدام دو بولينياك بشأنى؟»

«آه يا قلبي، يا قلبي أنا! إنها بداية جديدة. يا قلبي، المكان ضيق جداً هنا، هل ترغبين أن أجد لك غرفة لائقة؟ ستكون أبعد قليلاً لكنها أفضل»

أشفق على الألعاب المسكينة، لأنها عموماً لا تحظى بالحبّ إلا لفترة وجيزة، إمّا أن تنكسر أو أن تُستبدل بسواها، أو تؤخذ إلى غرف بعيدة مخصصة للأشياء غير المحبوبة، فضلاً عن أجيال من الدمى التي رُميت كي تتفسخ في مباني القصر الخارجية. بعد أن رأيت أجزاء جديدة منه، لم أعد أنظر إلى القصر على أنّه ذلك اللويثان المرعب الذي قابلته في البداية، بل بالأحرى أشبه بهيكل عظمي ضخم، بقايا وحشٍ قتل، وها نحن أولاء نعيش ضمن بقايا جثته. خُصّصت لي غرفة بأكملها، باردة وخاوية، لا يمكن تدفئتها. حاولتُ أن أستحضر شبح إدموند إلى هذا المكان المليء بالأسى، لكنه لم يأت! لقد اختفى نهائياً، ولن يزورني بعد اليوم. مع ذلك، من المعروف أن الألعاب المهملة قد تحظى بفرصة ثانية، وتُحتضن بحبّ جديد. إنها معلومة تمدّكم بالعزاء في ساعات اليأس!

من ثمّ، كما بدأ الحديث عن دوق أوستا فجأة، وبعد أسبوع واحد فقط على انتقالى إلى غرفتي الجديدة التي تبعد أربعين دقيقة عن خزانتي، انتهى كلّ شيء فجأة بكلمتين صغيرتين: دوق أوستا كان بدوره «غير ملائم»، وعلى إليزابيث أن ترضى بذلك. تذكّرتني على الفور، وعدتُ إلى خزانتي.

من الدموع والارتجاف، وُلدت أمامي عشيّة عودتي إلى خزانتي إليزابيث أكثر هدوءاً. استسلمت، وأعلنتُ أنها ستكرّس نفسها للفقراء والمرضى، وأنها منذ تلك اللحظة فصاعداً لن تنتظر شيئاً. أمرتني أن أجلب يسوع الجصّي من خزانته، ثمّ حملته في حضنها كأنّه الطفل الذي لن تنجبه أبداً. وهكذا، تحوّلت حياتنا إلى أيام مكرّسة للتعبّد. من الآن فصاعداً، بقينا وحدنا: إليزابيث، أنا، وهذا الرفيق الجصّي، وإن حاولتُ أن أقبلها، ستبعدني بلطف.

الفصل الحادي والأربعون

الألم موجود في كنيسة سان سير

زمنا الآن يقاس بالزيارات إلى كنيسة سان سير. في تلك الكنيسة، وفي مُصلّيات ثانوية عديدة، يمكنكم أن تجدوا مجموعة تكبر باطراد من أعضاء الجسد، مثبتة عضواً فوق آخر، تحجب الجدران شيئاً فشيئاً. كراس «الأشخاص الفقراء والمعذبون» الذي تدوّنه إليزابيث وصل إلى جزئه الثالث. مرّت الشهور، وانتهى العام أخيراً وبدأت سنة جديدة ستشبه سابقتها كثيراً، وكذلك السنة التي تليها. تشابهت الأزمنة كلّها، وعانت تلك الأجساد الفقيرة المعوزة إلى ما لا نهاية، وكشفت لنا عن موضع الألم وهي تبكي أو تكزّ على أسنانها. لقد توجّع الناس كثيراً في تلك الأيام والسنوات، وتزايد عددهم. لم يكونوا سعداء دائماً برؤيتنا، وأخذوا النقود من إليزابيث أحياناً بنظرة باردة. أحد الأسباب كما افترضنا، قد يكون الطقس السيئ أو فشل المحاصيل. السبب الآخر قد يكون أحد الشباب، فتى عمل سابقاً في الاصطبل الملكيّ وسبّب له حصان أذية دائمة في ساقه. ذات يوم، جاء هذا الشاب المسكين وهو يعرج إلى القصر طالباً صدقة، فضربه الحراس وطردوه، ثمّ مات متأثراً بجراحه. تمّ توزيع المال على الناس، ولكن عبثاً، لأنّ معنوياتهم انهارت بعد موته. مع ذلك، لم تنقطع إليزابيث عن زيارتهم، سجّلنا ملاحظات، وصنعنا نماذج من الشمع لآلامهم... وتقدّمنا في السنّ! صحيح أنّنا ما زلنا نعدّ شابّتين أنا ومدام إليزابيث، وأنها ما تزال الأصغر سنّاً، لكنّ الغبار تراكم فوقنا طبقة طبقة. تحوّلت إليزابيث بالتدريج إلى عانس، وتخلّت نهائياً عن التفكير بمستقبل مختلف، وبس جسدها من الداخل.

مقرّ الأميرة إليزابيث الجديد، يقع في آخر ردهة الجناح الجنوبي الغربي من القصر. قيل إنّ الهدف من هذا الانتقال هو أن تنعم بالراحة، ولكنّ المطلوب هو أن ينساها الناس في الحقيقة. من نوافذ غرفنا الجديدة، بوسعنا أن نرى القناة الكبرى، والأهمّ أنّنا نرى أيضاً الطريق إلى كنيسة سان سير، وهو الاتجاه الذي حدّقنا إليه دائماً. خُصّص لنا الطابق الأوّل، تحتنا جناح الملكة الكبير، وفوقنا غرف «سيد الحصان»⁽¹⁾، الذي نسمعه دائماً يذرع المكان جيئةً وذهاباً بجزمته الضخمة. ضجّ القصر من حولنا بالحياة، لكنّها لم تشملنا أنا وإليزابيث قطّ. جناحنا الجديد يتألّف من سبع غرف: غرفتا استقبال، غرفة النوم، الحجرة الكبيرة، غرفة البلياردو، المكتبة، والمخدع. خارج غرفة النوم خزانتي الجديدة المثبّنة بالحائط، ينقصها رفّ واحد فقط عن خزانتي القديمة، كما أنّها لم تكن نظيفة عندما وصلتُ. شاغلها السابق لم يعتنِ بها، وترك خدوشاً وآثار حذائه على جدرانها الداخلية. نظفْتُها، وتسَلّقتُ إليها. تقاسمتُها مع النمل، ومع فأر أقام أحياناً على الرفّ السفليّ.

كانت تلك، مواسم مدام دي بولينياك الطويلة. دَيّان دي بولينياك، هي ابنة حمي المرافقة النبيلة الأثيرة حالياً عند الملكة، امرأة قبيحة، حذاء، قدرة، بشرتها شاحبة، شفتاها رطبتان، وتبلع لعبها كلّما رأت رجلاً. لم تهتمّ بإليزابيث، بل أوضحت بصراحة بعد أن حصلت على منصبها أنّها لا تنوي ذلك، وملأت ردهتنا بحريمها الخاصّ، بالنساء اللواتي ضحكن على إليزابيث بصوت عالٍ عمداً كي تسمعهنّ. لم تحظْ إليزابيث بصحبة، سواي وسوى يسوع الجصّيّ.

أيّاً كانت المصاعب التي ميّزت عهدَي ماكو وغوينمييه، لكنّهما قامتا بواجباتهما بنية طيّبة، والأساليب التي لجأتا إليها - على الرغم من أنّها قاسية وملتوية - هدفت إلى تحقيق مصلحة إليزابيث، أمّا مدام دي بولينياك فعلى

1- يُعدّ صاحب المرتبة الثالثة من حيث الأهميّة بين أعيان القصر النبلاء، مسؤول عن كلّ ما يتعلّق بالإصطبلات الملكية والخيول والمناسبات التي يمتطي فيها الملك أو الملكة حصاناً أو عربة. المترجمة

النقيض منهما، لم تهتمّ إلا بنفسها. إنها من طالبت بغرفة البلياردو، بعد أن أولعت ماري أنطوانيت بهذه التسلية، وتوجب على الجميع أن يقلدوها. انسحبت إليزابيث أكثر فأكثر، بينما نبض القصر في كلّ أرجائه بالحيوية والحياة الاجتماعية، بالحفلات الضخمة والأعياد والمراهنات، التي لم أشهد أيّاً منها بنفسي. في الأسفل سمعنا ضحكات وفرحاً، وفي الأعلى أقداماً تسير وأبواباً تُصَفَّق. بدت إليزابيث كأنّها في الثلاثين، على الرغم من أنّها لا تتعدّى السابعة عشرة من العمر!

«لا تتركيني أبداً يا فتاتي! لا ترحلي أبداً»، تقول لي.

عشنا حياة هادئة، عقدنا صداقات مع المصليّات الجانيّة في كنيسة سان سير، التي يحمل كلّ منها اسم قدّيس مختلف. حفظتُ أسماء أولئك القدّيسين عن ظهر قلب آنذاك، ولا بدّ أنّ أمّي كانت ستسرّ بذلك أشدّ السرور. القدّيس فنسنت دو بول كان رجلاً عجوزاً كرّس حياته للفقراء والمرضى، وشيّد لهم منازل. ملأنا المصلّى الذي يحمل اسمه بقطعنا الشمعيّة، ولم يعد فيه متسعٌ لكليّة مؤلّمة أخرى أو لإصبع مكسورة، ولا حتّى لعينٍ تغيّم بصرها. القدّيس مارتن دو تور، كان رجلاً عجوزاً آخر مزق معطفه إلى نصفين، وأعطى أحدهما إلى متسوّل، وسرعان ما ملأنا المصلّى الخاصّ به بالسيقان المهروسة، والأذرع المتورّمة، والجذوع المرضوضة، والرؤوس المتكدّمة، والأنوف الممزّقة، والأفواه التي تغطيها القرحات -كلّها من الشمع- ولم يعد فيه متسع ولو لذرة من الحزن. القدّيس دنيس كان أوّل أسقف لباريس، امتلأ المصلّى الخاصّ به أيضاً بنسخ شمعيّة عن الأضلاع المكسورة، الرئات المنفجرة، القلوب المصابة بالقصور، الأكباد المشتمّة، المثانات الملتهبة، المبايض العقيمة، الخصيات المنفتلة، الجلود المصفّرة، والجذامير المؤلّمة. كلّ ذلك الألم، كلّ تلك المعاناة، والكثير الكثير من الفقر!

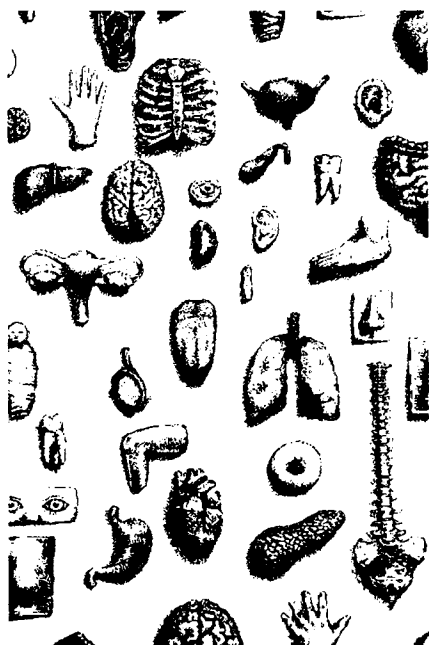
شعر الأسقف بالقلق، لقد احتلّلنا كنيسته، ومكانه المقدّس ذاك أصبح أشبه بدكان لحام من الشمع، لكنّنا أنا ومدام إليزابيث لم نستطع أن نتوقّف. القدّيس سان سير، لم يعيش كي يبلغ سنّ الرشد، بل مات عندما سحقوا رأسه على جدار بعد أن أصرّ على أنّه مسيحيّ، أمّا إليزابيث فقد جعلت من نفسها شهيدة، فدأء لآلام الآخرين. لقد تاقّت إلى ذلك الألم -ألم الآخرين- كي تخدّر ألمها

الخاصّ، وآلام أولئك الفقراء الذين تراهم كلّ يوم غدّت حياتها: لقد أدمنت على الشقاء. كدّسنا الأعضاء الشمعية، قرعنا باب خزانتي في أوقات مختلفة من النهار، وأحياناً من الليل، أو قبل شروق الشمس، كي نباشر العمل. إليزابيث تؤمن بتلك المصنوعات الشمعية الصغيرة -إنها دليل على حسن نواياها- على الرغم من أنها لم تعن شيئاً على الإطلاق لأولئك المرضى والفقراء.

«تعالى، تعالى يا قلبي، علينا أن نشغل أنفسنا»، تقول.

كبرت في فرساي وتغيّر شكلي، صار جسدي أكثر نحولاً وزواياه حادة، كما أصبحت أكثر صمتاً. أرسم في بيتي / خزانتي على ضوء الشمعة، وعندما أرتكب خطأ -ما زلت أرتكب أخطاء- سأمحوها بواسطة كرة من «اللبان النباتي»، وهو المادة الأحدث التي يستعملها الفنانون... إليزابيث تحصل دائماً على أفضل الأشياء وأحدثها، وداعاً للخبز!

عشنا معاً، أنا وهي، في غرف مليئة بأجزاء الجسد، في منزل شاسع متعدّد الأعضاء، جلده من الشمع. الصلوات التي تملأ أيامنا، أصبحت ملموسة.



الفصل الثاني والأربعون

التوقيع: ماري، أو مجموعة

الرؤوس الرابعة

بحكم العادة، أنا أحظى بالحرية في أيام الأحاد، لأنّ إليزابيث تقضيها بطولها تقريباً مع أفراد عائلتها، ضمن جدران إحدى حظائر الربّ المقدّسة، ولا تطلبني آنذاك.

في معظم أيام الأحاد تلك، أقضي ما يقارب الساعة بتنظيف خزانتي وتهويتها، أو أشرب بعض البيرة مع باليه، ونمضي وقتنا بمناقشة الأجساد. ذات مرّة، عندما غادرت باليه بسبب مرض أحد أقاربها (صلينا من أجله، وصنعنا له مريثاً من الشمع)، شعرتُ بالوحدة. أنا لم أتجول بعيداً منذ زمن طويل، لكنني وجدتُ نفسي بعيداً عن غرف إليزابيث في نهاية المطاف، سمحت لي خادמות دي بولينياك الوقحات بالعبور، وها أنا ذي في الخارج، حرّة. سرّتُ على الدرب ذاته نحو قصر الولادات الملكية، متتبّعة حشداً من الزوّار الباريسيّين الذين يهرولون على عجل. ليس لديّ ما أقوم به، لذلك قرّرتُ أن أنضمّ إليهم. اقتادونا نحو طابور طويل من المنتظرين أمام غرفة حرس الملك، من ثمّ فيما يشبه عنق الزجاجة خارج غرفة استقبال الملكة، التي تُعرف باسم: «قاعة الجلوس الكبرى». هنا، يوجد الحراس الذين سيسمحون لنا بالدخول إلى الغرفة الأخرى، بعد أن يفتّشوا ملابسنا، وها نحن أولاء قد دخلنا.

في البداية، بدا لي أن الجلبة كلّها تدور حول حلقة من الحراس السويسريّين، كلّ منهم يزّين قبعته بثلاث ريشات بيضاء. من ثمّ، عندما

مررتُ من بينهم، رأيتُ طاولة على شكل حذوة حصان، حولها كراسي ذات مساند عالية، تجلس عليها العائلة الملكية بأكملها.

إنهم يتناولون الطعام!

هل هم نسخٌ دقيقة منحوتة باحتراف للعائلة الملكية يا ترى؟! نسخ ميكانيكية، تبدو كأنها ترفع ملاعق الحساء إلى أفواهها، أو تقطع اللحم إلى قطع؟! من ثم، رأيتُ الملكة ترمش. من ثم، رأيتُ الملك يبلع. من ثم، رأيتُ كونت دي بروفانس شقيق الملك الأصغر يتسم ابتسامة عريضة، وشقيقهما الأصغر منهما سنّاً كونت دارتوا، يتسم له، من ثم أخذ هذان الاثنان يتحدثان، على العكس من الباقين. هناك أيضاً رأيتُ إليزابيث، التي تأكل لقمة بين حين وآخر، جالسة بين امرأتين أكبر سنّاً، إحداهما نحيلة والأخرى بدينة، أظنّ أنهما عمّتاها. معظم أفراد العائلة الملكية يعشون بطعامهم، ولا يأكلون فعلياً، وخلفهم يقف أشخاص وظيفتهم هي مساعدة الأكلين الملكيين على تناول الطعام الملكي. من الواضح أن العائلة الملكية لا تستمتع بتاتاً بما يجري، وأن التحديق إليها هكذا لا ينال إعجابها، ولكنّ ثمة أمراً آخر وهو الأهم: أولئك الملكيون هم مجرد بشر، ومراقبتهم هكذا مدهشة!

سرعان ما دفعنا الحراس، كي نخرج من تلك الغرفة.

«إنها قاعة الجلوس الكبرى» أخبرتني باليه، «والأمر ذاته يتكرّر كلّ يوم أحد. ألم تعرفي ذلك؟!».

«كلّ يوم أحد؟!»

«إلا عندما لا يكونون موجودين»

«وهل بوسع أيّ شخص أن يزور تلك القاعة؟!»

«لا بدّ من ارتداء ملابس لائقة، يجب على الرجال أن يتقلّدوا سيوفاً، وأن يلبسوا جوارب طويلة وباروكات. بوسعك استئجار هذه الأشياء عند البوابات بمجرد دخولك، إن لم تكن بحوزتك»

«ويتاح للناس جميعهم رؤيتهم؟!»

«على شرط أن يرتدوا ملابس لائقة»

«ولكن لماذا؟!»

«إنّهُ قرار لويس السادس عشر. لقد أعلن أنه لا بدّ من مشاهدة العائلة الملكية مرّة أسبوعياً، من قبل جمهور بملايس لاثقة»

عدتُ إلى هناك في يوم الأحد التالي، وفي كلّ أحد بعد ذلك. في البداية، قلتُ لنفسِي إنني أفعل ذلك فقط كي أكون قريبة من إليزابيث، لكنني اعترفتُ لاحقاً أنني أريد حقاً رؤية كلّ العائلة الملكية الفرنسيّة تتناول الطعام. كنتُ أتسلّل خلف مرافقات ديّان دي بولينياك النييلات، من ثمّ أركض. يجب علينا جميعنا أن نقف في الطابور، كما أنّ الرؤية تُحجّب في فواصل منتظمة، بسبب الحراس السويسريّين الذين يقومون بدور الحاجز بيننا نحن العامة، وبينهم، أولئك الملكيّين. لم أسأم ذلك الطقس قط، بل ترقّبتُ أيام الأحاد بلهفة، وسرعان ما بدأت أخذ معي أوراقاً وقلم رصاص، كي أرسم اسكتشات سريعة وأدوّن صفحات من الملاحظات.

الآن، عندما أغمض عينيّ، أرى مضغاً ملكيّاً. أرى الطعام يُمضغ إلى لبّ، وكيف يُبتلع، وأرى الفتات على الشفاه الملكيةّة. لا تشارك العائلة الملكيةّة بأكملها في تناول الطعام، فالملكة لا تخلع قفازيها أبداً، ولا تمسّ الأطباق التي توضع أمامها بحرص. كم سيثير هذا فضول معلّمي، فكّرتُ!

في ضجر خزائني، حوّلتُ تلك الملاحظات إلى اسكتشات لرؤوس العائلة الملكيةّة. لم يجدر بي فعل ذلك، لأنني سرعان ما أخذتُ أتوق -كمعلّمي من قبلي- إلى نحتِ رؤوس شمعيّة... إن حملتُ رئة من الشمع بيدي، سأتوق إلى إعطائها أنفأ، وإن حملتُ كبداً، سأتوق إلى إعطائها فماً.

عندما تخمّرت الفكرة في رأسي، لم أستطع أن أوقف نفسي: مجموعة من الناس في مشهد واحد، معاً، تماثيل كاملة، بعضها بالقرب من بعض، يتفاعل كلّ منها مع الآخر. لم يحدث ذلك في منزل القروود سابقاً، بل إنّهُ أمرٌ جديد! والمشهد؟ ولِمَ لا؟! «العائلة الملكيةّة تتناول الغداء»، الأفواه الملكيةّة فارغة، الحدود الملكيةّة منتفخة بالطعام، الفكوك الملكيةّة تعلو وتهبط، تفاحات آدم الملكيةّة تبرز.

رسمتُ لهم اسكتشات كلّ أسبوع، ولم أخبر أحداً بذلك، شهراً بعد شهر بعد شهر، إلى أن تكدّست لديّ كومة من الرسومات. مع مرور الوقت، خشيتُ

أن سيّدي قد لا يفهم ملاحظاتي، ولذلك من الحكمة أن أصنع الرؤوس بنفسني
توخياً للدقّة. بوسعه فيما بعد أن يعدّل تلك الرؤوس أو أن يتخلّص منها، كما
يشاء. وهكذا، بدأتُ بنحت تماثيل للعائلة الملكيّة، وكذبتُ على نفسي.

لم يعد بوسعي التوقّف ما إن بدأتُ، واستحوذت تلك الرؤوس على
حياتي. لم أخبر إليزابيث عنها، وأخفيتُ ما صنعتُه في خزانتي التي ضاقت
ببي وبرؤوسي. استخدمتُ كلّ ما توافر في مشغلنا، لقد استهلكنا الكثير من
الصلصال لتونا ولم يلاحظ أحد أنني أستهلك المزيد منه، والأمر ذاته انطبق
على الجصّ بل حتّى على الشمع، عندما آن أوان استعمالهما. طلبتُ المزيد
والمزيد، وجلبَ لي ما أطلبه على الفور، من دون أسئلة. في الحقيقة، أهل
فرساي لا يتعاطفون كثيراً مع الأشياء، ولا يقدّرونها حقّ تقدير، بل يرمونها
هنا وهناك كأنّها لن تنفد أبداً، كما أنّهم يجهلون تماماً الشمع ومواهبه الخفيّة.
لم يفهموا قط كما يجب كبرياء الشمعة ولا حزنها، لم يجلسوا ساعات طويلة
مع الأشياء، ولم يشجّعوها بصمت. لم يعرفوا، ولم يهتموا.



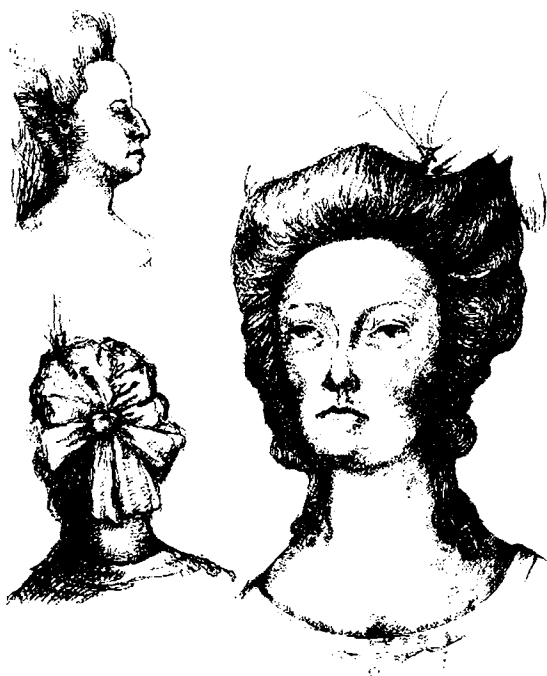
رسمتهم رأساً تلو رأس، فمأ بعد فم، لقمة بعد لقمة. أنقلهم إلى الصلصال، من ثم أعود إليهم كل يوم أحد وأؤكد، وبعدها أعدل وأغير ما نحتته، ثم أبدأ من جديد. أتوقف وأيس، من ثم أبدأ من جديد. ببطء، جاني أولئك الأكلون: أعود مجدداً إلى ذقن الملك، إلى شحمتي أذني الملكة، إلى جبين الكونت مرة أخرى. عودي، عودي مرة أخرى، انظري، انظري، ركزي أكثر، هذا ليس صحيحاً، ليس بعد، امحيه، خربيه، أمعني النظر مجدداً، ركزي. لن أنجح، سأنجح، لن أنجح...

استغرقني ذلك شهوراً، لا بل سنوات! عملتُ عندما كانت إليزابيث بعيدة بصحبة عمّتيها، وغالباً بعد أن ينام القصر. صنعتُ أربعة تماثيل في البداية: الملكة، الملك، وشقيقاه. أربعة رؤوس، ثبتُ هياكلها بالمسامير إلى الألواح فوقها، وغطيتها بالخرق الرطبة، وخبأتها في خزانتي بعد أن ينتهي عملي الليلي. من ثم، بعد أن تنامي عدد الرؤوس، خبأتها في خزائن مشغلنا. رؤوس فقط، أما الأجساد فمن الممكن صنعها لاحقاً في أي وقت.

شكلُ الرأس العام يتكوّن بسرعة نسبياً، لكن تتلوه شهور من التعديلات. عندما أشارك على الانتهاء من رأس ما، قد أحقّق إليه طيلة ساعات، من ثم لا أدخل عليه إلا تعديلاً واحداً صغيراً، قد لا أضيف سوى كتلة واحدة من الصلصال الرطب، لا يتجاوز حجمها حبة أرز، خلال ساعتين كاملتين. من ثم، أعود إلى فراشي كي أحلم بالرؤوس الصلصالية، ولكن... البشرة المصنوعة من الصلصال، تصبح عديمة المسام بعد أن تُسوّى وتجفّ، أما الجلد البشريّ فتغطّيه المسامات والندوب الصغيرة، نظّارتي مصّرة على ذلك. كي أجعل العائلة الملكية التي صنعتها أقرب إلى الواقع، سألتُ إليزابيث ما إذا كان بوسعي أن أكل بضع برتقالات في خزانتي، فأرسلتها لي. قشرة البرتقالة تشبه جلدنا، لأنّها مليئة بالمسامات. بعد أن أخذتُ طبعة لقشور البرتقال، اكتشفتُ أن بوسعي نقل الانطباع المعكوس الذي حصلتُ عليه إلى جلد الرؤوس الملكية الجصي، كي أهبها كلّ تلك التفاصيل. ارتسمتُ كلّ تلك المسامات الصغيرة أمامي، كأنّها رؤوس حقيقة مخلصة للواقع. تراجعْتُ خطوة للوراء، وشفقتُ!

بهذه الطريقة، أخذت طبعات للعائلة الملكية. غطّيتُ كلّ تلك الوجوه

الملكيّة بالكلس الخامد، كأنني أغتال ما صنعتُ، وتخزّبت الرؤوس الصلصالية عندما نزعْتُ الجصّ عنها. مزجتُ الشمع، صببته في القوالب، فتحتها، وها هي ذي هنا! ما كان مجرد صلصال في السابق، أصبح الآن بشرة من الشمع. هل هذه هي الملكة؟! هل هذه هي جبهتها العريضة، وشفتها السفليّة البارزة؟! أغمضتُ عينيّ، ثمّ فتحتهما مجدّداً. هل هذه هي الملكة؟! لم آخذ لها طبعة مباشرة، بل نحتّها بناء على ملاحظاتي فقط! أغمضي عينيك، افتحيهما. أجل، أعتقد أنّها هي، إنّها الملكة بكلّ تأكيد.



إنّها علاماتي، صنعتها أنا، بيديّ، بأفكاري. ها هي ذي الملكة أمامي، وليس هي فحسب، بل ها هي ذي ماري غروسهولتز أيضاً، وكلتاها على قيد الحياة في هذا الرأس الشمعيّ. لم أستطع أن أتوقّف ما إن فهمتُ هذا، إنّهُ كلّ ما أريد فعله.

رقصتُ حول رأس الملكة. لقد صنعتكِ! فعلتُ ذلك! أهلاً وسهلاً بك!
«ما هذه الضجة؟! ستوظفينهم جميعهم!». كانت هذه باليهه، «ما الذي
يجري هنا؟ ماذا تفعلين؟ لماذا... هذه هي الملكة، أليس كذلك؟!».

«قولي هذا مجدداً!»

«هذه هي الملكة!»

«مجدداً!»

«هذه هي الملكة!»

«مرّة أخرى، يا باليهه الجميلة!»

«إنّها الملكة!»

أجل! إنّها الملكة حقاً، وتبعها بعد ذلك الملك (مرّة أخرى)، وكونت
دارتوا، وكونت دو بروفانس... عائلتي الملكية! ليلاً، أو عندما تذهب
إليزابيث بعيداً، كنتُ أجلس مع رؤوسي الملكية وأتحدّث معها كأنني فرد
من العائلة، فضلتُ أن أقضي وقتي معها عوضاً عن صحبة الناس الحقيقيين.
احتفظتُ بها لفترة طويلة، إنّها غالية عليّ، إنّها رؤوسي الأولى! سيستقبلونها
بالتهليل في «خزانة عجائب الدكتور كورتبوس»، كأنّها انتصار، إنّها عائلتي
الملكية، هكذا قلتُ لنفسي في خزانتي. ما إن تصل الرؤوس إلى هناك،
فكرتُ، سيسمح لي سيّدي بالبقاء هنا، سأطلب منه مجدداً أن يعفيني من
خدمته. هكذا قلتُ لنفسي... لكنني كنتُ أكذب بلا شك، أنا أريد أن أحظى
بالتقدير! ومن منّا لا يرغب بذلك؟! كلنا نريده.

وهكذا، خنتُ نفسي.

أرسلتُ الرؤوس بعيداً

كتبْتُ رسالة شرحْتُ فيها لمن يعود كلّ رأس، وارفقتها بالاسكتشات
التي رسمتها. وضعتُ كلّ رأس شمعيّ ضمن قلبه الخاصّ، وربطتُ نصفي
القلب بحبل توخيّاً للحماية، ثمّ وضبتُها في صناديق وأرسلتها إلى البوليفار.
أغمضتُ عينيّ، تخيلتهم هناك يفتحون الصناديق، وحرزتُ نوعاً ما لأنني لن
أكون حاضرة كي أشاهد ذلك... لكنّ بيتي هنا، أنا أنتمي إلى هذا المكان،
إلى خزانتي، إلى مشغلنا أنا وإليزابيث. لا بدّ أن أنسى تلك الرؤوس الملكية

الآن، قلتُ لنفسي، وأن أركّز على القطع البشريّة الأخرى التي لطالما
أحببتها... لكنني أشتاق إلى رؤوسي، الحياة باهتة من دونها!
بعد أسبوع، وصلتني رسالة من سيّدي:
عزيزتي ماري غروسهولتز الصغيرة،
سنأتي أنا والأرملة بيكو يوم الأحد القادم إلى فرساي، كي نشاهد قاعة
الجلوس الكبرى بأنفسنا، ونحكم على التشابه. نتوقع منك استقبالنا عند
البوابة، وأن تأخذينا كي نرى موضوع منفاك الطويل.
أذكرك: ما أزال سيّدك.
كورتىوس

الفصل الثالث والأربعون

عائلتي في فرساي

أنزلت العربى ركبها، لا مجال للخطأ. أهل فرساي يلتزمون بالقواعد، وهم صارمون بشدة، وليسوا مبتهجين بالضرورة مع أنهم يلبسون الكثير من الألوان. بالمقابل، أهل منزل القروء صاخبون منتصرون ويلفتون الأنظار كثيراً. إنهم لا يتناسبون مع فرساي، ولم يُخلَقوا له، هذا القصر ليس نمط العمارة التي تناسبهم.

أمامي، ثمة عالمان يتصادمان.

ها هو ذا الدكتور كورتىوس، يبدو مرهقاً ومتوتراً، لقلقٌ عجوز في بزة جديدة تبرق، ناشز عن المكان، وثمة بقعة سوداء كبيرة على خدّه الأيسر. «سيّدي!» نأديته، «أنا هنا!».

«هل هذه أنتِ؟!»، قال، وابتسامة محبّبة تشطر وجهه، «إنّها أنتِ! أنتِ حقّاً! كم كبرت!».

«سيّدي! دكتور كورتىوس!»

«ماري! ماري الصغيرة!»

«صغيرة! إنّها مجرد: صغيرة!»، هدر صوتٌ خلفه.

الأرملة المنزعجة، بوجهها الأحمر، تمشي متوكئة على العصا، وتبدو خرقاء في فستان متنفخ ضخّم، وتدخّن سيجاراً. «مدام!»، قلتُ.

«يا للمشقة التي جعلتنا نخوضها!»

«صغيرة!»، نبح صوت آخر.

ها هو ذا جاك، يعرج ويتصارع مع جاكيتته. «نانكين أصفر⁽¹⁾! من اليابان!»، قال «آه! جاك!» قلتُ، «عزيزي جاك! ما هي الجرائم التي وقعت منذ أن رأيتك آخر مرة؟! والإعدامات شنعاً؟!».

«الكثير! الكثير منها!»

لقد جاءت العائلة بأكملها - ما عدا إدموند بالطبع، لم يأت ولم يتكلموا عنه - فضلاً عن أشخاص آخرين أيضاً، صبية صغار يلبسون جميعهم البزة ذاتها مع زهرة حمراء مثبتة في عروة الجاكيت، طُرز في مركزها حرف (ك). يعمل تحت إمرة جاك الآن صبيّ، صبيّ فقط جلفٌ حليق الرأس. «من هؤلاء؟!»، سألتُ.

«مَنْ حقاً!!» قالت الأرملة، «لقد ازدهر عملنا كثيراً منذ أن تركتِنا، ولدينا موظفون عديدون الآن. لم نستطع أن ننتظر عودتك إلينا». «بالطبع لا، مدام»

«لدينا أربعة وعشرون موظفاً آخرون، ولا نقتصر على منزل القروء فحسب، بل ازداد عدد أبنيتنا أيضاً»

«مبانٍ! يا للسماوات!» هتفتُ. بدا لي أن الأرملة بدورها واكبت هذا التوسّع العمرانيّ الاستثنائيّ، وأن جسدها قد تضخّم ونما أيضاً. «لم أفكر بذلك قط!» قلتُ.

«تفكيرك محدود كما أذكر، ولهذا السبب تُلقَّبين بـ: صغيرة. أليس كذلك؟»

ثمّة صبيان اثنان، يحملان صندوقين ثقيلين من الورق المقوّى.

«ماذا فيهما؟»، سألتُ «هذا ليس من شأنك» زجرتني الأرملة، «والآن هيا، أدخلينا، دعينا نر كلّ شيء. لم نقطع كلّ هذه المسافة كي نتأمّلك، لا، لا أعتقد ذلك في الواقع».

دللتُها على النوافذ التي أُنْفَرَج منها، وأشرتُ إلى السطح. لم يمرّ وقت

1 - قماش من القطن الطبيعي يتراوح لونه بين الأصفر والبنيّ، متين ويدوم طويلاً، يُسجّ يدوياً في الصين القديمة. المترجمة

طويل حتى قُرِعَتْ أجراس المصلّى الملكي، وحن موعد الدخول. تنقلت عينا الأرملة في أرجاء المكان، سيّدي يتقلّد سيفاً استأجره عند البوابة، وبدا أشبه بكلب غرائهاوند ذي ذيل مبتهج.

«هل أعجبتكم رؤوسي؟»، سألتُ.

«إنّها قدرة جدّاً في الحقيقة»، قالت الأرملة.

«إنّها كبيرة جدّاً كما ترين» أجبتُ، «ضخمة، ولذلك يصعب الحفاظ عليها نظيفة. ثمة قطط بريّة أيضاً، وفأر في خزانتي... ماذا عن رؤوسي؟».

«هل يسمحون بدخول أيّ فرد؟!» سألت الأرملة، وهي تتفحص الناس الذين يحتشدون استعداداً للدخول إلى «قاعة الجلوس الكبرى». «نحن مختلفون بالطبع!» أضافت بصوت عالٍ، «فتاتنا هي فتانة في جناح الأميرة إليزابيث! ماذا يوجد خلف ذلك الباب؟».

«حان الوقت» قلتُ، «للدخول إلى القاعة. يجب أن نسرع».

«لا أحد يستعجلني! أليس كذلك يا دكتور كورتيوس؟»، قالت الأرملة.

«آه، لا يا صغيرة، لا يجب أن يستعجلها أحد!»، قال.

الحشد ينتظر في غرفة الحرس. بسرعة، فتح الصبيان الصندوقين، وبدأ بإخراج محتوياتهما. اكتشفتُ أنهما الرأسان الشمعيّان اللذان صنعتُهما، للملك والملكة!

«لا رجاء!» صرختُ، «لا يجب أن تأخذيهما إلى الداخل معك! لا يجب

ذلك!»

«بل سنفعل هذا!» أجابت الأرملة، «كي نحكم على دقّتهما».

لم أتمكن من إيقافهم، لم أستطع ذلك! دخلوا، الأرملة أولاً، ثم كورتيوس، ثم الصبيان اللذان يحملان الرأسين الشمعيّين، وتلاهم جاك وخادمه. لم أشقّ طريقي بين الحراس السويسريّين كعادتي، بل بقيتُ بالقرب من النوافذ، ولذلك فأتتني مشاهدة معظم الجلبة التي حصلت!

على النقيض من زياراتي السابقة إلى «قاعة الجلوس الكبرى»، لم ينتقل الناس بسلاسة وانتظام من غرفة إلى أخرى، بل تجمعهم حشدٌ منهم أمام الطاولة التي تشبه حذوة حصان. الأحاديث تدور فقط على الجهة العاةة من

الحرس السويسريّ، أمّا في الجهة الأخرى، الجهة الملكيّة، فهناك يحدّقون فقط، ليس إلى الطعام، وإنّما إلى العوام.



رأيتُ الرّأسين آنذاك، رآسيّ، ولكنني لستُ من يحملهما. ها هم أولاء: ملك وملكة، وأمامهما ملك وملكة أيضاً. الشبه تضاعف! شعرتُ بالسعادة في البداية، أنا من صنعتُ هذا الشبه، لكن سرعان ما داهمني شكّ مفاجئ، واكتسحني. الرّأسان المرفوعان يفتقران إلى جسديّين، والأسوأ من ذلك أنّهما أصلعان، لا يضعان باروكتيّن، وكأنّ أحداً ما سلخ جلدتهما! إنّهما عاريان على نحو رهيب، تعوزهما الزينة، ولا يوجد سوى محاجر خاوية في مطرح العيون! يبدوان رأسين قادمين مباشرة من غرفة التشريح، وكأنّ الملك والملكة الحقيقيّين يشهدان موتهما بأعينهما! لم أقصد ذلك، هذا ليس صائباً! إنّها غلطة رهيبة! لا يجوز أبداً أن يجتمع ملكي وملكتي، بالملكين الأصليّين! من ثمّ، سمعتُ تصفيقاً مميّزاً، إنّهُ كورتيوس بكلّ تأكيد! ففكرتُ: يا للروعة! كم هذا رائع بعد كلّ شيء! لكنني سمعتُ عويلاً مباشرة، عويل امرأة، من ثمّ ما يشبه نباح كلب، وبعدها صراخاً وزعيقاً وبكاء.

ركضتُ بعيداً

هربتُ

اختبأتُ.

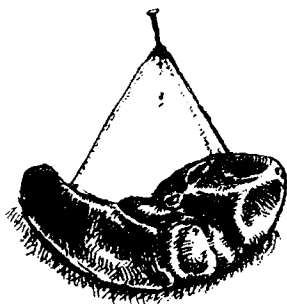
الفصل الرابع والأربعون وَأُغْلِقَت أَبْوَابُ الْخَزَانَةِ!

عثرت عليّ خادماث دي بولينياك أخيراً، مختبئة في الباحة التي تُربى فيها الكلاب. تمّ اقتيادي على عجل إلى جناح إليزابيث، دُفَعْتُ إلى خزانتي، من ثمّ أُوصِدَتْ أبوابها. بعد مضيّ ما يقارب الساعة، فُتِحَت الأبواب مجدّداً، وجَرَّتني دي بولينيك بنفسها إلى الخارج. رفعت خادمتان ثوبي، بينما حملت دي بولينياك عصا وضربتني عشرين ضربة قاسية. عاملتني كطفلة، مع أنّ بضع سنوات فقط تفصلني عن سنّ الثلاثين! عندما انتهت، أعادوني إلى الخزانة وأنا ألّهث، مكان الضربات يؤلمني، وقلبي يخفق.

هناك في خزانتي، محبوسة بلا شموع، تمدّدتُ في العتمة وتلصّصتُ من ثقب المفتاح. لم يتوقّف أحد قطّ أمام خزانتي، جاءت إليزابيث مرّة واحدة فقط راكضة صوب الخزانة، لكنّ إحدى أعوان دي بولينياك كانت خلفها، وجَرَّتْها بعيداً قبل أن تتكلّم معي.

من ثقب المفتاح، رأيتهم يفرغون مشغل مدام إليزابيث، أخذوا كلّ الشمع وكلّ الأصبغة وكلّ علب التربنتين وكلّ الزيت وكلّ الأدوات... أخذوا كلّ شيء! صرختُ، رفستُ باب الخزانة بقدميّ، ولكن لم يردّ عليّ أحد.

عندما فُتِحَ القفل أخيراً، رأيتُ بالييه التي طلبت منّي ألاّ أتفوّه بحرف. يا لغرابة أن أسمع ذلك من فمها! عندها، لاحظتُ شيئاً ما يتدلّى من باب خزانتي، قطعة من الشمع معلّقة بخيط. لم تأتِ إليزابيث كي تتكلّم معي كما اعتقدتُ، بل كي تعلق هذه القطعة على باب خزانتي، قطعة واحدة، متقنة الصنع.



«أنا معلّمة بارعة!» قلتُ، «لا شكّ بذلك!»

اللوحة تحت ذلك العضو الشمعيّ تقول:

بداخل الخزانة

يوجد طحال مدام إليزابيث

يُمنَع إزعاجه

أخبرتني باليه همساً، أن مدام إليزابيث ستراني الآن.

دخلتُ، تلك الغرفة ذاتها التي لا ترخّب بوجودي في أفضل الحالات،
بدت لي عدوانيّة الآن.

«ستعودين إلى منزلك»، قالت إليزابيث.

«هذا هو منزلي!»، قلتُ.

«لقد تمّت إعارتك لي لوقت قصير، وذلك الوقت انتهى الآن»

«لا أفهم!»

«سيّدك يحتاجك»

«لكنتني لا أريد الرحيل!»

«لا يهّم»

«يجب أن أبقى هنا معكِ!»

«أنتِ لستِ لي»

«لديّ الكثير بعد كي أعلمكِ إياه، ثمّة الكثير جدّاً بعد...»

«كلّ ذلك انتهى»

«ولكن... هل أستطيع أن آتي مرّة في الأسبوع؟ هل يمكنني أن أزورك؟»

«غروسهولتز، اسمعي يا فتاتي، اسمعي، لن أراك مجدداً»

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً!»

«هذان الرأسان رهيبان! أصلعان، وبلا عيون! لقد انزعجت الملكة

كثيراً... وجهان، فمان فارغان، وجنات متنفخة، كوجوه العامّة في الحانات!»

«لم أقصد أن...»

«لم يكونا ملكاً لك في الواقع، لم يكونا ملكاً قط! لم تطلبي الإذن، بل

أخذت فحسب. لقد غرّم سيّدك، وكانوا سيحبسونهم لولا أن تدخلت. أحدهم

كان عنيفاً جداً، واضطروا إلى إيقافه بالقوّة. لقد اعتنينا بك، لقد أطعمناك

واهتممنا بك وأحبيناك، وكان جزاؤنا أنّك عرضتنا كأننا خنازير في زريبة!»

«كلّا، بل كما تبدو عليه في الحقيقة، كما تبدو بالضبط»

«لا يحقّ لك أن تحكمي علينا»

«لم أفعل!»

«لا يجوز أن تنظري إلينا، الخادمة لا تنظر أبداً إلى ملك وملكة. يا لهول

ما فعلت، يا ماري! كيف سمحت لنفسك أن تصنعي هذين الرأسين؟!»

«من فضلك يا إليزابيث، صدّقيني أرجوك، لم أستطع إيقاف نفسي! أنا

نادمة على ذلك الآن، أنا في غاية الأسف، لكنني كنت بحاجة ماسّة إلى ذلك

عندما صنعتُهُما، لم أستطع أن أكبح نفسي! لن أعيد الكرّة!»

«كلّا، لن تفعلي»

«أعدك بذلك»

«فات الأوان»

«مكانني هنا معك»

«لا، ليس بعد الآن»

«مدام إليزابيث، هل تطرديني؟!»

«ماري غروسهولتز، ليس سيّدك وحده من أصّر على رحيلك، عليّ

أن أكون راشدة الآن، وأن أتخلّى عنك. لن أراك بعد اليوم، اكتفيثُ من اللعب... يقولون إنني تُركتُ بمفردي لفترة أطول ممّا يجب»
«بمفردك؟؟ لكنتي كنتُ معك!»

«البقاء وحيدة هكذا لن ينفعني، سأقضي وقتاً أطول مع عمّتي من الآن فصاعداً. وداعاً يا ماري غروسهولتز، فكري بي. لا، لا، لا تلمسيني، لا يجوز!»

«إنّها أنا، أنا قلبك، من تتكلّم. اسمعيني، أتوسّل إليك، أريد أن أبقى معك»

«كلّا، لن أبكي اليوم، لقد تخلّصتُ من هذه العادة»
«أنا أبكي!»

«لا يجب أن يملك الخدم مشاعر. أنت مصابة بالزكام، سأصلي من أجلك كي تتحصّني. أياً كانت مشاعرك، تحكمي بها، خبئيها بداخلك، لا يجب أن يراها أحد! كم يبدو مظهرك غريباً! هل كنتِ قبيحة هكذا دائماً؟! لعلّك كنتِ كذلك حقّاً، ولا بدّ أنّي اعتدتُ على قباحتك»
«كيف ستتدبرين أمورك؟! ماذا سيحلّ بك؟!»

«وكنتِ تظنين أيضاً أننا متشابهتان؟! لن يجرؤ أحد على قول ذلك بعد الآن!»

«ستتحوّلين أنتِ نفسك إلى عمّة عجوز بحلول نهاية الأسبوع!»
«وداعاً ماري»

«سترسلين بطلبي، قلبتِ دائماً أنك ستفعلين! سأنتظرك»
«وداعاً، وداعاً»

«ألا يمكنني أن أعتذر لك؟! ألا تدركين أنني آسفة، آسفة جدّاً؟!»
هديتها الأخيرة لي، كانت الطحال الشمعيّ.
«إليزابيث!»

وهكذا، لم أتعلم فقط أن من نحبّه قد يُحظر علينا ويمنّح لسوانا، بل إن من نحبّه قد يهرب منّا أيضاً، وأنا قد نفتح له أذرعنا لكنّه لن يأتي إلينا! إليزابيث التي أحببتها لم تعد موجودة، لم يبقَ منها سوى قشرة الآن، مجرد

شخصية من الجص، مجوفة، لا يوجد بداخلها سوى الهواء الراكد العاجز عن الخروج.

كم تمنيت أن أكسرها وأفتحها!

سمحوا لي أن آخذ أشياءي عن الرفوف.

أنا أتسلل إلى العالم، إلى أجزائه الصغيرة. لا أفرض نفسي بغرور، بل أبحث عن الثغرات كي أستوطنها. والآن، انغلقت ثغرة أخرى.

رتبت أشياءي في صندوقي، الذي نُقل إلى الأسفل. فتحتُ باب غرفة إيزابيث، ورأيتُ بيت يسوع الجصي. «ستأتي معي» قلتُ، «ولكن احترس، كي لا تسقط من نافذة عالية». كانت خزانته المبطنة بالمخمل فارغة عندما فتحتها، لا بدّ أن إيزابيث قد أخذته معها... لقد هزمني! بعد ساعة، عندما ذهبتُ كي أودّعها، وجدتُ حجاباً يقفون على باب الغرفة التي تحتفظ فيها بكل أغراضها الغاضبة، ولم يسمحوا لي بالدخول. يلزمني رأس واحد أخير، لا يمكنني أن أغادر من دونه!

«مدام إيزابيث! يا مدام إيزابيث!» ناديتها، «أرجوك يا مدام إيزابيث، أرجوك! لم أصنع لك تمثالاً أبداً، لا بدّ أن أصنع لك واحداً، من أجلي أنا وليس من أجل أي أحد سواي! آه، أرجوك يا مدام إيزابيث! إنها أنا قلبك، من تناديك! أنا طحالك لو شئت! ردي عليّ»

ظهرت إحدى مرافقاتها النيبلات.

«ديمون! ديمون! حمداً للسموات أنها أنت! دعيني أدخل، هلا فعلت؟!»
«لاحظي من فضلك أن اسمي هو الماركيزة دي مونستيه - ميراثيل»
قالت، «ونحن لا نعرفك. هل عاشت امرأة تحمل اسمك يوماً ما هنا في فرساي?!»

«من فضلك يا ديمون!»

«لا تخاطبيني!»

«أرجوك، لا بدّ أن أودّع مدام إيزابيث»

«خدماتك لم تعد مطلوبة»

«هل لي أن أرى وجهها؟ للحظة واحدة فقط!»

«يجدر بك الذهاب الآن، هذا ليس مكانك»

استدارت، استدارت ديمون بصرامة! لم أرها هكذا من قبل: راشدة! إنهما من تفضلهما إليزابيث الآن عليّ، ديمون ويسوع الجصّي الملوّن! اقتادني خادمان إلى الأسفل، ورافقاني على عجل.

ونحن نهول في الردهات، اكتشفتُ أنني لست الوحيدة التي حزمت متاعها. الردهات مليئة بالصناديق، والخدم يركضون هنا وهناك حاملين أشياء ملفوفة بالكتّان. «إلى أين يذهبون جميعهم؟!»، سألتُ، «لماذا يغادرون?!»، لكنّ مرافقيّ لم يجيبا.

وجدتُ جاك بانتظاري عند البوّابة، ففرحتُ لرؤيته. ثمة كدمتان سوداوان حول عينيه، وجبهته مجروحة، كما أنّه عاملني بأسلوب بارد غريب! خادمه الضاري يقف إلى جواره، مغطّي بالكدمات أيضاً.

«هل ضربوك يا جاك؟! آه يا جاك، كم يؤسفني أنّهم فعلوا ذلك!»

«لا يمكنهم إيذاء جاك!» قال، «لا يمكنهم».

عندما انطلقت العربّة بنا، لم أفكر سوى بالحبّ. لقد أحببتُ إدموند بيكو قبل أن يأخذه منّي، والآن لديّ قلبٌ في أحد جيوبي، وطحال في الجيب الآخر، وهما كلّ ما يلزمني كبرهان على الحبّ! لقد فرضتُ نفسي على العالم، لقد تركتُ آثاراً صغيرة على الشمع!

سترسل بطليبي، فكّرتُ، لا بدّ أنّها ستفعل!

«خزانتني!» صحتُ، «أريد خزانتني!»

لكنّ خزانتني أوصدت، ولن أعود إليها أبداً.

الكتاب الخامس

1793-1789

قصر الشعب

منذ أن كنتُ في الثامنة والعشرين،
إلى أن بلغتُ الثانية والثلاثين من عمري



الفصل الخامس والأربعون

دخول، خروج

حدّق جاك إلّيّ طيلة رحلة العودة إلى باريس، وكذلك خادمه حليق الرأس. إن كنا ستبادل الحديث بأيّ حال من الأحوال، فأنا من يتوجّب عليها أن تبادر بالكلام كما استتجّت.

«من هو صديقك هذا، يا جاك؟»

«إنّه فتاي، إميل»

«مرحباً يا إميل، يسرّني أن أتعرف إليك. أنا ماري»

لوى إميل شفّتيه

«إنّه يشبهك تماماً» صرختُ، «أنتَ تقوم بهذه الحركة أيضاً!».

«إنّه يقلّدني قليلاً، لا أمانع ذلك. إنّه فتاي، ويتلقّى أجراً كي يساعدني»

«يدفعون له، أليس كذلك؟»

«كلّنا نتلقّى أجوراً»

«يا له من تغيير! فضلاً عن الكثير من الأشخاص الجدد!»

«أجل، المنزل أكبر كثيراً من السابق، ولديّ إميل الآن، ونحن ننسجم معاً

على محو رائع»

كشّر إميل عن أسنانه، وزمجر عليّ.

«لا بأس يا إميل، إنّها صديقة، غابت طويلاً»، قال جاك.

«أنا هنا الآن!»

«أجل، بالفعل»



في البداية، اعتقدتُ أن وزن جاك بوفيزاج قد ازداد قليلاً فحسب، لكنني اكتشفتُ أن الشحم لم يتراكم في وجهه، بل الولع! لقد تعلّق بهذا الصبيّ، والأبوة هي التي أضافت لمسة ضئيلة من اللين إلى وجهه! في غيابي، عثر على مكان آخر يوجّه إليه حبه! هذا منطقيّ كما أفترض، لكنّه يؤلمني مع ذلك. عدنا إلى باريس عبر الشوارع المتعرّجة المزدحمة، الأشدّ بوساً ممّا أتذكّرها، ووصلنا إلى البوليفار، وها هو ذا: منزل القروود! لقد تضخّم في غيابي. شعرتُ بالخجل منه، الأمر أشبه برؤية صديق قديم بعد عقد من الزمن، كان نحيلاً فيما مضى لكنّه مفرط البدانة الآن! كان شابّاً، لكنّه الآن في منتصف العمر، وسمين.

ثمّة بابان كبيران أماميّان الآن، لا باب واحد فحسب، مكتوب على أحدهما «دخول»، وعلى الآخر «خروج». جارنا القديم في البوليفار، «مسرح العالم الصغير»، هُدم واستولى منزل القروود على موقعه. إلى اليمين، في البقعة الخالية التي انتصب عليها مقهى الشطرنج قديماً، شُيّدت أبنية جديدة ملحقة بمنزل القروود، وكلّ هذا الازدهار يحميه سياج معدنيّ عالٍ، وبوابة ضخمة تعلوها قضبان حادة، علّق بها جرس هنري بيكو القديم. قادني جاك عبر هذه البوابة، فاتّجهتُ صوب الباب الذي يحمل لافتة «دخول»، ولكنّه أمسكني من ذراعي قبل أن أصعد درج المنزل.

«من الخلف يا صغيرة، ادخلي من الخلف»



فُتِحَ الباب مجدّداً، وارتجفت الرؤوس في المطبوعات. هذه المرّة، دخل سيّدي العزيز، يغطّيه الحرير والمساحيق، شديد الهزال وأشبهه بجثّة، ثيابه ومجوهراته جديدةٌ تبرق لكنّها تغطّي جسداً عجوزاً مؤلماً. الشامة التي رأيتهَا على خدّه في السابق، انتقلت إلى ذقنه الآن، لكنّها لم تحسّن مظهره كثيراً. «أيتها الأرملة بيكو العزيزة!»، قال.

«دكتور كورتيوس»، قالت وهي تهزّ رأسها.

«هل أنت بخير؟»

«لا بأس، لا بأس»

«أنا شخصيّاً بأفضل حال»

«يسعدني ذلك»

من هذا الحوار، فهمتُ أن الأرملة وسيّدي لا يلتقيان يومياً.

«لقد عادت»، أعلنت الأرملة.

«أود أن أعود إلى فرساي»، قلتُ.

«ولكنّهم لا يريدونك يا ماري» قال سيّدي، «لقد أعادوك إلى المنزل».

«لقد قلتُ لها ذلك لتوّي، لكنّها لا تصدّقني»، قالت الأرملة.

«سوف ترسل إليزابيث بطلبي!»

«يا للمشكلة التي سبّبتها!» زعقت الأرملة، «ضرب الحراس السويسريّون

جاك، ونزف رأسه. إنهم أبناء بلدك!».

«يؤسفني ذلك»

«يجب أن تكوني آسفة»، قالت.

«هل سأثبت الشعر كما في السابق؟»، سألتُ.

«ستفعلين ما تؤمرين به» قالت الأرملة، «لربّما كنت في القصر، لكنّ المكان هنا مختلف، ويسمّى بمنزل القروء الكبير. لا أريد أن أسمع شيئاً عن أيّ مكان سواه».

«لا، مدم»

«أخشى أنه لا يمكنك الحصول على مفتاح خزانة الشمع، ماري»، أضاف كورنيوس.

«كلّا، بتاتاً»، أكدت الأرملة.

«ما يزال أمامك الكثير كي تتعلّميه، لكن ثمة العديد من الأيدي والرؤوس التي لا بدّ من الانتهاء منها، ولذلك يجب أن تباشري العمل عليها على الفور»، قال كورتيوس.

«يجب؟!»، سألته، «شكراً لك يا سيّدي، أشكرك على هذا».

«لا تتجاوزي مكانتك» قالت الأرملة، «ولا تدخلني إلّا حيث تُطلب خدماتك. العلّة خطيرة وغرفها غير آمنة، اصعدي إلى هناك وسوف تسقطين إلى حتفك. نصحنّا مهندسو منزل القروء، بأنّ نسمح لأحد بالصعود إليها».

«حسنّاً يا مدام. من فضلكما، هل لي بسؤال؟ هل ستعرضون العائلة الملكية في موعد الغداء؟»

ساد الصمت قليلاً، من ثمّ غمغمت الأرملة: «لا بدّ من تعويض جاك».

«هل ستعرضينها إذن؟!»، همستُ، «ستعرضينها!».

«لا تعجبيني الضجّة التي تصدرها! لم تعجبني قطّ»، قالت الأرملة.

«وهل سألتقى أجراً كالباقيين؟! هل ستدفعان لي أجراً الآن؟»

«نلتُ كفايتي من هذه المقابلة» قالت الأرملة، «لم أكن أتطلّع إليها، كما أنّها جعلت مزاجي أسوأ. سأخرج، سأعود في المساء، وقد أتأخّر كثيراً. أرسل أحد الصبية إن احتجت لي، سأكون بصحبة أناس أفضل».

غادرت وهي تغمغم. وقفنا أنا وسيّدي، كلُّ منّا يحدّق إلى الآخر، ولم نعرف ماذا نقول. أخيراً، غمغم سيّدي وهو يمسّد شامته: «لقد ذهبت إلى

قصر باليه - رويال. لديها غرف هناك، بمباركة دوق أورليان شخصياً، وهو من منحها الإذن». لم أقل شيئاً، فتابع: «إنها تبقى هناك معظم الوقت في هذه الأيام، وتدخن السيجار. نحن نضع أفضل تماثيلنا الشمعية هناك، كل الشخصيات الصالحة في المجتمع الراقي. المعرض ضخمة في الحقيقة! يا له من عنوان! يا للأجور التي ندفعها! أما هنا، فنضع كل المجرمين والمرعبين. هل تفهمين؟ السيئون جميعهم هنا، والصالحون كلهم هناك. إنها تشرف على الصالحين، أما أنا فأشرف على القبيلة الأخرى. إنها اتفاقية كما ترين، هكذا نعيش حالياً، منقسمين».

«لقد تضخم كل شيء منذ أن غادرت، يا سيدي»

«أجل» قال بمرارة، «لقد ازدهرنا»

«عذراً يا سيدي، لقد لاحظت وجود بقعة على ذقنك»

«حقاً؟» تمتم، وتلمس الدائرة القاتمة. «آه، أجل، أنا أنساها نهائياً أحياناً!

من المفترض بها أن تزيد جاذبيتي».

«وهل يتحقق هذا يا سيدي؟»



Fig. 1

«أنا أضعها من أجلها. هل تعرفين يا صغيرة، أنها كلفتني خمساً وثلاثين ليرة؟! إنها من النوعية الأفضل كما ترين، من التفتا السوداء. لم أقرر أين أثبتها بعد، أحياناً أضعها على خدي، وأحياناً على شفتي العلوية... ومؤخراً على ذقني، أظنها أكثر سعادة هناك! لكن الأمر لا يستحق العناء يا ماري، لأنها لا تنتبه أبداً».



Fig. 2.

صمت مجدداً، من ثم تنهّد تنهيدة تملؤها الملائخوليا، وارتجف قليلاً. «تعالى معي إذن!» قال، وانطلقنا. لم نتوجه إلى منزل القروء القديم، بل سرنا عبر جزء لا أعرفه من ذلك المبنى الضخم.

«هل أعجبتك الرؤوس؟ رؤوسي؟ قليلاً؟»، سألته.

«أنا مجرد آلام واختلاجات»

«لقد قطعنا شوطاً طويلاً من بيرن، يا سيدي»

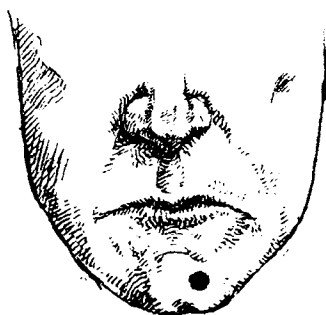


Fig. 3

«بيرن؟! أجل، أتذكرها يا صغيرة. أجل، إنه شوط طويل... ونعم! لقد تقدّمت كثيراً». حتّ خطواته، كأنّ أحدهم يطاردنا. «هل لي أن أخبرك بأمر ما يا ماري؟ لقد اكتشفوني! أنا المُسوّي العظيم، أنا أخلق المساواة بين البشر

كما ترين. لقد كتب الناس عني، وقرأت ما كتبوه، وهذا ما يلقّبونني به الآن: المسوّي العظيم!»، من ثمّ تطلّع إليّ مجدّداً، وكأنّه يستيقظ من حلم. «آه يا ماري العزيزة!» قال وهو ينظر في عينيّ، ثمّ ابتسم لي للمرّة الأولى. «لا يجب أن أقول هذا أمامها، إنّها جبّارة، ولكنني سعيد بعودتك».

«سعيدة برؤيتك مجدّداً يا سيّدي، ولكنني سأضيف أنني حزينة لمغادرة القصر. لقد تعلّقتُ بإليزابيث كثيراً، كما أنّها تعلّقت بي بدورها. أظنّ أنّه لا بدّ لي من العودة إليها، بأسرع وقت. ستعفيني من العمل لديك يا سيّدي، أليس كذلك؟»

«يتّم إخلاء فرساي يا ماري، الأرستقراطيون يرحلون»

«هل هذا صحيح؟! هل أنت متأكّد؟! لماذا يرحلون؟! لا أفهم»

«لا أعرف إن كان هناك أيّ شخص يفهم ما يجري، ما عدا الأرملة بالطبع، لأنّها درست ذلك العالم بامعان، ولا أحد يفهمه أفضل منها. كلّ شيء غرق في الفوضى يا ماري، ألم تسمعي بذلك؟! الناس يتجادلون كثيراً، وليتهم لا يفعلون، لكنهم هكذا، وهو ما يزعجها كثيراً. مسيو مرسيه يركض حولنا كأنّه مصاب بالحرقص، لا شيء مؤكّد»

«هل أبعدوني من أجل مصلحتي إذن؟!»

لم يسمعني على ما يبدو، من ثمّ سألني: «هل أحبّتك، إليزابيث تلك؟ كم جميل أن يكون المرء محبوباً! تعالي»

إخلاء فرساي؟! أيعقل هذا؟!!

هل سنحظى باليقين مجدّداً، بخصوص أيّ شيء؟!!

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السادس والأربعون

بداية جديدة

«هناك رؤوس، رؤوس جديدة يجب أن نفكر بها كل يوم» قال سيدي، «لقد كبر منزل القروء كثيراً، ولا نستطيع أن نتوقف الآن حتى لو أردنا ذلك. هذه يا ماري، هي ورشتك الخاصة».

«ورشتي الخاصة؟!»

«سيعمل معك جورج أوفروي كل يوم»
تقدّم صبيّ للأمام، «مرحباً يا آنسة»، قال وانحنى.
إنّه يخاطبني أنا!

«مرحباً يا جورج، سررتُ بالتعرّف إليك»

يا له من وجه معافى مبتهج! يا لأسنانه العوجاء! أحبيته من النظرة الأولى!
إنّه صبيّ عاديّ في الثالثة عشرة من عمره، منذ متى لم أعرف مخلوقاً كهذا؟!
«واجبي هو أن أنفذ كلّ ما تطلبينه منّي» قال، «أنا في خدمتك».

«يسعدني هذا» قلتُ، «لم أعرف أنني سأحظى بمساعد خاص بي! لم يكن لديّ مساعد من قبل!».

«سأبذل قصارى جهدي يا آنسة»

«لا أشك بذلك»

«لقد رأيتُ رؤوسك الشمعيّة قبل أن تُنقل إلى قصر باليه - رويال» هتف،
«إنّها مشهورة، حقّاً! يا لها من رؤوس!».

«شكراً لك يا جورج» هتفتُ، «هل نُقلتَ حقّاً إلى هناك؟ إلى باليه - رويال؟! رؤوسي! هل لي أن أراها؟!».

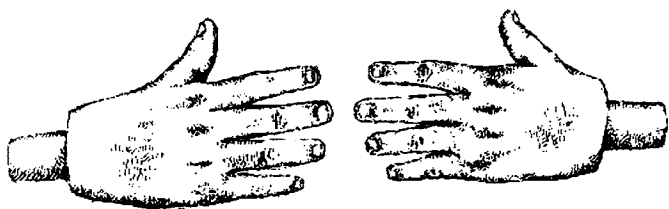


«عليك أن تتخطي هذا الأمر يا صغيرة» قال سيّدي، «عليك أن تباشري العمل، أماننا الكثير ممّا يجب إنجازه».

ورشتي هي غرفة صغيرة تتّصل بورشة سيّدي، وموجودة في الطابق الأرضيّ ضمن ملحق البناء الجديد. لقد كانت مخزناً صغيراً في الأصل، تمّ إفراغه وتجهيزه بطاولة للعمل، وكرسيّين. ليس لها مدخل مستقلّ، ولا يمكن الوصول إليها إلّا عبر ورشة سيّدي. ثمة نافذة واحدة، شديدة الارتفاع، ولا بدّ لي من الوقوف على كرسيّ كي أتمكّن من إلقاء نظرة من خلالها. على الرغم من كلّ ما سبق، إنّها غرفتي الخاصّة! ورشتي!

في مسائي الأوّل ذاك، لامست أصابعي كلّ الأدوات والأوعية وحتى الشمع. كُلفنا أنا وجورج بصناعة يدّين من الشمع لتمثال يعمل سيّدي على إنهاء رأسه، أمّا الجسد الثقيل فيتمّ تجميعه في ورشة مختلفة. مهمّتنا الأولى إذن، هي صناعة هاتين اليدين الضخمتين كمجرفتين، بأصابعهما الأشبه بقطع ضخمة من السجق، ولإنجاز ذلك استُقدِم خبّاز عملاق من شارنتون حجمه ملائم، كي نأخذ طبعة ليديه لقاء عمولة. الرأس الشمعيّ مليء

بالندوب، تغطيه باروكة ضخمة من الشعر الأشعث المتشابك، ويبدو كأنه أسد متهالك. اسم هذه الشخصية هو: كونت دي ميرابو.



في يومي الأول، أبقتني هاتان اليدان السميتان مشغلة، إلى حد أنني نسيتُ بعد قليل أن أفكر بإليزابيث في جناحها مع يسوعها الجصي. انشغل ذهني بسواها من الأمور، من ثم، ونحن نعمل، التفتُ إلى مساعدتي وقلتُ: «عذراً، يا جورج، لا أقصد التطفل، ولكن هل تتلقَى أجراً لقاء عملك؟».

«بكل تأكيد يا آنسة، أجرٌ منتظم كالساعة، وإلا لما بقيتُ هنا. أنا أذهب إلى غرفة المحاسب وأستلم أجوري. إنها وظيفة جيّدة».

«هل تظن أنني سأتلقي أجراً يا جورج؟»

«حتماً»

«هل تظن ذلك حقاً؟! أتساءل ما إذا كان بإمكانك يا جورج، أن تأخذني إلى غرفة المحاسب. إنها غرفة جديدة، ولا أعرف كيف أصل إليها»
«يسرني ذلك. الآن؟ بكل تأكيد، هذا أمر في منتهى البساطة».

مضينا عبر الردهة، من ثمّ انعطفنا عند الزاوية، وها نحن أولاء فجأة في المنزل القديم الذي أعرفه جيّداً. عندما صعدنا الدرج، حيّتنا دمية هنري بيكو التي تلبس الآن قميصاً أبيض فاخراً، ومعطفاً حريريّاً مقلّماً بخطوط فاقعة الألوان.

في المكان المدعوّ بغرفة المحاسب، ثمة خزانة حديدية طويلة، بدنها البارد مليء بثروة «خزانة العجائب» الضخمة. لها ثلاثة مفاتيح كما سأكتشف لاحقاً، الأول مع الأرملة، الثاني مع كورتبوس، والثالث يبقى مع المحاسب، الذي كان جالساً على دكة ضخمة عندما وصلنا. إنه شاب في

منتصف العشرينيات، أطلع قبل الأوان، بقايا شعره بنية اللون وكذلك عيناه،
ووجهه الطبشوري يفتقر إلى الدفء.



«هذه هي ماري غروسهولتز» قال جورج، «وهذا يا آنسة، هو مارتن ميلو.
إنه المسؤول عن الحسابات».

«أشار مارتن إلى نظارتي، وقال: «عشرون ليرة»، ثم أضاف بعد لحظة:
«لقد عشت في القصر».

«أجل، هذا صحيح»، قلتُ.

«والقصر دفع لنا خمسين ليرة شهرياً»، قال.

«خمسون ليرة!!»، دُهِلْتُ! بدا لي رقماً ضخماً جداً!

«نحن نكسب المبلغ ذاته هنا خلال بضع ساعات أحياناً»

«هل هو مالي؟! ذلك المال القادم من فرساي، هل سآخذه؟!»

«تأخذه؟!»

«بما أنه كان أجوراً لقاء خدماتي»

«لستُ مخوَّلاً بإعطائك مبلغاً كهذا»

«لكنّها أجوري، أليس كذلك؟!»

«ربّما، لكنني لستُ المسؤول هنا»

«عذراً، هل ستدفعون لي الآن؟» سألتُه، «بما أنني قد عدتُ، هل سأقبض أجراً؟»

«ليست لديّ تعليمات بخصوص هذا الأمر، لا معه ولا ضده»
«العائلة الملكية تتناول الغداء... أنا صنعتُ الرؤوس، إنها أعمالي!»
«حقاً؟ وماذا إذن؟»
«ألن تدفعوا لي؟»

«ما الذي تريدن مني قوله يا آنسة؟ لم أتلّق تعليمات لا أن ندفع لك، ولا بآلا ندفع. بلا تعليمات، لا ينتقل المال. كم تبدين بائسة! لا تقلقي كثيراً، أقول لك، هذا ليس بسببي. أنا أجمع، أنا أطرح، ولا أعرف ما هو رقمك. اهديني رجاءً»
«هل نعود إلى عملنا، يا آنسة؟»، سألني جورج.
«أظنّ أنه يجب علينا ذلك يا جورج»، أجبتُه.
«لا تحزني هكذا يا آنسة»
«لا يا جورج، كنتُ آمل فقط...»

عملنا طيلة ساعات بعد ذلك، وعندما حلّ المساء، تعالت همهمة في البناء، من ثمّ اهتزّت الأشياء في الورشة.
«إنّه الجمهور!» هتف جورج، «لقد فُتحت الأبواب، ودخل الزوّار. يهتزّ المكان قليلاً عادة، كما نتأرجح ونتمايل، منذ دخولهم وحتى مغادرتهم. إنها ضجّة جيّدة في الحقيقة كما تقول الأرملة، تسمّيها بـ: الازدهار».
اهتزّ البناء بأكمله ونبض بالحياة، مع قدوم الناس الذين دخلوا من البوابات. بعد قليل، ارتدى سيّدي معطفه وخرج.
«إنّه يخرج في المساء عادة» أخبرني جورج، «برفقة جاك وإميل».
«أين يذهبون؟»

«لا أعرف بالضبط. أماكن مظلمة، حلبات مصارعة الديكة وما شابه، حانات الشراب التي يندلع فيها العراك، مراتع المجرمين... هل ترغبين برؤية المكان بما أنّه غادر الآن؟ ثمة ثقب للتلصّص».
أمسك جورج يدي، وقادني إلى أسفل الدرج الخلفي، من ثمّ عبر ردهة معتمة. مرّ بنا رجل آخر، لم أره من قبل.

«ماذا تفعل يا جورج؟!»، سأل الرجل.

«أنا آخذ الأنسة غروسهولتز في جولة على المكان فحسب»

هل يلزمني شخص كي يريني بيتي القديم؟! أجل.

«هل يجدر بك فعل ذلك؟»، وبرز وجه الصبي الآخر من العتمة، نصف

غارق في ياقته الضخمة. هذا الصبي يعاني من حَوَل شديد، وعيناه متباعدتان

إلى حدٍّ أن كلاً منهما فقدت الصلة نهائياً بالأخرى.

«لستُ واثقاً أنه يجدر بك ذلك»، أضاف الصبي.

«أنا ماري غروسهولتز»، قلتُ.

«حقاً؟!»، أجاب، «وماذا إذن؟».

«لقد صنعتُ العائلة الملكية»

«وأنا الذي كنتُ أظنُّ أن الربَّ هو من صنعها!!». نظر إلينا، إحدى عينيه

تحدّق إليّ، والثانية إلى جورج، ثم مضى في طريقه.

«إنَّه آندريه فالتان، موظّف التذاكر. نحن لا نتعامل معه عموماً»

«هذا أفضل»

«ها هو ذا الثقب»

دلّني على ثقب في الجدار، استطعتُ أن أرى من خلاله العملَ العملاق:

أهل الشمع، وأهل اللحم والدم الذين يأتون لمشاهدتهم. يا له من شعب!

«أعتقد» قال جورج، «أنَّ بقيةَ أحياء باريس خلت من الناس الآن».

«أظنُّ ذلك»

ديكورات المسرح القديمة اختفت، المكان بأكمله معتم، والإضاءة

شحيحة. تبدو الجدران رطبة، الظلال السوداء تزحف عبر القاعة،

المجرمون وضحاياهم جميعهم مشغولون بأعمالهم. أمامي هنا «صالون

للصوص العظماء»، الذي يجمع أعتى المجرمين، تماثيلهم تقف في كلِّ

أرجاء المكان فخورة بما اقترفته. الأحياء يتجولون بين هذه الأرواح الميتة،

يصرخون ويضحكون عليها. ثمّة مقاعد تتوزّع هنا وهناك، حيث يمكن

للمرء أن يجلس قليلاً كي يستريح من كلِّ هذا الدنس.

«هل ترين ذلك الشخص النائم على المقعد؟»، سألني جورج.



هناك في الردهة، ثمة رجل في أواسط العمر، يميل رأسه على كتفه. اقترب منه شخصان أو ثلاثة، أشاروا إليه وابتسموا، ثم تقدّم أحدهم منه أخيراً ونقره على كتفه. لم يستيقظ الرجل، فهزّوه، من ثمّ زعق ثلاثتهم معاً: «إنّه من الشمع!».

«رجلٌ من الشمع يقلّد الجمهور!!»، هتفتُ.

«هذا النائم» قال جورج ضاحكاً، «هو نسخة شمعية عن سيبريان بوشار، يعمل بالرسم على البورسلان. لقد ربح اليانصيب».

اليانصيب كما أخبرني جورج، يُقام كلّ ستّة أشهر، وهو حدث يحظى بشعبية واسعة: توضع الأسماء في كيس، ومن يفوز بالقرعة يُصنّع له تمثال من الشمع. لقد ربح ثلاثة أشخاص حتّى الآن: خادمة تعمل بغسيل الأواني، مزّين شعر، ورّسام البورسلان، ووُضعت تماثيلهم هنا في المعرض كي

يختلطوا بالمشاهير وبالطالحين. خادمة مع مجرم، مزين شعر إلى جوار
لصّ، ورسم بورسلان جنباً إلى جنب عروس غرقت.
«يا لهذه الفكرة!»، قلتُ.

أصوات وهمهمة منزل القروء الموسّع، الأحاديث، الطرقات، القرع
الغريب، الصدى... كلّها كانت جديدة بالنسبة لي. استلقيتُ وحيدة على
سريري في تلك الليلة بعد أن غادر الجمهور، وأصغيتُ إلى المبنى الذي
يتنفس مصدراً أصواتاً أخرى شديدة الغرابة. المنزل يتكلّم، كما فعل دائماً
من قبل ولكن بلغة جديدة الآن، ويبوح بشكايات جديدة أيضاً. كلّما أوشكتُ
على الغفو، أيقظتني ضجّة مختلفة.

جلستُ في سريري، أنا متأكّدة من أنّي سمعتُ وقع خطي تقترب.

الفصل السابع والأربعون

زيارة

تكرّرت تلك الأصوات ليلة بعد ليلة، دقّت وخرمشت كلّما تمدّدتُ على سريري. أحياناً، وأنا نصف نائمة، يُخيّل لي أن شخصاً ما دخل إلى غرفتي، فأهّب من فراشي مذعورة وأنظر إلى الباب، لأجده مفتوحاً أحياناً، على الرغم من أنّني أغلقه دائماً قبل أن آوي إلى الفراش. لا بدّ أنه سيّدي الذي يسهر ليلاً، أقول لنفسِي.

ذات يوم، استيقظتُ باكراً مع انبلاج الفجر، فأدركتُ على الفور أنني لستُ وحيدة. ثمة شخص ما يجلس على المقعد أمامي! «مرحباً»، قلتُ.

لا جواب

«من أنت هناك؟!»

بقي هذا الشخص صامتاً بلا حركة.

«أهذا أنت يا جورج؟! لا تعبثُ معي! ماذا تفعل؟!»

لكنّ الشخص نظر إليّ فحسب، وعندما أشرق الضوء أكثر رأيتُ قلنسوة. من يجلس هنا معي، هو امرأة صغيرة.

«هل أنت...» قلتُ بتسرّع، «هل أنتِ إليزابيث؟! لقد جئتِ من أجلي!»

لكنّها لم تقل شيئاً

«كو كو»، قلتُ.

لم تردّ.

أشرقَت الشمس ببطء، ورأيتُ المرأةَ أمامي على نحو أفضل. إنها ترتدي ثوباً أسود وقلنسوة بيضاء، وتثبت على صدرها شريطة حمراء تحمل حرف (ك) في مركزها، كتلك التي يضعها كلّ العاملين هنا.

شيئاً فشيئاً، رأيْتُها بوضوح أكبر، إنها تحدّق إليّ بعينين سوداوين برّاقتين. «من أنت؟! من أين أتيت؟!»

لكنّها جلست ساكنة، وحدّقت إليّ بقسوة.

«تكلمني أرجوك، كلّمني! لماذا أنت هنا؟!»

لكنّها حدّقت إليّ فحسب.

انحنيتُ ودفعْتُها، فانقلبت إلى الأمام وسقطت أرضاً، وبقيت هكذا دون حراك.

مددتُ يدي ولمستُ شعرها... فوق!!

صرختُ...

من ثمّ فهمتُ! هذه المرأة الغريبة الصلعاء ليست حيّة، بل جماد! لم تكن حيّة يوماً، إنها دمية! دمية بحجم إنسان صغير، مصنوعة من الخشب وليس من الشمع، تلبس فستاناً قماشياً، وعيناها زجاجيتان.

أجلستُها كما يجب، إنها ثقيلة جدّاً، وخرقاء، تتساقط أطرافها هنا وهناك!

لقد وضعها شخص ما في غرفتي، كي يخيفني!

وجهها رهيب لثيم، يحدّق إليّ بعينين لا حياة فيهما! أعدتُ شعرها إلى مكانه، مع أنني لم أرغب بلمسه. عندما ربّتُ الدمية البائسة، تحرّك الباب، واندفع ظلٌّ كان واقفاً خلفه طيلة الوقت عبر ورشة سيدي، من ثمّ إلى الردهة. اندفعتُ خلفه، متبّعة صرير الأرضيّة، وكأنّ المنزل بحدّ ذاته يريد منّي أن أقبض على الجاني. توقفتُ أسفل درج العلّية في المنزل القديم، على حافة المنطقة المحظورة... ولكن لا يهمّني لو قتلّني العلّية، لا شيء سيوقفني.

تسلّقتُ للأعلى بمتنهى الحرص، ببطء شديد. عندما وقفتُ على الدرجة الأخيرة، حدّقتُ إلى العتمة ولم أرَ أحداً، لكن بعد مضيّ وقت طويل، وبعد أن هدأت أنفاسي، رأيْتُ رقعة صغيرة أفتح لوناً تلوح في الغبش، وهذه الرقعة تسير صوبي... واسمها، آه اسمها، أجل، اسمها: إدموند هنري بيكو!

الفصل الثامن والأربعون

ممنوع إصااق الإعلانات

إدموند بيكو، بشاربين، وشعر رمادي، وعينين تسكنهما الأشباح!
غطيتُ فمي بيديّ كي لا أصرخ.

مشى صوبي بهدوء، أشبه بنسمة ناعمة يحركها عنكبوت، وهمس:
«التهاب الطرق التنفسية، الشفاء مضمون مع هذا العلاج القويّ: نازاليا.
ينظّف كلّ الجهاز التنفسيّ، ويعقّمه، ويخترق طريقه وصولاً إلى أعماق أعماق
فجوات الأغشية المخاطية للحنجرة والأنف. يذيب كلّ البلغم والقشور،
ويزيلها، ويشفي الالتهاب، ويوقف طنين الأذنين، ويشفي الصمم الجزئيّ».
«آه يا إدموند!!» صرختُ، «ما الذي حلّ بك يا إدموند الحبيب؟!».



«هل تعاون من مرض جلدي؟» تابع، «الجلد الدهني، البثور، البقع، الاحمرار، والتي تنتهي بالإكزيمة وذلك الإحساس الرهيب بالحكة والاحتراق؟ هل ليرتان اثنتان هما ثمن باهظ لقاء علاج يشفي الإكزيمة نهائياً؟».

«إدموند! ماذا جرى لك؟! هل تعيش هنا بمفردك؟!»

«أقراص المُسهِّل بنكهة الفواكه المنعشة، طعامها مقبول للغاية. أقراص تامار آمار غريون الهندية لعلاج الإمساك، البواسير، الصفراء، الصداع، فقدان الشهية، ومشاكل الأمعاء والمعدة. تامار آمار غريون الهندية»

«إدموند! ما الذي فعلوه بك؟!»

«مصائد فئران!» قال، «مصائد جردان. لا قوارض بعد اليوم».

فكّري يا ماري غروسهولتز، فكّري.

«لن نتحدّث عنها، دعنا نجلس هنا قليلاً، دعني ألتقط أنفاسي»، قلتُ له.

«حلوى شرقية في باريس، الفستق بالجوز»

«أجل يا إدموند، أجل، بلا شك»

رأيتُ غرف العلّية الآن، إنها مسكونة! لقد وضع إدموند دمي خياط في كلّ الغرف الفارغة، وهناك أطباق وفناجين وطاولة صغيرة، عليها مفرش أيضاً... ولذلك توقّعتُ وجود شيء آخر.

«هل يعرفون أنك تقيم هنا؟ أقصد الجميع في الأسفل، أنت لا تختبئ حقاً... أليس كذلك

يا إدموند؟!»

أمسكتُ يده، أصابعه كلّها ملطّخة بالحبر.

«لا تلصقوا الإعلانات»، همس.

«لا يعرفون، أليس كذلك؟»

«كلّ من يلصق الإعلانات هنا سوف يُعاقب»

لا بدّ أنّهم يعرفون بوجوده، فأحدهم يجلب له طعامه إلى هنا. «هذا لا يجدي نفعاً يا إدموند!» قلتُ، ولمستُ وجهه، إذناه باردتان شاحبتان، ثمّ لمستُ شاربه الخجول.

«انتظرني هنا يا إدموند، سأعود بعد لحظات»

جلبتُ موسى حادة من مشغلي، وبعض الصابون الطريّ، ووعاء ماء،
وحلقتُ شاربي إدموند.

«ها أنت ذا» قلتُ، «هكذا أفضل الآن، تبدو أكثر شبهاً بنفسك»، لكنّ
مظهره في الواقع لم يختلف كثيراً بلا شاربين.

«أنت تعرفني يا إدموند، أعرف أنك تعرفني. لقد تركتَ شيئاً ما في
مشغلي صباح اليوم. لا أعرف ما الذي أصابك، لكنك ستعافي».

«لا تلصقوا الإعلانات»

«جيد جداً»، قلتُ.

رنّ الجرس في الأسفل.

«يجب أن أذهب الآن يا إدموند، لكنني سأعود فيما بعد. يجب أن أتحدّث
إلى بعض الأشخاص في الأسفل، أجل، لا بدّ من ذلك، لكنني سأعود».

وجدتُ جورج في ورشتي.

«إدموند بيكو» أعلنتُ، «إنّه في العلّية».

لم يقل شيئاً، ولكن لم تبدُ عليه علائم الارتياح.

«أين الأرملة؟!»، صحتُ.

«رجاء يا آنسة، لقد خرجت مبكراً اليوم»

«وأين كورتيوس؟»

«لقد خرج بدوره قبل قليل، منذ بضع دقائق فحسب»

«أنا أصدّقك. لقد سمعني أخرج إلى العلّية بلا شكّ، ولذلك غادر كي
يتجنّب المتاعب»

«هذا وارد»

«وجاك؟»

«لم يعد بعد»

«قل لي يا جورج، هل تعرف الأرملة بوجود إدموند في العلّية؟!»

«أجل. في الواقع يا آنسة، هي التي وضعته هناك»

«آخ! يا للمرأة الحقيرة!»

«لم يتوقف عن البكاء»

«يا للرجل العزيز المسكين! جورج، أخبرني بما حصل»

«لقد أصابته الحمى الدماغية يا آنسة، وتعرض إلى انهيار عصبي تام، من ثم فقد عقله بعد أن شُفي من الحمى»

«لم يخبرني أحد بذلك!»

«سامحيني يا آنسة، ولكن لم يجب عليهم أن يخبروك؟!»

«وهل يبقونه وحيداً في العلّة؟»

«يخفّ رعبه قليلاً عندما يبقى هناك بمفرده. هل رأيت دميته الخشبية يا آنسة؟»

«أجل رأيتها، لقد أفرغتني!»

«إنّه من صنعها، وهل تعرفين من تجسّد؟»

«إدموند صنعها؟! هل صنعها هو حقّاً؟ كلا، لا أعرف من تجسّد»

«صدّقاً، ألم تحزري؟»

«إنّها امرأة ذات وجه رهيب أصابني بالقشعريرة»

«صدّقاً، ألم تكتشفي شخصيتها؟»

«لا يا جورج، لم أحزر. أنا متأكّدة من أنّني لم أر امرأة تشبهها من قبل»

«لماذا؟! إنّها أنت يا آنسة!»

«أنا؟!»

«أجل أنت»

«وهل أشبهها؟!»

«نوعاً ما»

«آخ!»

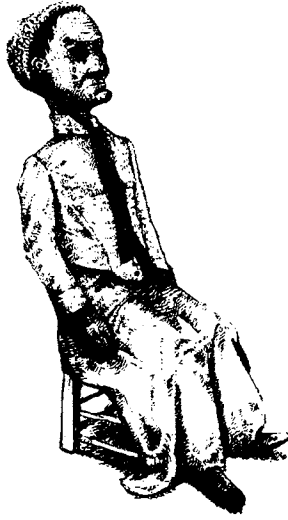
«إنّه أسوأ خبر أسمعته على ما يبدو!»

«إنّك صامتة جدّاً، يا آنسة!»

«كنتُ كذلك حقّاً.»

«ظننتُ إطراء» قال، أقصد أن تُصنّع لك دمية تشبهك».

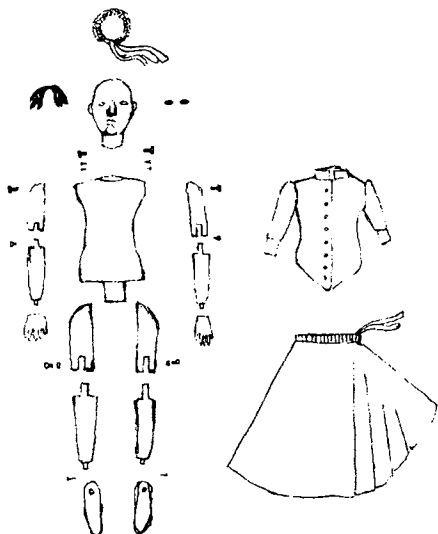
«أهكذا يتخيلني؟!»
«لقد صنعها من الذاكرة»
«أنا لست مغرورة، ولم أكن كذلك قط»



«لقد بذل قصارى جهده بصناعتها!»
«إنّها تلبس ثيابي القديمة، أستطيع أن أرى ذلك الآن، ولا بدّ أن لها
قياساتي ذاتها كما أفترض»
«في الواقع، لا مجال للالتباس»
«حقاً؟!»
«لقد تكبّد الكثير من العناء حتّى أنهاها»
«هل هذا صحيح؟!»
«هل أروي لك حكايتها؟»
«أجل جورج، احك»

«إذن، سأخبرك عن الدمية، لعلّ هذا يفيدك، وها أنا ذا أبدا: كلّما جاء
مسيو إدموند كي يزورنا، كان يجلس في البداية مع والدته قليلاً، أو مع دمية
والده، من ثمّ يصعد إلى العلية. هناك، زيارة بعد زيارة، نَحْتِكِ، صنعكِ

بمفرده، هناك في أعلى غرفة، بعيداً عن زوجته. صنع رأسك من إحدى عوارض العلّة، على الرغم من أنّ العلّة تدمرت كثيراً من ذلك، لقد قطع العارضة، وأظنّ أن العلّة انخفضت قليلاً منذ ذلك الوقت. بعد ذلك، كلّما جاء في زيارة، جلس معك هناك في أعلى الدرج»



«يا للجلبة التي أثارته الأرملة عندما عثرت أخيراً على الدمية!» تابع جورج، «لقد حطمتها إلى قطع! تناقصت وتيرة زيارات إدموند بعد ذلك، ولم تسمح له زوجته بالقدوم، وأتذكر أن شجاراً حاداً نشب بين مدام كورنيلي والأرملة... من ثمّ، وجدت هذه الأخيرة استخدامات أخرى للدمية، فوضعتها في النوافذ - أنا آسف يا آنسة - كي تخيف أطفال البوليفار عندما يتجسّسون علينا، كما استخدمتها أحياناً كثقل كي تكبس بها الأشياء، وكي تسند الأبواب المفتوحة أيضاً. أحياناً، يأخذها جاك إلى الدرج الخارجي، ويضعها خلفه عندما يجلس هناك. سُوح للدمية بالبقاء، وهذه هي قصّتها يا مدام، إن كنتِ لا تمانعين».

دموع، دموع من أجل إدموند، ومن أجلي، انتحاب، ومخاط.

«هل حالته سيئة جداً؟! سألت، «قل لي يا جورج».

«أعتقد ذلك»

«وهل طردته كورنيلي؟!»

«لم نعد نراها. لقد أعاده آل تيكر إلى هنا، ورفضت مدام كورنيلي بقاءه معها بحالته هذه، وحصلت على الطلاق في المحكمة. فعلت ذلك وفقاً للقانون، فاحتجّت أن مسيو إدموند لم يعد صالحاً كزوج بتاتاً، وعندما طلب القاضي منه أن يردّ، غمغم مسيو إدموند بهرائه المعتاد. وهكذا، ألغى القاضي زواجهما، وعاد مسيو إدموند إلى هنا»

«بشاربين، وأصابع يلطّخها الحبر؟!»

«لا تسمح له الأرملة بالاختلاط مع الجمهور، مظهره لا يبعث على السرور، كما أنّه يزعج الناس»
«إنّها تخفيه عن الأنظار!»

«أشخاص الشمع يخيفونه، وهو أكثر سعادة في الغرف العلوية. نحمل طعامه إليه، وإن حاول النزول سيعيده أحدنا نحن الصبية إلى هناك. تلك الغرف مخصّصة له، يقولون دائماً إنها خطيرة، ولكن فقط كي يبقى بمفرده هناك. إنّه راضٍ بوحدته، وأسعد من السابق. لقد ظنّوا أنك ستسبّب له الضيق، ولذلك طُلب منك عدم الصعود إلى العلّة».

«لكنّه عثر عليّ!»

«أجل، لقد اكتشف وجودك يا آنسة»

«إنّه يتفوّه بالهراء»

«إنّها إعلانات يا آنسة، إعلانات طُبِعَت في مطبعة آل تيكر. لقد حفظها كلّها، ولا يردّد سواها هذه الأيام. يتلوها مراراً وتكراراً، إعلانات مختلفة متنوعة، مرّة تلو مرّة. يستطيع القيام بالمهمّات البسيطة فقط، لا الصعبة. يعطونه أحياناً شيئاً ما كي يخطيه، لكنّه يخز نفسه بالإبرة»

«هل تزوره الأرملة؟»

«أحياناً، ولكنها سيّدة متكبرة، ولا تحبّ أن تبدو حنوناً أمامنا»

«وهل تتركه وحيداً هناك في الأعلى؟!»

«أظنّ أنه راضي تماماً عن ذلك»

«سنرى»، قلت.

صعدتُ إلى العلّية عدّة مرّات طيلة النهار، وحملتُ الطعام إلى إدموند. إنّه يبقى ساكناً هناك، يغمغم بكلمات من الإعلانات.

عندما عادت الأرملة أخيراً إلى المنزل، كنتُ بانتظارها. صعدتُ إلى الأعلى، أمسكت إدموند من يده، وأخذته إلى الأسفل، إلى مكتبها، ودخلنا من دون أن أقرع الباب.

«إنّه إدموند!» قلتُ، «هذا إدموند!».

بوجه غاضب يختلج، بفكين مُطبّقين، هسهست: «خذي بعيداً! خذي إلى الأعلى! سيصل الزوّار في أيّة لحظة!».

«ابقِ يا إدموند!»، قلتُ.

«أخرجيه من هنا!»

جاء أحد الصبية

«هذا هو ابنك» قلتُ، «ألا تريدونه؟!».

«الآن! اخرجوا حالا!»

«ملاحظة مهذّبة» قال إدموند بصوت أعلى من المعتاد، «ممنوع التعدي على هذه الأملاك»، ثمّ خرج من تلقاء نفسه بصمت، وتبعه الصبيّ. بقيتُ وحدي مع الأرملة.

«أنت لا تعرفينني!» قالت، «اعترضي طريقي مرّة أخرى، وسوف أخنقك، سأخنقك بيديّ هاتين، سأعصر الحياة منك، سأقضي عليك، وسيسعدني ذلك. بوسعي أن أفقد هذا الآن! من أنتِ يا حثالة، ومن أنا؟! هيّا انقلعي».

خرجتُ، ولكنّها البداية فحسب!

غسلتُ أصابع إدموند كلّ يوم، أطعمته، صعدتُ السلالم ونزلتها من أجله. أغريته بالدخول إلى الورشة من جديد. سأعثر عليه، فكّرتُ، على إدموند الحقيقيّ إن كان ما يزال موجوداً، سأعثر عليه.

«إدموند، أنت تعرفني» قلتُ له، «أجل أنت تعرفني. لقد عدتُ، أنا هنا

الآن».

«مستلزمات السفن»، قال.
«لن أتركك في العليّة»
«نشتري الأسنان»
«ستبقى هنا معي»
«غرف ملائمة جدّاً، اسألوا في الداخل»
«ستبقى معي، ستصبح رفيقي مجدّداً»
«تضمّ مساحة تعادل ستّة آلاف قدم»
«وفي مكان ما بين هذه الكلمات...»
«الواجهة تعادل تقريباً مئة وواحداً وثلاثين قدماً»
«سأعثر على إدموند الأصليّ»
«بموجب عقد إيجار...»

الفصل التاسع والأربعون

الجميع في الداخل

جاء لويس سباستيان مرسية لزيارتنا، دخل إلى المشغل حيث أصنع الأيدي أنا وجورج، بينما يجلس إدموند صامتاً في الزاوية.

«ها أنتِ ذي مجدداً يا صغيرة! عدتِ أخيراً إلى المسرح الحقيقي!»

«اخفض صوتك من فضلك يا سيدي! الضجة تؤذي إدموند! هل تراه هناك؟ هل عرفتِ ما حلّ به؟!»

«آه أجل، سمعتُ بما حصل... ولكن يا ماري» قال مبتهجاً، «لقد رأيتُ عائلتكِ الملكية!».

«حقاً؟! كيف حال إليزابيث؟»

«أقصد بالطبع، عائلتكِ الشمعية. يا لجرأتكِ، تعرضينهم هكذا!»

«شكراً لك. كيف حالك يا مسيو مرسية العزيز؟ كيف حال حذائك؟»

«نحن نتابع ما نقوم به»

بينما تابعنا عملنا أنا وجورج، روى لنا مرسية كيف أبقاه الزمن راكضاً من مكان إلى مكان، وكأنّ باريس بأكملها ترزح تحت تأثير زلزال مستمرّ. أحياناً، قال، رأى الأرملة تتجول أيضاً، مقطوعة الأنفاس، كي تجمع المعلومات. خلع حذاءه وأعطاه لنا، كي نراه، لقد اهترأ نعله كثيراً في الحقيقة. أرانا أيضاً كراساً صغيراً انتهى من تدوينه مؤخراً، عنوانه: «صالونات الشمع الشهيرة»، وقرأ لنا مقطعاً منه:

«في هذا الزمن الجديد المتسارع، أصبحت «خزانة عجائب الدكتور

كورتيسوس» فرجة حقيقة في قصر باليه - رويال، وفي البوليفار أيضاً. يقول البعض إنها الأفضل في العاصمة بأسرها، إنها تسلية ممتازة للرجال على اختلاف مهنهم، وللأطفال، والنساء، والمسنين، والفضوليين، والجهلة، والشجعان، والذين يشعرون بالسأم، لأولئك الذين تعبوا من الحياة، للذين يعوزهم الحماس، للذين يبالغون بأنافتهم، لذوي الملابس الرثة، للضعفاء، للأقوياء، للساداة ولخدمهم، للمقدامين، للصالحين، ولعموم أهل باريس كي يفهموا كيف تسير أمور عاصمتهم في هذه الأزمنة المتقلبة، وكذلك للأجانب كي يفهموا مدينة غريبة عنهم.

بالكاد يوجد شخص في باريس لا يكتثر بخزانة عجائب الدكتور كورتيسوس، في هذه الأيام الاستثنائية. أياً كان مستوى معرفتكم بهذه المدينة، خزانة العجائب تخبئ لكم المفاجآت دوماً، وكأنّ الدكتور كورتيسوس شخصياً يقرّر من يدخلها ومن يُستثنى منها. هذا معروف للجميع، ومن المعروف أيضاً أن الأعظم، والأغرب، والأشدّ إدهاشاً، والأفطع، يجتمعون هناك في المعرض. الشخصيات الحيّة الشهيرة قد تخيّب آمالك في الحياة الواقعية، لأنها تظهر لفترة وجيزة فقط وعلى بعد مسافة كبيرة، لكنها لن تخذلكم أبداً في خزانة العجائب! في هذا المعرض، صفوة السيّدات والساداة يملكون الوقت من أجلكم جميعكم ببساطة.

هذا صحيح: كورتيسوس، في هذه القاعة العظيمة، ألغى الامتيازات! لقد حطّم كورتيسوس كلّ قوانين الإتيكيت، وألغى التقسيم الطبقيّ، فأين يمكن للشحاذ أن يقترب من ملك؟! وأين يمكن للتافه أن يلمس العبقريّ؟! وأين تستطيع القباحة أن تدنو بلا خجل من الجمال؟! فقط في خزانة عجائب الدكتور كورتيسوس.

صحيح أنّ هذا السحر لا ينجح إلّا ضمن حدود المعرض، فما إن يخطو المرء خطوة واحدة خارجه حتّى تنهال عليه الأعباء اليومية والقلق والآمال مباشرة، ولكن من يحقّ له أن يتذمّر، بعد أن يرى أعجوبة تلميذ مدرسة يلتقي وجهاً لوجه مع بطله؟! من يحقّ له أن يتذمّر بعد أن يرى أستاذاً في السوربون، يدنو بتوقير من تمثال كاتب عظيم راحل، أثرت كلماته على حياته؟ من سيتذمّر عندما تتمكّن سيّدة ملتزمة بالقوانين من أن ترى عن

قرب، مرتعبة، أفضع جرائم العصر؟ في الحقيقة، من سيتذمر عندما يتمكن أي مواطن فرنسي من زيارة قصر باليه-رويال، كي يتفرج في التوقيت الذي يلائمه، في أي يوم من أيام الأسبوع، على العائلة الملكية التي تتناول الغداء، وأن يقترب منها أكثر فأكثر، ويشعر بوجود رابط بينه وبين الملك أو الملكة لم يكن موجوداً من قبل، بل ويمكنه لقاء ثلاث ليرات فقط إن كان شجاعاً -قلة منا شجعان حقاً- أن يلمسهم؟

فليكن ذلك

حتى لغز الملكية يجد حلاً في خزانة عجائب الدكتور كورتوس!». «شكرًا لك يا ميسو مرسيه» قلتُ وأنا آخذ الدفتر الرقيق، «سأحافظ عليه». «هل تظنين يا صغيرة... هل تظنين أنهم قد يصنعون لي تمثالاً نصفياً جديداً لي؟! كي يُعرض في باليه - رويال بالطبع، وليس هنا. هل تظنين أنهم قد يفعلون هذا?!»

«لا أعرف» أجبته، «الأمر ليس بيدي».

«لا تعتقدين ذلك، لا؟»

«لا أعرف»، قلتُ مرةً أخرى.

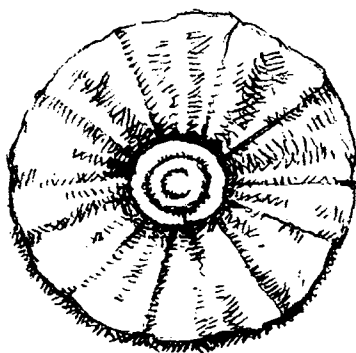
«لا، لا» تمتم مرسيه، «أنا أجرب حظي في يانصيب الشمع كلّ مرة، أضع اسمي بين بقية الأسماء».

«حليب نقي، بيض طازج»، هتف إدموند.

الفصل الخمسون

وفيه تُسَرَّق الرؤوس

غَيَّرَت الأرملة زِيَّ طاقم الاستقبال، الذي يقف أمام الأبواب. استبدلت البزات الحريرية بمعاطف قطنية سوداء، وجوارب سوداء، وقبعات بسيطة سوداء مثلثية الشكل، لكنها كلّها مزينة بالوردة التي تحمل حرف (ك). هذا الزيّ الكثيب مستوحى من ذاك الذي يرتديه ممثلو العامة، في البرلمان الذي تمّ تشكيله مؤخراً.



في صباح يومٍ من أيام الأحد، بعد أن عدتُ بفترة قصيرة، قُرِعَتْ كلّ الأجراس في أرجاء باريس لفترة أطول من المعتاد. كنّا نعمل كعادتنا في الورشة آنذاك، ولم نكثر كثيراً، لكنّ قرع الأجراس استمرّ، وأخذ إدموند يتمشّى في العلّية جيئةً وذهاباً. صعدتُ كي أهدئه، الضجّة أزعجته كثيراً وبدا مرهقاً بشدّة، فأمسكتُ أذنيه -هذا ينفع دائماً- وقلتُ له أن الأجراس ستصمت سريعاً، لكنّ هذا لم يحدث.

مساءً، عادت الأرملة إلى منزل القروء وهي تصرخ، واندفعت إلى ورشة سيدي.

«سُرِقَتْ! سُرِقَتْ! لقد نهبوا أملاكنا! الرؤوس! رؤوسنا يا كورتيوس!»
كم كان وجهها أحمر متعرّقا!

«مدام!» صرح كورتيوس، «ما الذي أزعجك؟!».

«الرؤوس! الرؤوس!»، قالت وهي تلهث.

«حسناً» قال كورتيوس، «ولكن أيُّ منها بالضبط؟!».

«أجل» أجابت دون أن تستطيع التقاط أنفاسها، «سُرِقَتْ من باليه - رويال».
«سُرِقَتْ؟!»

«وفي وضع النهار! مئات منهم»

«مئات من الرؤوس؟!»

«لا، الناس! مئات اللصوص! كلهم يطالبون بالأمر ذاته»

«الرؤوس؟»

«أجل يا كورتيوس، لقد سُرِقَتْ أملاكنا منّا»

«ولكن رؤوس من؟!»

«رؤوسنا»

«ولكن أيُّ منها؟»

«الوزير نيكر، ودوق أورليان»

«ولماذا؟!»

«حملوا الرأسين وطافوا بهما في الشوارع، في مسيرة جنائزية»

«ولكن الرأسين لنا! لماذا يفعلون ذلك؟!»

«عليك أن تواكب ما يجري يا كورتيوس! عليك أن تفتح أذنيك! لقد أعفَى الوزير من منصبه ونُفِيَ الدوق، وخرج الناس في مسيرة حول المدينة حاملين الرأسين عالياً. بما أنّ الرجلين الحقيقيين غائبان، لذلك استعاض الناس عنهما برأسينا الشمعيين»

«إذن فليصنعوا بأنفسهم رأساً لنيكر ورأساً للدوق! هذان رأسانا نحن!»

«كانوا يغتّون، وخبطوا على النوافذ، من ثمّ اقتحموا الصالون من دون أن يشترّوا تذاكر، وطالبوا بالرأسين»
«وماذا فعلتِ؟!»

«لقد أعطيتهم الرأسين! كانوا سيستولون عليهما بأيّ حال من الأحوال، وسيستبيّون بأضرار الربّ وحده يعرف ما هي! أرادوا أن يأخذوا تمثال الملك أيضاً، لكنني توسّلتُ إليهم، وقلْتُ لهم أنه تمثال بالحجم الطبيعيّ، ثقيلٌ جدّاً، أمّا هذان الرأسان فمجرد تمثالين نصفيتين»
«أنا من صنعتُ ذلك الملك! يسّرني أنّه بخير» قلْتُ، «شكرًا لك على إنقاذه». استدارت الأرملة، بحيث أعطتني ظهرها.

«سنعتقلهم!» تأوّه كورتيوس، «أنا من صنعتهما! إنهما لي!». «لقد أخذتُ اسمين: فرانسوا بيان، وهو بائع متجول، وأندريه لادري، بائع ليموناضة»
«سيُحاكمان!»

«لقد وعدا أن يعيدا الرأسين»
«ما كان يجدر بك أن تتركيهما يذهبان»
«لم تكن أنتَ موجوداً هناك!» همست الأرملة بصوت خافت، لكنني سمعتها. «كنتُ بمفردي هناك، وخفتُ!». ساد الصمت بعد ذلك، صمتٌ أشبه بثقب، بتمزّق، وكأنّ «قُطِب» الأرملة انفرطت، وانفرط عالماً معها.

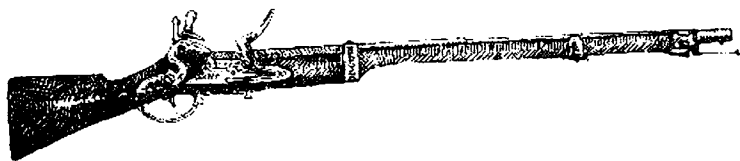
«أنتِ... خفتِ؟!» همس كورتيوس، «أنتِ؟! لا أصدّق هذا!». «حسبتهم سيقتلونني، أولئك الأشخاص! كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك بكلّ سهولة... سيقتربون مني، ولن يوقفهم شيء لو أرادوا قتلي. سيستلّ أحدهم موسى حادة، يطعنني بها ببساطة، ثمّ يسحبها، وستكون نهايتي... كان ممكناً أن أموت، أن أموت! لقد نجوتُ بأعجوبة كما أتصوّر، يا فيليب» قالت، وانهمرت دموعها.

«لم تنادني بفيليب أبداً من قبل!»
وكانت هذه الصدمة الثانية!
أظنّ أننا جميعاً خفنا آنذاك!

الفصل الحادي والخمسون

عن الكابتن كورتىوس

يُستخدَم الشمع من أجل البنادق والمسدّسات، يلين الزناد فتزداد دقّته، كما يلين باطن السبطانات ويجعلها ملساء، ممّا يسهّل مرور الرصاص والبارود عبرها.



تعالَت الضجّة طيلة الليل، صراخٌ في البوليْفار، زجاجٌ يتهشّم، وصوت إطلاق النار في البعيد. تَصَخَّمت تلك الأصوات في منزل القروء الكبير، الذي عدّ لها بطريقته الخاصّة فضلاً عن ذلك: لواها، طولها، جعلها تتقافز، ورفض أن تخدم. ازدادت معاناة إدmond بسببها، ولم يستطع النوم. لا أعرف عدد الأبواب والنوافذ التي هُشِّمت في تلك الليلة، لكنّ بوابات منزل القروء ظلّت منيعة.

في الصباح، غنّت كلّ أجراس المدينة معاً، ونادى بعضها بعضاً عبر أرجاء باريس، أمّا في منزل القروء الكبير: لا شيء. بقيت البوابات موصدة، ولم يأت أفراد الطاقم الذين يعيشون في المدينة، باستثناء المحاسب مارتن ميلو، الذي جاء راکضاً متلهّفاً كي يتأكّد من أنّ كلّ شيء في غرفته بأمان. نحن، مشتّى الأذهان، تابعنا أعمالنا اليوميّة في الغرف الخلفيّة: أحصى ميلو

النقود، قصّ جاك القماش، خاطت الأرملة ثياب التماثيل النصفية، صنع سيدي الرؤوس، وأنا صنعتُ الأيدي. أبقينا إدموند بعيداً، نظراً لأنّ أمّه هنا، ومع مضيّ النهار، ضائعين بين الشمع والشعر والخشب والقماش، نسينا كلّ شيء باستثناء ما يوجد بين أيدينا.

لم يرنّ جرس بابنا إلّا بعد الظهر تقريباً، فذهب جاك إلى البوّابة وعاد برفقة اثنين من أرباب المهن في البوليفار: مسيو نيكوليه البهلواني -صاحب مسرح «البهلوانيّون العظماء»، ذلك البناء الآجري- والدكتور غراهام غرين ذو الشعر الأحمر، صاحب «السرير السماويّ»، ولم أعرف أنه إسكتلنديّ إلّا عندما تكلم! إنّه إذن أجنبيّ، مثلي ومثل سيدي.

قال هذان الرجلان أنهما جاءا لأنّ منزل القروود الكبير هو الأشهر في البوليفار، ولأنّهما يعرفان أن أحداث الليلة الماضية أربعتنا بكلّ تأكيد، نحن الذين لدينا الكثير ممّا قد نخسره. أليس فظيماً، قالاً، أن هذه المدينة لا تخضع لسيطرة أحد في الوقت الراهن؟ ما لم يتم اتّخاذ إجراء ما، وعلى الفور، ستسقط هذه المدينة إلى الهاوية، وستنتشر الفوضىّة من حيّ إلى آخر. ستحترق باريس، وسيخسر الناس جميعهم كلّ شيء.

«نحن نعرف ما معنى الخسارة» قالت الأرملة، «بالأمس، سُرق رأسان من رؤوسنا».

«نيكر» قال كورتيسوس، «ودوق أورليان».

«الرجال الذين سرقوكما، الذين خرجوا في مسيرة غير مرخّصة... تمّ إطلاق النار عليهم، وتفريقهم».

«والرأسان؟!»

«الدم يسيل في شوارع باريس الآن، لا بدّ من استعادة النظام»

«هل سنستعيد الرأسين؟»

لقد عاد الزائران لتوّهما من «أوتيل دو فيل» حيث عُقد اجتماع هناك، ولذلك قرّعت أجراس الإنذار. إنّه زمن يائس، أجمع الرجلان على ذلك، ومن الأسهل على المرء أن يبقى في منزله، وأن يسحب أغطية سريره فوق رأسه، ولكن... إن لم يتّخذ إجراء ما، سيأتي أحدهم كي يمزّق تلك

الأغطية، ويرميك عارياً في الشارع، وهو تحذير وجّهاه إلى كورتيوس تحديداً.

في الاجتماع المذكور في أوتيل دو فيل، اقترح الموجودون تشكيل ميليشيا من المواطنين، ميليشيا كبيرة بما يكفي لحماية المدينة من الإرهاب المُنظَّم خارج أسوارها، ومن الإرهاب العشوائي بداخل الأسوار. صمت الرجلان قليلاً، من ثم استأنفا الكلام ببطء ووضوح: سيشعر أهل البوليفار والأحياء المحيطة به براحة عظيمة، لو تطوَّع كورتيوس -بما أنّه الشخصية الأبرز هنا- كي يصبح كابتن ميليشيا الشعب المحليّة. هل ستقبل بذلك يا كابتن كورتيوس؟ سألاه.

وقف كورتيوس والأرملة، وخيّل لي من خلال نظّارتي أنّهما انكمشا. سمعنا صوت شيء يقطر، صوتاً صادراً من أعماق سيّدي.

«أنتما مخطّئان» أجاب سيّدي أخيراً، «أنا فيليب ويلهيلم ماتياس كورتيوس، أو الدكتور كورتيوس. أصبحتُ فيليب بالأمس فقط، ولم أكن (عزيزي) قط -هذا صحيح، أنا لستُ حبيب أحد- كورتيوس فحسب بلا ألقاب مقبول، ولا شيء آخر».

«كابتن كورتيوس» أصرّ الرجلان، «لا أحد ملائم أكثر منك».

«مكانه هنا» تدخّلت الأرملة، «بين أهل الشمع».

«أجل، أجل في الواقع» قالا، «وكي تحمي هذا الشعب المميّز، لا بدّ لك من أن تحمي الضاحية أولاً».

«لا!» قالت الأرملة، «هذا ليس صائباً».

«كابتن كورتيوس» قالا، «انتخابك ككابتن هو شرف عظيم».

«لا يلزمه هذا الشرف» قالت الأرملة للرجلين، «ولا يلزمه جنبكما».

«لقد سجّل اسمه للتوّ في أوتيل دو فيل»

«اعذرني يا كورتيوس على ما سأقوله» قالت الأرملة بهدوء شديد، من ثمّ التفتت إلى الرجلين. «هل يبدو لكما قادراً على القيام بذلك؟!» سألتهما، «لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمّة، إنّهُ لا يفهم أموراً كهذه».

«واجبك يناديك، يا كابتن كورتوس»، قال.

«كابتن كورتوس؟!»، تعجّب سيّدي.

«كابتن كورتوس، إنهم بانتظارك في أوتيل دو فيل»

«لا!»، قالت الأرملة، «لن يذهب!».

«إذن» قال الدكتور غراهام، «ثمة احتمال أنهم سيعتقلونه».

«ثمة احتمال إذن» قال مسيو نيكوليه النحيل، «إنهم سيهجمون على

أملاكك. لن نستطيع إيقافهم!».

وقف سيّدي، صامتاً.

«لا بدّ أن يذهب شخص ما نيابة عنه» أعلنت الأرملة، «أنا سأذهب!».

«لا!»، أجاب الرجال، «لا! مستحيل! فستان! تنورة! لا، لا!».

من ثمّ، تكلم سيّدي.

«أنا الكابتن كورتوس» أعلن بجملة خبريّة، لا باستفهاميّة.

«فيليب! توقّف!»، قالت الأرملة.

«نشكرك جزيل الشكر» قال الرجال، «ونحيّك».

في الواقع، سيّدي هو من أدّى لهما التحية، تحية لن يقبل بها أيّ جيش:

مجرّد تلويح وإو، لوح بيده للحظة خاطفة أمام وجهه، كأنه يهشّ ذبابة!

على الرغم من هزيمتها، لكنّ الأرملة تعرف دائماً ما الذي ينبغي القيام

به. «جاك!»، قالت، «رافقه، لا تدعه يغيب عن بصرك».

«أجل، سأفعل»، صرخ جاك.

«لا تسمح لأحد بلمسه»

«لا، لن أسمح»

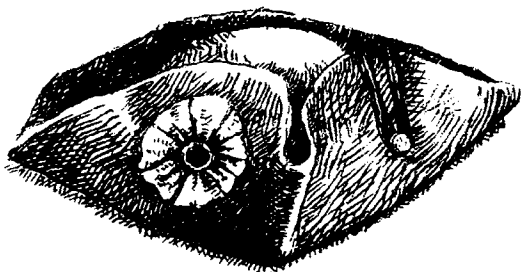
«أيتها الأرملة بيكو» قال سيّدي، «أنا كابتن! ماذا تقولين للكابتن؟!

هل سأحصل على زيّ رسميّ؟! سيعجبني ذلك، سأخرج إلى الناس،

إنهم جميعهم يعرفونني، وسيقولون: ها هو ذا الكابتن كورتوس!»

نزع الشامة المزيفة عن ذقنه، وألصقها على مقدّمة قبّعتة المثلثيّة، كأنّها

ميداليّة حربيّة.



«اليوم» قال للأرملة، «سأناديك بشارلوت».

«أرجوك فيليب! لا يجب أن تذهب»

«شارلوت، آه يا شارلوت! سأذهب»، ولوّح بذراعيه في الهواء كأنّهما جناحا بجعة، ثمّ أضاف: «أوصدي الأبواب، ولا تسمحني لأحد بالدخول... وما شابه. باي باي يا شارلوت!».

«سيّدي!»، ناديتّه.

«فيليب!»، الأرملة تبكي!

تساءلتُ ما إذا كنتُ سأراه مجدّداً.

انطلقا. كورتيوس وكلبه الحارس القديم يعرج أمامه ويقود الطريق، وتوجّها إلى أوتيل دو فيل، عبر البوليفار، صوب بوابة سان أنطوان القديمة سابقاً -التي هُدمت منذ زمن طويل- والتي دخلنا منها أنا وكورتيوس إلى باريس أوّل مرّة. في آخر البوليفار، سينعطفان يميناً إلى شارع سان أنطوان، إلى القلعة هناك، في الرابع عشر من تموز ذاك.

الفصل الثاني والخمسون

طفلة دَنَسَة

بلغت الأصوات ذروتها، بعد الساعة الخامسة بقليل. سبق لنا أن سمعنا دويّ المدافع من قبل، لكنّ الأصوات تزمجر بلا انقطاع الآن. لم أعد قادرة بتاتاً على التركيز على عملي، فذهبتُ إلى الغرف الخلفية، من ثمّ صعدتُ درج منزل القروذ الكبير، مروراً بدمية هنري بيكو العتيقة. لم أسمع صوت إدموند منذ بعض الوقت، وأردتُ أن أتأكد من أنّه بخير. لم أجده لا في العلّية ولا في أيّ مكان، فنظرتُ من النافذة آملة أن أكتشف مصدر الضجّة، لكنني لم أر سوى جزء من البوليفار الخاوي. من ثمّ، سمعتُ أناساً يصرخون وتعلو أصواتهم، لا بدّ أن الحشد يقترب منّا. لو بقيتُ هنا في موقعي في العلّية، سأشاهد بعينيّ ما سيحصل... وعندها فقط انتبهتُ إلى إدموند! إنّهُ في الأسفل، في الباحة، بداخل أسوار منزل القروذ، يتمشّى جيئةً وذهاباً ويلوّح بذراعيه فاغر الفم... هل يصرخ يا ترى؟! من المستحيل أن أسمع وسط ضجّة الحشد الذي يقترب، فصرختُ بأعلى صوتي: «إدموند! إدموند! عد إلى الداخل!».

لا أظنّ أنّه يستطيع سماعي. اتّجه صوب السور، وأسند رأسه إليه. من ثمّ، نطح القضبان برأسه، نطحها بقوة إلى حدّ أن رأسه اندفع من بين قضيبين، وعلق هناك! جسد إدموند عالق الآن بداخل السياج، بداخل باحة منزل القروذ الكبير، أمّا رأسه فعالق في الجهة الأخرى، والحشد الهائل يقترب. «أدخِل رأسك يا إدموند! أدخِل رأسك!»، صحتُ عليه.

لكنّه قرفص هناك، كتفاه يستندان إلى السياج، ورأسه ممدود إلى

البوليغار. نزلت الدرج ركضاً، واندفعت عبر الباب الخلفي إلى الباحة. المكان مختلف تماماً في الخارج، الناس يتجمعون كأنهم عاصفة تدنو، تزداد أعدادهم، والمبنى يهتز ويردد صدى الضجة، وها هو ذا إدموند، رأسه عالق بين القضبان، والناس يقتربون.

«هل علقْتَ يا إدموند؟ هل علقْتَ؟!»

«أقراص الليمون والخل»، صاح.

«إدموند، سأحاول أن أسحبك»

ولكن عبثاً!

«إدموند! لا أستطيع أن أخلّصك»

«فطائر البطاطا من سافوي!»

أصبح الحشد في مرمى البصر الآن، تجمّع ضخم، حشد شاسع من الناس، وحش عملاق صاحب متعدّد الأفواه، جردٌ ملكٌ⁽¹⁾، يندفع للأمام محمولاً على عدّة مئات من الأطراف. بعض أفراد ذلك الحشد يرقصون، والبعض منهم يحملون أقفاصاً قديمة فوق رؤوسهم، جميعهم متحمّسون مهتاجون. تمنيتُ لو يختفون كلّهم! عندما وصلتُ إلى البوابات، وجدتُهم متراصّين خلفها، قريين جداً منا إلى حدّ أنّ أنفاسي لامستهم. ما هو هذا المخلوق الجديد؟!

«إنّه رأس آخر» صاح أحدهم، وضحكوا كلّهم.

«لا، لا. كلّ شيء على ما يرام» قلتُ، «من فضلكم، تابعوا طريقكم الآن».

«هل علق رأسه؟»

«ساعدوني! ساعدوني!» صرختُ باتجاه منزل القروء، «ساعدوني!».

«هذا صحيح! إنّه رأس آخر!»، زعق أحد أفراد الحشد.

«انظروا إلى هذا الرأس، لعله يؤدّ أن يلتقي برأسينا؟!»

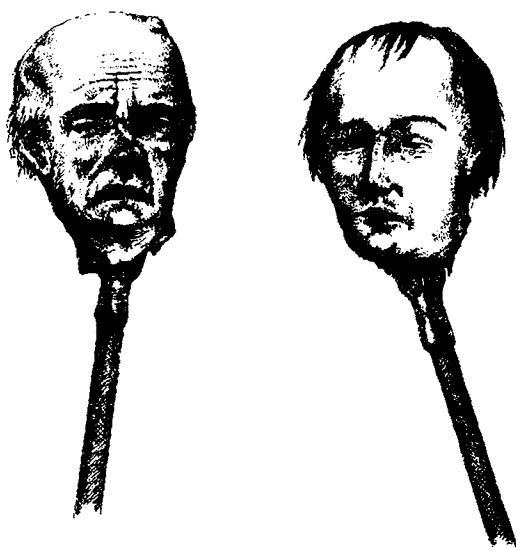
وعندها، مهلّلين، رفعوا غنيمتهم فوق السياج. رأسان! رأسان، كلّ منهما

1- خرافة انتشرت في أوروبا قديماً، تحدّث عن عشرات من الجردان التي تشابك ذيلها معاً، فتحوّل إلى «جرذ ملك» يتصرّف كأنّه جرذ واحد عملاق مربع ذي قوى خارقة. المترجمة

مغروز على عصا! إتهما رأسان مُتقنا الصنع، فكّرتُ لجزء من الثانية، هل صنعهما كورتيوس يا ترى؟! هل هما الرأسان اللذان سُرقا من الأرملة؟! من ثمّ، تجلّت الحقيقة بمنتهى الوضوح في تلك اللحظة فقط: هذان الرأسان ليسا من الشمع، كلّاً بتاتاً، بل رأسان من لحم ودم، أنجبتهما كائنات بشرية! إنّها رأسان حقيقيّان! أنزل الناس أحدهما إلى مستوى رأس إدموند، إمّا للمقارنة بينهما، أو لأنّ الرأس المقطوع ورأس إدموند يريدان أن يتناقشا!

زعق إدموند، انتفض جسده وقفز، لكنّ رأسه ظلّ عالقاً.

خرج أحد الصبية من منزل القروذ راكضاً.



على اليسار: العنق المتطاوّل لمركيز دو لوناى،

على اليمين: رفيق سفره، دو فلوسيل

«الشمع!» صرختُ على الصبيّ، «اجلب شمعاً، بأقصى سرعة».

الشمع، فكّرتُ، الشمع سيحلّ المشكلة. الشمع وحده، عندما يُفرك على القضبان، هو ما سيحرّر إدموند. الشمع مزلق، يُستخدَم كي لا تعلق الأبواب والنوافذ، يمكن دهنه على المعادن والخشب على السواء، وكذلك

على البشر. الشمع يمنع صرير مفاصل الأبواب، وربما يمنع إدموند من الصراخ أيضاً.

الأرملة الآن في الخارج. «إدموند!» صاحت، «إدموند! تعال فوراً». دفعتني، وحاولت أن تسحبه، لكن حتى أوامرها عجزت عن تحريكه.

«ابتعدي» نهرتني الأرملة، شاحبة مرتجفة. «دعهم يمرون»، أضافت.

«أحضري شمعا!» صرخت، «أحضري شمعا كي نحرر رأسه».

«شمع! شمع!» زعقت الأرملة، فتراكض صبية منزل القروء.

«هذا منزل الشمع!» قال صوت من الحشد، «لقد زرته».

«ورأيْتُ كلّ الشخصيات الشهيرة!»، قال صوت آخر.

«ماذا عن رأسينا، إذن؟! ماذا عن هذين الرأسين الشهيرين؟! ليس لهما جسدان بلا شك، لكنهما رأسان، رأسان لا بد أن يعرفهما الجميع»

«دولوناي، حاكم الباستيل»

«الحاكم السابق»

«لقد أطلق النار علينا!»

«لن يعيد الكرة»

جاء الصبية راكضين، حاملين الشمع. قطعْتُ منه قطعة، وفركتها على القضبان حول أذني إدموند، لكن الأرملة دفعتني بعيداً.

«أنا هنا يا إدموند! أنا هنا!»، صاحت.

«وهذا هو رأس دو فلوسيل، الذي جعل الناس يتضورون جوعاً»

مدّ الحشد الرأس الثاني أمام إدموند، الذي انكمش بشدة.

«لن يجوع الناس بعد اليوم»

«تاجر سمين»

«لقد نزعنا أحشاءه»

لم أشهد من قبل جريمة بتاتا، لم أر الرؤوس إطلاقاً قبل أن تؤخذ لها طبعات، ولكن ها نحن أولاء فجأة، قريون جداً من تلك الرؤوس، قريون من هذه الحقيقة الجديدة! لم أستطع أن أنظر، لكنني لم أستطع في الوقت

نفسه أن أزيح بصري. إدموند المسكين الذي يولول، مصحوباً بهذه الرفقة الجديدة، لم يتحرّر.

الشمع سيحلّ المشكلة، صليتُ، لا بدّ أن يحلّها.

«يجدر بكم أن تصنعوا نماذج من الشمع لرأسينا هذين!»، زعق صوت بالأرملة.

«اذهبوا! تابعوا طريقكم من فضلكم، اتركونا بسلام!»، تأوّهت الأرملة.

«ليس بعد، ليس قبل أن تصنعوا لنا رأسين. خذيهما، انحتيهما بالشمع»

«لا، لا! اذهبوا أرجوكم!»

«لا تملي علينا ما الذي يجب فعله!»

«لن نتوقّف، إلّا إن كنتَ تريدان منّا أن نعلّق ثلاثة رؤوس على العصي»

«اقطعوه! اقطعوه! حزّوا عنقه!»

صرخ إدموند، لسبب جديد هذه المرّة، ويا للصوت الذي خرج من فمه!

«ماري!» قال، «ماري! ماري!». إنّها كلمات حقيقة، كلمات، مرّة بعد

مرّة، اسمي، اسمي مراراً وتكراراً، «ماري! ماري!».

«أنا هنا» قالت الأرملة، «أنا هنا بجانبك يا إدموند، أنا أمك».

«ماري! ماري!»

لا خيار أمامنا!

«سأخذ طبعة لهذين الرأسين من أجلكم» قلتُ أخيراً، «اتبعوني على

طول السور، وناولوني الرأسين».

«ماري!»

«اركضوا يا أولاد، هاتوا لي حقيبة كورتيوس، اركضوا!»

«كم سيستغرق هذا؟»، سألني أحد أفراد الحشد.

«دقائق فقط» قلتُ، «بضع دقائق لا غير، ريثما يجفّ الكلس. سأعمل

بسرعة، من ثمّ ستتابعون طريقكم».

«من الأفضل لك أن تفعلي، وإلّا سنضيف رأساً جديداً إلى مجموعتنا»

«لا داعي لذلك» قلتُ، «لا لزوم له أبداً».

حقيبة سيدي، التي يضعها دائماً إلى جوار الباب، حُمِلَتْ إليّ بسرعة.
«أنا جاهزة»، قلتُ.

تسلّق أحد الرجال كتفي رفيقه، ومدّ لي رأساً مغروزاً على عصا من فوق البوابة. فوجئتُ بوزنه، وكدتُ أوقعه. يجب أن أغطي هذا الشيء بالكلس، سأغطي وجهه فقط.

«لن أستغرق وقتاً طويلاً كالمعتاد لأخذ طبعة لهذين الرأسين» قلتُ، «لا يلزمهما قصبات في فوهات الأنف للتنفّس، كما أنّهما لن يشتكيا بكلّ تأكيد لو عاملتُهما بخشونة».

هناك، في باحة منزل القروء، بدأتُ بالعمل، وساعدني مارتن ميلو بيدين ترتجفان.

«أريد بعض الصابون الطريّ»، قلتُ.

الرأس الذي في حضني هو رأس التاجر دو فلوسيل، يحدّق إليّ بعينين غائمتين. أعرف أنه لا يجدر بي حمله في حضني، بل أن ألقيه بعيداً عني. هل هو قمامة؟! هل هو رجس؟! كيف يكون رجساً، إن كان قبل لحظات فقط كرة تفكّر وترى وتسمع وتذوّق وتمضغ، وتتصل بجسد بشري؟! هل نتحوّل مباشرة إلى رجس، بمجرد أن نموت؟! هذا الرأس التعيس، يشواق كثيراً إلى ما كان موجوداً تحته مؤخراً. كم يبدو مصدومين عندما نتجزّأ، وكم يبدو منظرنا نشازاً! آخ، يا لوزن الرأس البشريّ الرهيب الحزين، إنّه وزن لا يجب أن نحسّ به! كرة بائسة! لم أعامل الرأس بخشونة، من أجل إدموند، من أجله فقط.

الرأس الثاني كان رأس الماركيز دو لوناى، حاكم قلعة الباستيل، وحالته ليست جيّدة كرأس رفيقه على الرغم من أنّه قُطِعَ بعده. سرعان ما أصبح حضني رطباً للغاية. نظام! قلتُ لنفسي، نظام، قولها كما سيقولها سيّدك، لا تغفلي شيئاً، افعلي هذا كما لو أنّك في بيرن. برهني على تدريبك، تباهي به.

«عنق الماركيز دو لوناى» قلتُ بصوت عالٍ للأرملة، التي تدهن المزيد من الشمع حول رأس ابنها وعنقه، «لم يجزّ بشكل مستقيم. اللفافة الصدغيّة اليمنى مقطوعة، والعضلات حول منطقة الفك السفليّ متهتكة. الهيكل

الغضروفيّ للأنف محطّم، هذا الأنف بأكمله نازف يميل إلى جهة واحدة، وثمة شظيّة من الغضروف المتهتك تبرز من فوهة المنخر الأيسر. لقد اخترقت العصا الثقبة، الثقبة العظمى⁽¹⁾، واندفعت عبر الجمجمة إلى أبعد ما يمكن. ذروتها تستقرّ الآن على الحافة الداخلية للعظم الجداريّ، أي على الدرز السهميّ العلويّ، وهو ما تؤكّده الفرقة البسيطة التي أحسّ بها الآن تحت يدي، على الوجه الخارجي للجمجمة، فوق فروة رأس الماركيز».

وهكذا، جلستُ على دكّة في باحة منزل القروذ الكبير، وصنعتُ طبعتين لرأسين ثقيلين بلا جسد، إرضاءً لجمهور هائج يقف خلف البوّابات، بينما تغيمت السماء أكثر فأكثر. وأنا أنهى عملي، تحرّر إدموند أخيراً، وعاد سالماً إلى داخل الباحة، مرهقاً، تحتضنه الأرملة الضخمة التي تلهث. لقد رأيتُ منحوتة مماثلة من قبل، إنها تُسمّى «بياتا»⁽²⁾.

لقد أنقذه الشمع، أنقذه!

عندما جفّ الكلس، رفع مارتن الرأسين فوق البوّابة، وأعادهما للحشد الذي مضى في طريقه أخيراً، وقد خبا حماسه. ثوبي ملطّخ بالدم والكلس، أدركتُ رأسي، وتقياّت فجأة فوق أحجار الرصيف. أتمنّى لو لم أفعل، كان عليّ أن أتعامل مع الوضع على نحو أفضل، إنها مجرد أجساد بعد كلّ شيء، وهذا أمر طبيعيّ تماماً، لكنّ تفكيري تشبّت.

«إدموند! إدموند، لقد ناديتني باسمي!» قلتُ، لكنّه كان في الداخل. بدأ المطر بالهطول، ممّا أسعدني، فوقفْتُ تحته. يا لهذا الأمر الذي قمْتُ به، فكّرتُ! اندفع الجميع إلى الداخل قبل انقضاء وقت طويل، أمّا أنا فسعيدة بالبقاء وحدي خارجاً لبعض الوقت.

عندما استدرتُ صوب منزل القروذ الكبير، وجدتُ أبوابه الثلاثة موصدة. «لن تدخل!» صاحبت الأرملة، «لن أسمح لك بالدخول! ابقي خارجاً! طفلة دَنَسَة!».

1- فوهة في العظم القذاليّ في مؤخّرة الجمجمة، يمرّ منها النخاع الشوكيّ. المترجمة
2- منحوتة أو لوحة تصوّر مريم العذراء، التي تحمل في حضنها جسد المسيح الميت. المترجمة

الفصل الثالث والخمسون

إزعاج تافه

بقيتُ في الباحة تحت المطر لثلاث ساعات، جالسة أرتجف على الدرج، إلى أن عاد الدكتور كورتيوس وباك أخيراً. رنّ سيدي الجرس، فخرج ميلو لاستقباله، بينما وقفت الأرملة خلفه عند الباب. «لن أسمح لها بالدخول» زعقتُ، «لن أسمح بوجود شخص مثلها هنا. مقرفة! نجسة!».

استمع سيدي إلى ما حصل. «هل أخذتِ طبعة لرأسين مقطوعين؟!» «أجل فعلتُ ذلك، فعلتُ ذلك!»، صاحت الأرملة من مكانها عند الباب. «كي أبعد الحشد عن إدموند... ظننتُ أنني أقوم بالصواب»، قلتُ. «كيف يكون ذلك صائباً؟!»، زعقتُ الأرملة. «هذا ليس صائباً يا ماري!»، قال كورتيوس. «كان عليّ أن أعطي الحشد ما طلبه» قلتُ، «وماذا كان بوسعي أن أفعل سوى ذلك؟!».

«إنّه عملي أنا!»، قال. استغرقتُ لحظات كي أفهم ما يعنيه. «لكنك لم تكن هنا!»، قلتُ. «بوسعي أن ترسلي في طلبي» «لم يعرف أحد مكانك!».

«كان بوسعكم العثور عليّ»
«كنت مع الحرس الوطني! احتاجوا إليك هناك!»
«حسناً، أنا منزعج للغاية!»، قال سيّدي باستياء.
«أنا مستاءة أكثر منك» قالت الأرملة، «لقد أبقت المجرمين هناك عند
بوابتنا، بينما كان رأس إدموند عالقاً بين قضبان السور».
«لم أكن لأفعل أيّ شيء قد يؤدي إدموند» قلتُ، «حاولتُ أن...».
«قدرة! جرذ! من تظنين نفسك؟!»، زعقتُ.
«مساعدة نحات»
«دنسة! مقرفة! قدرة!»، وبصقتُ.
«في تلك اللحظة، صرخت: «أنت لا تخيفيني أيتها العجوز!».
«رجاء، اهدأ كلاكما»، قال سيّدي.
«كيف أهدأ» قالت الأرملة، «بعد ذلك التدنيس الذي حصل أمامي؟!».
«ادخلي» قال لي سيّدي بهدوء، «ادخلي وجفّفي نفسك».
«لن تدخل!» صاحت الأرملة، ثمّ تقدّمت منّي وصفعتني، براحتها من
ثمّ بظهر يدها.



لن أقبل بهذا، ليس بعد كلّ ما حصل!! لوحتُ بقبضتي الصغيرة، من ثمّ
لكمتها على وجهها، فتوقفت عن صفعي، لكنني في فورة غضبي المفاجئ،
لكمتها مجدداً، لطمتها قبضتي على وجهها! فعلتُ ذلك! أنا!
أعتقد أن يدي سُحِقتُ!
يا لها من لكمة! الدم يغطّي شفّتيها! يا للصدمة! أنا فعلتُ ذلك، ويا
للشعور الطيّب! جرحٌ على شفّتيها، وجراح على براجمي، لأن أصابعي
ارتطمت بأسنانها.



«مجرمة!»، صاحت.

«بوسعي أن أقتلك» صرخت، والغضب يتملكني الآن. «لقد فكرتُ مطوّلاً بقتلك، وتخيلتُ كيف سأقتلك!».

«ماري! يا صغيرة!» قال سيّدي، «انتبهي لما تقولينه! يا شارلوت المسكينة!».

«لقد تحمّلْتُها طويلاً، ولن أتحمل أكثر... لربّما سأغرّز رأسها على عصا! كم عاماً استمعتُ إلى شتائمها؟! لن أسمعها بعد اليوم. ستدفعان لي أجوري، أجل وحقّ السماوات! ستدفعان لي الآن، وفي هذا اليوم بالذات!».

«يا صغيرة، اعتذري. تعرفين أنه يجب عليك هذا»

أصبح وجه الأرملة قرمزيّاً. «إنّها الفوضويّة كما قال نيكوليه!» زعقت، «هكذا تنتشر الفوضويّة، القانون ينقلب رأساً على عقب، تمرّد في المنزل».

«شفتك سمينّة، يا مدام»

«اطلبي المغفرة من الأرملة يا صغيرة!»

عندها، كلّ ما تحمّلته من الأذى على مرّ السنين فار وغلى، وتقياؤه. هذان الرأسان نجحا: قذائف مدفع من الغضب، ومن الألم.

«وأنت!» قلتُ لكورتيس وأنا أستدير وأركل ساقه، «وأنت أيضاً! كم عملتُ من أجلك، ولكن ماذا فعلتَ من أجلي؟! لولاي لما كان لديك أيّ مجرم، أنا من أوحيتُ لك بتلك الفكرة. أنا من صنعتُ الرؤوس الملكيّة. هل أنا قدرة؟! كيف ستزيل قذارة الشعور بالذنب عن جلدك؟ كم سنة نظّفتُ أرضيّاتك؟ كم سنة ردّدتُ نعم سيّدي ولا يا مدام؟ ولكن ماذا فعلتَ أنت من أجلي؟ لم تشكرني حتّى! لم تدافع عني! كان ذلك عسيراً عليك! القليل فقط من أجل صغيرة! ذات مرّة أيتها الأرملة، رأيتُ القليل من السعادة، رأيتُ حبّاً صغيراً ينمو في منزل الدمى، فحنقته بلا تردّد. أنتِ تخنقين كلّ ما هو جميل بتفكيرك اللئيم... والآن، هذا هو الترحيب الذي أتلّقه لأنني أنقذتُ

إدموند. بوسعي أن أتحمّل الكثير، لكنني لن أتحمّل بعد اليوم. عليك أن تشكريني! لقد نجحتُ، أمّا أنتِ فانظري إلى نفسك، محمّرةً توشكين على الانفجار. انفجري إذن! أنتِ تدمرين كلّ ما يعترض طريقك، لقد حولتِ إدموند إلى مجرّد خرقة بائسة، وحولتِ سيّدي إلى جثةٍ دمرها حبّه لك، أنتِ التي تجلسين هنا مثقلة بحبّ ميت، وتأكلين الجِداد... وكلّ ذلك من أجل دمية على درَج! احرقها، ووقري علينا هذا العذاب! ابتعدي أيتها الأرملة بيكو، ابتعدي أو قسماً، سأخلّصكِ من رأسك!».

«عاهرة! عاهرة صغيرة!» صرخت الأرملة وهي تحاول التقاط أنفاسها، «افعل شيئاً يا كورتيوس! كيف تجرّو هذه الفتاة على القيام بهذا؟! لولاي لكتّم جميعكم في الشارع! لولاي لما وُجدَ أيُّ من هذا! أنا من فعلتُ كلّ شيء في هذا المنزل، أنا من أبقيه قائماً، وهل تعرف كم هذا مرهق؟! هل تعرف أن هذا يقتلني?!».

«موتي إذن!» صرخت من الردهة، من ثمّ اندفعتُ إلى مشغلي وشفقتُ الباب بعنف، أملة أن يتداعى المنزل كلّهُ. جلستُ قليلاً، وبكيتُ بملابسي الملطّخة بالدماء، ثمّ بدأتُ بحزم متاعي بعد أن هدأتُ قليلاً، فلا بدّ من أنّي سأطرّد الآن.

أخيراً، دخل جاك وييده قنينة نبيذ، وسرعان ما تبعه سيّدي. «هذان الرأسان يُعدّان بمنزلة مستندات مهمّة»، قال سيّدي.

«هل هذا كلّ ما لديك كي تقوله لي؟»

«حسناً يا ماري، لقد كنتِ قاسية»

«أيّ شيء آخر؟»

«شكراً لكّ كما أعتقد، شكراً لكّ»

«أيّ شيء آخر؟»

«الأرملة مع ابنها الآن»

«أيّ شيء آخر؟»

«ساقى تؤلمني»

«حسناً، ستؤلمك حقّاً»

«لا أعرف ما الذي دهاك، لكنّه أمر لا يُغْتَفَر. عليك أن تعتذري، ولكن ليس الآن، دعيها كي تهدأ قليلاً» قال متنهّداً، «لم يكن ذلك من شيمك قط يا ماري».

«حسناً، أظنّ أنني استيقظتُ أخيراً»

«لم أرَ شيئاً كهذا قط من قبل! ما الذي يحدث لنا جميعنا؟!»

«لقد اضطررتُ إلى ذلك»

«ماري!» قال، «هل ستساعديني الآن بصناعة الرأسين؟».

«أجل» أجبتُ أخيراً، «سأفعل».

وهو ما فعلناه، وها نحن أولاء، مجدّداً.

«سيّدي» قلتُ ونحن نعمل، «كيف سارت الأمور هناك؟ في الباستيل؟».

«كانت الأمور رهيبة، برأيي»

«لا بد أنّك كنت شجاعاً جدّاً يا سيّدي»

«أجل، صحيح»

«ألم تشعر بالخوف؟»

«دعينا نركّز على عملنا»

«لقد فاته ما حصل» قال جاك، «يؤسفني أن أقول هذا! كنتُ أودّ أن أرى

ما يحصل».

«فاتك ذلك يا سيّدي؟!»

«حسناً يا ماري، لم تكن بعيدين جدّاً في الواقع»، أجباب سيّدي.

«كنّا في مقهى روبير» قال جاك، «في كواي سان بول».

«سيّدي!! هل هذا صحيح؟!»

«لقد أخذته إلى هناك» أضاف جاك، «كي أبقيه سالماً».

«هل هذا صحيح يا سيّدي؟!»

«أنا بارع مع الرؤوس يا ماري، لكنني لم أُخلَق لوظيفة الكابتن. أنا أخاف!

أما مع الرؤوس، فأكون في منتهى الراحة. أنا أنتمي إليها، هل تفهمين؟»

«أحسنّت يا جاك»، قلتُ.

«يوسفني أننا فوتنا ما حصل مع ذلك»

«الرؤوس كما ترين، كهذين هنا»

هذان الرأسان حرّضا تغييراً جديداً في المنزل، حرّرا غضبي، جرحا شفتي الأرملة وأصابعي، كما سبّبا أمراً آخر لا يُصدّق: أنزلا إدموند من العلّة! لقد نقلته الأرملة إلى غرفة نومها في الطابق العلويّ، ولم تسمح لي بالاقتراب منه في تلك الليلة، لكنني حملتُ في اليوم التالي صرّة إلى هناك، وضعتُ فيها بعض الموادّ: قطعة صغيرة من الكتّان الأبيض، خيوط، إبرة، ومقصّ.

«ما الذي تفعلينه هنا؟!» سألتني الأرملة وهي تسدّ الباب، هل هي خائفة قليلاً يا ترى؟!

«إنّها من أجل إدموند»، أجبتُ.

«مكانك ليس في هذه الردهة»

«أظنّ أن هذه الأشياء ستعجبه»

«لا يمكنك الدخول»

من ثمّ، من داخل الغرفة، سمعنا إدموند ينادي: «ماري! ماري!».

«إنّه يناديني! لقد سمعته! مرحباً يا إدموند!»

«ماري! ماري!»

«لا يقول شيئاً آخر!» اعترفت الأرملة يائسة، «إنّه ليس على ما يرام».

«إنّه يناديني باسمي، يريد أن يراني»

«كلّا، إنّها مجرد ضوضاء عديمة المعنى»

«إنّها ضوضائي، تلك الضوضاء تعينني أنا!»

«ماري! ماري!»

«إنّه يناديني! مرحباً يا إدموند! لقد أحضرتُ لك بعض الأشياء»

«هراء! لا يجب أن يأخذها، سيؤذي نفسه»

«لا أعتقد ذلك»

«ومن يكثر بما تعتقدينه؟! منذ متى أصبحت جريئة هكذا ومهمّة؟!»

«منذ أن حبستني في الخارج»

«أنت امرأة صغيرة قبيحة»
«حقاً يا مدام؟ هل هذا أسوأ ما لديك؟»
«لا علاقة لك بتاتاً بعائلتي!»
«هذا ليس صحيحاً»
«انقلعي للأسفل»

«سأنزل يا مدام، ولكن فقط عندما أقرر أنا ذلك! وداعاً يا إدموند، مؤقتاً فقط. يسرّني أن أملك لاحظت وجودك مجدداً».

الأرملة لم تعطه الصرة، وإنما بعض الكتان، فصنع منه شكلاً بشرياً، دمية «إدموند» جديدة، وهو أمرٌ يستحق الذكر! جرّ نفسه إلى الدرايزين، ورمى الدمية إلى البهو كي أعثر عليها لاحقاً.

يا له من تمرّد في المنزل!

الفصل الرابع والخمسون

أنا مشغولة

خلف جدراننا، عمّ الشغبُ الشوارعَ، ونابَ جاك بوفيزاج عن سيدي بحراسة البوليفار، برفقة إميل ميلان وسواه من الصبية الأقوياء. عاد إلى المنزل بقميص ملطّخ بالقليل من الدم، ثم عانقنا جميعنا وصاح: «كلّنا مواطنون!»، وسرعان ما أثبت كفاءته في هذه المهمة، وتمّ تعيينه قائداً للحرس الوطني المسؤول عن قسم البوليفار. اختبأ سيدي في منزل القروء إلى أن أُقيلَ من منصبه القصير ككاتب، وعندها استأنف العمل في «خزانة العجائب».

انتشرت الأخبار عن رأسي دي فلوسيل ودي لونا، الموجودين لدينا. نشتهر الآن أننا من سيصنع نسخة جيّدة لأيّ شخص يُقطّع إلى أجزاء غير متساوية، بحيث يستطيع الناس أن يحكموا على النتائج بعقلانية أكبر، بعد أن تشرق الشمس وتهدأ الانفعالات. تولّيتُ القيادة وسط هذا الجوّ، وكان جميع من في «خزانة عجائب الدكتور كورتوس» جاهزين، كلٌّ منا -لا فرق بين صغير أو عظيم- قام بالمهمة المنوطة به، سواء تسليم الطرود، أو مسح الأرضيات، أو مزج الكلس، أو تحريك الشمع، أو غرس الشعر، أو تثبيت العيون الزجاجيّة، أو نقل هياكل التماثيل، أو استلام النقود.

على الرغم من أنّ الأرملة لم تسمح لي بالاقتراب من إدموند، لكنّ صوته الذي يناديني باسمي شجّعني. أنا قادرة على صناعة الرؤوس، لقد برهنتُ على ذلك، ولذلك سمح لي سيدي بالقيام بهذا العمل. تنحّى جانباً وأنا أضع تلك الكرات الثقيلة في حضني، تلك الرؤوس التي فُصلتْ عن أجسادها وُتركتْ في عهدتنا في وقت متأخر من الليل. رفض الجميع القيام بهذا

العمل، أمّا أنا فلم أمانع. لا، هذا ليس صحيحاً: أنا سعيدة بالقيام به! شعرتُ أنني حيّة، بل إنني أحيا حياة عظيمة. لم يكن أحد بحاجة إليّ إلى هذا الحدّ من قبل، وأنا في أوج شهرتي، بل إنني أبهرتُ نفسي، وشعرتُ بالرضا. «حقّاً يا سيّدي؟! هل لي أن أقوم بهذا؟»، كنتُ أطرح السؤال على الدكتور كورتيوس.

«أجل، أجل يا ماري، قومي بهذا»

«ألا تريد القيام بذلك بنفسك؟»

«أخشى أنني متعب قليلاً»

«إنّه رأس جيّد! انظر إلى هاتين الشفتين، والأسنان خلفهما»

«لا أرغب بنحته»

«أنت تقول هذا؟!»، لم أستطع أن أخفي ابتسامتي، «إنّها مجرد أجساد، يا سيّدي!».

«بالطبع، أعرف هذا»

«إنّها طبيعيّة تماماً»

«لكنّ نهايتها لم تكن طبيعيّة، ربّما»

«كلّا، كانت طبيعيّة حتماً! أليس من الطبيعيّ أن يقتل الإنسان إنساناً آخر؟» صمتُ فجأة، وأنا أفكّر بما قلّته لتوي. «ولكن... أجل يا سيّدي، أجل» أضفتُ، «إنّه رجل مسكين، ضحيّة مسكينة. هذا رهيب! أليس كذلك يا سيّدي؟».

«ارتكاب جريمة هو أمر رهيب... كما ترين»

«أجل يا سيّدي، ولكن يجب عليّ أن أصنع الرأس، أليس كذلك؟»

«أجل، أظنّ ذلك»

«لا مانع لديّ من القيام بهذا»

الطاقم بأكمله، كلّ أولئك الموظّفين الجدد، ينظرون إليّ باحترام الآن! إنهم يحيّونني بهزّة من رؤوسهم عندما أمرّ بهم، ويبقون بعيدين عني، وبهذا يُظهرون احترامهم لي. أنا أطلب منهم أداء مهمّات محدّدة، فينقذون ما أقول! هذا جديد عليّ! انشغل جورج بمساعدتي بالعمل، ولم يعد يثرثر كثيراً

كالسابق، ولكن فقط لأنّ لديه الكثير ممّا يجب إنجازه، وها نحن نقوم بعمل مهمّ معاً، نصنع الرؤوس ونعرضها في القاعة، كي يأتي الناس ويتفرّجوا عليها. صحيح أنّ الأرملة لم تسمح لي برؤية إدموند، لكنّها أظهرت لي احتراماً جديداً. توقفت عن إصدار الأوامر لي، وسرعان ما انسحبت من منزل القروء الكبير كلياً أثناء النهار، وبدأت بقضاء وقتها مع ابنها في قصر باليه - رويال. لقد تركتني وشأني!

مقابل كلّ أولئك الذين دخلوا إلى منزل القروء، غادرنا شخص واحد: الصبيّ ذو الستّة عشر عاماً، أندريه فالتان ذو العينين المتباعدتين. عيناه الحولوان ليستا السبب بطرده، بل تصرّفاته، لأنّ مارتن ميلو اكتشف أن هذا الصبيّ يسرق من صندوق الغلّة. ارتعب أندريه المسكين عندما استدعتنا الأرملة جميعنا إلى القاعة الكبيرة، وسألته، ما إذا كان الاتهام صحيحاً. هزّ رأسه بالإيجاب والدموع تملأ عينيه، ثمّ توّسل إليها أن تمنحه فرصة ثانية. وقفت الأرملة أمامه للحظة، من ثمّ انحنت للأمام، وانتزعت الزهرة التي تحمل حرف (ك) عن صدره.



«لا، لا!» صاح الصبيّ، «من فضلك يا سيّدي!»، لكنّ كورتيوس اكتفى بهزّ رأسه بأسى.

«أخرجوه من هنا»، أمرت الأرملة.

«من فضلكم، أعطوني فرصة أخرى!»، صرخ فالتان وهو يتلفّت هنا وهناك.

صبيّ جاك، إميل، جرّه إلى البوّابة وألقى به خارجاً.

«هذه ليست نهاية آندريه فالتان!» صرخ، «ذات يوم، سوف أعود وسوف أدمر هذا المنزل!».

شعرتُ بالتعاطف مع هذا الصبيّ المسكين الذي يتّجه الآن صوب الخندق، لكنني لا أملك وقتاً للتفكير بمصيره البائس. هناك شخصيّات شمعيّة جديدة سنعرضها، وأعداد الزوّار هائلة لم نشهد مثيلاً لها من قبل، إذ يزورنا الآن مئات الرجال والنساء يومياً، يدفع كلّ منهم ثلاثة سو⁽¹⁾ لقاء التذكرة، وهو سعر مخفّض خاصّ بمن أسقطوا الباستيل.

1- عملة نقدية فرنسية قديمة من البرونز، تعادل 1 على 20 من الليرة الفرنسية القديمة.
المتريجة

الفصل الخامس والخمسون

قصة حب

هذه هي قصة متجر، قصة عمل، بلحظات مجده ولحظات انكساراته، قصة طاقم يتبدل باستمرار، قصة أرباح وخسائر، وأحياناً قصة العالم الخارجي، والناس الذين قرعوا أبوابنا.

سأشرح لكم

العائلة الملكية، ومن ضمنها الأميرة إليزابيث -وخصوصاً أميرتي إليزابيث- نُقِلْتُ من فرساي إلى باريس. اقتحمت عصابة كبيرة من نساء السوق القصر، وطالبن بالخيز. الملك، مُحاصراً وخائفاً على حياته، أُرهبه ذلك الحشد الضخم من العاقّة، وتمّ إغلاق فرساي. لو عرفتُ ما حصل لخفتُ حتماً على إليزابيث، لكنني لم أسمع بالتمرد الدموي إلا بعد أن انتهى وجلبوا لي رأساً... وهكذا علمتُ بما جرى.

وصلت مجموعة من بائعات السمك في سوق «ليه هال» إلى منزلنا، يحملن صرة ملفوفة بمئزر، فُرِدَتْ على الطاولة: رأس واحد، مقطوع بطريقة غير احترافية.

«هنا» قالت إحداهنّ، «جلبتُ هذا الرأس تحديداً».

«حسناً قلتُ، «رأس من؟»».

«حارس من فرساي»

«حارس سويسري؟»

«أجل، أحدهم»

«لا أُمَيِّر وجهه. أَشكّ أن أُمّه نفسها لن تتعرّف إليه»

«اصنعى له نسخة شمعية»

«لقد رفسوه، كما أعتقد»

«للتلّيل، للتلّيل»

كانت هذه فلورنس الطباخة! فلورنس، وسط أولئك النساء!

«فلورنس! هل كنتِ هناك؟! هل رافقتهن؟!»

«للهللل... أجل، كنتُ هناك»

«آخ!»

«اصنعى رأساً» قالت فلورنس، «اصنعيه».

«لَيْتَكَ جَلَبْتَهُ إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَتَقَا ذَفْوَهُ هُنَا وَهَنَا!»

«اصنعيه!»، أمرتني فلورنس دون أن تبسم، دون أن تبسم على الإطلاق!

فلورنس هي التي أخبرتني، أنه تمّ ترحيل إليزابيث. هؤلاء النسوة فخورات للغاية بما فعلنه!

«منزلِك القديم أُغلق»، قالت.

يا لذلك الخواء إذن! خواء لا مثيل له بعد أن هُجر فرساي! ولكن، أين

وضعوا كلّ أولئك الناس الذين يقيمون فيه؟!!

«يوسفنى ذلك!»، قلتُ.

«يُؤسفك؟!!!»، سألتني فلورنس.

«حسنًا، یوسفنی حال الیزابیث»

«يؤسفها؟! هل قالت إن ذلك يؤسفها؟!»، تساءلت النساء.

«لا» أجبتُ، «لا يمكنني أن أشعر بالأسى، أليس كذلك؟ أنا مجرد

خادمة، أفعَل ما يُطَلَب مِنِّي، فقط لا غير».

«إذن، اصنعي هذا الرأس!»

«أجل يا فلورنس»

«وسأخبرك شيئاً ما لذيذاً فيما بعد»



في الصباح التالي، ذهبتُ إلى قصر تويليري الذي نُقِلْتُ إليه العائلة الملكية، وخفق قلبي بقوة وأنا أسير عبر الحدائق. الحراس السويسريون والجنود مصطفون أمام القصر، وثمة حشد ضخم من الباريسيّين يتجمعون هناك، آمِلين برؤية ما سيحصل. شققتُ طريقي إلى الصفوف الأماميّة - يُسمَح للأطفال القيام بذلك، وأنا ما زلتُ صغيرة بحجم طفلة وواجهتُ الحراس. «كنتُ خادمة مدام إليزابيث في السابق» قلتُ، «خادمتها الشخصية» بل صديقتها أيضاً، هل سيسمحون لي بالدخول؟! «قل لها إنّ ماري غروسهولتز» طلبتُ من الحارس، «قلها وطحّالها، تنتظر في الخارج». «ابتعدي من هنا يا آنسة»

«فقط أبلغها أنني هنا، أخبرها باسمي، لا بدّ أنّها سترغب برؤيتي»

«لا زوّار! انقلعي!»

بصق عليّ أحد أفراد الحشد، من ثمّ دفعني آخر، وها هو ذا جورج يظهر بجواري ويرفعني عن الأرض، لقد جاء في طلبي بعد أن وصلنا رأس جديد. وهكذا، أُسرعتُ عائدة إلى المنزل، وقلتُ لنفسِي إنني سأرجع لاحقاً. يال لهذه الأحداث التي لا تُصدّق، والتي تحدث الآن! الشعب تحدّى العائلة الملكية، أنا تحدّيتُ الأرملة بيكو، وفضلاً عن ذلك، ترك إدmond العلّية، وإليزابيث أقرب إليّ الآن. نحن ثلاثتنا نعيش في باريس: إدmond، إليزابيث، وأنا!

«سأرحل عما قريب» قلتُ لسَيِّدي، «استفد مِنِّي الآن ما دمتَ قادراً على ذلك. ما إن أذهب حتَّى تضطرَّ لاستلام الرؤوس بنفسك، وصناعة نسخ من الشمع لها. لن أقوم بذلك بعد رحيلي»، لكنَّ إليزابيث لم تكن جاهزة لاستقبالي بعد! عدتُ إلى قصر تويليري، ورفض الحراس هذه المرَّة أن يتكلَّموا معي.

أنفق الباريسيُّون المال في «خزانة عجائب الدكتور كورتوس»، جاؤوا لرؤية أحدث الرؤوس، تحدَّثوا عن المواطنين وعن الحرِّيَّة، نظر بعضهم إلى بعض، وتفرَّجوا على الرؤوس. تفرَّج الكثيرون على الحياة الباريسيَّة الجديدة التي نعرضها هنا، بكى بعضهم من بعيد، بينما اقترب الآخرون منها قدر المستطاع. نُقِلَت نقودهم إلى غرفة مارتن ميلو، ودُوِّنت المداخليل في سجلَّاته، من ثمَّ أُودِعَت في الخزانة. رأيتُ كلَّ ما حصل، لأنني أستطيع الآن دخول القاعة الكبيرة متى أشاء. بالمقابل، عندما تدخل الأرملة إلى القاعة، تغادرها ووجهها أكثر احمراراً، وتهزُّ رأسها مرَّة أو مرَّتين، بل إنَّها بكت أيضاً ذات مرَّة، وصرخت على الجميع.

خارج أسوار منزل القروء، سيقام احتفال ضخم.

«يا لهؤلاء الرجال، يا لأولئك الباريسيِّين الجدد يا صغيرة!» قال مرسيه، «إنَّهم مثال عن الوفاق، عن العمل، عن السلام... إنَّه أعظم مشهد رآه إنسان يوماً! كلَّ المواطنين على اختلافهم هنا، يتحضَّرون للاحتفال بالعيد الوطني. لقد جاء معظم أهل المدينة، كي يعملوا بإيثار تحقيقاً لهدف واحد مشترك، وها هم أولاء يجهزون ساحة شامب دو مارس للاحتفال! كلَّهم أخوة وأخوات، بائعات سمك وأرستقراطيُّون! يا صغيرة، لقد عشنا كي نشهد هذا: كمال الإنسان! الجميع سيأتون، الجميع سيهلَّلون!».

«هل ستأتي الأميرة إليزابيث؟»

«الجميع! الجميع!»

«آه، كم أودَّ رؤيتها!»

هطل مطر غزير أثناء العيد الوطني، لكن لم يكثرث به أحد. تقاطر آلاف الأشخاص إلى المدينة، وزار الكثيرون منهم شعبَ كورتوس الشمعي،

وتأملوا بإعجاب الأزمنة التي عاشت فيها تلك الشخصيات. في لحظة الاحتفال الوجيزة تلك، أحب الناس بعضهم بعضاً، وصافحوا جيرانهم وتبادلوا القبلات، واتسمت المدينة بخفة عظيمة. كانت تلك أيام المعجزة، الناس جميعهم وسيمون يافعون، وباريس هي يوتوبيا مؤقتة. حتى جاك بوفيزاج وصبيه إميل انتعشا آنذاك، فطافا الشوارع بحثاً عن الكلاب الشاردة وأطعماها، كلاب غريت داين وبودلز وسبانيال تهيم في الشوارع الرئيسية، كلاب راقية تخلّى عنها أصحابها الأرستقراطيون على عجل. جلس كورتوس مع الأرملة في مكتبها، وصنع لها فواكه وأزهاراً من الشمع للزينة، لم تعرضها الأرملة ولكنها لم تلق بها إلى القمامة، بل احتفظت بها في درج.



في أحد تلك الأيام الغريبة، مشتتة الذهن بسبب تلك المصنوعات الشمعية، تركت الأرملة إدموند العزيز بمفرده في باحة منزل القروء الكبير، فتسللت صوبه بهدوء. تحت أشعة الشمس، رأيت عروقه الزرقاء، وسناً مكسورة، والشامة على مؤخرة عنقه، وتلك البقع التي أعرفها: إن بقي في الشمس، ولو لفترة قصيرة، سيظهر النمش على جفنيه السفليين وفوق أرنبة أنفه، فوق منخرية العزيزين غير المتساوين. من ثم: رأيت أذنيه تحمران.

«إدموند!»

«ماري»

«إدموند! هل أنت هنا؟!»

«ماري... أنا هنا»

«هل عدت؟! لقد عدت!»

من ثمّ، على الفور، صرخت الأرملة: «إدموند! أين أنت؟ عد إلى هنا فوراً!». لقد تيقّظت أمّه، ونادته مرّة أخرى، فذهب إليها، لكنّه استدار ولوّح لي.



خلال ذلك الموسم القصير، استدعاني كورتوس إلى ورشته، وقد تضرّجت وجنتاه بالحمرة نوعاً ما، والصّحّة تلوح على وجهه. «هل تعرفين شيئاً عن هذه الأمور يا صغيرة؟» سألني بخجل، «هل تعرفين أيّ شيء عن هذا الموضوع؟ هل لديك أدنى فكرة؟ نصيحة تقدّمينها لي؟».

«ولكن عمّاذا يا سيّدي؟! لم تقل ما هو الموضوع!»

«ألم أقل؟! اعتقدتُ أنني أخبرتك! حسناً، عن الحبّ يا ماري. هل تعرفين أيّ شيء عنه؟»

«أعرف يا سيّدي، أجل، الحبّ هو أعظم اهتماماتي»

«ولكن، هل تظنّين يا ماري، كشخص -أنتِ شخص- هل تظنّين أن شخصاً مثلي يمكنه أن يحبّ؟»
«أجل يا سيّدي، أظنّ ذلك»
«ولكن هل تظنّين أن شخصاً مثلي، يمكن أن يُحبّ؟!»
«هذا ممكن يا سيّدي»

«كما ترين، مع هذه التغيّرات العظيمة التي طرأت مؤخّراً على العمل، تغيّرتُ هي أيضاً كما لاحظتُ، شارلوت، شارلوت العزيزة! في السابق، كانت بحاجتي فقط من أجل العمل، لكنني أظنّها بحاجتي الآن لأمر مختلف. لا أتخيّل ذلك، لا، الحبّ!»، ثمّ همس: «الحبّ! ما هو الحبّ؟ يا له من أمر رائع لو رأيته على وجه ما، لو حفظته بالشمع!».

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السادس والخمسون

العائلة تتقلّص

أقدمت إليزابيث على تصرّف في منتهى الغباء: لقد حاولت أن تهرب! غضبتُ منها أشدّ الغضب، كيف ترحل دون أن تودّعني؟! وكيف تخاطر بحياتها هكذا؟!!

في ليلة العشرين من حزيران عام 1791، الملك والملكة، وطفلهما الباقيان على قيد الحياة، وأميرتي إليزابيث، تنكّروا بأزياء خدم ومرافقين ومشرفة -أدوار لا يستطيعون بتاتاً أن يلعبوها بطريقة مُقنّعة!- وهربوا من باريس بعربة قديمة. في الساعة الحادية عشرة من الليلة التالية، ليلة أطول نهار في السنة، تمّ اعتقال الفارين في الريف، وعادوا إلى العاصمة. خرجت المدينة المهانة بأكملها كي تتفرّج عليهم، وتجمهر الناس في الشوارع وفي النوافذ، وتسلقوا سطوح المباني كي يتفرّجوا على ذلك المشهد الذي لا يُصدّق: عربة ملكيّة خرقاء، تعود أدراجها ببطء إلى قصر تويليري. علّقت الجمعية الوطنية لافتات تحذيريّة:

كلُّ من يهلّل للملك سوف يُضرب

كلّ من يعتدي على الملك سوف يُشنق

لم يخلع أحد قبعته عندما مرّ الملك بعربته، بل حدّق الجميع إلى نوافذها، حدّقوا بإمعان. كنتُ هناك وسط الحشود، وحاولتُ أن أرى لكنني لم أتمكن من الاقتراب بما يكفي. للحظة خاطفة، ظننتُ أنني لمحتُ مؤخرة رأس إليزابيث وقلنسوتها وبعضاً من شعرها الأشقر، أميرتي إليزابيث! لقد

أوشكت على الابتعاد عني، قلتُ لنفسي، لكنّها عادت، وسأراها مجدداً عمّا قريب، عندما تطلبني. سترسل بطلبي حتماً الآن!

العائلة الملكية الأخرى، عائلتي الشمعية، نُقلتْ بعربة أخرى بالاتّجاه المعاكس: من قصر باليه - رويال إلى منزل القروود الكبير. سُدْتُ باستقبالها، لكنّها جاءت الآن كي تعيش بين تلك الرؤوس المقطوعة، وسط المجرمين والمدانين، ولن تُعرَض بعد اليوم في مشهد يمثل «قاعة الجلوس الكبرى»، بل ستوضَع التماثيل عوضاً عن ذلك حول طاولة بسيطة، مع تمثال لرجل بريّ الحرس الوطنيّ يندفع فوقها كأنّه يمثل لحظة اعتقال الأسرة من جديد، في مكان يدعى قارن. لم يكن لدينا وقت لصناعة رأس «طازج» للحارس، لذلك اخترنا رأساً لمجرم مغمور سَمَّ ضحاياه، أزيح من المعرض منذ فترة طويلة، من ثمّ موّنه بباروكة سوداء جديدة. الشخصية الملكية الوحيدة الغائبة كانت إليزابيث، لأنني لم أصنع لها نموذجاً قط، وكأني أنقذتها من هذا المشهد.

في السابع عشر من تموز، أطلق الحرس الوطنيّ بقيادة لافاييت النار على مجموعة من المتظاهرين، فقتل منهم خمسون شخصاً. وهكذا، جُلِب لافاييت الشمعيّ كي ينضمّ إلى تماثيل المجرمين في البوليغار، ممّا فاقم وحدة الأرملة في معرض باليه-رويال. تمثال المحافظ السابق مسيو بيه قام بالرحلة ذاتها، وكذلك كالون⁽¹⁾، وميرابو... كلّ التماثيل الشمعية تعود إلى المنزل! في الأوّل من نيسان، هجرت الأرملة قصر باليه-رويال، الذي كان شبه فارغ بحلول ذلك الوقت، لا يعرض إلّا حفنة من المشاهير: فولتير، روسو، الموسيقار غلّك، بنجامين فرانكلين، والأخوان مونتغولفييه. عاد إدموند أيضاً إلى منزل القروود، ولكنه بقي في العليّة.

في العشرين من نيسان 1792، وخشية تعرّضها للهجوم، أعلنت فرنسا الحرب على النمسا وبروسيا. في الخامس والعشرين من الشهر ذاته، تمّ إعدام قاطع الطريق نيكولا-جاك بلتييه بطريقة مبتكرة، بألة صمّمها مسيو

1- شارل ألكساندر دي كالون (1734-1803)، رجل دولة فرنسيّ، الإصلاحات الاقتصادية والإدارية التي طبّقها عجّلت اندلاع الثورة الفرنسية. المترجمة

لويس: «اللويست»⁽¹⁾ كما تسمى، وتتألف من هيكل خشبي عالٍ، وشفرة كبيرة مائلة. عندما ارتفعت عتلة، هوت الشفرة من ارتفاعها ذاك، وقطعت عنق مسيو بلتييه مباشرة، فقفز رأسه بعيداً عن جسده. كان جاك وإميل حاضرين، وشاهدوا كيف تمّ الإعدام، لكنهما عادا خائبي الأمل. «لم أستطع أن أرى أي شيء!» قال جاك، «إنها سريعة جداً، تقطع الرأس قبل أن تدركي ذلك».

استمرّ عملنا كالمعتاد، لكننا أصبحنا مشغولين أكثر بكثير من السابق! يا لهذه الحرفة التي ازدهرت في هذا المعمل، يا لهذه الآلة التي تنتج التاريخ الحديث! لم نفهم قط الصورة الكبرى، لأنّ كلاً منا لم يعرف سوى الجزء الصغير المنوط به، هذا الجزء كان الشعر بالنسبة لبعضنا، أو الأسنان بالنسبة للبعض الآخر. أحدنا يركّز على العيون، الآخر على الألوان، أحدنا يمزج الشمع، والآخر يحضّر الكلس... إلخ، ولم يستطع أيّ منا أن يرى ماذا يوجد خلف محطّته الخاصة. معاً، صنعنا تشريح مدينة تتغيّر، ومعاً فقط جعلنا الأشياء مفهومة للجميع.

في مكتبها، دَخِنت الأرملة السيجار وعضّت على ريشات الكتابة، متسائلة ما إذا أغفلت هذا أو ذاك، أقلقتها القرارات التي ينبغي اتّخاذها، ولم تعد واثقة حول أيّ طريق يجب عليها أن تسلك. خاطت قبعة فريجيّة⁽²⁾ حمراء لرأس لويس السادس عشر، من ثمّ خاطت بعد أن انتهت منها زياً موحداً جديداً، لطاغم الاستقبال الذي يقف أمام منزل القروود. في السابق، ارتدى أفراد الطاقم زياً مستوحى من لباس الحرس الوطني، لكن بعد أن فقد هذا الحرس شعبيّته عندما أطلق النار على المتظاهرين في تمّوز، لبس الصبيّة زيّ «اللامتسرولين»⁽³⁾، أي زيّ الطبقة العاملة: بنطال مخطّط، قميص فضفاض، وجاكيت بسيط. علّقوا وردة كورتبوس على صدورهم، بعد أن أضيفت إليها

- 1- د. أنطوان لويس هو طبيب وجراح فرنسيّ، صمّم النموذج المبدئيّ للمقصلة إبان الثورة الفرنسيّة، وسمّيت آنذاك بـ Louise أو louison نسبة إليه. المترجمة
- 2- قبعة حمراء من الصوف أو القماش الطريّ، تشبه القمع، ذات ذروة تنحني نحو الأمام، ارتداها الثوّار إبان الثورة الفرنسيّة وعُرِفَتْ بـ «قبعة الحرّيّة». المترجمة
- 3- Les Sans Culottes حركة سياسيّة لعبت دوراً هاماً في مجريات الثورة الفرنسيّة، أعضاءها هم من الطبقة العاملة الذين يفضّلون ارتداء السروال الطويل، على ذاك القصير Culottes الذي يلبسه الأرستقراطيون. المترجمة

شريطة جديدة ثلاثية الألوان: الأزرق والأحمر، وهما لونا باريس القديمان، والأبيض، وهو لون العائلة الملكية.

أنا أعمل الآن في الورشة الرئيسية الموجودة هناك في آخر الردهة، أفتح القوالب وأحرّر الرؤوس الشمعية، ويساعدني جورج أوفروي بالألوان الوردية والحمراء. في ورشتي القديمة بجانبني، يتم غرز الشعر والأسنان والعيون. في القسم المفتوح للزّوار، يجلس مارتن ميلو المسؤول الآن عن صندوق الغلّة. لقد خفّضنا تعرفه الدخول، لكنّ عدد الزّوار عوض الفرق، إذ تدفق الناس علينا بأعداد أضخم من ذي قبل. جاء الأطفال مردّدين بصوت عالٍ اقتباسات من «إعلان حقوق الرجل والمواطن»، والأنسات الشابات اللواتي بصقن على تمثال لافاييت الشمعيّ، ونعتنه بالمفسد، والرجال العجائز الذين لم يتحدثوا إلّا عن الوطن الأم. آنذاك، زيارة خزانة عجائب الدكتور كورتيوس عدّت واجباً وطنياً.

في ليلة الأوّل من آب، لم يقع حدثٌ وطنيّ عظيم، بل حدثٌ ذو أهميّة في منزلنا: سمعتُ كورتيوس والأرملة يتحدثان عند صحن الدرج، ورأيتُ سيّدي ممسكاً بدمية هنري بيكو.

«آن الأوان كي نضعه بعيداً يا شارلوت. إنّه ميت، ميت! تعالي معي»
«لا أستطيع!» قالت الأرملة وصوتها يختنق بالدموع، «بلطف! تدريجيّاً! سأنزع ملابسه، ليس أكثر. إنّه سنّدي، لم أكن لأحقّق أيّاً من هذا لولاه. أنت لم تعرفه، إنّه رجل عظيم، ولن تصل إلى مستوى عظّمته تلك قطّاً!».

«ولكنّني حيّ!»

«أرجوك يا فيليب! أنا أتعلّم!»

في الصباح التالي، كان هنري بيكو عارياً في صحن الدرج.
في العاشر من آب، تجمهر المواطنون في مظاهرة حاشدة مطالبين بتنحي الملك. من منزل القروود الكبير، شاهدنا الحرس السويسريّ يطلق النار من البنادق والمدافع، دفاعاً عن قصر تويليري. إليزابيث! فكّرتُ، إليزابيث هناك في القصر! ذهبْتُ إلى مشغلي، وأمسكْتُ القلبَ والطحال. «كوني بأمان! كوني بأمان! كوني بأمان!»، ردّدتُ.

أغلقَ منزل القروء وأوصدَ بالمтарыس، ككلّ المنازل في أرجاء المدينة. لم نتمكن من الخروج، لأنّ مَنْ يخرجون يُقتلون. في القاعة الكبيرة، اهتزّت التماثيل الشمعية المجوّفة قليلاً كلّما دوّت الأسلحة في الخارج، ارتجف بايلي، واهتزّ أفراد العائلة الملكية في مقاعدهم، لذلك مدّدنا بعض التماثيل على الأرض، كي لا تنكسر لو وقعت. كلّ ما في البيت ارتجف مع دويّ المدافع.

«كوني بأمان! كوني بأمان! كوني بأمان!»

رنّ جرس هنري بيكو. سحبنا المزاليج، وفتحنا الباب، فرأينا جاك بوفيزاج عند البوابة ومعه صبيّه إميل. جسد إميل رخو، وجهه رماديّ مسودّ، عيناه مغمضتان، ولا يستطيع أن يقف على ساقيه. من ثمّ، جاك بوفيزاج، راوي أفضل قصص الجرائم، رفع صبيّه ذا الرأس الحليق فوق العتبة. من المؤكّد أن إميل ملان لم يعد حيّاً! لقد شهد جاك أخيراً جريمة، بعينه! «جاك! ما الذي حدث؟!»، صاح سيّدي.

«جريمة! جريمة! جريمة! لقد قتلوا فتاي، فتاي الصغير!»

«آه يا جاك!» صحتُ، «يا جاك العزيز المسكين!».

«فتاي!»، زمجر جاك.

المدينة بأكملها مغلقة الآن، طاف الرجال من شارع إلى شارع، وأعلنوا عقوبة الإعدام لكلّ من يؤوي أحد أفراد الحرس السويسريّ المسؤول عن قصر تويليري. استمروا بالتفتيش طيلة الليل، وانقلبت باريس بأكملها رأساً على عقب إبان ذلك. إن اختفى الحرس السويسريّ، إذن فالحاجز ما بين العاعة والملكيّين اختفى، وستدبّ الفوضى. لم أعرف ما إذا كانت إيزابيث حيّة، أم ميتة!

«ساعدوني!» بكى جاك، «آخ، ساعدوني!».

فيما بعد، وأنا في مشغلي في الصباح الدافئ، أظلمت الغرفة فجأة. اتّجهتُ إلى النافذة، ودفعتها كي أفتحها، فتعالى طنين رهيب. إنّها أسراب الذباب، تلتصق بالنافذة وتحجب الضوء! أسراب كثيفة من الذباب، تحوم فوق البوليفار! إذن، لا بدّ أن الجثث تملأ المدينة!



قرع بابنا ضباط يرتدون أوشحة ثلاثية الألوان، واستفسروا عن جنسية سيدي. «إنه كورتوس!» صرخت الأرملة، «كورتوس شخصياً!»، لكن الرجال لم يصغوا إليها، بل كرّروا السؤال على سيدي فأجابهم أنه وُلِدَ في سويسرا. سألوه ما إذا كان هناك سواه في هذا المبنى، أيّ شخص سواه يحمل الجنسية السويسرية أيضاً، فقال سيدي أجل، هناك خادمة تعمل لديه منذ زمن طويل، امرأة، يصدف أنها أيضاً سويسرية.

«سويسريّان اثنان» قال الرجال، «أخذنا علماً بذلك».

«إنهما مواطنان مخلصان من رعايا فرنسا» قالت الأرملة، «كلاهما».

«إنهما من سويسرا»

«وطنهما هنا»

«إنهما سويسريّان، سويسرا هي وطنهما»

«لم يرتكبا أيّ سوء!»

«سننظر بذلك. سويسريّان! أخذنا علماً بهذا»

عندما غادروا، كانت الأرملة ترتجف، وقالت: «ستكون بأمان، أقسم على ذلك! حتّى هي ستكون بأمان».

«شكراً لك!» صحت، لم أتوقّع وعداً كهذا من الأرملة!

«كفى! لا أرغب بسماع هذا»

«ولكنني سأشكرك مع ذلك. إنها الكلمات اللطيفة الأولى التي تقولينها

لي!»

«الأولى؟! حسناً، يكفي هذا، لقد كنتِ نافعة»

لم أصدق أذني! «نافعة؟! هل كنتُ كذلك؟!».

«ويا صغيرة» قالت الأرملة، «ثمة أمرٌ آخر أريد أن أخبركِ به، ولا بدّ أنك ترغبن بمعرفته. أميرتك بأمان، ما زالوا جميعهم أحياء، مُحْتَجِّزِينَ في الكنيسة، سجناء ولكنهم أحياء. وصلتنا هذه الأخبار قبل بضع ساعات، لا بدّ أنك ترغبن بسماع هذا».

«آه! شكرًا لك!»

«الآن، اغربي عن وجهي»

«أجل، أجل، سأذهب»

«اذهبي إذن»، من ثمّ قالت الأرملة لسيدي: «لم أعد أعرف ما هي القواعد، إنها تتغيّر بسرعة، ولا أستطيع أن أخمّن ما يحدث.... على العكس منها، إنها تعرف أكثر مني! إنها الوحيدة القادرة على فعل شيء هذه الأيام، مخلوق مثلها وحده القادر على ذلك!». ما الذي دهاها فجأة، كي تبوح بأفكارها بصراحة؟! ما هو هذا الخطر الذي يحيط بنا، ويسبّب لها كلّ هذا الاضطراب؟! لا بدّ أنها تخشى موتنا، فكّرْتُ، لا بدّ أنها تخشاه كثيراً.

الترحاب الذي ننعم به في البوليفار، يتلاشى بسرعة على ما يبدو. فلورنس يبيلو طاهيتنا، تركتنا في ذلك الصباح. قالت إنها لن تعمل إطلاقاً في خدمة سويسريّ، كائناً من يكون. في اليوم التالي، جاء رجال آخرون، طرحوا علينا الكثير من الأسئلة، طافوا في المنزل، ودوّنوا ملاحظات عديدة. نعتوا سيدي بـ «كورتيس السويسريّ من بيرن»، ولم يلقّبوه لا بالوطنيّ ولا بالمواطن، ولم يعتقلوه، فقط لأنّ جاك تعهّد أن يكفله.

زار الضباط منزل القروذ يومياً، وفَتَّشُوا غرفه بحثاً عن أدلّة.

«لم نرتكب سوءاً!»، تزعق الأرملة.

«أنت تؤوين سويسريّاً»، يجيبون.

أُعيدَ افتتاح منزل القروذ الكبير، تحوّلت «اللويست» إلى أداة الإعدام المفضّلة في أرجاء البلاد، وتمّ تخصيص معمل كامل في شارع رو موفيتار

لصناعتها، من ثمّ تغيّر اسمها: «اللويست» تُذكر الكثيرين بالملك المخلوع، لذلك تمّت تسميتها بـ «لا غيوتين»⁽¹⁾ تيمناً بطبيب سعى طيلة سنوات إلى اختراع آلة لإعدام المجرمين بطريقة رحيمة. درءاً للشكوك، جمعت الأرملة وسيدي أبغض الشخصيات معاً في القسم ذاته من القاعة، ونقلوا العائلة الملكية إلى داخل القفص القديم، الذي عاش فيه البابون لازار فيما مضى.

سيدي، الذي ما يزال قيد المراقبة من قبل سلطات باريس، تاق إلى أن تلاحظه الأرملة في منزل القروود الكبير. «ستأتي إليّ يا ماري، عمّا قريب. ستأتي إليّ، شارلوت، إنها بحاجة إليّ، في أيّ يوم الآن، ستقرع بابي فقط وتقول لي ها أنا ذي! الجدران التي تفصلنا، تتداعى»، يقول لي.

«أنا سعيدة من أجلك يا سيدي، لقد تغيّرت كثيراً في الحقيقة»، أجيبه.

تركتُ مشغلي ذات ليلة، كي أزور الأشخاص الشمعيين الذين يعيشون صامتين في القاعة، ففاجأتُ الأرملة، التي كانت راکعة تخط دمية زوجها الراحل. عندما رأتني، اهتمجت، وشتمتني لأنني أتجسّس عليها. اصطدمتُ بالدمية عندما وقفت، فخيّل لي أنني سمعتُ خشخشة تصدر عنها.

ذات صباح، رأيتُ أندريه فالتان -ذلك الفتى الأحول- مجدداً في البوليغار، يتحدث إلى مارتن ميلو عبر البوابة، لكنّه هرب ما إن اقتربتُ منهما. «ما الذي يريده؟»، سألتُ.

«النقود بالطبع» أجاب مارتن، «النقود دائماً».

«هل يتصوّر جوعاً؟»

«إنّه جائع»

«من الأفضل أن ندعه وشأنه، إنّه ليس أهلاً بالثقة»

«لكنّه فرنسيّ، مع ذلك»

1- la guillotine: جوزيف إغناس غيوتان Joseph-Ignace Guillotin كان طبيباً وسياسياً فرنسياً وعضواً في الجمعية الوطنية، لعب دوراً أساسياً بإقرار قانون في عام 1789 يقضي أن يُطبّق الإعدام حصراً بواسطة آلة، وأن يكون رحيماً ما أمكن، أمّا الدكتور أنطوان لويس المذكور آنفاً فكان من صمّم تلك الآلة. المترجمة

في الخامس والعشرين من آب، خسرنا خمسة من أفراد الطاقم. غادرونا جميعهم كي يشاركوا في الحرب -من بينهم مساعدي جورج الشجاع- جنباً إلى جنب ثلاثين ألف شخص آخرين، استدعتهم اللجنة التنفيذية المؤقتة للانضمام إلى الجيش. لوّحنا لهم مودّعين، الكثير من الشباب يغادرون باريس الآن، بمواكبة الطبول التي تُقرّع في أرجاء العاصمة... ولم يعودوا قطّ.

الفصل السابع والخمسون

اصنعوا لي تمثالاً

«إنّهم يقتلون السجناء!» قال مرسية، الذي جاء كي يطلّني على آخر التطوّرات في المدينة. «في هذا المساء تحديداً، وأنا أتكلّم معك الآن، يقتادونهم، ويعدمونهم بلا محاكمة وبلا رحمة. هذا الحذاء الدامي جعلني أستدير على أعقابى، وأتى ركضاً إليك. بلا شكّ، ستتوافر لديك الكثير من الرؤوس عمّا قريب يا صغيرة!»، صوته يطفح بالمرارة.

كنّا جميعنا جالسين في القاعة، جميعنا، بمن فينا إدموند. «والأميرة إليزابيث؟»، سألته.

«لا، لم يعدموا العائلة الملكية. يعدمون القساوسة، غالباً، يقتلون القساوسة».

«حقّاً؟» قلتُ، «شكراً لك، من الأفضل أن أستعدّ إذن».

نظر مرسية إلى إدموند، لم أعرف بماذا يفكر.

«اجلس يا سباستيان» قال سيدي، «واشرب بعض النبيذ. نحن سعيّدون بوجودك معنا، لقد تناقص عدد الزوّار مؤخّراً في الحقيقة».

«دعني أخبرك عن شخص معيّن» قال مرسية، «جسده ملطّخ بدماء رجال كثيرين، وهو نفسه لا يعرف عددهم كما اعتقد. إنّهُ يقطع أوصالهم، يمزّقهم، سواء القساوسة أو الأرستقراطيين... تؤلمه ذراعه من كثرة العمل!».

«مرسية، كلامك غير مفهوم!» قالت الأرملة، «عمّن تتحدّث؟!».

«أيتها الأرملة بيكو، أيّها الدكتور كورتيس، هل لي بسؤالكما: أين هو جاك بوفيزاج؟»

«يحرص الضاحية»، أجابت الأرملة.

«لا!» قال مرسية، «أخشى أن هذا ليس صحيحاً أيتها الأرملة بيكو! بوفيزاج يقتل القساوسة الذين لم يقبلوا بالدستور المدني. إنه يشقّ صدورهم، فتهرب الحياة منهم».

«لا بدّ أنك مخطئ!»، قال سيدي.

«إنه جاك اللعين! لقد رأيته بعيني»

«لا، لا، لا أعتقد ذلك!»

«إنه يحتمي الكثير من النبذ» تابع مرسية وهو يخلع نظارته ويضعها جانباً، «إنه عطشان جداً كما ترون، قتل الرجال عملٌ شاقٌّ!».

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً!»، قال سيدي.

«هذا المكان» قال مرسية وهو يتأمل تماثيل الشمع، «هو مدرسة للإجرام».

شحب وجه سيدي، ثم قال: «نحن نعرض ما يوجد خارج بواباتنا فقط!».

«لكنك لست مضطراً لعرضه، أليس كذلك؟»

«بلى، يجب علينا أن نفعل! الناس يطالبوننا بهذا!»

«هذه الرؤوس ستجلب المزيد من الرؤوس، عليك أن تغطّيها! أبعدّها

من هنا! يجب ألا تعرضها! عليك أن تغيّر هذه التماثيل الجديدة!»

«إنها أمثلة عمّا يحدث في الخارج، في المدينة، لا أكثر»

«أنت تهلّل لما يحدث»

«نحن نلاحظه فقط»

«أنت تزيد سوءاً! أنت تأخذ الأسوأ، وتحفظه هنا»

«لا شيء أصدق من الشمع، الجميع يعرفون هذا، الشمع لا يكذب أبداً»

هذا صحيح، الشمع لا يكذب إطلاقاً، على العكس من تلك البورتريهات

ذات الإطارات المذهبة المرسومة بالألوان الزيتية، التي شاهدها في أرجاء

القصر. الشمع كان، وسيبقى، أصدق المواد.

«عليك أن تغطّي الرؤوس! أتوسّل إليك»

«ولكنّ هذا سيُعدّ... كذباً!»

تنهّد مرسية تنهيدة ملؤها الأسى، ثمّ قال: «هذه المدينة سوف تنفجر». تعالت ضجّة في الخارج، لقد رنّ الجرس. إنهم مجموعة من الأشخاص مرّة أخرى، مجموعة مختلفة، لكنّ الغوغاء يتشابهون دائماً. جلبوا لي رأساً جديداً، وضعوه فوق الطاولة، منتصباً على جذمور عنقه. شعر أشقر! بشرة بيضاء! عياناً رماديتان فاتحتان!

«آخ!» شهقْتُ مصدومة، «هذا مختلف! أنا أعرف هذا الرأس! لقد تحدّثتُ معه عندما كان على قيد الحياة!».

«صه يا صغيرة! ماري، يا فتاة!» قالت الأرملة همساً، «خذي له طبعة! أنتِ لا تعرفينه! سيقتلونكِ لو أدركوا أنك تعرفين صاحبتَه». «هل هو...» سأل سيّدي وهو يساعدي بتحضير الكلس، «هل هو رأس إليزابيث؟».

«في البداية، كلّ ما رأيته كان شعرها الأشقر»

«هل هو رأسها؟»

«وآو يا سيّدي، حسبته رأسها!»

«هل هو كذلك؟!»

«لا، إنّه... إنّه رأس الأميرة دو لامبال»

«إنّه ليس رأس إليزابيث إذن! يسعدني هذا، حقّاً»

«بشرتها ناصعة البياض»

«فكّري بها إذن على أنّها من المرمر، لعلّ ذلك يساعدك»

«ولكن أن تعرف صاحبة الرأس يا سيّدي!»

«هيا، لنعمل!»

«لم أعرف أيّ رأس من قبل! كأننا نقرب منهم أكثر فأكثر الآن!»

«هيا يا ماري، ارفعي الرأس»

«إنّه ثقيل!»

«أحسن!»



راقبنا إدموند ونحن نعمل، ولم يزح بصره عنا. عيناه مفتوحتان على وسعهما، لكنه لم يبك، بل جلس مشدود الظهر، وتشبّث بمقعده. عندما انتهينا، وأخذ الغوغاء الرأس منا وحملوه إلى خارج منزل القروء، رأيتُ مرسية جالسا في الزاوية... إنه من يبكي!

«كان عليّ أن أترككما في بيرن!»، قال.

«إذن، لما تعرّفتُ على هذه الحسنة!»، أجابه كورتيوس وهو ينظر إلى الأرملة.

«آه يا صغيرة!» تابع مرسية، «يا قسوة صغيرة، يا سكيناً صغيرة، يا لطخة دم صغيرة. كم يلائم وجهك هذا الزمن! كم تشبهين نفسك: كابوس صغير!». «لماذا تقول هذا؟!»، سألته، «لماذا تهينني؟! ماذا فعلت كي أستحقّ هذا؟! لستُ من قطع الرؤوس، أليس كذلك؟».

«وداعاً» قال مرسية، «لا أظنّ أنني سأعود إلى زيارتكم».

خرج من البوابات، توقف، استدار، ثم ركل المبنى قبل أن يمضي في طريقه.

«ومع ذلك، كان سعيداً بما يكفي كي يحتسي نبيذنا!»، قالت الأرملة.

«في الحقيقة» قال سيدي، «لم يهمني رأسه كثيراً».

لاحقاً في تلك الليلة، جلسنا في القاعة، وجلست الأرملة بجانب سيدي.
رنّ جرس هنري بيكو مرّة أخرى، إنّه جاك بوفيزاج، يقف على الجهة الأخرى
من البوّابة، يحمل سيفاً بيدٍ وبندقيةً باليد الأخرى، ويريد الدخول. الكلمات
التالية قيلت همساً (في الداخل)، وزمجرةً (في الخارج):

«سيفقتلنا جميعنا!»، قالت الأرملة.

«لا» قلتُ، «لن يؤذينا أبداً».

«الدماء تلتطّخه» قال مارتن ميلو، «بوسعي رؤيتها من هنا».

«هل نسمح له بالدخول؟»، سأل كورتبوس.

«إنّه ليس على طبيعته» أجابت الأرملة، «سيدبحنا جميعنا، من ثمّ سيبيكي
علينا في الصباح».

«ولكنّه جاك!» قلتُ، «فتانا اللعين جاك».

«اصنعوا لي تمثالاً» صاح جاك من خارج البوّابات، «اصنعوا لي تمثالاً».

«هذا يخالف القواعد» همست الأرملة، «نحن لا نصنع تماثيل لأنفسنا.
نحن أنفسنا لسنا للعرض، نحن لا نشارك بهذا».

«لقد كنْتُ مشغولاً»، صاح جاك.

«إنّه سكران» قلتُ، «لا، ليس على طبيعته».

«الأفضل أن نتركه ينام على عتبة باب ما، كي ينسى»، قال كورتبوس.

«أيّ نوم؟!» سألته الأرملة، «هل للنوم أن ينسيه ذلك؟!».

«مشغول! آه، مشغول» صاح جاك، «هاتان اليدان...».

ثمّ ساد صمت طويل.

«هل رحل؟!»، سأل مارتن ميلو أخيراً.

«أعتقد ذلك»

ولكن عندها:

«آخ، ساعدوني!» صاح جاك، «ساعدوا جاك! من سيساعد جاك؟».

«لا أستطيع أن أتحمّل هذا!»، قال كورتبوس.

«يا صغيرة! ساعديني يا صغيرة»

«أريد أن أذهب إليه!»، قلتُ.

«إميل! إميل!»، نأخ جاك.

«لقد هدأ قليلاً، أعصابه هدأت» قالت الأرملة، «ولكن لا يمكننا أن نسمح له بالدخول».

«ماذا سأفعل؟» نأخ جاك، «ماذا سأفعل الآن؟!».

«سرعان ما سيرحل» قالت الأرملة، «وسيهدها».

«عائلة!» صرخ جاك، «أم، أب، أخ، أخت».

«جاك بوفيزاج!» همستُ، «اهدأ الآن!».

«أنا... أنا... ساعدوني، ساعدوني»

صرخ، وأطلق عواء وحشياً طويلاً بشعاً، من ثمّ ساد الصمت. لقد ذهب.

«غداً يا سيّدي» قلتُ، «يجب أن نبحث عنه غداً».

«أجل يا ماري، سيكون أكثر هدوءاً. لن يفاجئني لو عاد لاحقاً، ونام عند

البوابة».

لكنّ جاك بوفيزاج لم يعد في تلك الليلة، ولا في اليوم التالي. ملطّخاً

بالدماء، تخلّى عن سريرته، تخلّى عن الدفء والراحة، ورمى بنفسه وبعبابه

مجدداً إلى الشوارع.

في تلك الليلة، انقلبت المدينة إلى مكان مختلف جذرياً، وغابت ضجّة

الحياة نهائياً عن البوليغار. لا شيء سوى الصمت الآن، حيث اعتاد الناس

والعربات على الغدو والرواح إلى أعمالهم. أُوصِدت بوابات باريس،

وجابت دوريات من الرجال المسلّحين بينادق ذات حراب الشوارع، وخبطوا

على الأبواب. في النهر، توزّعت القوارب بفواصل متساوية، محمّلة برجال

مسلّحين يطلقون الرصاص على كلّ ما يتحرّك.

في الصباح، عندما فُتِحَت بوابات المدينة من جديد، انطلقنا أنا

وكورتيوس للبحث عن جاك، نادينا به باسمه، صقّرنا، صرخنا، أوقفنا الناس

في الشوارع، وعرضنا عليهم مكافأة إن أبلغونا بأيّ خبر عنه.... ولكنّا لم

نسمع عنه خبراً قطّ، لا في ذلك اليوم، ولا في الأيام التي تلتها.

«فتاي جاك!» قال كورتيوس بأسى، «طفلي! ما الذي سيحلّ بنا لو جاء

للصوص ليلاً؟! من سيحرسنا الآن؟!».

الفصل الثامن والخمسون

لا مشاعر

بينما أغلقت كلّ البوابات وكلّ النوافذ وكلّ المصاريع في المدينة، بأمر من كومونة باريس، بينما اصطفّ الجنود على طول بعض الشوارع الرئيسية في المدينة، كنّا أنا والأرملة وكورتيس وإدموند جالسين في كنيسة ماديلين، في شارع رو دي لا ماديلين، بعد أن تمّ استدعاؤنا منذ الصباح الباكر بأمر من الجمعية الوطنية. لقد تلقينا أمراً خطياً بالقدوم، فاستيقظنا باكراً، اغتسلنا، وارتدينا ملابسنا بعناية. تفحصنا مارتن ميلو، نفّض الغبار عن ملابسنا، ورّتب شرائطنا الثلاثية الألوان بحيث تبرز بفخر، ثمّ تراجع خطوة للخلف كي يتأملنا مجدّداً، وبعدها ودّعنا ملوحاً بيده.

«ستنجحون» قال، «يا له من يوم! أنتم تستحقّون ذلك».

انطلقنا، استدرتُ كي ألوح له بيدي، لكنّ شخصاً يجلس في الشارع بالقرب منّا، ويرفع ياقته اتّقاء للريح، جذب انتباهي.

أمضينا الصباح بطوله في كنيسة ماديلين، انتظرنا ساعات وساعات إلى حدّ أنّني نسيْتُ لماذا ذهبنا إلى هناك. أخيراً، سمعنا الطبول تُقرع، من ثمّ الصمت، من ثمّ ضجّة هزّت نوافذ الكنيسة كأنّها دويّ رعد هائل، وتهليل صاخب مفاجئ. ربّنا أنفسنا قليلاً، جلسنا منتصبين، وسويتنا ثيابنا مرّة أخرى. لن يطول الأمر أكثر، في آية لحظة الآن، توتّرنا، قرّعت معدة كورتيس، تعرّقت الأرملة على الرغم من برودة الجوّ، وتشبّث إدموند بدميته في حضنه. حدّق كلُّ منّا إلى الآخر طيلة الوقت أنا وهو، لكنّ الانتظار استمرّ. انتظرنا فحسب، دون أن نقول شيئاً.

في العاشرة والنصف تقريباً، انفتحت بوابات المدينة مجدداً، وأصبح بالإمكان بدء الأعمال اليومية. فُتحت المصاريع في أرجاء باريس، ظهر الناس في النوافذ، واستأنفوا أشغالهم المعتادة، اشتروا الخضروات واللحوم من الدكاكين التي فتحت أبوابها متأخرة، أو شربوا القهوة، أو لعبوا الشطرنج، أو عادوا إلى أسرّتهم. في التوقيت نفسه تقريباً، بعد أن تجاوزت الساعة العاشرة والنصف بقليل، وصل طرد من أجلنا. اقتادونا إلى الخارج، الجزء الأكبر من الجثة كان موضوعاً في عربة يدوية، ثمّة حفرة حُفرت مسبقاً في باحة الكنيسة، ودلو مليء بالكلس الحيّ. أعطونا صرة موضوعة في سلة، واستعجلونا كي نباشر عملنا.



«لقد ضاع معظم شعره!»، هتف سيدي.

«الشعر يباع بالوزن»، قال أحد الرجال الذين يقفون إلى جوار العربة اليدوية.

شعرتُ بوزن الرأس في حضني

«بسرعة!»، أمرنا الرجل ذو العربة اليدوية.

«أظنّ أن امرأتك تبكي»، قال رجل آخر.

«لا أظنّ ذلك» أجاب سيدي، «ماري، هل تبكين؟! هذا ليس من شيمك أبداً».

«لا يجب أن تبكي! هذا لا يجوز!»، قال الرجل ذو العربة.
«نحن عُقلٌ يا ماري» قال سيدي، «وليست لدينا أحاسيس بتاتاً. لا نستطيع أن نشعر بشيء، المشاعر من اختصاص الآخرين، أنتِ مَنْ يجب أن يعرف هذا أفضل من أي شخص آخر! كم رأساً صنعنا؟ لِمَ كل هذه الجلبة الآن؟! نحن صُحف، نحن نسجّل فقط لا غير. نحن محظوظون يا ماري، لأننا رأينا ما رأيناه، وهذا الآن هو الامتياز الأكبر. الملوك يموتون أيضاً، بشتى الطرق، والتاريخ يسجّل موتهم أيضاً، وها نحن أولاء نسجّله بدورنا. إنها وقائع، وقائع».

«شكراً لك يا سيدي، أنا أفضل حالاً الآن»

«والآن، هذا لا يجوز!» قال رجل العربة، «المرأة العجوز تبكي أيضاً». الأرملة بيكو، تلك القلعة الحصينة، دم الملك يلطّخ حضنها. لكزت تلك البقعة بإصبعها، وعيناها دامتان بكل تأكيد.

«الملك!» همست، «آخ، الملك! ماذا فعلنا كي نصل إلى هنا؟!». حتّى الأرملة اضطربت بسبب ذلك الرأس! إدموند، الذي تقيّاً إفطاره، جلس مرتجفاً إلى جوار أمه، ودسّ دميته القماشية في فمه.

بدأنا بالعمل، أنا وكورتبوس. مرّنا الرأس فيما بيننا كي ننظّفه قليلاً: العنق المقطوع، اللحم الممزّق، خثرات الدم، شظايا العظام... دهنتُ الوجه بالمرهم، حريصة على ألا أفتح الأجفان. هذا الوجه يخلو نسبياً من التعابير، ثمة تجعيد صغير على الجبهة، كما توجّب علينا أن ندفع الشفتين إلى موقعهما الصحيح، وأن نشبّهما. لقد تأكلت الأسنان بسبب الإفراط بالمعجنات الحلوة! لا... ليس هذا، لا تفكّري بهذا! «روبنسن كروزو!» هتفتُ، «كان كتابه المفضّل».

«زيت!»، أمرني سيدي.

«بما أنّهم قطعوا رأسه، ألن يقطعوا رأس إليزابيث أيضاً؟ هل سيحدث هذا؟!»

«كلس!»، قال سيدي.

عندما انتهينا، وضع الرجال الرأس وبقية الجثة في تابوت خشبي

متواضع، وطمروه بالكلس الحيّ. وضعتُ القوالب الجصّيّة الجافّة في حقيبة والد كورتيوس الجلديّة، بانتظار تعليمات أخرى من الجمعية الوطنيّة. هذه القوالب الفارغة، ملموسة أكثر من كلّ ما صنعه كورتيوس يوماً! انطلقنا في طريق العودة إلى المنزل، متناوبين على حمل الحقيبة الثقيلة. تساءلتُ ونحن نمشي عمّا سنفعله الآن بتمثال الملك الشمعيّ، ذاك الذي يجلس إلى طاولة الغداء، والذي صنعه بعد الكثير من الرسومات، والتمثال الآخر الذي صنعه بعد أن أخذتُ طبعة لرأس الملك، عندما كان ما يزال على قيد الحياة. إنهما تمثالان بالحجم الطبيعيّ بعد كلّ شيء، وكلّ منهما يتألّف من قطعة واحدة كبيرة. ليس صحيحاً أن يبقى أيّ منهما قطعة واحدة، كان الأجدر بهما أن يتفكّكا تلقائيّاً بعد إعدام الملك!

أخذت الأرملة الحقيبة من يدي. «سأحملها أنا الآن» قالت، «لقد حملتها مسافة طويلة».

أنا جزء من العائلة، كما ترون!

عندما وصلنا إلى المنزل، كان الباب الذي يحمل لافتة «خروج» وإحدى البوابات مفتوحين. لا بدّ أن مارتن ميلو قد تركهما مفتوحين من أجلنا، فكّرتُ. ناديته، لكنّه لم يخرج للقائنا. في الداخل، كلّ شيء كان كما تركناه، سواء الرؤوس المغروزة على عصي، أو الشخصيات الممدّدة على البلاط. وضع كورتيوس الحقيبة أرضاً، لكنّ ذلك لم يبدّ لنا صائباً، لذلك رفعتها الأرملة ووضعتها فوق الطاولة. أخرجتُ القوالب من الحقيبة، وربّتها على الطاولة جنباً إلى جنب الأمر الصادر عن الجمعية الوطنيّة، بحيث يجدون كلّ شيء في مكانه عندما يأتون. حقيبة كورتيوس لا بدّ أن تبقى جاهزة دائماً، لذلك ذهبتُ إلى الورشة، وجدّدتُ مخزون الكلس والمرهم الذي نضعه فيها عادة، ثم تركتها عند الباب الخلفيّ استعداداً للمرّة القادمة.

عندما عدتُ إلى القاعة الكبرى، لم أجد مارتن، لذلك ذهبتُ لإحضاره. لم أجدّه جالساً على الدكّة في غرفة المحاسبة، كما أنّ طاولته فارغة. انتبهتُ أنّ باب الخزانة موارب! هذا ليس من طبع مارتن، فكّرتُ، كيف يترك الخزانة مفتوحة؟! إنّه صارم للغاية عادة فيما يتعلّق بأموال كهذه. كنتُ على وشك

أن أغلق باب الخزانة، عندما نظرتُ إلى داخلها فوجدتها... فارغة! رفوفها خاوية، ليس فيها إلّا ورقة واحدة.

خطفتُ الورقة وركضتُ إلى الأسفل وأنا أصرخ. صرختُ وأنا أرمي الورقة بين يدي الأرملة، وصرختُ وهي تأخذها مني.

جلست الأرملة وكورتيس على المقعد في القاعة الكبيرة، وبينهما سيريان بوشار رابع اليانصيب، وميلت رأسها قليلاً وهي تقرأ:

لقد أخذتُ 17675 أسينيا⁽¹⁾

لقد أخذتُ 12364 لويساً ذهبياً⁽²⁾

لقد أخذتُ التسعة آلاف ليرة، التي تخبّئها الأرملة بداخل دمية زوجها. العمل القدر انتهى، لقد أنهيته.

عندما تعودون إلى المنزل، ستكون البوابات مفتوحة منذ زمن طويل، وأنا قد رحلتُ بعيداً.

التوقيع: مارتن ميلو

بقي رأس الأرملة مطرقاً وهي تقرأ الورقة، منحنيّاً، لكنني واثقة من أنّها سترفعه مجدّداً، لأنّها تعرف دائماً ماذا يجب أن تفعل. رأس الأرملة ما يزال مطرقاً، ولكن في أية لحظة الآن، في أية لحظة، سيرتفع مجدّداً. إنّها ضربة قاسية بكلّ تأكيد، لكنّها ستصلح الوضع. إنّها تعرف دائماً ما العمل، نحن نعتمد عليها. رأسها ما يزال مطرقاً، في أية لحظة الآن، أية لحظة...

بقي رأسها مطرقاً

بقي مطرقاً

ولم ترفعه مجدّداً.

1- assignat: عملة ورقية أصدرتها فرنسا ما بين 1789-1796 خلال الثورة الفرنسيّة.

الترجمة

2- louis d'or: عملة ذهبية سكّها الملوك الفرنسيّون منذ عام 1740 وأسموها باسمهم.

الترجمة

الكتاب السادس

1794-1793

منزل هادي

أنا في الثانية والثلاثين، ثم في الثالثة والثلاثين



الفصل التاسع والخمسون

منزل هادئ في شارع هادئ

أين يذهب الناس جماعاتٍ، بعد أن ينهوا أعمالهم؟! إنَّهم ليسوا هنا، لا يأتون إلينا، فمن الذي يملك المال لإنفاقه على التسالي، بعد أن تضاعفت أسعار الخبز والشموع والملابس ثلاث مرّات؟! لقد غادر أرباب مهنة الترفيه من البوليفار، حزموا متاعهم، ونقلوا تساليهم إلى مكان آخر، وعُلِّقَت على باب منزل الدكتور غراهام الآن لافتة: «للإيجار». جميعهم غادروا، جميعهم! يا لها من عثرة! يا لها من خسارة! لا ألعاب نارية، ولا حتّى شرارة! بوليفار دو تامبل انتهى، وأصبح اسمه الآن: شارع الهدوء.

منزل القروء الكبير يبدو مهجوراً الآن، البوّابة الأماميّة التي لم نغلقها منذ أن تركها مارتن ميلو مفتوحة، تقوّست ومالت صوب الأرض. هل سرقنا مارتن بمفرده يا ترى، أم ساعده شخص ما؟! السرقة لا تبدو من شيمه، لا بدّ من أن أحدهم ساعده. نبتت الأعشاب الضارّة في شقوق الباحة، ولعب الأطفال فوق رصيفنا دون أن يطردهم أحد، وخَرَسَ الجرس الصدئ فوق البوّابة الملتويّة. عندما عجزت الأرملة عن رفع رأسها، توقفت خزّانة العجائب ببساطة، وخسرت رأسها.

المنزل ليس خاوياً، لكنكم لن تحزروا أن هناك أشخاصاً يعيشون فيه. ما تزال أربعة قلوب تنبض هنا، إن خفي أحدها بضعف، سيعوّض قلب آخر أن يخفق بقوة.

«أنا طبيب» قال كورتيس، «وأنت الابن يا إدموند، أمّا أنت يا ماري... حسناً، أنت الصغيرة. من الآن فصاعداً، لن نتعامل إلّا مع الوقائع، مع

الحقائق فقط، ولا شيء سوى الحقيقة يا شارلوت. شارلوت العزيزة: إنها مصابة بجلطة دماغية».

جمعنا أنا وإدموند القصب من الورشة، القصب ذاته الذي كنّا نستعمله كي يتمكن الناس من التنفّس ريثما نأخذ لهم طبعات، وصرنا نضعه في فم الأرملة المائل كي نغذيها.

«جلطة دماغية، أنا شبه واثق من هذا» قال كورتيوس، «ربّما كان انسداداً في الأوعية على مستوى العنق، أو احتقاناً في الدماغ. الشلل النصفيّ، إنّه شلل بنسبة خمسين في المئة. لعلّه تمّدّد الأوعية الدموية⁽¹⁾؟ هل أنتِ واعية يا شارلوت؟ هل تفهمين ما يدور حولك؟ هل لك أن تعطينا إشارة؟ أو لو أنني أستطيع إلقاء نظرة بداخل رأسها!»، قال وهو يمسّد قلنسوتها بلطف برؤوس أصابعه، «إذن لعرفتُ ما حصل على الفور! أو لو أنني أستطيع أن أنظر، هل هناك خثرة؟ هل هناك وذمة؟ تمرّق في مكان ما؟ لا يجب أن ألقى نظرة للداخل، على الرغم من أنّك تخفين السرّ عنّا. هل حصلت مشكلة في دماغك؟! ساعديني! لا أعرف ماذا أفعل! يا شارلوت، لا تتوقّفي، أرجوك، أتوسّل إليك، لا تتوقّفي!».

كلّ ما فعلته الأرملة، كان التحديق إلى السقف. إنها تشرب الماء، وهذا أمر حسن، مع أنّ كورتيوس اضطرّ إلى أن يسدّ أنفها كي يقنعها بشربه. إنها تتنفّس، وهذا كما قال هو أهمّ شيء.

«سأكون دائماً بجانبك» قال لها، وربّت على يدها.

سال بعض الماء من فمها إلى ذقنها، فمسحه.

«هل يجب أن أغيّر حفاضك؟» قال وهو يتشمّم الرائحة، «أجل، يلزمك هذا، سأغيّر حفاضك. الآن، يا ماري وإدموند، اذهبا بعيداً رجاءً، هذا هو عملي. يجب أن أقلب والدتك يا إدموند، لا بدّ أن أحرك هذه السيّدة العظيمة يا ماري، هذه السيّدة التي قامت بالكثير من أجلك. عودا بعد قليل، أستطيع

1 - aneurysm: يُعرّف أيضاً بـ «أمّ الدم الوعائية الدماغية»، وهو عبارة عن توسّع أو انتفاخ في الوعاء الدمويّ، يأخذ عموماً شكل حبة التوت، قد يتمزّق ويسبّب نزيفاً دماغياً. المترجمة

أن أتدبر هذا بمفردي. عضلاتي ستنمو من أجلك يا شارلوت، سأصبح قوياً جداً. لا يا شارلوت، أنا لا أشتاق إلى الرؤوس الأخرى، لا، تلك الرؤوس لا تهمني بتاتا. كل ما يهمني موجود هنا، وأنا الآن أكثر ثراء بفضلها.

أيام الدكتور كورتيس الجديدة، أصبحت أياماً من الحب. إنه يحب ما يقوم به، يحب عرق الأرملة ولعابها، وكل ما يقوم به جسدها، حتى تأوهاتها تعجبه، لأنها تأوهاتها. يشعر أنه شجاع، فيهمس: «آه، أنا أحبك! أنا أحبك! أنا أحبك! هل أخبرتك يوماً ما بهذا؟!»، وبما أن أحداً لا يمنعه الآن، لذلك لم يعد ييوح لها بتلك العبارة همساً، بل يعلن حبه لها بصوت عالٍ، مرة إلى يمينها ومرة إلى يسارها علها تسمعه، كلما تسنى له ذلك. يجلس أحياناً إلى جانب النصف المشلول من جسدها، وينظر بأسى إلى وجهها الرخو، إلى ساقها وذراعها اللتين لا تتحركان أبداً، إلى نصف فمها المائل، وإلى عينيها ذات الجفنين المنسدلين.



«دعيني أحدثك عن نفسك» قال، «أنت ضخمة، مشعرة، ولديك الكثير من الشامات. أجل، هذا صحيح. هناك شارلوت مديرة العمل مع سيجارها، كم كانت ناجحة، وكم كنا معجبين بها! أنت معجزة، ذات انعكاسات عديدة. هناك شارلوت الأم، التي أنجبت صبيّاً رائعاً، وشارلوت ربة المنزل،

التي اهتمت بنا كثيراً... وهناك أيضاً شارلوت الأرملة، التي لا يجب أن ننساها، لكنها شارلوت أصغر من الباقيات. يمكن لهذه شارلوت تحديداً أن ترحل، لأنها شارلوت من الماضي. هناك شارلوت الحاضر أيضاً، أليس كذلك؟ بعد كل شيء، إنها هنا في سريرها، أحد نصفها يلتوي للخلف، أما النصف الآخر فما يزال صامداً كما أظن. أليس كذلك؟ هل نمضي قدماً؟ أجل، ها هي ذي شارلوت المستقبل، التي قد تكون الأفضل بين الشارلوتات الممكنات».

باب «الدخول» وباب «الخروج»، أغلقا كلاهما. القالب الجصي للملك الذي قُطع رأسه، ما يزال هنا بانتظار أن تطلبه الجمعية الوطنية، وهو ما لم يحدث قط، لا أحد يريده على ما يبدو، وما هو ذا القالب باقٍ هنا بنصفه المربوطين معاً. في جوف هذه المحارة الجصية، فراغ يمثل تاريخاً هائلاً، ونحن حراسه.

في تلك الأيام، وجدنا أنا وإدموند نفسيهما معاً فجأة، لا أحد يمنعنا. بعد فراقنا الطويل، لم يجد أحدهما كلمات يقولها للآخر، بل وقفنا متلاصقين فحسب، لا نفرق أبداً، ولكننا لم نعرف ماذا نفعل بهذه الحرية الغريبة. أحياناً، كنّا نخرج من منزل القروء الكبير إلى «الشارع الهادئ»، لشراء بعض المواد المقتنة. نقف لساعات في طابور الخبز، جيراننا السابقون ينظرون إلينا بشماتة، سعداء برؤيتنا في محنتنا الآن. أحياناً، عندما نكاد نصل إلى مقدمة الطابور، يعيدوننا إلى آخره مجدداً، وعندما يحين دورنا بعد ذلك نكتشف أن الخبز نفد. ذات يوم، أخرجنا شاب ذو عينيْن أشبه بعينيْ سمكة من الطابور، ملابسه جديدة، ويتقلد سيفاً جيداً.

«هل ماتت؟»، سألنا.

«لا يا أندريه فالتان» أجبتُ، لأنه أندريه فالتان فعلاً، «بل بدت لي بحال أفضل اليوم».

«هذا أسوأ. اين أوراقكما؟ أريد أن أفحصها مجدداً»

«ولكنك رأيت أوراقنا لتوك!». في تلك الأيام، كنّا نحمل أوراقنا معنا طيلة الوقت.

«وسأراها مجدداً... سأراها متى أشاء! سويسرية! هل تعرفين ماذا نفعل بالسويسريين؟ نحن نعتقلهم ونقطع رؤوسهم. أتساءل كم عدد السويسريين في باريس هذه الأيام؟ لا بد أن عددهم ضئيل، ويتناقص باستمرار»

«كيف حصلت على هذا السيف، أيها المواطن؟»

«لقد ربحته بجهدي. قولي لي، كيف العمل؟»

«إنه بطيء مؤخراً»

«أجل، أجل، أعرف أنه كذلك. عازٌ عليكم أنكم رميتم فالتان المسكين إلى الشارع! هيا، اذهبا، عودا إلى آخر الطابور»

بعد أن أُلقيَ أندريه فالتان إلى البوليفار، إلى الجهة الأخرى من البوابات، والدم يسيل من أنفه، لم يبقَ ساكناً، بل هزّ قبضتيه بوجه منزل القروء الكبير، وانضمَّ إليه الآخرون حين شاهدوه... وكيف هزّوا جميعهم قبضاتهم! التفت فالتان إلى أخوته وأخواته هؤلاء الذين يلوحون بقبضاتهم، وأخبرهم أن منزل القروء هو مكان رهيب، رهيب جداً، فقالوا له: «هل لك أن نخبرنا بالمزيد؟»، «أجل، الكثير والكثير، هل لديكم وقت؟»، فأخذوه تحت جناحهم. حكى لهم حكايات رهيبة مقابل الطعام والنبذ، وبهذه الطريقة نجا أندريه فالتان. اعتقد أن أحلامه بتدمير منزل القروء، هي ما أبقتَه حيّاً!

بعد اختفاء جاك بوفيزاج، وجد فالتان لنفسه عملاً بحراسة المنطقة، وفحص ممتلكات الناس بعينه اللتين تستعرضان الأشياء من زوايا غريبة، وعثر على أدلة غفل عنها الآخرون. ذات مرّة، جذب فستان امرأة، فتدلّت من عنقها قلادة فيها صورة للملك، وعندها اقتيدت المرأة إلى الإعدام. عثر أيضاً على حارس سويسري يختبئ في المجاري، فتمّ إغراقه في التوّ واللحظة. عثر على طفل يحمل دمية تمثّل الملكة، فسُجِنَ الطفل وأمه. مؤخراً، بطريقة ما أو بأخرى، حصل على نقود، نقود كافية كي يشتري لنفسه امتيازات هنا وهناك. لدينا شكوكنا حول مصدر ذلك المال، ولكننا لا نملك دليلاً، ولن يقف أحد في صفٍّ أجنبيٍّ ضدّ مواطن وطني. أندريه فالتان يعمل في وظيفة رسمية الآن، يتجوّل هنا وهناك بشريطة ضخمة ثلاثية الألوان مثبتة على صدره، ولا يسعنا القيام بالكثير لإيقافه. إنّه واحد من قبيلة الرجال الجديدة

التي أصبح صوتها مسموعاً الآن، لا يتوق شخصياً للحرية، لكنه يتقدم بين أولئك الذين يطالبون بها.

غالباً ما عدنا أنا وإدموند من السوق بالقليل جداً، وأحياناً بلا شيء على الإطلاق. ذات مرة، حين وصلنا إلى المنزل، سمعنا ضجة رهيبية في الأعلى، فاندفعنا على الدرج، ووجدنا سيدي يزيع الأثاث.

«سيدي! سيدي، ماذا تفعل؟!»

«ساعداني! ساعداني قليلاً!»

«آه!»، قال إدموند.

«سأنقل سريرى، سنتشاطر الغرفة»

«آه! قال إدموند يائساً، «آه يا إلهي!».

«اذهبا من هنا إن لم ترغبا بمساعدتي»

وهكذا، وضع كورتيوس فراشه إلى جوار الأرملة، بموازاة الجهة السليمة من جسدها. «تلك هي سعادتي! هناك في ذلك السرير، سعادتي! حياتي! ستظهر! الجهة اليسرى ضعيفة، أما اليمنى فسليمة. سأحصل عليهما كليهما يا ماري، اليسرى واليمنى».

تكوّرت الأرملة على نفسها بلا حراك، وعيناها مثبتتان على السقف، بينما تداعت الغرف من حولنا.

الفصل الستون

سرير الدكتور جيمس غراهام السماوي

بعض الأبنية تحافظ على شخصيتها مهما أصابها، سواء هُجرت أو أُعيدَ تَلاؤها، سواء تُركت خالية أم تمّ تأجيرها إلى مستأجرين جدد مخربين، وأحد الأمثلة عنها هو البناء الذي شغله الدكتور جيمس غراهام سابقاً. لقد غادر البوليفار وفرّ هارباً إلى إسكتلندا، ولكنّ جزءاً منه، وبعضاً من رائحته، وقسماً أساسياً من ذكراه، ظلّت هناك، عالقة في ذلك المبنى. ربّما كان التوق، وربّما كان الشهوة، ولكنّ جزءاً ما من الدكتور بقي هناك بعد أن غادر، وظلّ عالقاً في ذلك المنزل بغض النظر عمّا هو. «السريّر السماوي» لصاحبه الدكتور جيمس غراهام، بلافتة «للإيجار» المعلقة عليه، ينتصب أمامنا في البوليفار. حدّثتُ إلى ذلك البناء المهجور من النافذة، في تلك الصباحات والمساءات الطويلة. على جدرانهِ الخارجيّة، توجد بقايا ظلّين يرتعشان، أحدهما رجل والآخر امرأة، عاريان تماماً. تأملتُ هذين الشكلين الشبحيّين، من ثمّ جاء إدموند وجلس إلى جانبي، في الضوء.

«إدموند» قلتُ، «إدموند، أنا أراك بوضوح الآن».

«ماري» قال، «أجل يا ماري، سعيد أنك هنا».

أمسك يديّ.

جالسين بالقرب من النافذة متلاصقين، وتأملنا معاً مبنى الدكتور غراهام، هذا المنزل الذي يقع مقابلنا، وتساءلت كيف يبدو من الداخل.

ذات مساء، والضباب يلفّ البوليفار شبه الخاوي، اقتربنا من منزل الدكتور

غراهام. قطعنا المسافة الآمنة الموحلة بين منزلنا ومنزله، مسترشدين فقط بهذين الظّلين. وقفنا على رؤوس أصابعنا، وحاولنا أن نختلس نظرة إلى الداخل، ولكننا لم نر شيئاً في العتمة. في الخلف، ثمة باب اكتشفنا أنه يُفتح بسهولة. دخلنا، وتجرّأنا على إشعال شمعة، واكتشفنا على الفور - بما أنّنا دخلنا من المدخل الخلفي - أننا نقف في الجزء غير المخصّص للعامة، نحن الآن في غرف تبديل الملابس في «السرير السماوي». هناك مرايا مكسورة، وتثورة داخلية ممزقة مرمية على الأرض، ورسالة باهتة مكتوبة على بطاقة مصفّرة: «هل تقابليني في مقهى رامبونو؟ في الموعد المعتاد؟»، موقعة باسم: فكتور الجائع. مشينا على طول الردهة الخاوية إلى قلب المنزل، لماذا يبدو الهواء كثيفاً للغاية هنا؟! ما هي هذه الرائحة التي يفوح بها المنزل؟! لعلّها رائحة مسك، أو توابل لا أعرفها. وصلنا إلى قاعة الاستقبال، وتوقّفنا لحظة كي نقرأ عبارة مكتوبة على الجدار:

أهلاً بكم في معبد الدكتور غراهام، المشيّد لإكثار كائنات عقلانيّة، أجمل - سواء على الصعيد الذهنيّ أو الجسديّ - من الجنس الفاني التجريبيّ الضعيف السقيم المختلّ الموجود حالياً، والذي يزحف ويقلق ويقطع أفرادهم بعضهم أعناق بعض بأدب، ومن دون سبب على الإطلاق في هذه الكرة الأرضيّة ببهارها وبابستها.

أهلاً بكم في الداخل، أهلاً بكم حقّاً! لن يخيب أملككم هنا، بل ستتغيّرون! ادخلوا، انفتحوا على التأثيرات الأعظم، ادخلوا فحسب، ادخلوا.

«إدموند!» قلتُ، «هلاً قمنا نحن بهذه الجولة، خطوة فخطوة كما هو مكتوب؟ دعنا نتبع التعليمات، كما لو أنّ هذا المكان مفتوح للزوّار في المساء من جديد».

«حسناً يا ماري»، أجابني.

«جيدٌ» قلتُ، وقرأتُ الكلمات الجديدة بصوت عالٍ:

تابعوا طريقكم، وسط التأثير الجديد للموسيقى المهدّنة وروائع النخيل

دخلنا إلى غرفة رُسِمَت على جدرانها شخصيات عارية، بعضها بالقرب من بعض، أضواءها لهب شمعة إدموند المتراقص، فبدت كأنها تتحرّك. قرأنا على اللافتة في الأعلى:

الموسيقى تُلطِّف الأفكار، وتهدّي ذهنَ الشريكين السعيدين،
وتلفّهما بالحبِّ والهارموني

«علينا أن نتخيّل أننا نسمع موسيقى يا إدموند»
«أجل يا ماري» همس، «أكاد أسمعها».

صعدنا الدرج، مستندين إلى الدرابزين المغطّى بالحرير المحشو. في الأعلى، وجدنا باباً كبيراً كُتِبَ عليه:

في الداخل، يوجد السرير السماويّ للدكتور غراهام. لا أنا،
ولا أيُّ من خدمني سيرى أو سيعرف هويّة من يستريحون
في هذه الحجرة، التي أسَمّوها بـ: قُدس الأقداس، السرير
السماويّ للدكتور غراهام! كلّ التجهيزات الموجودة هنا،
والتي لا تستطيع الكلمات أن تصفها، كلّفتنا الكثير من المال،
وهي نتيجة لدراسات مطوّلة معمّقة. والآن، افتحوا الباب.

فتح إدموند الباب، فلم نجد أمامنا السرير السماويّ، وإنّما غرفة استقبال،
فيها باب آخر نُقِشت عليه هذه الكلمات:

معبد البكارة

ثمّة تعليمات أخرى أيضاً:

اسمحوا الآن لخدمني أن يأخذوا منكم أغراضكم، التي
سيعيدونها إليكم لاحقاً، وستكون رائحتها أذكى من ذي قبل.
صه! لا تنطقوا الآن بحرف!

ارتجفت شمعة إدموند أكثر فأكثر كما رأيْتُ، وكنتُ على وشك أن أمدَّ له يدي كي أسنده، عندما اكتشفتُ أن يدي أنا أيضاً ترتجف. من ثم، قرأنا:

من المناسب والمنطقي بالنسبة للمبتدئين الآن، إن شعروا
بضرورة لذلك - وهو ما نشجّعهم عليه دائماً - أن يساعدوا
الشريك على التخلص من الأشياء التي استعارها من
المجتمع. لا أحذية في الداخل، لا جاكيتات، لا قلنسوات،
لا باروكات، لا فساتين، لا سراويل قصيرة، لا قمصان، لا
مِشدّات، لا ملابس داخلية، لا شيء، لا شيء إطلاقاً.

اتّسمت تلك الكلمات بطبيعة أمره، فأطعناها على الرغم من أنّنا
نرتجف. كأننا في غيبوبة، بدأ كلُّ منّا بتعرية الآخر، بدأ كلُّ منّا يعبث بملابس
الآخر، يرخيها، يتركها تسقط أرضاً وتتكوّم، ونحن نلهث طلباً للهواء. جسد
إدموند عارٍ الآن. همس لي: «ماري! حلمتك صغيرتان جدّاً ومؤنّقتان! لم
أتخيّلهما هكذا!».

لم أقل شيئاً

«إنّهما جميلتان»، أضاف إدموند

وعندها أجبتّه بلطف: «هسسس!»، لأنّ ثمة لافتة أخرى:

لا كلمات، لا كلمات إطلاقاً، بل موسيقى، أضغوا

إلى الموسيقى

الموسيقى الوحيدة التي استطعنا سماعها، كانت دويّ قلبينا.

الآن، إدموند الذي يتقدّمني فتح الباب كاشفاً عن ستارة حريريّة ضخمة،
نُقِشت عليها الكلمات التالية:

PROCUL! O PROCUL ESTE PROFANI!⁽¹⁾

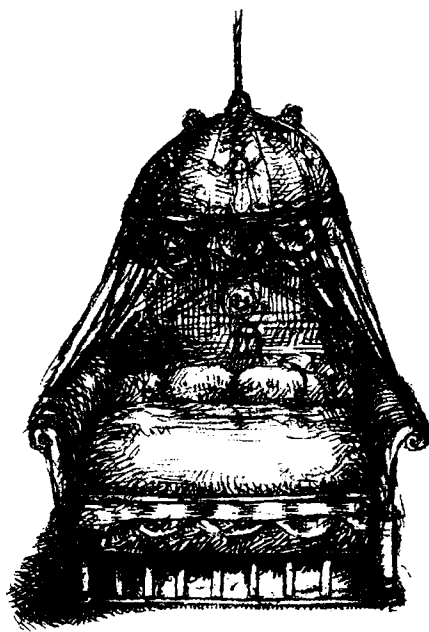
1 - عبارة لاتينية مقتبسة من الكتاب الخامس للإنبياء، يقولها العرّاف بعد أن ينتهي آينيس
من تقديم القرايين استعداداً للنزول إلى عالم الأموات، ومعناها: «اهربوا! اهربوا!
أيّها الجهلة». المترجمة

عثرنا على فتحة الستارة، فدخلنا، وعندها همس إدموند: «سرير الدكتور جيمس غراهام السماوي!».

لا شكّ بذلك بتاتاً، فلا شيء في تاريخ الأشياء المصنوعة للإنسان المضطجع، يشبه ما رأيناه: سرير يقيس عشرين بخمسة عشر قدماً، تعلوه قبة كبيرة تتوسطها مرآة دائرية، تعكس بوضوح الأغطية الحريرية المبعثرة تحتها. إنّه سرير عملاق، كُتِبَ عليه عبارة أخرى من تعليمات الدكتور غراهام:

أَثْمُرُوا وَأَكْثُرُوا وَأَمْلَأُوا الْأَرْضَ⁽¹⁾

أنا وإدموند صغيران بالمقارنة مع هذا السرير، غير المجهّز بسلم أو درجات كي نتسلّق إليه. لو رأينا سريراً بسيطاً يوحى بالراحة والهدوء، لو دخلنا إلى مكان صادق غير متكلف ويوحى بالألفة، لربّما شعرنا بارتياح أكثر، ولكننا كنّا ضيّكين متردّدين أمام هذا التركيب الفخم المصنوع خصيصاً للعمالقة!



شعرتُ أن هذه الحجرة الغربية تراقبني، كأنني تمثال من الشمع يُفحص من كلّ زواياه. أنا في الثانية والثلاثين من عمري، امرأة منمنمة. تسلّقتُ السرير، وتغطّيتُ بالأغطية المغبرة، من ثمّ لحق بي إدموند بعد لحظات.

وضع شفتيه على شفتيّ، شفتاه جافتان، من ثمّ قبلني على وجنتيّ وعنقي. تنهّد كأنّه مستغرق في نوم عميق، من ثمّ مدّني بلطف على ظهري، وبدأ يقبلني من عنقي باتجاه الأسفل، وقد تبلّلت شفتاه قليلاً. قبلني قبلات ناعمة على كفتيّ. شعرتُ به ينزلق للأسفل أكثر فأكثر، ووصل بعد قليل إلى نهديّ. لمسهما بأصابعه، ثمّ قبلهما. «لقد تقوّس ظهركِ» همس في تلك اللحظة، «لقد شهقتِ!». من ثمّ، دفع إدموند هنري بيكو نفسه إلى داخلي، وملأني. ضمّني، وهزّني.

أغمضتُ عينيّ، وها هو ذا إدموند مجدّداً، في العتمة.

«أنا إدموند هنري بيكو» قال، «وأنتِ ماري غروسهولتز، المعروفة بـ: صغيرة، وهذا ما يجب أن يحدث، ما كان يجب أن يحدث منذ زمن طويل، طويل جداً».

وهكذا، كان يا ما كان، كانت هناك في الماضي فتاة منيعة تدعى ماري غروسهولتز، وذات مساء سُقّت قشرتها، وإذ بماري غروسهولتز جديدة تظهر تحتها، امرأة متألّمة لا جلد لها، كانت تحيا تحت السطح، ولكنها لن تختبئ مجدّداً.

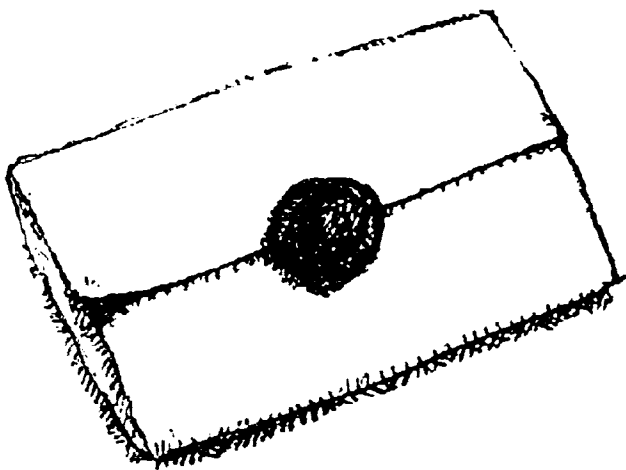
تلك هي الحياة، تلك هي الحياة حقّاً، أنا واقعة في الحبّ...
في حبّ إدموند.

بعد ذلك، كلّما اكتسحتنا الشهوة كليناً، أيّاً كان الوقت، سنتسلّل عبر البوليفار، ونجتمع معاً فوق سرير الدكتور غراهام المكسور. أحياناً، نكون مستعجلين جداً، فأبقى أنا في فستاني، بينما يتعثّر إدموند بسرّواله وجواربه المتجعّدة التي أنزلها إلى كاحليه. لا يهمّ أننا الوحيدان الحقيقيّان في ذلك المبنى المهجور، لقد بعثنا فيه الحياة من جديد. بالنسبة لي، بالنسبة إلى حياتي، هذا الجسد وحده لي من بين كلّ الأجساد، جسد إدموند هنري بيكو. أصبحتُ أعظم خبيرة بجسد إدموند هنري بيكو، وأنا فخورة للغاية

بهذه الخبرة. كلُّ منّا يلائم الآخر حقّاً، كما يلائم الزنْدُ الكعبرةَ، وكما يلائم
الظنبوب الشظيَّةَ. دائماً، في النهاية، ها هو ذا إدموند، يحدِّق إلَيَّ بِإِمعانٍ،
ورأسه يستريح على صدري.

الحياة هكذا، فكَّرْتُ، تستمرّ، وتفاجئني دوماً.

هذا الصندوق الصغير، هذا الفصل، ينتهي هنا، محكم الإغلاق، معزولاً
عن كلِّ الفصول التي تسبقه أو تتلوه، بحيث لا تتمكَّن الشخصيات الأخرى
في تلك الفصول من التسلُّل إلى هنا والعبث به، بحيث تبقى هذه الخزانة
موصدة، لا تفصح عن محتوياتها، بل تبقى المحتويات سرِّيَّة، غالية، مباركة،
منتصرة، رائعة، ولكنها ستبقى كما هي. الشمع أيضاً يعني الخصوصية،
الشمع يختم الرسائل، الشمع يحافظ على كلِّ كلمات العالم حيث يجب أن
تبقى، إلى أن تحرِّرها اليد المناسبة.



الفصل الحادي والستون

مجموعة الرؤوس السادسة

في طابور الخبز، قلتُ لرجل غريب محتار: «إدموند هنري بيكو عرّاني». ونحن عائدان إلى المنزل، أوقفتُ رجلاً عجوزاً آخر كي أعلن له بابتهاج: «لقد فُكَّت أزراري»، وقلتُ لأمّ شابة: «يحبّني! يحبّني أنا!». كانت تلك أيامنا، أيامنا أنا وإدموند، التي يقاطعها سيّدي أحياناً. عندما لا يكون كلٌّ منّا منشغلاً بتأمل الآخر، أو عندما يتواجد سيّدي بصحبتنا، سننظر حولنا ونأمل الأشياء اليومية - النوافذ، المصاريع، أسكفيات الأبواب، مقابضها... إلخ - ويغمرنا شعور بالامتنان لها، فالأبنية ما تزال منتصبة كي نتمكن من المكوث بداخلها. تبادلنا صباح الخير، ومساء الخير. في تلك الأيام، صرنا نجلس إلى طاولة في المطبخ القديم وليس في غرفة السفارة، بعد أن رأينا جرذاً يفتح خزانة هناك. جهّزنا مجلساً للأرملة أيضاً. الأطفال يلعبون في الخارج على الرصيف المكسور، أصواتهم تعكّر منزلنا المتصدّع.

تراكم الغبار على شعبنا الشمعيّ، ورأس الملك المقطوع ما زال مليئاً بالهواء. عندما ندخل إلى القاعة كي نزور التماثيل، ونزيع تلك التي لم يعد عرضها آمناً الآن، تترك أقدامنا أثاراً على الأرضيّة المغبرة. العديد من تلك الشخصيات أصبحت خطرة، لا يجب أن تعرضوا وجهاً يشبه وجه ميرابو، لا يجب أن تملكوا لافاييت، لا يجب أن يكون هناك دليل بتاتاً على أنّ ذلك الشخص كان له وجه ذات يوم. العائلة الملكيّة - وخصوصاً العائلة الملكيّة - لا يجب أن تكون حاضرة في منزلكم، لا حول طاولة الطعام، ولا حتّى في قفص.

كزوجها الملك، قُطِعَ رأس الملكة. بقينا في المنزل طيلة النهار، نسمع التهليل الذي يتعالى في الخارج. إليزابيث ما تزال حيّة، سجينّة في الكنيسة، وأعرف أنه لا يجدر بي زيارتها، لأنّ ذلك سيعرّض حياتنا جميعنا للخطر. لذلك، اكتفيتُ بالمشي بجوار تلك الكنيسة مرّة في الأسبوع. سيهدؤون الآن بعد أن قطعوا رأس الملكة، لا بدّ أنّ هذا سيرضيهم.

تركت خطواتنا على أرضيّة القاعة الكبيرة المغبرة، آثاراً أشبه بتاريخ الشعب الفرنسي، ونحن نجرّ التماثيل المحرّمة إلى الغرف الخلفيّة، ونزع عنها ملابسها، من ثمّ رؤوسها. بقيت الأجساد قطعة واحدة، لأنّ الرؤوس فحسب هي الخطرة. رفعنا الرؤوس المحرّمة عالياً أنا وإدموند، فوق أكتافنا، من ثمّ ألقينا بها أرضاً وحطّمانها واحداً تلو الآخر، إلى أن اختلطت شظاياها كلّها معاً. ناولني إدموند رؤوس أفراد العائلة الملكيّة، هذا من حقّي بما أنّي من صنعتها، وها هي ذي تنهشم. اختلط أنف الملكة بأذن زوجها، بذقن أخيه، بقطعة من وجنة ميرابو المليئة بالندوب، بمحجر عين المحافظ بيبه الفارغ (احتفظنا بالعيون الزجاجيّة، كي نستخدمها مجدّداً فيما بعد). دُسنا على كلّ تلك الرؤوس، سحقناها تحت أقدامنا، من ثمّ كنسنا كلّ القطع وألقينا بها، حتّى آخر ذرّة منها، في وعائنا النحاسيّ الضخم. بعد ذلك، أشعلنا النار تحته، وصهرنا كلّ شيء معاً.

عندما ذابت الشظايا تماماً وأطفأنا النار، وقف كورتيوس إلى جانب الوعاء بكلّ كبرياء كي يؤدّي طقوسه. وضع يديه فوق الشمع الذي بدأ يبرد، وتحسّس ما تبقى فيه من حرارة، ثمّ تمتم: «ذاك الذي يولّد من الشمع، عمره قصير».

بعد نصف ساعة، قلبنا الوعاء الضخم، واستخرجنا محتوياته مستعينين بسكين مسطّحة. بلكرة قويّة، سقط الشمع فوق الطاولة، أشبه بنصف كرة ضخمة من الزمن الذائب، غير واضحة المعالم على الإطلاق. ضاعت الرؤوس، وتلاشت السطوح.

جلسْتُ بالقرب من سيّدي، الذي يلتزم الصمت الآن. الأرملة نائمة في الأعلى.

«الكثير من الجهد!»، قلتُ.

«بعضها كان ممتازاً، والبعض الآخر ليس بتلك الجودة»

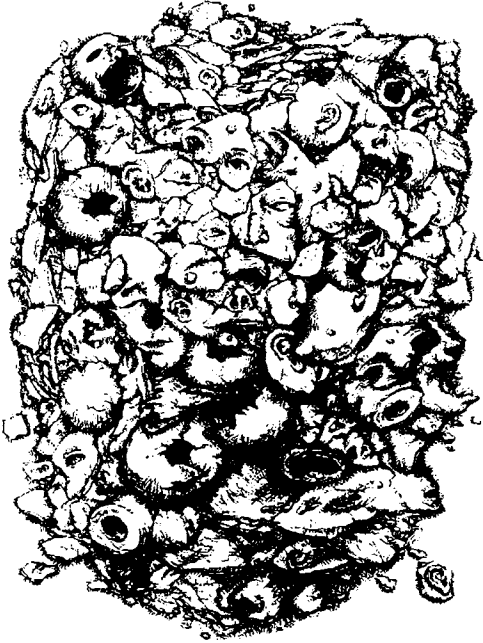
«ضاع كل شيء، خسرناه للأبد!»

«ومع ذلك...»، قال.

«ومع ذلك ماذا يا سيّدي؟!»

«ما زالت القوالب لدينا. لم يضع كل شيء نهائياً، وإنما أصبح غير مرئي

فحسب»



ها نحن، أنا وإدموند، نمسك الرؤوس في غرف منزل القروود الكبير الخلفية. ها هو ذا الدكتور كورتيس، منشغلاً بالأرملة بيكو، متعجباً من كل صوت يصدر عنها، «أصغيا إلى ذلك! يا لروحها!»، يقول.

ولكن... لا يمكن أن تدوم حياتنا بسلام! في وقت متأخر من إحدى الليالي، في منتصف الليل تقريباً ونحن نائمون، دوى صوت في الردهة. لم نعد ما هو في البداية، لأننا نسيناه نهائياً منذ زمن بعيد.

شخص ما يقرع جرس هنري بيكو!
عشرة رجال، تجاوزوا السور الصديء، وأخذوا يقرعون باب «الدخول»،
وباب «الخروج».

«لن يرحلوا على ما يبدو» قلت، «سأخرج وأقول لهم إنَّ المعرض مغلق».
«لا أستطيع أن أنزل» قال كورتيس، «لا يجب أن أتركها بمفردها».
«لعلهم جاؤوا أخيراً طلباً لرأس الملك»
نزلتُ للأسفل، ولحق بي إدموند.

«هل أنتما وحيدان؟»، سألونا.
«أجل» أجبتُ على الفور، «لا يوجد سوانا هنا».
«أين السيّد؟»

«إنَّه مشغول»، أجبتُ.
«هل لديك معدّات؟»

«هل تقصد معدّات لأخذ طبعة؟!» سألتُ متفاجئةً، «أجل لديّ».

قالوا إنَّه من الأفضل لنا أن نرافقهم على الفور، مصطحبين معدّاتنا. أخذونا
عبر النهر. أسرعاً، أسرعاً، قالوا، ووصلنا إلى منزل صغير يتجمهر حوله حشد
ضخم، والجميع ييكون. فتح الرجال لنا طريقاً بينهم، فدخلنا إلى شقّة في
الطابق الأرضيّ، من ثمّ اقتادونا عبر ممر طويل غاصّ برجال يتحلّقون حول
امرأة ترتدي فستاناً مخطّطاً، ممزّقاً نوعاً ما، ويمنعونها من الفرار.
«ماذا فعلت؟»، سألتُ.

«ارتكبت جريمة»، كانت الإجابة.

قادونا إلى غرفة نوم مزدحمة. تباعد الحضور، كاشفين عن رجل ممدّد
فوق السرير، عارٍ تماماً إلّا من رداء نوم قديم، وما يشبه عمامة بيضاء ملفوفة
حول رأسه. وجهه أشبه بالبدر، تحفره ندوب عميقة، أجفانه الكبيرة شبه
مفتوحة، فمه العريض فاغر، ولسانه يتدلّى للخارج من إحدى زاويتي فمه،
جلده مريض تغطّيه القروح والقشور اليابسة والدمامل المفتوحة. هناك ثقب
في صدره، أشبه بفم عميق مظلم، يمكنكم أن تروا عبره وصولاً إلى حنجرتة.
هذا الرجل بدأ بالتخثّر، ركدت السوائل بداخله، وبدأت تسوّد.

«هل أنت بخير يا إدموند؟»، سألته.

«أجل، شكراً لك يا ماري» قال، «لا تقلقي بشأني. أنا قوي جداً، أنا مصنوع من مادة متينة. قل لي ماذا أفعل، وسأنقذه على الفور إلى جانبك. هناك! لقد فاجأت نفسي! هناك! أنا أنظر إليه مجدداً، إنه رجل ميت، قتيل!». هدرت زمجرة تصم الآذان في الخارج، لقد أخذوا الفتاة.

إلى جانب الجثة، يقف شاب طويل ذو شعر أشقر مجعد، حاملاً دفتر استكثشات. وضع قلمه من يده، واستدار صوبنا. حسبته وسيماً للغاية في البداية، ولكنني رأيتُ خدّه الأيسر ما إن استدار، كتلة منتفخة مائلة أشبه بخدّ الأرملة، تبدأ من زاوية فمه اليسرى وتغور في ندبة جرح بليغ. تأتأ هذا الشاب، وقال كلمات غريبة: «ماااااااا تمااااا؟».

«نحن من خزانة عجائب الدكتور كورتيوس» قلتُ، «نحن خيران. لقد صنعْتُ رؤوساً من قبل، للموتى وللأحياء، وهذا هو إدموند بيكو، يصنع الأحساد».

«کااارررتیااس؟»

«لم يستطع القدوم»

«يجب أن نصنع الجسم كله، بالششم»، قال.

«أجل، يا سيّدي، يمكننا ذلك» أجبتُ.

«وبينهم رعة»

»حاضر یا سیّدی، فوراً«

«إنه يتلاشى، الجسد، يتفسخ»

«بالفعل، لقد بدأ حقاً بالتفسيخ»

«وعلى أنتن أرسسمة»

«ترسمہ یا سیّدی؟!»

«أرسم القتل هنا، على الكااانااافاه»

«هل أنت رسّام يا سيّدي؟»

«أنا ادا افايد»

إِنَّه كَذَلِكَ، جَاكَ لُوَيْسُ دَاقِيدُ، الرِّسَامُ.



«آه، حقاً يا سيدي؟» لم أسمع باسم هذا الرّسام من قبل، «ومن هي - لو سمحت لي بالسؤال - هذه الضحية تعيسة الحظ؟».

«ما ارر ااا»

القتيل هو الدكتور جان-بول مارا. الدكتور مارا الغاضب، الذي يطالب بإعدام المزيد من الناس يومياً بالمقصلة، كي ننقذ البلد. الدكتور مارا المسعور، الذي يلقّب نفسه بـ «غضب الشعب»، الدكتور مارا العليل -مرضه بلا شك يفاقم غضبه- الذي كان مسترخياً في حوض استحمامه يبرّد جلده الملتهب، عندما احترقت سكين الخبز رثته اليسرى وشرطانه الأبعد، وصولاً إلى البططين الأيسر في قلبه.

علينا أن نعمل بسرعة، علينا أن نعمل بحرص، علينا أن نحفظ هذا الجسد المرعب.

كُنَّا أَوَّلَ مَنْ تَعَامَلَ مَعَ مَارَا، وَتَلَانَا الْعَدِيدُونَ. أَخَذْنَا الطَّبَعَاتِ أَنَا وَإِدْمُونْد، وَانْشَغَلْنَا بِالْعَمَلِ مَعًا. أَخَذْنَا طَبَعَاتٍ لِلرَّأْسِ وَجُزْءٍ مِنَ الصَّدْرِ فَقَطْ، لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْجَسَدِ هَشَّةٌ. وَجْهَ مَارَا يَنْخَسِفُ، وَعَيْنَاهُ غَائِمَتَانِ كَمُحْتَوِيَاتِ مُحَارَةٍ. بَعْدَ أَنْ انْتَهَيْنَا مِنَ الطَّبَعَاتِ، شَقَّ الرَّجَالُ جَسَدَهُ، مَزَّقُوا بَعْضَ الْأَحْشَاءِ، وَتَعَامَلُوا بِحِرْصٍ أَكْبَرَ مَعَ أَحْشَاءٍ أُخْرَى، ثُمَّ لَفَّوْهَا بِخَرْقٍ رَطْبَةٍ. مِهْمَةٌ أَوْلَثُكَ الرَّجَالُ، بِمَا يَحْمِلُونَهُ مِنَ الْخَلِّ وَالزَّرْنِيخِ وَأَمْلَاحِ الزُّبْقِ، وَبِاسْتِعْمَالِ الْخِيْطِ وَالْإِبْرَةِ،

هي تجهيز الجسد للجنّازة الرسميّة. انتزعوا قلبه، قلبه الحقيقيّ، ووضعوه في جرّة من الرخام السّمّاقِيّ⁽¹⁾. أخذنا نحن الرّأس، والطبعة الجصّيّة، وعدنا إلى المنزل مع أوامر بجلب الرّأس الشمعيّ إلى دافيد بأسرع ما يمكن.

«سنقوم بذلك معاً يا إدموند» قلْتُ ونحن نهول عائدين إلى المنزل، «سنقوم بكلّ شيء معاً. سأحتاج إلى مساعدتك».

«بالطبع» أجابني، «أنا أعرف ذلك».

«في البداية، كنسنا أرض الورشة الكبيرة، من ثمّ نظّفنا الطاولة ولمّعنا الأدوات، ورتّبنا كلّ شيء: المكاييل، مسحوق الكلس، الصابون الطريّ... إلخ. بعد أن أصبح كلّ ما يلزمنا مرتّباً وجاهزاً، وضعنا الطبعة الجصّيّة على الطاولة.

نزل كورتوس وجاء إلينا. «ما هذا؟»، سألنا.

«إنّه رأس»، قلْتُ.

«عمل؟! سأل مصدوماً، «هل هذا عمل؟!».

«أجل يا سيّدي» أجبته، «مهمّة صغيرة».

«لا، ليس بعد اليوم! المعرض مغلق»

«نحن مضطّرون إلى ذلك يا سيّدي، إنّها الأوامر»

«من هو؟»

«قتيل ما»

«لا مزيد من الموت! الحياة فقط هي ما يهمّنا الآن. لا أريد سوى الأحياء فقط، لن ألمس الموتى. الموت مُعَدٌّ». بيدين ترتجفان، أعطاني مفتاح خزانة الشمع قائلاً: «خذي، لقد انتهيتُ من هذا العمل. عليّ أن أعود للأعلى، لا توقظا شارلوت، إنّها نائمة، عليّ أن أعود إليها».

الطبعة الجصّيّة الأولى التي صنعناها لمارا، وُضِعَتْ في نافذة شقّته التي تطلّ على الشارع، كي يراها مئات الحزّاني.

«أجللّلل أجلللّلل!» هتف دافيد عندما أعطيته تلك الطبعة، «أنت وطنيية عظيمية».

1- نوع من الرخام لونه بنيّ إلى أحمر قاتم، وفيه بلورات مختلفة اللون أصغر حجماً.
الترجمة

وطنية عظيمة، هكذا وصفني!

بعد يومين، تمكنا من استبدال تلك الطبعة بتمثال نصفي للرجل القليل. أمرنا دافيد بصناعة جسد كامل من الشمع لمارا كي يُعرض على الملأ. جسده الحقيقي يتفسخ بسرعة في حرارة الصيف، وتحضيرات الجنازة لم تنته بعد. «جسد ددده كلهههه، بسررعة، رججججاء»، قال.

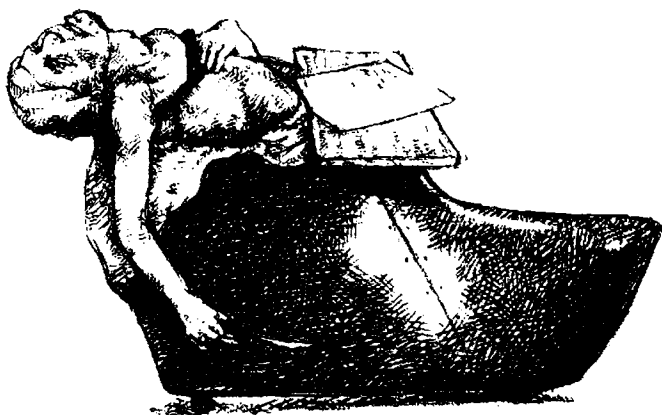
عدنا إلى المنزل، إلى العمل، كلانا. مارا الشمعي، سيُبنى من اثنتي عشرة قطعة. صنعنا نماذج من الصلصال -اعتماداً على ملاحظاتي، وعلى القياسات التي أخذها إدموند للجثة- لتلك الأجزاء الحقيقية التي استحال علينا أن نأخذ لها طبعات، كالصدر، والكتفين، ومؤخرة الرأس والعنق. سنثبت الطبعة الجصية على الجسد الصلصالي، من ثم نصنع قوالب جديدة للجسد الكامل، ونصنع أخيراً تمثالاً من الشمع بناء على تلك القوالب. أضفنا الأصبغة للشمع الصيني، وذوّبناه بحرص في حمام مائي بعد تسخينه إلى درجة الحرارة المطلوبة، وصببناه ببطء في القوالب. من ثم، حررنا الشمع، جمعنا القطع معاً، رسمنا القروح، وأضفنا قشوراً صغيرة من الشمع تقلد قشور الدماطل المفتوحة.

«إنكما تصدران ضجة عالية»، قال الدكتور كورتيسوس.

بالكاد تبادلنا الحديث أنا وإدموند، منغمسين كلياً في العمل.

في اليوم الثالث لوفاة مارا، أي في الخامس عشر من تموز، عندما ذهب كي أبلغ دافيد بتطورات عملنا، كانت الجثة قد أصبحت خضراء اللون. في اليوم الخامس، انتهت موجة الحرّ الخانقة وهطل المطر، وأُعدمت الفتاة التي اغتالته بالمقصلة. في اليوم السادس، نُقلت جثة الدكتور جان - بول مارا أخيراً من منزله، إلى كنيسة كوردوليه كي يزورها المشيعون. أبقى الجرح القاتل مكشوفاً، واقترب الناس كي يلقوا نظرة عليه عن كثب. رُشّت الجثة بالعمود باستمرار، وقُدّمت لها فروض التبجيل. في اليوم السابع، أصبح مارا الشمعي جاهزاً، وأُخذ إلى قاعة المؤتمر الوطني بحدّ ذاتها، تمثالنا الشمعيّ ذلك، كان لمارا الذي يعاني سكرات الموت في حوض الاستحمام، والسكين تخترق صدره في حركة متجمّدة أليمة. بوسعكم أن تمدّوا أيديكم وتلمسوه،

هذا المارا ليس له رائحة، ولا يتفسخ، بل طازج ويلمع قليلاً. سيبقى هناك إلى أن ينتهي دافيد من رسم لوحة ضخمة للرجل الذي مات في حمامه، شهيداً، قديساً، إلهاً.



«شكرراً لككككك، أيتها المواقفظة» قال دافيد، والدموع تنهمر على خدّه الملتوي.

تاق الناس إلى شراء تذكارات للرجل القليل، فأين يمكنهم الحصول عليها؟ لقد رأوا الطبعة الجصية في النافذة، أين يمكن لهم أن يشتروا واحدة؟ دون أن ننوي ذلك، أصبحنا المصدر الرئيسي لتذكارات مارا.

الفصل الثاني والستون

عملٌ جديد

في تلك الأسابيع، في تلك الشهور، اكتشفنا أننا عثرنا على صناعة منزلية مربحة للغاية. صنعنا رؤوساً من الجصّ لمارا الراديكاليّ، مارا في الصباح، مارا فقط خلال النهار، ومارا حصراً في المساء. علّقنا ملاحظات تحت بابي «الدخول» و«الخروج»:

للحصول على مارا

من فضلكم اقرعوا الباب الخلفي

«والآن يا إدموند» قلتُ، «يقع على عاتقنا أن ندير هذا العمل».

«هل نحن حقاً من سيفعل ذلك؟!»

«نحن بمفردنا الآن. لقد كرّس كورتيوس نفسه كلياً للأرملة، وعلينا نحن أن ندير هذا العمل».

«كم نحن منسجمان معاً، يا ماري!»

نقلنا طاولة قطع التذاكر إلى الخلف، وجلسنا أنا وإدموند هناك كي نتقاضى المال: سبعون أسينيا لقاء رأس مارا. في تلك الأيام، اكتشفتُ ماذا يعني أن أكون كلياً مع شخص آخر، أن أشارك معه الأيام والمكان والجسد، أن أجلس ملتصقة به على المقعد، ويدانا تتلامسان تحت الطاولة. كنّا دكاناً تجمّد زمنه، وتوقّف، وتأرجح طيلة شهور فوق تاريخ الثالث عشر من تموز 1793، حين قتل مارا.

«رأس واحد فقط؟!» سأل كورتيوس، «واحد?!».

«أجل يا سيدي، رأس واحد فقط»

«ولكن... كيف يكون هذا صائباً؟! رأس واحد فقط؟! ماذا لو كان الرأس الخطأ?!»

«أنا أيضاً لا أفهم هذا يا سيدي. هذا غريب، ولكن لطالما كنّا في منزل القروء المليء بأكثر الشخصيات شعبة، واليوم يأتي الناس من أجل مارا»
الدمية إدموند القماشية كبرت الآن أكثر من أي وقت مضى، وها هي ذي تزهو بألوان بَرّاقة، بخيوط تركوازية وقرمزية وأرجوانية، برقع صغيرة من البنفسجيّ والينديغو والأحمر، أخذها إدموند من ورشة أمّه المهجورة. الدمية إدموند القماشية جريئة وبرّاقة وجميلة الآن، بقدر ما كان إدموند الذي من لحم ودم متحفظاً ومنزويّاً وعديم الملامح في الماضي.



«لقد أخذتُ قياسات مارتا»، قال.

«تابع يا إدموند»، قلتُ.

«أتذكر ذلك»

«وماذا أيضاً؟»

«زرتكِ ليلاً. لطالما فكّرتُ بذلك»

«أجل، آه أجل»

لعلّه الصوت غير المعهود لإدموند الذي يثرثر، لعلّهم الناس الذين يطلبون رأس مارا، أو لعلّه مجرّد التواجد الدائم لكورتيوس حول سريرها، فضلاً عن اهتمامه وحبّه وحكاياته الألف عن الجسد البشريّ... أيّاً كان السبب، ثمّة شيء ما تحرّك بداخل ما تبقى من الأرملة بيكو.

قال الدكتور كورتيوس إنها تصدر المزيد من الأصوات، وإنه رآها تنظر إلى الجدران وليس إلى السقف. يا للدكتور كورتيوس المسكين! قلنا أنا وإدموند، يا للرجل المسكين، الأرملة ما زالت كما هي، لكنّه مولع بها. ذات صباح، عندما صعد إدموند لرؤيتها، تحرّكت عيناها من السقف إلى الجدار، من ثمّ - أقسم إدموند على هذا - ثبتتهما عليه، ولم ترح بصرها عنه قط. تحرّك إدموند إلى الجهة المقابلة من الغرفة، فلاحقته عيناها. ذهب إلى جهة أخرى، ولاحقته عيناها أيضاً. صرخ إدموند، فجئنا ركضاً.

«انظرا! انظرا!»

لكنّها كانت نائمة عندما وصلنا. عندما دخلتُ في الصباح التالي، وجدتُ كورتيوس يتحدث معها، وبدت لي الأصوات التي تصدرها مفهومة أكثر.

«عععععع»، قالت.

«ماذا قلتِ؟»

«عععععععلل»، قالت.

«آه أجل، كنّا، كنّا في الحقيقة، ولكن ليس بعد الآن»، قال كورتيوس.

«عمل، أيتها الأرملة ييكو؟» سألتها، «هل تقصدين العمل؟»

«ععععععلل»، قالت.

جلبتُ لها بعض قطع القماش القديمة، وبعضاً من الأزياء الموحّدة التي ارتداها الطاقم سابقاً، فبذلت جهدها كي تمسك بها. عندما ضغطتُ القماش على خدّها، بدأت بالبكاء! الأرملة تحاول أن تعود، لعلّ جزءاً منها فقط يحاول أن يعود، وليس كلّها. أخرجناها من السرير، ووضعناها في عربة يدوية، ثمّ أخذناها في جولة على غرف الطابق العلويّ. أعطيناها أشياء كي تلعب بها، لكنّها أوقعتها أرضاً، ربّما كي تستمتع بمشاهدتنا ونحن نللملها ونعيدها إليها. ذات صباح، انحنى الدكتور كورتيوس فوقها، وبضربة سريعة من مشرطه قطع رباط قلنسوتها، التي سقطت أرضاً ولكنّ شعرها لم يتحرّك، وفاحت على الفور رائحة مميّزة في الغرفة، رائحة مشبعة بالكثير من الخصوصية. رأينا كتلة ضخمة من الشعر البنيّ والرماديّ والأبيض... هذه ليست ألوان السعادة، بل ألوان الإهمال! لقد تبيّس شعر الأرملة، وتحول إلى

ما يشبه العظم. دندن كورتوس وهو يدور حولها بمشط من العاج، محتاراً من أين يبدأ. جرّب هنا وهناك، غرس المشط في شعرها وشده قليلاً، فانقلب رأس الأرملة إلى الخلف، بينما راقبهما إدموند مصعوقاً! من ثم، تناول كورتوس ملقطاً من الملاقط ذات الأعناق الطويلة والرؤوس المتشعبة -مصمّمة من أجل جراحة الرحم- وتمكّن من تفريق بعض الخصلات بواسطتها، كي يكشف عن الضفائر القديمة، كما تساقط بعض الشعر من تلقاء ذاته. كم ارتجف كورتوس وهو يمسك بيديه شعر الأرملة الميت، الباهت، الشبيه بذيل جرد، الذي أبلاه الزمن، المشعث، المليء بالعقد، المتشابك، السميك، الملتصق، الرهيب! عندما سقطت قلنسوتها، طفا كلّ حبّها إلى السطح مجدّداً، وكبر ذلك الحبّ إلى حدّ غريب. يا له من شخص غريب سقيم ضعيف، هذا الحبّ!

حاول كورتوس أن يسوّي شعرها، لكنّها عصّته!



وقف أمامها مشدوهاً، من ثمّ صفّق. «لقد عدتِ يا شارلوت، عدتِ!» هتف، «عصّيني مجدّداً! عصّيني الآن!».

لقد عادت حقّاً، ولكنها لم تكن شارلوت القديمة ذاتها. تحمّلت كورتوس وهو ينقّب في شعرها، بل سمحت له أحياناً أن يشدّبه، فقصّه

بحرص وحبّ. أراها إدموند دفاتر الحسابات القديمة، فمزّقت بعض صفحاتها بيدها السليمة. حملناها إلى الأسفل، إلى القاعة الكبيرة التي أصبحت خراباً الآن، تملأها المقاعد الفارغة حيث جلست التماثيل الشمعية سابقاً، وكذلك قواعد التماثيل الفارغة. دفعناها بين ما تبقى من الشخصيات الشمعية، ولكن لم تبدِ أيّ اهتمام بها. أريتها عملنا الجديد، تلك الرفوف العديدة المليئة برؤوس مارا الجصية، لكنني لم أتمكن من جعلها تفهم ما يحصل. أريتها المال الذي كسبناه، لكنّها عملة جديدة -الأسينيا- وتركناها تسقط أرضاً كلّما وضعناها في يدها. من ثمّ، رفعها إدموند من تحت إبطيها، بينما حمل كلُّ منا أنا وسيدي ساقاً، ونقلناها إلى الطابق العلويّ. إنّها تفضّل كما أعتقد، أن تبقى في غرفتها.

إدموند هو من حمل إليها دمية هنري بيكو، التي اهترأت كلياً الآن، وتمزّقت بعد أن نبشها مارتن ميلو -أو أيّ من زملائه اللصوص- كما أنّ صدرها انخسف بشدّة.

«أريد منك يا أمّي، أن تتذكّري أبي وأن تتذكّريني. أنا إدموند، ابنك. قد أبدو لك مختلفاً الآن عمّا كنتُ في الماضي، هذا صحيح، وقد تعانين صعوبة بتمييزي، ولكنني أريد منك أن تعرفيني على حقيقتي. أنا ابنك، لقد أصبحت قوياً الآن».

عَضّ كورتيوس أصابعه منكمشاً على نفسه، وأشاح بصره. وضع إدموند دمية أبيه المتقلّصة أمام أمّه. نظرت إليها، ونظرت، ونظرت، ولكنّها لم ترَ شيئاً.

«أبي» ذكرها إدموند، «كان يتحدث بصوت خفيض جدّاً، كأنّه يهمس».

أطرق كورتيوس رأسه، أرعبته فكرة أنّ الأرملة قد تتذكّر زوجها.

حدّقت الأرملة إلى السقف

«أبي» ذكرها إدموند، «كان يهزّ رأسه أحياناً عندما يتكلّم».

هزّ كورتيوس رأسه عدّة مرّات، غاضباً من نفسه. لقد تعلّم أن يقلّد الوجوه التي يصنعها في محاولة منه لفهمها، إلى حدّ أنّ ذلك أصبح عادة من عاداته. والآن، بينما يتذكّر إدموند أباه، ها هو ذا سيدي يقلّده لا شعورياً.

استمرت الأرملة بالتحديق إلى السقف

«أبي» قال إدموند بنبرة انتصار، «أنشد الترانيم وهو يعمل».

«لا، لم يفعل!» همس كورتبوس، ثم دندن قليلاً.

حدقت الأرملة إلى السقف

«أبي» صاح إدموند، إدموند القوي، «أصابع قدمي أبي، تميل نحو الداخل عندما يمشي».

«آه يا إلهي!» قال كورتبوس، وفتل أصابع قدميه نحو الداخل.

نظرت الأرملة إلى السقف، لكنها عبت.

«أبي» صاح إدموند، «أذنا أبي كانتا بارزتين».

«النجدة! النجدة! النجدة!»، صرخ كورتبوس وهو يغطي أذنيه بيديه.

ولكن الأرملة غطت في النوم.

في ورشتنا الصغيرة، تساءلتُ كلَّما فتحتُ قالباً ما إذا كانت فيه شخصيّة

جديدة هذه المرّة، ما إذا كان فيه شخص مختلف، لكنّه دائماً وأبداً مارا.

أحياناً، لا أستطيع أن أتمالك نفسي عندما أفتح القالب، وأتقيأ.

«إنّه الرأس» أقول، «الرأس هو السبب. سأصبح على ما يرام عندما أزيح

بصري عنه».

لقد قطعنا شوطاً طويلاً في هذه الحياة العائليّة، إلى حدّ أنّنا تبادلنا

المحادثة التالية، اليومية، المألوفة، التي تتضمّن ذلك النوع من المعلومات،

المعلومات التي تُسمّع في منازل أخرى يعيش فيها أناس عاديّون يتابعون

حياتهم:

«كلّا» قال إدموند بجديّة تامّة، «أعتقد أنني اكتشفتُ ماذا يحصل. الرأس

ليس السبب يا ماري».

«ليس الرأس؟!»

«لا، لا. أنت حبلّى»

الفصل الثالث والستون

إدموند يلازميني

في الثالث والعشرين من آب، صدر قرار بالتعبئة العامة. كلّ المواطنين المذكور مطلوبون الآن، لأداء الخدمة العسكرية. جُمع الرجال، وتمّ سوقهم جميعهم إلى الجيش، كما تمّ اصطيداد الشباب في الشوارع وهم ذاهبون إلى أعمالهم.

في منزل القروء، توارى إدموند خلف المصاريع المغلقة، ولكنّ هذا لا يكفي، لذلك لا بدّ له من الاختباء في العلّية مجدّداً.

«لا يا ماري، لن أعود إلى العلّية أبداً!»

«هذا ضروريّ، حرصاً على سلامتك»

«أنا أكرهها!»

«ولكنّها الأكثر أماناً»

«حقاً؟! كيف تقولين هذا؟ هل مكثت فيها؟ إنّها مكان يكتسح المرء على

نحو رهيب، وسيسيطر عليه»

«لا» أجبته، «ليس بعد الآن، ليس الآن، ليس بعد أن أصبحت إدموند الجديد»

صعدتُ إلى العلّية كلّما تسنّى لي ذلك كي أراه، لكنّه مضطّر للاختباء

طيلة الوقت. إن لمحه أحدهم، إن سمعه أحدهم بالصدفة، سيسوقونه فوراً

إلى الخدمة العسكرية، وسنخسر كلّ شيء. مكث إدموند في الطابق العلويّ

إذن، ولم يأت في طلبه أحد حتّى الآن في الأسفل. إبّان ذلك، أخبرني الزبائن

الذين يشترون رؤوس مارا بما يحصل.

«لقد اعتقلوا مرسية، هل سمعت بذلك؟»

«مسيو مرسية المسكين! لم أسمع بهذا»، قلتُ.

«إذن، فأنت لا تعرفين من اعتقله؟»

«لا»، قلتُ.

«إنه جاك بوفيزاج»

«هل رأيتم جاك؟! هل تعرفون أين هو؟!»

«هكذا سمعنا، يقال إنه جاك»

انسحب إدموند نهائياً إلى الطابق العلوي، مع الدمية الخشبية التي صنعها لي، ومع الدمى القماشية. جلب كلّ دمي الخياط إلى غرفة واحدة، وربّتها في مجموعة. يقف بينها أحياناً، كأنه يعقد اجتماعاً لنقابة دمي الخياطين. خزّنا أطعمة جافة هناك في الأعلى، كي يجد ما يأكله في حال غيابنا، لو جاؤوا واعتقلونا.



بوجود إدموند في العلّة، استعجل الدكتور كورتيس تفكيك دمية هنري بيكو. عندما يكون بمفرده، يفرط قطب الدمية كيفما اتفق ويقصّ بعضاً من أجزائها، كما استخدم بعض قطع هنري بيكو لسدّ ثقب في أحد الجدران. ذات يوم، اكتشفتُ أن دمية الخياط الميت قد أصبحت الآن مجرد خرقة بائسة، يحتفظ بها في جيبه، ويستعملها أحياناً لمسح جبين الأرملة. «من هذا؟! من هو هذا الآن؟!» يسألها وهو يرفع الخرقة، لكنها لا تستطيع أن تجيبه، لذلك يكتفي بهزّ رأسه.

ذات مرّة، قال لي كورتيس: «أنا أعرف تشريح الجسد البشري. لقد جُلِبَت لي أجزاء من أمّهات مصابات بحمّى النفاس. رأيتُ صدورهنّ

الثقيلة، عندما جُلِبَت إليّ. أتذكّر إحداهنّ جيّداً، لم يعبثوا بها كثيراً كسواها. شقّقْتُها...» وتحوّل صوته إلى همس الآن، «كان هناك شخص ضئيل بداخلها! يا صغيرة، يا ماري، ماذا... ماذا تضعين في بطنك؟!».

«طفل»، أجبته.

«طفل حقيقي؟!»، سألني.

«أجل» أجبته، «أتمنّى ذلك».

«وكيف دخل إلى بطنك؟!»

«بالطريقة المعتادة»

بدا لي محتاراً للغاية، فأشرتُ إلى الأعلى.

«آها!»، قال.

«تماماً يا سيّدي»

«هذا أمر في غاية الخطورة!» قال، «ليس آمناً».

«الناس ينجبون الأطفال»

«ولكنك مسنّة، مسنّة للغاية! ربّما تموتين!»

«ربّما نعم يا سيّدي» أجبته، «وربّما لا»

«لا، آخ لا، ستموتين!»

الآن، أصبح لدى سيّدي امرأتان لا بدّ من رعايتهما. أصغى إلى صدري وبطني عدّة مرّات يومياً، وأمرني بالاستلقاء. غسل لي وجهي وهو يهزّ رأسه، بل إنّه ساعدني بصناعة رؤوس مارا. في غضون ذلك، عاد إلينا رأس مارا الشمعيّ الذي صنعناه، بعد أن علّقت مكانه في قاعة المؤتمر الوطنيّ تلك اللوحة التي رسمها دافيد. بالتالي، تراجع الطلب على رؤوس مارا الجصيّة، مع أنّها مأخوذة عن وجهه مباشرة، لأنّها بشعة بالمقارنة مع تلك اللوحة. دافيد رسم مارا وسيماً مباركاً، كأنّه قادم من الكتاب المقدّس، ولا يشبه مارا الحقيقيّ على الإطلاق. اللوحة كذبة!

خاط إدmond لنفسه بزّة بسيطة من الخيش، تشبه كثيراً ما تلبسه دمي الخياط.

«إن صعد أيُّ شخص إلى هنا» قال، «سيحسبني إحدى الدمى». «لن يدوم هذا للأبد يا إدموند» قلتُ، «تذكّر من أنت، لا تنسَ ذلك. انظر من النافذة، إلى مبنى الدكتور غراهام، سأعود إليك ليلاً». «سننجب طفلاً»

«آمل هذا يا إدموند، آمل هذا، إن حالفنا الحظّ»

«ثمّة طفل بداخلك، ينمو»

«أجل، ولكن من المحتمل أن يتوقّف عن النمو فجأة!»

بدأ إدموند بالبكاء

«ولكنّا سنبدل قصارى جهدنا من أجله»

«أجل، قصارى جهدنا»

في تلك الأيام المسروقة المليئة بالظلال، ونحن نتحرّك ببطء شديد في عتمة منزلنا، دون أن نصدر سوى ضجّة خافتة، تسلّلت إلينا الأخبار من الخارج، أخبار عن امرأة ما من حياة أخرى، لم أكن أفكر بها. لقد نسيْتُ أن أفكر بها! لربّما لو فكّرتُ بها دائماً، لبقيتُ سالمة، حيّة، تتنفس!

كنتُ على وشك الخروج لشراء الخبز، لكنني وجدتُ الباب الخلفيّ موصداً، والدكتور كورتيوس واقف أمامه، كأنّه يسدّه. «من الأفضل ألا نخرج اليوم» قال، «لا يلزمنا خبز اليوم».

«بلى!» قلتُ، «نحتاج إلى خبز اليوم».

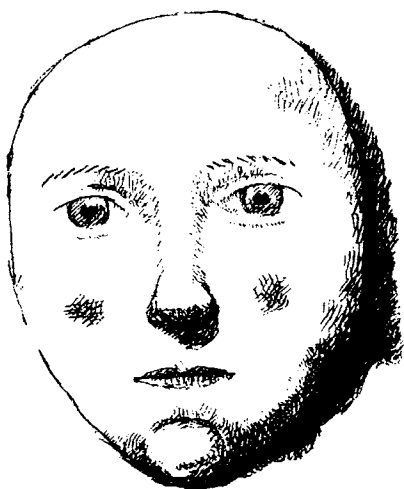
«من الأفضل ألا نخرج اليوم»، كرّر.

في البداية، لم أفكر كثيراً بما قاله.

أصرّ الدكتور كورتيوس على أن أجلس بجانب الأرملة لبعض الوقت، من ثمّ أراني إدموند قناعاً صنعه من عجينة الورق، يغطّي وجهه كاملاً وليس فيه إلّا فتحتان للأنف، وله عيانان مرسومتان بشكل بدائيّ، تحجبان عيني إدموند.

«لا تفعل هذا يا إدموند! لا لزوم لهذا!»

«لا، لا، أنا أفضل حالاً الآن، وأشعر بأمان أكبر» قال، وغطّي وجهه بالقناع كلّما سمع أحداً يصعد درج العلّية.



طلب منّي كورتيوس أن أحكي له عن حياتنا في بيرن، وقال لي في ذلك اليوم: «دعينا نتحدّث عن الرؤوس الأولى التي صنعناها، لفّي نفسك بهذه البطّانية». وهكذا، ملفوفين بالبطّانيات، جلسنا بالقرب من الموقد، وتذكّرنا كلّ تلك الرؤوس الشمعيّة عديمة الأهميّة.

أخيراً، فهمتُ ما يحصل!

تتابعت أفكارني كما يلي: المصاريع كلّها مغلقة، كما حدث أثناء إعدام الملك والملكة. لعلّ شخصيّة بارزة ستُعدم اليوم أيضاً، من تكون يا ترى؟ من ثمّ، فتحتُ مصراعي إحدى النوافذ قليلاً، ونظرتُ إلى المنازل القليلة المأهولة حولنا، فاكشفتُ أن منزلنا هو الوحيد المغلق والمقفّل بالمزلاج! عندها، دبّ الرعب في قلبي! لعلّها هي، فكّرتُ، لعلّها هي، لربّما هذا هو ما يحصل! وإلا، لماذا ينظران إليّ بهذه الطريقة؟! لماذا يرتبان عليّ ويدلّانني هكذا؟!

«ممممممممممممممم»، قالت الأرملة.

«إليزابيث؟!»، سألتُ.

«ماري!» قال إدموند، «دعيني أدلكّ بطنك».

«إليزابيث؟!»، سألتُ.

«ماري» قال سيّدي، «تعالى واجلسى بجانبى بالقرب من النار».

«إليزابيث؟!»، سألتُ.

«حدّثيني عن تلك الرؤوس في بيرن»

«إليزابيث؟!»، سألتُ، «إليزابيث؟! إليزابيث?!».

أخيراً، هزّ كورتىوس رأسه، وقال: «إليزابيث»، ومن ثمّ: «تعالى واجلسى بالقرب من الموقد».

وهو ما فعلته، فلتساعدنى السماء!

إنّه السابع والعشرون من أيار 1794، أو الثامن من بريرىال، السنة الثانية⁽¹⁾ وفقاً للتقويم الجديد. لعلّ يسوع الجصّيّ كان معها، ذلك اليسوع البائس الصغير. كان عليّ أن أكون حاضرة هناك! كلّهم محشورون في تلك العربة المكشوفة، الكثير منهم، صلّوا بلا شك طيلة الطريق، أمّا إليزابيث فخاضت تلك الرحلة حاسرة الرأس كما قيل، بعد أن طار منديل رأسها مع الريح. كانت الرقم 24، سبقها ثلاثة وعشرون شخصاً في تلك الجلسة. أميرتي إليزابيث، إليزابيثتي، ذهبت إلى موتها بلا قلب ولا طحال!

إليزابيثتي، لم ترسل بطلي قط!

لماذا لم ترسلني بطلي؟!!

في الصباح التالي، خرجتُ لشراء الخبز.

1- في عام 1793، اعتمدت حكومة الثورة الفرنسيّة تقويماً زمنياً جديداً خاصّاً بها، مستبدلة التقويم الغريغوريّ المألوف بآخر علميّ عقلانيّ يفترق عن التقليد المسيحيّ، انتهى العمل به في عام 1806 أثناء حكم نابليون. الشهر المذكور، هو الشهر التاسع وفقاً لهذا التقويم، يبدأ في 20 أيار وينتهي في 18 حزيران. المترجمة

الفصل الرابع والستون

الاعتقال

في العاشر من حزيران 1794، صدر قانون الثاني والعشرين من بريرال: يجب أن تنشط المحاكمات كالجرائم، وأن يصدر الحكم في كل قضية خلال أربع وعشرين ساعة. وهكذا، كان الناس -أناس عاديون نراهم كل يوم- يساقون من السجون إلى المحاكم في الصباح الباكر، يصدر الحكم عليهم في الساعة الثانية بعد الظهر، من ثم يؤخذون بالعربات في الساعة الثالثة إلى المقصلة. سيشير المدعي العام بإصبعه، ويعلن: «أنت مذنب بسبب فستانك، أنت مذنب بسبب اسمك، أنت مذنب بسبب شاربيك، أنت مذنب بسبب شعرك. ستُعدم لأنك وُلدت ولديك مالٌ أكثر من سواك، أما أنت فتُعدم لأنك وُلدت مع مال أقل، أنت لأنك همست برأيك ذات يوم، وأنت لأنك خرجت من دون الشريطة الثلاثية الألوان. ستُعدم أنت لأن جارك سمع إشاعة عنك، وأنت لأنك لم تهتف بصوت عالٍ كما يجب. ستُعدم أنت لأننا لا نحبّ مظهرك، ستعدمين كي يبلغ القتلى العدد المطلوب. ستُعدم لأننا قررنا ذلك، نحن نعرف ما يدور بداخل رأسك، أنت تهدّد حرّيتنا، أنت لست بأمان».

وقفنا في غرفة القوالب أنا وكورتوس، رفوفنا تغصّ بها.

«علينا أن نحطّمها كلّها» قلتُ، «لا بدّ من ذلك يا سيّدي، ستقودنا هذه القوالب إلى المقصلة إن عثروا عليها هنا. أندريه فالتان يتواجد يومياً في البوليفار، ولن يتركنا بسلام. علينا أن نحطّمها يا سيّدي، وإلا قتلونا».

بدا كئيباً

«إنّها حياتي التي بنيتها مع الأرملة!» قال، «كيف أرميها هكذا؟!». «لا بدّ من ذلك يا سيّدي»

«ولكن... انتظري! انتظري! ربّما نملك فرصة. ماذا لو.. يا ماري، ماذا لو ملأنا غرفة القوالب بأكملها من الأرض إلى السقف بالجصّ؟! سنملأها حتّى لا يبقى فيها متّسع لأيّ شيء على الإطلاق، الجصّ، الجصّ والجصّ فقط. من ثمّ، لاحقاً، إن بقينا أحياء، سنستخدم المطرقة والإزميل بمنتهى الحرص ونكسر كلّ الجصّ. سنرتّب القوالب أولاً في آخر الغرفة، سنغطّيها بخيش مشبع بالقطران، من ثمّ نملأ الغرفة بالجصّ. أيّاً كان من سيحرّر هذه الغرفة، سيعرف ما إن يعثر على الخيش أنه وصل إلى القوالب، وأن القوالب آمنة وسالمة».

وهو ما فعلناه. رتّبنا القوالب كلّها بعضها فوق بعض، غطيناها، ثمّ صببنا الجصّ دلوّاً بعد دلو، ونحن نسدّ العتبة بالألواح الخشبيّة تدريجيّاً كي نحافظ على مستوى الكلس السائل في داخل الغرفة، حتّى اختفت تماماً. الغرفة بالتعريف تحوي فراغاً، أمّا هنا فلا يوجد سوى بضع فجوات لا يزيد حجمها عن حجم رأس، سنسدّها لاحقاً. خبأتُ هنا أيضاً قالب رأس الملك الذي لم يطالبنا به أحد حتّى الآن، فضلاً عن أنّ من طلبوه منّا لم يعودوا موجودين على قيد الحياة. خلعنا الأسكفيّة، وثبتّنا نعلات⁽¹⁾ في أسفل الحائط مطروح الباب. لا الباب موجود، ولا الغرفة موجودة الآن.

بقينا في منزل القروء الكبير، وأصغينا بهدوء إلى الناس يمشون في الخارج. أحياناً، يظهر أندريه فالنتان عند بوابتنا مبتسماً. ذات مرّة، دخل إلى المنزل، ورمى أشياءنا أرضاً، ثمّ فرك جبين الأرملة بأصابعه. أراد أن يعرف مكان إدموند، فقلنا له إنه غادرنا وعاد إلى زوجته. لم يصدّقنا، وبخلق بعينه في كلّ أرجاء المنزل، حتّى في العلّية، بل خصوصاً في العلّية، ولا بدّ أن عينيه الحولوا وين قد نظرنا مباشرة إلى إدموند بين كلّ دمي الخياط تلك، لكنّه لم يره. عاد مجدّداً، وفكّش المنزل مجدّداً، ثمّ غادر مجدّداً. لعلّه، تجرّأنا على

1 - النعلة (أو إزار الحائط) هي إطار مصنوع من الخشب أو من أيّ مادة أخرى، تُثبّت أسفل الجدران فوق البلاط. المترجمة

التفكير، لعلّ آندريه فالتان سيستمرّ بمضايقتنا هكذا فحسب، لأنّه يستمتع بهذه اللعبة على ما يبدو، وسيبقى الوضع هكذا، مجرد لعبة.

ولكن، ها هو ذا آندريه فالتان في الطابق السفليّ مجدّداً يرفس الغبار، ويقلب الكراسي، ترافقه فلورنس ببيلو طاهيتنا السابقة، التي تلفّ جسدها الضخم بوشاح ثلاثي الألوان.

«حسناً، أيتها المواطنة ببيلو، هل هؤلاء هم الأشخاص المطلوبون؟»
«للهللهلل»، قالت.

«وهل هم أوفياء للملك المخلوع؟»
«للهللهلللهلللهلل»

«وهل هم سويسريّون؟»
«للهللهلللهلللهلللهلل»، قالت، «روشتي، فلاشكيزه».
«أيّ شيء آخر؟»

«للهللهلللهلللهلل»، قالت، «إنهم آسفون على ما حصل للملك، سمعتهم يقولون ذلك. للهللهلللهلل، سمعتهم طيلة سنوات يقولون إنهم يحاولون الحصول على بورترية للملكة. إنهم يحبّون العائلة الملكية، كلّهم، حتّى إنّ هذه المرأة أقامت في فرساي»، ثمّ بصقت.
«شكراً لك أيتها المواطنة»، قال فالتان.
«للهللهلللهلللهلل»

نفخ فالتان في صفارته النحاسيّة.



«أنتم رهن الاعتقال، بموجب قانون الثاني والعشرين من بريريال» قال، عاجزاً عن التحديق إلينا مباشرة. «ستتبعون أولئك الرجال، وستغلّقون هذا المنزل».
أخذونا بعيداً.

جميعنا، باستثناء إدموند الذي بقي في العلّة بقناعه وبزّته المصنوعة من الخيش. لقد اتّفقنا سابقاً على أنّه سيختبئ بين أخوته وأخواته القماشيين، لو جاء أولئك الرجال لاعتقلنا.

لم تتسنّ لي فرصة وداعه، ولم أتجرّأ على النظر للخلف.

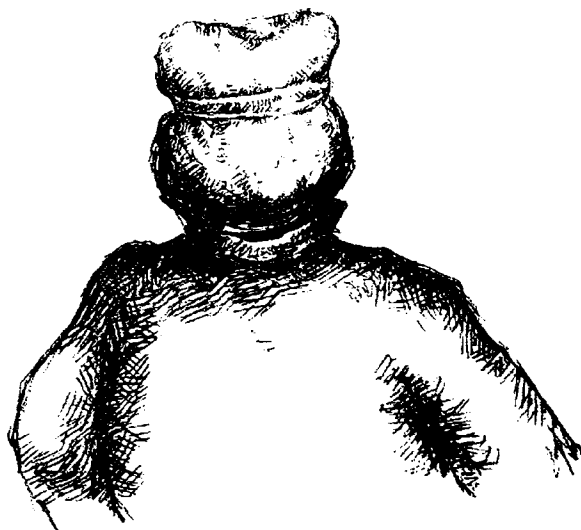
مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب السابع

1804-1794

غرفة الانتظار، وبيت من الكرتون

من عمر الثالثة والثلاثين، إلى الحادية والأربعين



الفصل الخامس والستون

حياة وموت في غرفة

اقتادونا في البداية إلى سجن لا فورس، حيث وُجِّهت إلينا الاتهامات رسمياً. هناك، فُصلنا أنا والأرملة عن الدكتور كورتوس، تمهيداً لنقلنا إلى سجنين مختلفين ريثما يحين موعد المحاكمة، ولم يدرك أيُّ منا أنها لحظة الفراق إلا بعد أن أخذوا سيدي بعيداً. من ثم، هاهي ذي رحلة أخرى، شاهدنا خلالها الشوارع والمنازل من شقوق العربة، كأثنا نراها للمرّة الأولى، وبدا لنا كلّ شيء جميلاً. وصلنا أخيراً إلى دير الأخوة الكرمليين، إلى الظلام، حيث يقال إن جاك بوفيزاج قتل بعض القساوسة هناك في إحدى ليالي شهر أيلول. كنّا أحراراً في تلك الليلة، وكان إدموند إلى جانبي، أمّا الآن فأنا برفقة والدته العليلة في غرفة تضمّ عشرين امرأة أخرى، تمّ اقتيادهنّ إلى هنا مثلنا، ينتظرن، ويبكين فوق فرشاة من القش القديم.

كازم، هكذا يُسمّى هذا السجن، ويبدو وإدعاً.

لعلّ زنزانتنا الصغيرة موجودة في قعر المحيط! الزمن ثقيل هنا، مليء بالحيوات السابقة لعشرين امرأة، جميعهنّ هنا معاً. في هذه الغرفة، كلّ شهيق يؤخّذ على محمل الجدّ. في هذه الغرفة، ستقول إحدانا للأخرى: «يسعدني أن ثوبك فيه بعض اللون الأصفر، لولاه لما رأينا اللون الأصفر هنا بتاتاً، ولكان ذلك مؤسفاً».

توجد نساء هنا، في هذه الزنزانة الصغيرة ذات الجدران والأبواب السمكية. أصغرنا هي فتاة في الثانية عشرة، أمّا أكبرنا سنّاً فهي كونتيسة عجوز في السبعينيات من عمرها. أظنّ أن بعض السجينات أبغضن الكونتيسة، بسبب تلك الفتاة.

ويا للرائحة، رائحة كلّ أولئك النساء المحشورات معاً!

جاءت نساء وغادرت أخريات، وجهتهنّ دائماً محتومة: الكونسيير جيري، أي صالون الموت، ومن هناك يؤخذن إلى ساحة بلاس دو ترون، من ثمّ يقطعن الرحلة الختامية إلى منصّة الإعدام والمقصلة. بقيت ممسكة بيد الأرملة، التي لم تستطع أن تفهم أين هي الآن بعد أن فقدت ما تبقى من عقلها... أجسادنا تسدي لنا معروفاً أحياناً.

إنّهم لا يعدمون الحوامل بالمقصلة. يعدمون الفتيات الصغيرات، أجل، والعجائز المجنونات، هذا أكيد، ولكنّ الحبلى ستبقى بأمان لفترة مؤقتة. سيأخذونني حتماً بعد أن ألد، ولكنني بأمان ما بقي جنيني في بطني، كلّ منّا يحافظ على حياة الآخر. بالتالي، سأعيش وفقاً لحساباتي لثلاثة شهور أخرى.

تقيس الزنزانة بتقديري عشرين بثلاثين قدماً، أرضيتها حجريّة، وثمة فرشاة من القشّ ننام فوقها، عددها ليس كافياً، وقد نضطر أحياناً للاقتتال فيما بيننا كي نظفر بواحدة، ولكننا عموماً تبادلنا الأدوار بالنوم فوقها. سمحوا لنا بتنظيف هذه الغرفة، مرّة أسبوعياً. ثمة نافذة واحدة صغيرة رهيبة، تطلّ على جدار رماديّ حقير، لا يمكننا أن نرى السماء منها. أحد جدران الزنزانة مغطى بالطحالب التي يعجبني أن أتأملها، لأنّها ملوّنة.

الدلو المشترك الذي نستعمله لقضاء الحاجة، لا يؤخذ بفواصل منتظمة. استعملته بعض النساء بلا اكتراث، وتبادلت الأخريات الحديث بصوت عالٍ عندما جلسن فوقه، أمّا بالنسبة للبعض منهنّ، فكان إذلاًلاً يومياً وتعذيباً لا يطاق. طلبت إحدى الأمّهات من ابنتها أن تحجبها بقطعة ثياب كلّما استعملت ذلك الدلو، ولكنّ تلك الخرقه البائسة ليست جداراً، ولا تكتم الأصوات بل تلفت الانتباه أكثر إليها، ولم تستطع مثيلاتها من النساء أن يفهمن احتشام الأخريات. لا عزلة هنا، أو لعلّ العزلة الوحيدة الصغيرة توجد فقط بداخل رأس الأمّ يبيكو العجوز.

لم أتواجد قطّ في حياتي بصحبة هذا العدد من الأشخاص! جلست النساء الأصغر سناً معاً، وتحدّثن عن الرجال. اندلع العراك بالطبع بيننا، حول المسائل الصغيرة والكبيرة على السواء. كلّ العلاقات الصغيرة التي تشكّلت

في تلك الزنزانة، كانت آخر محاولتنا كي نحيا. عاملنا بعضنا بعضاً بلؤم، وأحياناً بلطف، أرادت كلٌ منا بعض الدفء البشري. أتذكر إحدى أولئك النساء -بائعة يانصيب سابقاً- وهي تدور في أرجاء الزنزانة طيلة النهار، وتسال هذه المرأة أو تلك: «هل لي أن أمسك يدك الآن، رجاء؟»، أو: «أود أن أمسك يدك أنتِ لاحقاً»، أو: «هل لي أن أمسك يدك لفترة أطول؟».

أحياناً، يُسمَح لنا بالتجول في سجن كازم، الذي يضمّ قسمًا للرجال أيضاً. المكان بأكمله يفوح برائحة القاذورات البشرية النتنة، والأمونيا، والرطوبة، وجميعنا نتحرّك في هواء راكد كثيف. في تلك اللحظات خارج زنزانتنا، ونحن نُدفع هنا وهناك بين الآخرين، نرى الرجال البائسين مثلنا، نتهامس عمن أخذوه، وكم عدد الذين أخذوهم بالأمس، وكم عدد الذين سيأخذونهم اليوم. هناك في سجن كازم، سمعتُ المزيد من القصص عن جاك بوفيزاج: شوهدَ هنا وهناك في مواقع أسوأ الجرائم، غارقاً في الدماء إلى خصره، يذبح عائلات بأكملها ويضرم النار بالبلدات، لكنّ تلك القصص لم تذكر شيئاً ملموساً حقيقياً عنه، ولا وقائع مؤكّدة. لم يذكر أحدٌ أنه يعرج، ولم يصف أحدٌ حزنه المفجع على صبيّ ميت، ولم أصدّق أيّاً ممّا سمعته عنه.

اللوائح التي تُنشر يومياً تقريباً بأسماء الذين حان دورهم، هي ما أعطت حياتنا شكلاً في سجن كازم. عندما تُنشر لائحة جديدة، يتمّ استدعاء السجناء بعد أربع وعشرين ساعة غالباً... وكم كانت تلك الساعات أليمة! من ثمّ، تتعالى أصوات أولئك الذين يساقون خارج الزنانات على عجل ويُدفعون إلى أعلى الأدراج، صرخات، تضرّعات، مقاومة.... لكنّهم يغادرون! في الليل، نغرق كلّنا، وتبكي الكثيرات. آه، لو نستطيع استنشاق بعض الهواء، بعض الهواء النقي!

كان لدينا الكثير من الوقت...

لم يكن لدينا وقت على الإطلاق.

واحدة تلو الأخرى، اختفت النساء. لا، هذا ليس صحيحاً! أحياناً، تختفي ثلاث أو أربع نساء معاً، ولكنّ الزمن مرّ بطريقة ما أو بأخرى، وما زلنا على قيد الحياة أنا والأرملة. أحياناً، تعجز إحدى النساء عن السيطرة

على نفسها، فتصرخ أو تتحب، لكنّ هذا الأمر لا يصنع فرقاً بل يزعج بقيّتنا فحسب. حاولنا أن نعيش بما تبقى لنا من كرامة، أن نتصرّف بتهذيب، أن نكون لبقات ولطيفات، بل إننا ضحكنا أحياناً. بالنسبة للبعض منّا، التواجد هنا كان مصدر راحة، لأننا عشنا حياتنا في المدينة ونحن نرّح تحت توتّر هائل بانتظار أن يقرعوا أبوابنا، وعندما يحدث هذا حقاً ويتمّ اقتيادنا بعيداً، سنشعر بالراحة، بل وبالقليل من السلام: لقد أخذونا، وبوسعنا أن نعود إلى طبيعتنا مجدّداً! لم تتعد أفكارنا قط عن باب الزنّانة، حاولت بعض النساء ألا ينظرن إليه بتاتاً، ولكن لم تستطع أيّ منّا حقاً أن تكفّ عن تأمله.

ذات مرّة، سُجِنَت معنا امرأة حسنة، عاقلة جدّاً ولطيفة، حفّزتنا الكرامة التي تحلّت بها على أن نكون شجاعات. في الليلة السابقة على ظهور اسمها في اللائحة، سمعناها تهمس: «أعرف أنني سأكون التالية!»، وقبل أن يأخذوها قبلتنا جميعنا قبلات الوداع، ووزّعت علينا كلّ ما تملكه. اعتقد أنني أحبّ أن أرحل هكذا!

المأكولات الجافّة تتخلّل أيّامنا، خبز وبازلاء وفاصولياء تكسر أسنان العجائز، وتسبّب ألماً في الفكّين عند مضغها. تصوّر جنيني جوعاً! كم نشبه أولئك المعوزين المرضى الذين صلّت إليزابيث من أجلهم، فكّرْتُ، وكأنّ الشقاء هو زيّ موحد إجباريّ نلبسه جميعنا. لو رأيتني إليزابيث الآن، لو لم تكن ميتة، لحسبتني أحد أولئك الأشخاص!

جميعنا محشورات في غرفة واحدة، كلّ شيء يصبح ثميناً، وثمة القليل فقط كي نحبه ونحن نعيش ليلاً ونهاراً وسط تلك الضجّة، ضجّة الباريسيّات المحتجزات معاً.

كان لدينا الكثير من الوقت...

لم يكن لدينا وقت على الإطلاق.

تغيّرت السجينات باستمرار.

في البداية، شغلّت وقتي بالأرملة. لعبنا معاً، وحدّثتها عن إدموند وعن الدكتور كورتويوس. أبقيتها هادئة، نظفّتها، جفّفناها، عانقناها، وتركتُ رأسها المليء بالتجاعيد يستريح على كتفي. حاولتُ أن أسرّح شعرها المشعث

المتشابهك بأصابعي، حاولتُ أن أجعلها تبدو جميلة، وأن أقول لها إنها جميلة حقاً. لقد أصبحت أكثر لطفاً في مرضها، ولم أعد أستطيع أن أكرهها، بل حاولتُ أن أحبها. لم تستوعب فكرة أنها ستصبح جدّة، لكنّها حدّقت إلى بطني وبدت حزينة للغاية، وكانت دائماً على وشك أن تتذكّر شيئاً ما دون أن تتذكّره أبداً. كم غريب أن ينتهي الحال بنا معاً، أنا وهي!

«لديك ابن، هل تتذكّرينه؟» أقول لها، «اسمه إدموند، إنه حيّ، وهو بخير. إنه يختبئ آمناً، لن يعثر عليه أحد».

«عععععع»، تجيبي.

طاف إدموند في خيالها، شخصيّة ضبابيّة سرعان ما تتلاشى. أردتُ أن أذكّرها به، وظننتُ ذات مرّة أنها ميّزتني، لأنّ وجهها طفح بالغضب، لكنّ الدموع سرعان ما ملأت عينيها وضيّعتني مرّة أخرى. من الخلف، لا تبدو كشخص حقيقيّ على الإطلاق، تلك الطفلة - العجوز المسكينة، بل مجرد كومة من الأكياس.



لم تفهم ما حصل، حين ظهر اسمها في اللائحة! لم أخبرها... كيف ستفهم ذلك أصلاً؟! بقيتُ بالقرب منها طيلة النهار، غيّتُ لها، ولم أدعها قط تغيب عن بصري. نامت ساعتين ورأسها في حضني، وأنا أربّت على

شعرها المقطّع. سيقصّونه قبل رحلتها الختامية، لأنهم يقصّون شعر النساء دائماً قصيراً بمستوى العنق... وليتها تكسر المقصّ! عندما نادوا اسمها، لم تفهم أنه اسمها، واضطرتُّ للإجابة نيابة عنها. كانت سعيدة، ولم تفهم لماذا لم أرافقها، وبكت عندما قلتُ لها إنهم لا يسمحون لي بذلك. بكاء السيّدات العجائز، هو أمر رهيب! آمل أنها نسيّنتني تماماً بمجرد أن وصلتُ إلى الدرج، آمل أنها لم تفهم شيئاً من تلك العملية القاسية التي تسمّى: محاكمة. آمل أن شخصاً ما كان لطيفاً معها في العربة، آمل أنها كانت الأولى في تلك المجموعة، آمل أنها لم تفهم أنها على وشك أن تفقد رأسها. لعلّها اعتقدت أنهم سيصنعون دمي خياط من كلّ أولئك الأشخاص، ولربّما لم تنزعج من أنّها ستصبح دمية بدورها. الدم على منصّة الإعدام سيثير اضطرابها بكلّ تأكيد، ولكنني آمل ألا يحدث هذا. آمل أن الطقس كان مشمساً، ودافئاً. سيّدة عجوز مجنونة بدينة، آخ، ساعدوني، ساعدوني، ساعدونا جميعنا!

كان لدينا الكثير من الوقت...

لم يكن لدينا وقت على الإطلاق

تغيّرت السجينات باستمرار.

بعد أن أخذوا الأرملة، تمدّدتُ مع مارتا متبيّسة فوق القش، وتظاهرتُ أنني محشّوة بنشارة الخشب. لم أرد على أحد طيلة أيام، أكلتُ من أجل جنيني فقط، وليس من أجلي. لن أستطيع مواجهة إدموند لو خسرتُ طفله، يكفي أنني لم أحافظ على أمّه. ثمّة حياة هناك، في أحشائي، وبفضلها استطعتُ الاستمرار.

بدأتُ أتكلّم مع النساء من حولي، مجدّداً.

روت كلّ منّا للأخرى حكايتها، مراراً وتكراراً. بوسعكم أن تميّزوا القصص الحقيقية عن تلك المختلّقة، لأنّ المختلّقة تتغيّر باستمرار كلّما رُويت، أمّا الحقيقية فلا تتبدّل. ما هي الحياة؟ إنّها ما يبقى منّا: حكايات، والحكايات هي ملابسنا.

بعد أن أخذوا إحدى النساء، زوجة نائب أُعِدِم مؤخّراً، سمعتُ امرأة أخرى في الليلة التالية، تروي حكاية زوجة النائب على أنّها حكايتها الشخصية.

لَصَّة القصص تلك هي ممثلة من مسرح كوميدي-فرانسيز، اعتقلوها لأنّها اقتبست من مسرحيّة عن ملك ما، ليس صانع الأقفال الذي قُطع رأسه، بل ملك آخر قديم... ولكن لا فرق، الملك يبقى ملكاً! سمعتِ الممثلة حكاية زوجة النائب، وقصّتها -كلمة كلمة تقريباً- على سيّدتين جديّتين لم تشبها بشيء. جنّ جنوننا، ونعتناها باللصّة، لكنّها هزّت رأسها بحزن وقالت إنّها ليست امرأة سيّئة، وكلّ ما تريده هو أن تجمع كلّ تلك الحكايات، كلّ ما بقي من أولئك النساء، كي تحفظها بأمان في ذاكرتها الخارقة. لقد أصبحت ممثلة -وهو ما اكتشفته الآن فقط- كي تروي حكايات الآخرين، ليس الأشخاص الخياليين كما اعتقدت في البداية، بل أولئك الحقيقيّات هنا في هذه الغرفة، كي لا يطويها النسيان بعد موتهنّ. هذا الأمر يعني حتماً أن الحياة ستُكتب لها كما اعتقدت، كي تعيش تلك القصص معها، ولكنّ اسمها أُدرج في اللائحة، وضاعت مكتبتها معها.

بعد أن قضيتُ شهراً في هذه الزنزانة، أخذتُ بدوري أروي قصص حياة أولئك النسوة اللواتي رحلن قبلنا. لم أنتحل حكاياتهنّ، بل رويتها للقدمات الجديّدات. هناك، في تلك الزاوية، جلستُ إيلودي قبلكنّ، وهذه هي حكايتها. هناك، جلستُ مدام غرنلان من مرسيليا، وهناك عند النافذة، بقيت مدموزيل كوسيه جالسة طيلة الوقت. هل ترين العلامات التي حفرتها هناك بأظافرها؟ ثمة علامات على كلّ الجدران، المكان بأكمله يغصّ برسائل صغيرة مريرة، الدليل الوحيد الباقي على الحياة. أحياناً، تصرخ النساء عليّ كي أصمت، لكنّ العديد منهنّ خشين أن يطويهنّ النسيان، ولذلك جئن إليّ وأخبرنني بقصصهنّ، من ثمّ اخترنني كي يتأكّدن من أنّي حفظتُ كلّ التفاصيل. توجّب عليّ أن أتذكّر بدقّة، النمش، الغمّازات، مجموعة كراسي، الأزهار في الحدائق، الرجال العجائز وأولئك الشباب، الصبية الذين يضعون باروكات ويلبسون جوارب، الفتيات اللواتي يعشقن الفراولة، النساء المؤمنات، اللاعبين اليافعين، الرحلات لزيارة الأقارب، ألعاب الورق، البيض المسلوق، الأرباح، المنازل الصغيرة، أوّل ورق جدران، المواليد الجدد، الأطفال الضائعين، الأهل الذين ماتوا... إلخ، الكثير والكثير من القصص، فضلاً عن الكلاب الحبيبة، الخيول المفضّلة، الأغاني القديمة،

من رأت الملك ومتى، المجوهرات والأبهاء، الميراث العائلي، القصائد،
والحكايات الخرافية كسندريلا وبيرسينت. ابني في اجتماع النقابة...
تذكرني هذا يا ماري. هل تتذكرين الآن؟ هل حفظت ذلك؟ من كان ابن عمي
المباشر؟ أين التقيتُ ببيير؟ ما هو شعار عائلتنا؟ والندبة الصغيرة بالقرب من
عينه؟ تفاصيل كثيرة! على مهل، على مهل... وإلا نسيتهُا.

الكثير والكثير من القصص التي يجب أن أتذكرها، لكنني لم أستطع أن
أحفظها كلها بدقة، بل تداخلت تفاصيلها: حبٌ مدام (د) لأزهار النرجس،
سينسب إلى مدموزيل (ب)، التي سيظهر غرامها بجندي يدعى أوغسطين،
في سيرة ذاتية مشوشة لسيّدة هرمة من فوبور سان مارسيل، أمّا أخت هذه
الأخيرة -وهي مرافقتها- فستظهر فجأة في حكاية صغيرة لامرأة تباع
المرطبات في ساحة بلاس دو لا ريفولوسيون أثناء عمليات الإعدام.

خفتُ من تلك القصص، إنها تزورني عندما أنام، وتسلك إلى أحلامي.
إنها سيئة بالنسبة لطفلي، أنا واثقة من ذلك. امتنعتُ عن الإصغاء لها، ولم
أعد أرغب بسماع أي شيء عن أي شخص. لا يوجد سوانا، أنا وطفلي
وإدموند، وكم حاولتُ أن أنأى بنفسني عنها.

الآن بعد أن نسيتهُا، عادت تلك الحكايات إليّ من جديد، بأجزاء
صغيرة. أحياناً، يضطرب نومي بسبب كورس ضخم من النساء الميتات،
يلبسن ثياباً مختلفة، يرددن أسماءهنّ وأسماء أحبائهنّ، ويروين تفاصيل
حيواتهنّ الصغيرة. قالت إحداهنّ إنها لا تطيق أبداً أولئك الذين لا يحبون
كرنب بروكسل، «لأنهم ضعفاء، عديمو الشخصية»، قالت لي. أخبرني
امرأة أخرى أنها رقصت ذات مرّة مع دبّ في مهرجان ريفي، وأن الدبّ كان
راقصاً لا بأس به. حكّت لي إحدى الفتيات عن أشخاص خياليين وجزيرة
خيالية ابتكرتهُا بنفسها، ورسمتُ لها خرائط، وسنّت لها القوانين. لقد
أعطتني أولئك النساء ما يملأ كتباً من الحكايات!

في فهرس الخسارات ذاك، القصة التي ترويها العديداً هي قصة لم
تُسن بعد. في سجن كارم، بعد شهرين على وصولي، جاءت امرأة كربولية من
جزر المارتينيك، ترعرعت في مزرعة للعبيد. رافقها زوجها إلى كارم أيضاً،

ولكن اسمه أُدرج في القائمة. تلك المرأة ولدت باسم ماري-جوزيف-روز
تاشيه دو لا باجيرى، ولكنها تفضل أن نناديها بـ: روز.

روز امرأة مكتنزة، متجهمة قليلاً، جميلة ولكن جمالها ليس مبهرًا،
كتفاها مائلتان، شعرها أسود، حاجباها كثيفان، عيناها واسعتان، فمها كبير،
 وأنفها كذلك إن نظرتهم بدقة. إنها تبكي طيلة الوقت، وستدعي لاحقاً أنها
كانت شجاعة، وأنها واست السجينات جميعهن، ولكن ذلك ليس صحيحاً.
كانت مرتعبة، ومن يلومها؟! جلست معي، وبكت على كتفي.



«سأخبرك يا مدموزيل» تقول، «ولن أناديك بالمواطنة، لأن ذلك انتهى
للأبد. سأخبرك عمن أشتاق إليه أكثر من سواه، وهو ليس زوجي، مع أنني
أشعر بالأسف عليه، لكنه لم يكن دائماً عادلاً ولا مخلصاً. يؤسفني أنه مات،
ولكنني لا أستطيع استعادته. من أشتاق إليه أكثر من كل الناس ليس ابني، ولا
ابنتي. أنا أحبهما كليهما، حبّ الأم، ولكن هناك من يعتني بهما خارج أسوار
المدينة. لقد أرسلتهما للتدرّب على حرفة لحمايتهما، هورتنس تتدرّب عند
خيّاطة، ويوجين يتدرّب عند نجّار. إنهما بأمان الآن، ولكن من يدري كيف
سيتغيّران أو كيف سيصبحان؟ لا، من أشتاق إليه أكثر من الناس جميعهم،

سأخبرك: إنه كلبى، كلب بَغ. لا شيء أفضل من فورتون. أحب أن أراه وهو يحك أذنيه، أو يحرك مؤخرته، أو كيف ينام، وينبح، ويلهث، ويعطس.... فورتون هو من أشتاق إليه أشدّ الاشتياق، كلبى الحبيب».

بما أن كلبها لا يرافقها، لذلك سرعان ما بدأت تناديني بـ: بَغ. إنه نوع من الكلاب ذو أنف صغير... يا لها من مزحة! وكم تسلّت بها! تناديني ليلاً، ولا تصمت إلا إن جلستُ معها، كي تربّت عليّ وتمسح على شعري، ولم أمانع ذلك. أحياناً، تعطيني بعضاً من طعامها، وأنا أحتاج حقاً إلى طعام.

بل إنني قابلتُ فورتون! لقد فُتِن أحد الحراس بروز، فتدبّر لها أن يزورنا فورتون أسبوعياً، وزياراته تلك أعادت إلينا شيئاً من الحياة. إنه رفيق صغير مرح، مخلص لسيدته، ابتهجنا جميعنا برؤيته... ها هي ذي البراءة مجدداً! كلب صغير مسالم، وجهه حزين أسود، وعينه قلقتان كأنّه يفهم محتتنا، لكنّه نفعا، بأصواته الصغيرة، بانفتاحه، أنه لا يلو منا... نحزن عندما يغادر، ونتمنى أننا سنبقى على قيد الحياة لرؤيته في الأسبوع القادم. فلنحيّ حتى موعد زيارته التالية على الأقلّ، نقول!



ربّبت روز على رأسي وعلى بطني، لم تساعدنا بالتنظيف، لكنّها حدثنا أنا وبقية النساء أثناء انشغالنا بذلك. أظنّ أنني أحببتها نوعاً ما، كما أنّها وقعت في حبّ عسكريّ مسجون في الكارم، شابّ وسيم ترك سيفاً على جسده ندبةً مبهرة. أمضت معظم وقتها وهي تحاول أن تعتنى بمظهرها، وأن

تحافظ على جمالها في عيني ذلك العسكري ذي الندبة، واسمه لازار هوش. كان متأكداً من أنه لن يُعَدَم بالمقصلة، وثقته تلك أمدّت روز بالعزاء... وكم تزيّنت من أجله!

أنا أكبر روز بعامين، ولكنّ ذلك لم يكن واضحاً، كما أنّي عشتُ أكثر منها أيضاً. لقد ماتت بسبب تداعيات خلع نابليون بونابرت عن العرش عام 1814، ولم تكن قد بلغتِ الحادية والخمسين من عمرها بعد... ظننتُ أنها ستكون أقوى من ذلك! لقد شغلتنِي عن التفكير بالموت، في الأيام الأخيرة التي قضيتها في سجن كارم.

في الثامن والعشرين من تموز 1794 -أو العاشر من تيرميدور، السنة الثالثة- فُتح باب الزنزانة، ونادى الحارس: «آن ماري غروسهولتز». «أنا حبلى» أجبته، «انظر إلى بطني!». إن وضع أحدهم يده على بطني، فسيشعر سريعاً بركلة صغيرة، لكنّ الحارس نادى اسمي مرّة ثانية، وعليّ أن أذهب! حتّى الحبلى لم تعد بأمان الآن إذن، كما أعتقد. لم تصدمني هذه الفكرة بعد كلّ شيء، ولم تفاجئني. لماذا يجب أن أحصل على عفو؟! ما الذي يجعلني مميّزة للغاية عن سواي؟! يا طفلي، سنذهب معاً، لن أتركك، لا أستطيع أن أتركك.

اقتادوني عبر الدرج، إلى الطابق الأرضي. الهواء هناك أخفّ، وسبّب صدمة لرئتي. يداي قدرتان، ثوبي قدر، شعري قدر... ظننتُ أنني كنتُ أعطني بنفسِي، ولكنّ هذا لم يعد مهماً الآن بأيّ حال. تمسّكتُ ببطني، واعتذرتُ له. صعدنا الدرج، وخرجنا من مدخل الدير إلى الشارع الباريسي. هناك، قال لي الحارس، أحد أفراد الحرس الوطني: «من هنا أيتها المواطنة، من فضلك». «أنا حبلى!»

«أجل» قال، «لا تقلقي».

«ولكنني أشعر بالقلق فعلاً»

«لن يأخذوكِ إلى المحكمة»

«لا؟! حقاً؟!»

«كلّا أيتها المواطنة، كلّاً على الإطلاق. ستذهبن إلى مكان آخر».

الفصل السادس والستون

الفك المحطم

سمعتُ الناس يهلّلون في شارع رو سان أونوريه، وسمعتُ صخب العطلة! يا له من صوت! «انتهى كلّ شيء!» سمعتُ شخصاً ما يصرخ، «الطاغية انتهى!»، «الطاغية مات، وهم يعتقلون كلّ المقرّبين منه».

أخذوني إلى غرفة بالقرب من ساحة بلاس دو لا ريفولوسيون، حيث يتجمهر الناس بالقرب من أشياء ما موضوعة فوق طاولات. أشياء تشبه ما يوجد في دكان جزّار، لكنّها لن تُوزَن ولن تُؤكّل.

«رؤوس!» هتفتُ، «أنا أصنع الرؤوس! لا يرسلون بطلبي إلّا بعد أن تنتهي حياة الناس! ها هي ذي الرؤوس!».

«أجل»، أجابوني.

«رأس من هذا؟»، سألتُ.

«هذا» قالوا لي وهم يأخذونني بجولة بين تلك الرؤوس، «هذا هو رأس كوتون المعاق، اضطّروا إلى حرّ عنقه من الجانبين، ولذلك يميل هكذا. لقد داسه الآخرون في العربة، وسحقوه».

«وهذا؟»، سألتُ.

«هذا الخبيص كان أوغسطين روبسبير، الأخ. عندما أدرك أن المسألة انتهت بالنسبة له، رمى نفسه من نافذة عالية إلى الباحة. لا بدّ أن ذلك مؤلم! هشّم نفسه، لكنّه لم يمت، نحن أجهزنا عليه فيما بعد، بشقّ صغير في رقبتّه، بوسلك رؤيته. إلى جواره، يوجد هذا الأنيق، سان - جوست، إنّهُ نظيف جداً بالمقارنة مع البقية».

«وهذا هنا؟»، سألتُ.
«إنّه المعصوم شخصياً»



على هذه الطاولة، يوجد رأس ماكسيميليان روبسبير شخصياً. التقيته هناك، وليس قبل ذلك، ولم يتخرب هذا الرأس بسبب قطع عنقه فقط. تاريخي الشخصي يبدأ في بلد آخر، مع فكّ سفليّ آخر، مع ملكيّة عائلية ضاعت بسبب انفجار مدفع. هنا، نحو نهاية تاريخي ذاك، ثمة فكّ آخر مُحطّم، لكنّه لم يختفِ نهائياً بل ما يزال مرتبطاً بالوجه. الفكّ السفليّ الصغير يتدلّى من العلويّ، وقد مزّقه رصاصة. لقد حاول روبسبير أن يطلق النار على نفسه، لكنّه أخطأ الهدف وفشل بالانتحار.

لم يطلقوا سراحني من السجن بامتياز خاصّ، كي أتفرّج على حصيلة هذا النهار من الأعناق المقطوعة، وإنّما كي أعمل. هناك وفرة من الكلس، وكذلك الشمع، شمع عاديّ من ذاك المستخدم لصناعة شموع الإضاءة، من النوعيّة الأسوأ، لكنّه الوحيد المتوافر لديهم، حصلوا عليه بتدوين المئات من بقايا تلك الشموع. عليّ أن أصنع طبعات، كي تُعرّض في قاعة المؤتمر الوطني. وهو ما فعلته.

تطلب ذلك مني يومين.

«سيرغب الكثير من الناس» قلتُ، «برؤية هذه الرؤوس. سيأتي العديدون كي يتأكدوا من أنه مات. ألا تظنون ذلك؟ هذا رأيي، أنا متأكدة. سيأتي الناس طيلة عقود، كي يتفرّجوا على هذه الرؤوس».

عندما انتهيتُ، سألتهم ما الذي سيحصل الآن.

قيل لي إنني حرّة بالذهاب.

حرّة بالذهاب إلى أين؟! سألتهم.

إلى المنزل، قالوا لي، لِمَ لا تعودين إلى منزلك؟

«المنزل!» همستُ، «لم أفكر بذلك!».

سلكتُ الطريق الأطول، عبر الشوارع المتعرجة. لم أرغب أن أستعجل، لا أدري ما الذي سأجده بانتظاري هناك.

الفصل السابع والستون

قائمة سوداء صغيرة

أُتِمَّتْ لِي أَنْتِي جَوْفَاءَ، لَكُنْتِي مَلِيئَةً. أُتِمَّتْ لِي أَنْتِي جَوْفَاءَ، عَلَى أَحَدِهِمْ أَنْ يَفْرَغَنِي. لَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ أَعِدَّ قَائِمَةً، كَيْ أَسْوِيَ كُلَّ شَيْءٍ. أَجْسَادُ تَأْتِي، وَأَجْسَادُ تَذْهَبُ، عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَعَلَّقُوا بِهَا كَثِيرًا. عِنْدَمَا كُنْتُ فِي السَّجْنِ، اخْتَفَى النَّاسُ. عَلَيَّ أَنْ أَعِدَّ قَائِمَةً، حَتْمًا.

- شارلوت بيكو، ستون عاماً، امرأة عجوز ضاعَت.

قَائِمَتِي لَمْ تَنْتَهَ بَعْدَ، أَنَا صَغِيرَةٌ، أَنَا حُلْزُونٌ، لَا، أَنَا مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْجِلْدِ، أَنَا سُودَاءُ وَمَحْطَمَةٌ، أَنَا صَغِيرَةٌ جَدًّا وَسَمِينَةٌ جَدًّا. أَنَا أَجْهَظُ قَائِمَتِي، وَلَمْ أَنْتَهَ مِنْهَا بَعْدَ. فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ رَجُلٌ اسْمُهُ أَيُّوبُ، خَسِرَ عَائِلَتَهُ لَكِنَّ هَذَا لَمْ يَحْطَمْ مَعْنَوِيَّاتُهُ، امْتَلَأَ جَسَدُهُ بِالدَّمَامِلِ، ضُرِبَ، هُشِّمَ، لَكِنَّهُ تَابَعَ الْحَيَاةَ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ لِمَاذَا عَلَى الْأَرْجَحِ. أَنَا أَكْتُبُ قَائِمَتِي، وَهُوَ مَا لَمْ يَعِدْ مُؤَلِّمًا كَثِيرًا، قَائِمَتِي. اكْتُبِيهَا إِذْنُ!

عَدْتُ إِلَى نِصْفِ مَنْزِلٍ، نِصْفِ مَنْزِلِ الْقُرُودِ سُورِي بِالْأَرْضِ، إِمَّا أَنْ الدِّعَامَاتُ انْهَارَتْ أَوْ تَمَّ هَدْمُهَا. قَطَعُ الْآجَرَ وَالْخَشَبَ مَتَنَاثِرَةً فَوْقَ التُّرَابِ، كَأَنَّهُ كَانَ مَنْزِلًا مِنْ وَرَقِ اللَّعْبِ. مَنْزِلُ الْقُرُودِ الْكَبِيرِ، طُمُوخٌ مُحْطَمٌ. انْهَارَ جِدَارَانِ كَامِلَانِ مِنَ الْآجَرِ، وَكُشِفَا عَنْ الْهَيْكَلِ الْخَشَبِيِّ الْأَصْلِيِّ الْعَتِيقِ الْمَتَدَاعِي. انْتَرَعَتِ الْبَلَاطَاتُ الْحَجَرِيَّةُ وَسُرِقَتْ، لَا وَجُودَ لِلْسُورِ، وَلَا لِحِجْرٍ هَنْرِي بِيكُو. فِيمَا مَضَى، عَمَّ الْأَمَلُ هَذَا الْمَكَانَ، عَمِلَ الْكَثِيرُونَ هُنَا، وَزَارَنَا الْكَثِيرُونَ. فِيمَا مَضَى، كَانَ هَذَا أَكْثَرُ اسْتِعْرَاضَاتِ الْبُولِيْفَارِ، بَلِ الْأَعْظَمُ فِي بَارِيْسَ.

وقفتُ صامئةً أمام المنزل.

«إدموند» همستُ، «أنا هنا في المنزل».

لا، لا جواب.

«إدموند!»

لا جواب.

ما الذي حصل في غيابي؟!

عرفتُ ماذا جرى لاحقاً، من خلال سجلّات «الحكومة الإدارية لمنطقة نهر السين». ملأْتُ الفراغات، وفهمتُ.

أولئك المسؤولون عن حيننا، قادة القطاع، أفراد الحرس الوطني، الوطنيون القدماء -آندريه فالنتان كما أعتقد، ولكنني لم أستطع إثبات ذلك- دمّروا منزل القروء الكبير. لطالما كرهوه! طوّقوه، وبدؤوا بهدمه. لم يكن ذلك صعباً، انهارت الدعامات بسهولة، زعق المنزل وتآوّه كأنّ القروء ما زالت بداخله. حطّموا كلّ شيء، كلّ الخزائن، كلّ الصناديق، كلّ الدروج، كلّ الغرف، في الطابق العلويّ والطابق السفليّ، في الداخل والخارج، في الأعلى وفي الأسفل. تجوّلوا في بيت الدمى وكسّروه، لأنّهم أرادوا إيذاء أشخاصنا الشمعيّين. جرّوا بعض التماثيل إلى الخارج، رقصوا معها في الشارع ثمّ حطّموها وتركوها على الأرض. قلبوا وجرّوا كلّ شيء، باستثناء الغرفة التي ملأناها بالجصّ. ما زالت سليمة، لأنّهم لم يكتشفوا وجودها. وفي الأعلى؟!

عند أسفل الدرج، وجدتُ الدمية التي صنعها لي إدموند، متداعية هناك، لا حول لها ولا قوّة. ساقاها مقوّستان للخلف بطريقة لا تصدّق، تنوّرتها مرفوعة، رأسها مهشّم من إحدى جهاته، وإحدى يديها ملتوية للخلف كأنّها تريد الاحتماء، كأنّها لا تستطيع أن تنظر.

تسلّقتُ الدرج إلى العلّية، أو ما بقي منها، فقد انهار الجزء الأكبر من سقفها. عندما فتّشوا المكان ثملين مهتاجين، عندما نبشوا منزل القروء الكبير، بقي الأخوة والأخوات بينكو في العلّية، هادئين، صامتين. فجأة، هاجمهم

رجال كثيرون قساة، رموهم أرضاً، جرّوهم، وهم يضحكون. يا لها من تسلية! انتزع الرجال عوارض السقف، ورموا الأخوة والأخوات بيكو من النوافذ. تكسّرت الدمى على الأرض وهي تسقط بعضها فوق بعض. تأوّهت جدران الطابق العلويّ، تداعى الخشب، من ثمّ... دمية دافئة!

«هسس» قالت الدمية الدافئة لقائد القطاع، «أنا دمية خياط».

حدّق إليها قائد القطاع

«هسس» قالت الدمية، «أنا أبقي صامته».

جذب قائد القطاع قماش الخيش، فصرخت العلّية.

«أنا مصنوعة من الخشب والقماش والقطب. رأسي مصنوع من عجينة الورق الملون. أنا قماش، أمعائي من نشارة الخشب»

الخشب يتداعى

«إذن، لن يؤلمك هذا، أليس كذلك؟»

هل حصلت الأمور هكذا؟! هل فضحته أذناه؟! كان من الممكن أن يبقى نموذجاً لآلاف من الدمى بعد! لم يصرخ، أنا متأكّدة. لا، لعلّه صرخ! لعلّه ناداهم وهم يجرّونه إلى الأسفل: «اسمي إدموند هنري بيكو! إدموند هنري بيكو! لا تنسوا»، أو لربّما في النهاية، بعد الكثير من التركيز، تحوّل كلياً إلى دمية خياط. أخوته وأخواته محطّمون، ووسط كلّ تلك الأجزاء والقطع، وسط الأطراف والرؤوس المهشّمة والصدور المنخسفة، ثمة دمية أثقل من سواها. لعلّه لم يفتح فمه بكلمة، ولم يعرفوا قط أنهم يرمون شخصاً حيّاً من النافذة العالية، إلّا بعد أن ارتطم بالرصيف وسال دمه. حياتي أنا اندلقت أمام المنزل، ولم يعد إنقاذها ممكناً. ملأت الفراغات، هل هذا ما حصل يا ترى؟ أم أنّ العلّية المتداعية أصلاً بدأت بالانهيار، فقفز إدموند مرتاعاً من النافذة، من تلقاء نفسه؟

أعطوني السجلّ في مبنى «الحكومة الإداريّة لمنطقة نهر السين»: «رجل سقط من نافذة مبنى، طوله خمسة أقدام وخمسة إنشات وثمان الإنش. مجهول الاسم». لقد تدرّب إدموند على الاختفاء طيلة حياته، هذا هو كلّ شيء، وها هنا تنتهي حياتي الشخصية.

- إدموند هنري بيكو، تسعة وثلاثون عاماً، صانع مانيكانات

انكمش المنزل إلى جزء من حجمه السابق، ملحق البناء الذي تمّ تشييده فوق أرض مقهى الشطرنج، انهار بأكملة. قائمتي، لم أنته منها بعد، ولكن لا بدّ لي من ذلك.

ذهبتُ إلى مستشفى سالبترير. هناك، بين الأسرّة المزدحمة بالمرضى، وُلِدَت طفلي، لكنّها لم تصرخ. شعرتُ بنشوة في أعماقي، فعرفتُ أنني وقعتُ في الحبّ. لديّ طفلة، قلتُ، إنّها معجزة! يدان صغيرتان، ساقان صغيرتان، بطن صغير! شفتاها رقيقتان جدّاً وحمراوان، ولها ذقن آل غروسهولتز، ها هو ذا مجدّداً، لكنّها لم ترث أنف آل والتنر، بل أنف إدموند الصغير غير المميّز. ابنتي الحبيبة، لم تكن أمامها فرصة، هذا المخلوق الصغير الذي صنعته. وُلِدَت بلا حياة، طفلة ميتة لا تتحرّك. أخذوها منّي بعيداً.

- ماري شارلوت غروسهولتز، مولودة.

العالم مكسور، قلتُ، ومتصدّع. بعض الأشياء مفقودة منه، ولن تُستعاد على الإطلاق، هذا مستحيل. عندها فقط فهمتُ -على العكس من الأرملة التي لطالما فهمت هذا- أن العالم مليء بالثغرات، وأنّ هذه الثغرات لي. لعلّي عاجزة عن جعل أيّ شيء يحيا، أنا متأكّدة من أنّ الذنب ذنبي، أنا قادرة فقط على خلق أشياء تشبه الأحياء، ولها حجم الأحياء. ماذا تتوقّعون من أب كان دمية خياط، أكثر من كونه رجلاً؟! ماذا تتوقّعون من أمّ أمضت معظم حياتها مع نسخ عن البشر، عوضاً عن البشر الحقيقيين؟! عدتُ إلى المنزل.

الفصل الثامن والستون

لا توجد ولو عظمة واحدة!

اعتكفتُ في المنزل، كلّي زوايا، كلّي كسور. سمعتُ الباب يُقَرَع، اعتقدتُ أنهم أطفال الحيّ وقد جاؤوا كي يغيظوني مجدّداً، ولذلك لم أفتح، لكنّ الباب فُرع مجدّداً، ليس بقوة على عادة الأطفال، بل طَرَقَات ناعمة خافتة، أشبه باعتذار. لا تشبه الطَرَقَات الصغيرة التي سمعتها في مسبك لويس صانع الأقفال، بل طَرَقَات -بدأتُ أفهم- من التعاطف، من الحبّ. ذهبتُ إلى الباب، وفتحته قليلاً.

سيّدي، كورتيوس!

الدكتور كورتيوس وتلميذته معاً، من جديد! وقفنا فحسب، في جهتين متقابلتين من اللوح الخشبيّ الذي وضعته هناك بعد أن تداعت الدرجات. حدّق كلُّ منّا إلى الآخر، حدّقنا فقط، هو عند أحجار الباحة القديمة المكسورة، وأنا عند عتبة الخراب الذي أعيش فيه. ربّما حدّقنا لبضع ثوان فقط وربّما أكثر، دقائق، أو عشرات الدقائق. يا له من غذاء للعيون! لقد كان في مستشفى أوتيل ديو -ذلك المكان الذي حدّثني عنه مرسبييه، خلال نزهاتنا المطبخيّة في باريس- ولذلك غاب طويلاً. مرض مرضاً شديداً، إلى حدّ أنّهم أخرجوه من السجن خشية انتقال العدوى إلى بقيّة السجناء، كي لا يموتوا في السجن قبل أن يؤخّذوا إلى المقصلة. نقلوه إلى أوتيل ديو، حيث تعفّن هناك بين الرجال المتضوّرين جوعاً، لكنّه على العكس من كلّ التوقّعات، لم يمّت! بل بقي حيّاً يوماً بعد يوم. أخيراً، ببطء شديد، بينما مات الآخرون من حوله، بدأ يتعافى. حين تحسّن بما يكفي واستطاع أن يمشي،

أرسلوه إلى المنزل، مواطناً حرّاً. عجوزي الحبيب! شديد النحول، عليل،
لكنّه حيّ! إنّهُ جذر مرتجف يابس عديم العصارة، ولكنّه يتحرّك ويتكلّم.
«أهلاً بك، يا سيّدي»، قلتُ.

«هل يمكن أن تكوني... صغيرة؟! آمل أنك كذلك!»

«أجل» أجبتّه، «إنّها أنا بكلّ تأكيد».

«ها نحن أولاء إذن، أنا وأنت!»

«هلاً دخلتَ يا سيّدي؟»

«أجل أجل، أعتقد أنني سأدخل»

ودخل، فأغلقتُ الباب الذي لم ينطبق كما يجب.

«المكان معتم كثيراً، يا ماري!»، قال.

«سأجلب شمعة»

«آه ضوء، ضوء في العتمة!»

ثمة أمر آخر يشغل باله، رأيْتُ الرعب في وجهه، لكنّه لم يسألني مباشرة.
جلسنا معاً، وتحدّثنا عن هذا وذاك كي نقتل الصمت. بعد نصف ساعة،
استجمع شجاعته وسألني بصوت خافت لا يكاد يُسمَع، عن الأمر المهمّ:

«يا صغيرة، يا ماري، أين هما؟ هل خرجا؟ متى سيعودان؟!»

هزرتُ رأسي

جلسنا صامتَيْن لفترة طويلة

«أين إدموند؟ إنّهُ بالتأكيد... في الأعلى؟!»

«لا. أتمنّى لو أنّه هناك، لكان ذلك رائعاً»

«آه يا إلهي!» قال متنهّداً، «كان صانع دمي ممتازاً!».

«بالفعل يا سيّدي»

«يا فتاتي المسكينة!»

«أجل يا سيّدي»

«وأنتِ يا ماري؟ ماذا عنكِ؟ وتلك الحياة الجديدة التي ستبدأ؟»

هزرتُ رأسي

«لا يوجد ولو عظمة واحدة» قال وأصابعه تتحرك وتشرح من تلقاء ذاتها،
«قادرة على أن تواسينا»

ساد الصمتُ، من ثم:

«وهي أيضاً؟!» سأل بسرعة خاطفة، «على الأقلّ ليس هي! قل لي إن
الأرملة لم تمت، قل لي هذا!».

«بلى، حتّى الأرملة»

أغمض عينيه

«ولكنّها كانت مريضة! معطوبة!»، هتف.

«أنا في غاية الأسف!»

«ظننتُ أنها قد تكون حيّة! لا أحبّ أن أتساءل... ظننتُ أنها لن... يا
لل هول! يا للهول!»

تكوّم على نفسه في كرسيّه، وارتعش وجهه قليلاً، غمرته موجة من ردود
الفعل المتوتّرة، ارتجفت أجفانه، وزمّ شفّتيه. من ثمّ... لا يسعني أن أصف
ما تلا ذلك، إلّا على أنّه ضجّة مبنى ينهار بأكمله، طوابق تسقط فوق طوابق،
أكوام هائلة من الأنقاض، من الحطام، من الأغراض الثقيلة التي تنزلق
وتندحرج وتتكوّم... هذه الأصوات فقط هي ما خرجت من أعماق سيّدي،
لكنّه بقي جالساً. على الرغم من العرق الذي غمر جبينه، من السائل الأسود
الذي ينزّ من إحدى أذنيه، من فقدانه لبصر إحدى عينيه على ما يبدو، لكنّ
كومة الخراب هذه ظلّت تنفّس. لعلّ جوّ الغرفة بارد، لكنني رأيتُ سحابة
غريبة من الهواء المغبّر تخرج من فمه ما إن فتحه.

ها نحن أولاء، في منزل القروء المتداعي.

«هل نفعتنا في نهاية المطاف، يا صغيرة؟! أقصد أجزاء الجسد تلك،
ليس نماذجنا ولا تماثيلنا الشمعيّة، بل الأجزاء البشريّة. هل عشنا معها زمناً
طويلاً؟! لعلّها تنادينا الآن!»

ولكنّها ليست النهاية، ليس بعد، لقد تابعنا حياتنا أنا وكورتيسوس، وقطعنا
مسافة صغيرة للأمام. بقينا متلاصقين، لم يرغب أيّ منّا أن يتحرّك وحيداً
كي لا تنفرد به أشباح أشخاصنا المفقودين، هنا في هذا المنزل حيث عاشوا

جميعهم. مضينا، تعثرنا، ولكننا تابعنا طريقنا. رتبنا، كنسنا، ووجدنا أزراراً هناك بين الأنقاض، سددنا فجوات المنزل بستائر من الجفاف. بعد وقت قصير، استجمعنا شجاعتنا بما يكفي كي نفتح بعض المصاريع. بدأنا بالعمل على الغرفة المليئة بالجنس، التي نجت لأنها كانت في غاية الصلابة. كسرتها، إلى أن وصلنا إلى القماش المشبع بالقطران، كل تلك القوالب ما تزال سليمة، آمنة. مع ذلك، رأس الملك الذي أخذنا له طبعة بعد أن مات، سيبقى بلا تمثال.

لقد بدأ كل شيء بي وبكورتيسوس، واستمر هكذا. بعد شهرين من عودة سيدي، فتحنا المكان مجدداً للزوار، وعرضنا بضعة تماثيل شمعية حقيرة، بعد أن حصلنا على إذن باستعمال قوالب رؤوس روبسبير وأتباعه. الدكتور كورتيسوس يتصور جوعاً إلى الناس، لطالما كان كذلك، وهو ما أبقاه حياً.

«لقد كنت معي دائماً!» قال لي، «نحن رفيقان! أنت تقومين بعمل الأرملة، بالكفاءة ذاتها تقريباً. ليس صائباً أن تخاطبيني بسيدي، ليس بعد الآن. أشعر بالخجل من نفسي! لذلك، ربّما، إن ناسبك هذا يا صغيرة، إن لم شعري بالاشمئزاز يا ماري، إن لم تعلق الكلمة في حنجرتك... بما أنك في نهاية المطاف لا تملكين أمّاً، بل مجرد دمية من القطع الخشبية، وليس لديك أبٌ بل صفيحة فك معدنية، لماذا لا تعدينني بمنزلة عمّ لك، وتناديني بعمّي؟!».

«عمّي؟!»

«أجل، عمّ»

«لا يا سيدي، لا أظن أنني أستطيع ذلك!»

«لا؟ حسناً، ربّما مع مرور الوقت»

«سيدي، هل ستدفع لي أجوري الآن؟»

«حسناً، أودّ ذلك»

حطّم الناس تماثيل مارا، إنهم يشمئزون الآن من عرضها في منازلهم. بُشّت رفاته من البانثيون، وألقيت إلى كومة من الروث. مارا الشمعي ما يزال معروضاً لدينا، مارا الذي اغتيل في الحمام، الذي صنعناه أنا وإدموند، ولكننا وضعنا فوقه لافتة كبيرة:

وحوشكم في الداخل

لم يزرنا الكثيرون، وهم معذورون، لأنّ كلّ شخص لديه ما يكفيه من الوحوش! ابتكرنا اسماً جديداً لمنزل القروء:

منزل العدالة

ومع ذلك، لم يأت سوى القليل من الزبائن يومياً. «لماذا» يسألوننا، «يتوجّب علينا أن ندفع مالاً لرؤية رأس روبسيير، بعد أن حكم على أمّهاتنا وآبائنا وأبنائنا وبناتنا بالموت؟!». لم نعرف ما هي الإجابة الملائمة، ولذلك سمح سيّدي للعديدين بالدخول مجاناً، وهو تصرّف ما كانت الأرملة لتوافق عليه قط. ليس لدينا الآن كلبٌ حارس، ولا يحمينا أحد عندما يستهزئ الناس بنا في الشوارع، وكلّ ما نستطيع القيام به هو المضيّ قدماً. رشقنا الأطفال بالحجارة، ودفعوا كورتيوس أرضاً... يحسبنا بعض الناس مذنبين على ما يبدو! مع ذلك، لم يفقد سيّدي إيمانه بعمله مطلقاً. «إنّها مجرد مرايا يا ماري!» قال لي، «مجرد مرايا. إنّها ما نصنعه، وهكذا كان المنزل دائماً. إنّهم لا يحبّون انعكاسهم في المرايا، يخجلون ممّا يرونه».

استمرّ عملنا على هذه الوتيرة، حتّى الساعات الأخيرة من الخامس والعشرين من أيلول. في الساعات الأولى من السادس والعشرين من أيلول، سمعتُ سيّدي يصفق ليلاً... وإلاّ لمضى موته بصمت، كما مات والدي. لم ينزل في الصباح، جلسْتُ على الدرج لبعض الوقت، كما فعلتُ عندما ماتت أمّي. أخيراً، صعدتُ إليه.

«انهض يا سيّدي، انهض. ألا تعرف كم الساعة؟»

لم يسمعي

«افتح عينيك على الأقل! تستطيع أن تفتحهما، أليس كذلك؟ هذا ليس مطلباً عسيراً! دعني أرّ عينيك مرّة أخرى، إنّهما زرقاوان، أعرف هذا»

رجل عنيد!

«مجرد صوت، ضجّة بسيطة، هذا كلّ ما أطلبه منك يا سيّدي، من ثمّ سأتبسّل خارجاً وأتركك بمفردك إلى وقت لاحق. هل قلت شيئاً؟ حاول مرّة أخرى! لقد تحرّكت، أليس كذلك؟ لا تتركني وحيدة يا سيّدي، يجب عليك

ألا تتركني وحيدة، هذا ليس لطيفاً. ماذا لو هزرتك قليلاً؟ آخ يا سيدي، يا سيدي! أنت ساكن تماماً، ماذا سأفعل الآن؟!».

ولكنني كنت أعرف أنه ميت، غسلت وجهه، مشطت ما تبقى من شعره للخلف، ودهنت عليه بعض الصابون الطري. مزجت الكلس، لا لزوم للقصبتين. يا للغرابة! هذا الرأس ما يزال متصلاً مع الجسد، جسده موجود! لقد نسيْتُ كيف يكون ذلك! طبعة ما بعد الموت لفيليب ويلهيلم ماتياس كورتوس، الذي وُلِدَ في بيرن عام 1749، وتوفي في باريس عام 1794، أعظم رجال الاستعراض الباريسيين، المؤرخ، صانع الناس، عاشق الأرملة، وأفضل خبير تقريباً بأجزاء الجسد البشري، الذي لم يشارك جسده مع أحد قط، كورتوس العظيم.

«سأناديك بعمي الآن» قلت، «يا عمي».

بناء على القانون الثوري، أقيمت جنازته في منتصف الليل، من دون أية مراسم دينية. لم يحضرها الكثير من المشيعين، بل بعض الحزاني الكئيبين. جاء أحدهم محمولاً في عربة يدوية، إنه لويس - سباستيان مرسية، الذي تم إطلاق سراحه من السجن بعد موت روبسبير، كالعديد سواه من المساجين. سطع ضوء باريس عليه، لكن هذا الرجل المسكين كان أعمى. عيناه ما تزالان سليمتين، لكنه لا يرى سوى الماضي فقط، ولم يعد يفهم باريس. هذا المكان الجديد كما قال، غريب عليه.

خلال فترة احتجازه الطويلة، لم يخلع مرسية حذاءه المحبوب من قدميه على الإطلاق. في البداية، تمشى به في أرجاء زنارته يومياً، من ثم، جلس في الزاوية وكفَّ هو وحذاءه عن المشي. زنارته كانت رطبة، تقطر ماء، والقش الذي نام عليه لم يُنظف كما يجب. خلال فترة الخمول المديدة تلك، اختلطت نزعات الماضي في عقله وتاه في أفكاره، وأخذ حذاءه يتعفن. تداخل جلد حذائه مع جلد قدميه، وانسدل كاحلاه المتورمان فوق فتحة الحذاء. من ثم، تلاحم الحذاء والقدمان بمرور الوقت. عندما داس أرض باريس، شعر بألم ممزق لا يطاق، وتوجب عليهم أن ينقلوه محمولاً من زنارته. أراد الأطباء أن يجروا له عملية جراحية كما أخبرني، كي ينتزعا

الحذاء من قدميه، لكنّه لم يوافق. لقد جاء كي يودّع الدكتور كورتيس، ودعاني إلى الإقامة معه في منزله، كي أصبح حذاءه، كي أخبره بماذا أرى وأنا أتجوّل في باريس الجديدة. شكرته، ورفضتُ عرضه.

مسيو جيبييه محامي سيّدي -رجل أشبه بفأر الحقل- كان من أبلغني بالوصيّة، وبتفاصيلها. «كلّ شيء لشخص واحد» قال، «لك!».

لي؟! لصغيرة؟! لأنّ ماري غروسهولتز؟! هل أنت متأكّد؟! كلّ شيء؟! لا، هذا ليس صحيحاً، دعني أر الوصيّة مجدّداً، هذا مستحيل! قل لي الآن، هل تكذب عليّ؟! أنا ضحيّة سهلة، لا يجب أن تكذب عليّ، لن يعدّ ذلك انتصاراً عظيماً! اقرأها بصوت عالٍ، أرجوك!

«إلى آن ماري غروسهولتز، صنوي في الفن»

غطيتُ فمي بيدي

«إنّها أنا! إنني هي! لقد دفع أجوري! لقد دفع أجوري أخيراً!»

لديّ منزل، عمّي وهبني منزلاً!

«ولكن» قال جيبييه، «هناك ديون»

كان سيّدي مديناً بالمال لطبيب جرّاح، لخياطين اثنين، لصانع أقفال، ولمورّد الشمع، فضلاً عن أنّه لم يسدّد ضرائب العام الفائت. مجموع هذه الديون يبلغ خمسة وخمسين ألف ليرة. مبلغ هائل! مبلغ لا يُعقل! قد تغرقون في مبلغ كهذا!



الفصل التاسع والستون

بورتريه لأن ماري غروسهولتز بريشة لويس دافيد، السنة الثالثة

لقد وصلتُ إلى النهاية تقريباً، مع عمل صغير أديره. بحثُ في كلِّ مكان عن أحد أعرفه، لكنَّ الجميع رحلوا. وجدتُ ذات مرّة فطيرة على درجات منزل القروء المكسورة، أعرف أن فلورنس يبيلو تركتها هناك من أجلي. هل هذا اعتذار؟ ركلتُ الفطيرة إلى الوحل، ولم أرَ فلورنس ولا فطائرهما مجدداً بعد ذلك. أنا ربة عمل، أنا شخصيّة بارزة، ولديّ بورتريه شخصيّ أيضاً، رسمه لي جاك لويس دافيد، عندما كان مسجوناً في قصر لوكسمبورغ.

كنتُ بين القلائل الذين زاروه، ولم يجد ما يرسمه سواي. لم أمانع ذلك، أنا امرأة صغيرة تتشعّ بالسواد. وضعتُ مارتا في حضني، ماري شارلوت الصغيرة هي من يجب أن تجلس في حضني، ولكنَّ مارتا تقي بالغرض. أصررتُ على أن يرسمني ويديّ تغطيان وجهي، لستُ مستعدّة بعد كي يحدّق الناس إليّ.

احتجّ دافيد أنه لا يستطيع رؤيتي كما يجب، وأن وجهي كلّ مغطى.

«راجاءااا»، قال.

لكنني تشبّثتُ بموقفي، أصررتُ على أن يرسمني بلا ملامح كالدمية في حضني، عدد لا نهائيّ من الوجوه يقبع تحت وجهها.

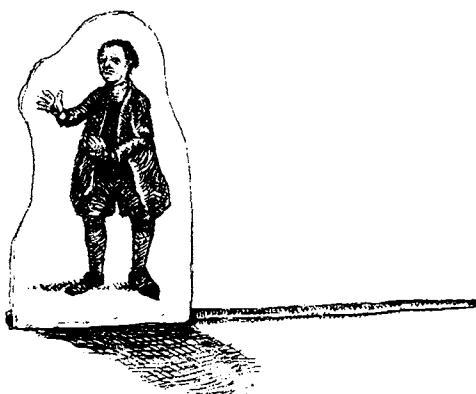
استقرضتُ المال من مورّد الكلس، عمله في نهاية المطاف هو عملي أيضاً، لكنّ المبلغ لم يكن كافياً. يجب أن أتصرّف بذكاء، أنا في الرابعة

والثلاثين من عمري، ولديّ عمل، سأخسر كلّ شيء لو لم أتصرّف بسرعة. منزل القروء، هذا الخراب، ليس مبهجاً للنظر. بعثُ الأرض على جهتي البناء القديم، وقام المشترون بترحيل الأنقاض. بعد فترة، فكّرتُ، سأعرض بعض التماثيل الشمعية القديمة مجدداً على نحو لائق، وستستعيد شعبيّتها بمرور الوقت.

بقيتُ وحيدة، مع دمية متجر تشبه إدموند. فكّرتُ أنني سأبقى هكذا، بقلنسوتي القطنية المربوطة، ولكنني لا أشبه الأرملة بعد كلّ شيء. ثمة الكثير ممّا يجب عمله، وأنا بمفردي، لا يمكنني البقاء ساكنة. اليائسون يتخذون قرارات سيئة، وهكذا:

كي أنقذ نفسي، لجأتُ إلى حلّ شائع: تزوّجتُ.

لقد انتشرت أخباري، الناس يعتقدون أن كورتوس جنى ثروة طائلة. هذا ليس صحيحاً بالطبع، ولكنه كان مالك منزل القروء، وأنا وريثته. توافد الرجال لزيارتي، الناس يتضوّرون جوعاً، والفرص نادرة. عرض أحدهم عليّ دفتر حسابات، ومخططات هندسيّة مرسومة بالحبر... ربّما!



في الخامس من تشرين الأوّل 1795، اندلع القتال في الشوارع من جديد. في اليوم التالي، مُنح جاك لويس دافيد عفواً. في الثامن والعشرين من الشهر ذاته، في مبنى «الحكومة الإداريّة لمنطقة نهر السين»، في مدينة باريس، في

غرفة صغيرة قدرة خالية من الزينة، فيها صفوف من المقاعد يجلس عليها شهود، وعرائس وعرسان بلا زينة، ينتظرون جميعهم أن يُنادى عليهم كي يسجلوا زيجاتهم. هناك، تزوّجت آن ماري غروسهولتز بفرانسوا جوزيف توسو. «إنّها مسألة عمل لا غير!» قلتُ للمواطن توسو. المواطن توسو، وهو يدسّ دفتره في جيب جاكيتته العلويّ، وافقني الرأي.

المواطن توسو، زوجي. إنّها ليست قصّة سعيدة، ولعلّ الذنب يقع على عاتق أبويه. عندما كان طفلاً صغيراً، أخذه إلى المسرح، فوقع في غرامه! المسرح جعل فرانسوا الطفل يحلم، ولم يتمكّن من نسيان أحلامه بعد أن أصبح راشداً. كأولئك الذين لا حصر لهم، والذين فتنتهم مشاهد الخشبة وشخصياتها، حطّمته الأضواء والجمالُ شيئاً فشيئاً. لم يعرف حقّاً ماذا يوجد خلف الخشبة، لم يتكبّد قطّ عناء الذهاب خلف الباب الذي يحمل لافتة: «غرفة خاصّة». لقد أحبّ المسارح المصنوعة من الكرتون، ولعب بها. إنّهُ رجل لطيف، هذا صحيح، ولكنّه عديم الفائدة. لا أتذكّر ملمس شاربيه، لا أتذكّر صوته في الردهة، لا أتذكّر كيف قرع باب غرفتي، الغرفة التي شغلها سيّدي فيما مضى، ولكنني أتذكّر رؤية حساباته المصرفيّة، وأتذكّر كيف ملأني ذلك بالرعب! ببساطة، لقد كذب عليّ، وكنتُ غبيّة بما يكفي كي أصدّقه. حظّ تعيس!

مع ذلك، لقد نجوتُ! استمرّت حياتي بطريقة ما أو بأخرى، نهضتُ كلّ يوم، يجب عليّ ذلك. أنا والمواطن توسو لم ننم في الغرفة ذاتها، ولكنّه مكث معي في منزل القروء، وجاء إليّ بين حين وآخر طالباً مساعدتي، ولم أطرده قطّ.

توقّع منّي أن أكون المسؤولّة عن كسب المال، وأن أملك نقوداً على الدوام. أعطيته مصروفه كما يعطي الأهل أبناءهم، فأنفقه كلّهُ على بطاقات عمل أنيقة. «الآن» قال لي، «سيسير كلّ شيء على ما يرام سترين»

فرانسوا جوزيف توسو

مهندس مسرحيّ

هذا الوعد كان من الكرتون أيضاً. سيخرج فرانسوا توسو من المنزل مشبعاً بالأفكار العظيمة صباحاً، لكنه سيعود في المساء مهزوماً ثملاً. ثمة طفل جديد ينمو في أعماقي أيضاً، لم أتوقع أنه سيحيا، ولم أفكر به بتاتاً في البداية، لم أجرؤ على ذلك. حاولت أن أحت فرانسوا على التصرف بطريقة عقلانية أكثر، لكنه غرق في المزيد من الديون. حاولت أن أعلمه صناعة التماثيل الشمعية، لكنها لم تثر اهتمامه. لن يعمل من أجل خزانة العجائب، بل سيقاسمني أرباحها فقط! عثر على النقود حيشماً خبأها -إن كانت لديه موهبة، فهذه هي!- وأنفقها، من ثم بكى أو صرخ بوجهي. منزل القروء بحاجة إلى المزيد من الناس، لكن الناس يكلفون مالاً، ففكرت أنني سألد جيشي الخاص. من الخطير حتماً أن تنجب المرأة في سن الرابعة والثلاثين، ولكن كان من الخطير أيضاً أن أترك في عهدة الدكتور كورتوس في سن السابعة، وكان من الخطير أن يأتي الدكتور كورتوس إلى باريس.

من ثم، اللهب الجديد، الحظ الجديد الرائع اللامعقول، النار الجديدة! واحد، من ثم بعد فترة، الثاني.



فرانسوا الصغير

وُلدَ فرانسوا الصغير عام 1798، أمّا جوزيف الصغير فولد عام 1800. يملكان كلاهما أنفًا والترياً وذقناً غروسهولتزياً، لا تخطئها العين! لديّ صحبة مرّة أخرى! علّمتهما، كما علّمني كورتيوس وإدموند، كلّ ما أعرفه عن العالم، وانفتحت نافذة أمامي أنا أيضاً. بكى المواطن توسو أمامهما، وناغاهما، لقد أحبّهما! تحرّك هذان الصبيّان الصغيران، وأصدرا ضجّة، وأرضعتُهما أمام تماثيل الشمع.



جوزيف الصغير

حتّى إنّنا نعمنا بالسعادة لوقت قصير، مع هذه الصحبة الجديدة الرائعة! لكنّ العمل لم يسر كما يرام. لا بدّ لي من أن أضمن مستقبل منزل القروء، وكذلك مستقبل الصبيّين. بعمر الرابعة، بدأ فرانسوا الصغير بمساعدتي في العمل، غرز الشعرَ في الرؤوس الشمعيّة، مزجّ الكلس بالماء، وأشعل النار، تماماً كما ساعدتُ كورتيوس من قبل.

«ما يزال في الرابعة من عمره فقط!»، احتجّ المواطن توسو.

«عليه أن يعمل» قلتُ، «أنت لا تمنع العمل، أليس كذلك يا فرانسوا

الصغير؟»

«لا يا ماما. لتتابع العمل من فضلك»

صبيّ صغير طيّب!

«إلى أين نذهب يا ماما؟»

«إلى قصر تويليري»

«حيث عاشت الأميرة إليزابيث؟!»

«أجل، لفترة قصيرة، هذا صحيح. أحسنت يا فرانسوا الصغير!»

«ولكنّها الخامسة فجراً!» تذمّر المواطن توسو، «الصبيّ بحاجة إلى

النوم. تعال يا رجُلِي الصغير، سأعيدك إلى السرير»

«لا أيّها المواطن توسو» قال الصبيّ الصغير لوالده، «سأذهب مع ماما».

لوبيقي في سريرهِ، لما التقى بنابليون!

الفصل السبعون

تمثالي الفرنسي الأخير

وضعتُ خطة خطيرة، كنتك التي وضعتها الأرملة عندما نقلتُنا إلى منزل القروود. لم أخبر أحداً بها بعد، ولكنّها تكبر بداخلي. الانتقال إلى منزل القروود كان خطوة جنونيّة حالمة، وكذلك جمعُ كلّ تلك الشخصيات الشهيرة والنكرة معاً. اختاري بين الجرأة، وبين الإفلاس يا ماري! بدأتُ بجمع تلك الشخصيات مجدداً، أردتُ أفضل الأمثلة عن الفرنسيين، واعتنيتُ بنفسِي. بقي اسم واحد فقط على قائمتي، وعلى قائمة كلّ الناس. التمسْتُ معارفي، سعياً للوصول إلى نابليون.

القنصل الأوّل - هكذا كان لقبه آنذاك - تزوّج بامرأة من معارفي: روز الباكية من سجن كازم! كتبتُ لها رسالة، ووقعتها بـ «بغ، مع كلّ الحب». لن يكون هذا سهلاً، أجابتنِي، لأنّه لا يملك وقتاً لأُمور كهذه، ولكنّه يحبّ روز حباً جمّاً، على الرغم من أنّه يفضّل أن يناديها بجوزفين.

قَبَلتني روز، وربّت بحنان على أنف فرانسوا الصغير، بينما تقافز كلبها فورتون حولنا... وها هو ذا القنصل بونابرت! «اقتربي» قال، فاقتربتُ.

«ليس أنتِ» قال، «بل الآخر، مستقبل فرنسا».

دفعْتُ فرانسوا الصغير إليه، فتقدّم منه وهو يزِم شفّيته الصغيرتين. اقترب منه نابليون، ووضع يديه على كتفي ابني، ونظر إليه. وقف فرانسوا الصغير بثبات، من ثمّ صاح، لا خوفاً وإنّما من البهجة! فرانسوا الصغير تضحكه أغرب الأمور!

فرانسوا الصغير، ابني البكر، على الرغم من أنه ليس مولودي الأول، سيروي هذا الحكاية فيما بعد، إنها جزء من أسطوره، وسيتباهى بها أمام زملاء مدرسته، على الرغم من أنهم لم يصدّقوه بتاتاً.



«هل أنت أمّه؟»، سألني نابليون.
«أجل يا سيدي» قلتُ، «أليس هذا واضحاً؟».
«إنّه شجاع، يلزمنا الشجعان. ابدئي عملك»
رَبَّيْتُ كلّ شيء، وشرحتُ له الخطوات بدقّة، وكيف سأُعطي وجهه
تماماً بالجصّ. تقدّم منه فرانسوا الصغير حاملاً القصبتين، فهزّ نابليون رأسه
موافقاً.
باشرنا العمل.
عندما انتهينا، قال: «لقد أصبحْتُ موجوداً لديك إذن، بداخل الكلس؟».

«أجل أيها القنصل الأول، إنها نسخة تشبهك تماماً»

«أحرصني على هذا الرأس، إنه رأس ممتاز!»

«أنا لا أطلق الأحكام أبداً على الرؤوس، أيها القنصل الأول» قلتُ، «علّموني ألا أفعل. بعض الرؤوس ضاعت للأبد، لكنّ هذا نادر. لم ندوّب رأس فرانكلين، ولا فولتير، ولكنّ الناس نسوهم جميعهم، حتّى المجرم ديسرو. لا يمكنك أن تحزر، لا ضمانات، ولكنّا مستمرون أيّها القنصل الأول، ولا نتوقّف أبداً. هناك دائماً شخصيّة ما نصنعها، وأخرى ندوّبها».

«يا بغ الصغيرة» قالت روز، «انتهبي لكلامك!».

«إنّه عملي، وأنا خبيرة به. لا أمانع الحديث عنه»

«بغ الصغيرة؟!»، سأل نابليون.

«هكذا ناديتها في السجن، بين زيارات فورتون»

«لقد أخذت طبعات لشخصيّات متطرّفة، أيّها السيّد صانعة الوجوه» علّق نابليون، «لقد أفرزت الثورة شتى أنواع الغرائب... رو الراهب الصارخ، مارا الدكتور الذي أراد الناس موتى فقط، جاك بوفيزاج الجلاد».

«هل رأيته أيّها القنصل؟! هل رأيت جاك بوفيزاج؟!»، سألته.

«جاك بوفيزاج هو مجرد حكاية. هل سمعتم كيف ذبحه جاك بوفيزاج؟! يقول الناس، هل سمعتم كيف قطعها أشلاء؟! يتساءلون. لا يستطيع أيّ رجل أن يقوم بكلّ هذا، وإلا لكان أعظم وحش عاش يوماً. أسوأ ما في الثورة، تُسبّ بأكمله إلى هذه الشخصيّة فقط».

«أعظم القتلّة جميعهم»، قلتُ.

«سمعتُ أنه موجود في نانت، حيث يُغرق النّاس»، قالت روز.

«سمعتُ أنه يحاكم الناس مع فوكيه-تائفيل⁽¹⁾»، قال نابليون.

«سمعتُ أيضاً» أضافت روز، «بأنّ جاك بوفيزاج شعر بالندم وتأنّب الضمير بعد مذبحه أيلول، فذهب إلى ساحة بلاس دو غريث وهو يصرخ

1- أنطوان كوينتن فوكيه-تائفيل (1746-1795)، محامٍ تولّى منصب المدعي العامّ إبان الثورة الفرنسيّة وعهد الرعب. المترجمة

ويشتم، فالتفت حوله حشد ضخم من الناس، وعندما بلغ عددهم بضع مئات، انتحر أمامهم... أطلق النار على رأسه من مسدس. يقال إن الكلاب الشاردة نامت في تلك البقعة، طيلة ليالٍ بعد ما حدث.

«هل هذا صحيح؟! هل هذا ما حدث؟! سألتها، «يا لجاك المسكين!». «لا شيء من هذا كله صحيح!» قال نابليون، «كلها أساطير. اسم سخيف، جاك بوفيزاج! لم يوجد أبداً شخص بهذا الاسم!».

«آخ، ولكن بلى يا سيدي، أنا أعرفه. لقد عاش معنا في البداية يا سيدي، في خزانة عجائب الدكتور كورتوس. كنّا نلقبه بكلبنا الحارس، وترعرعنا معاً أنا وهو»

«هذه القصة» قال، «جديدة بالنسبة لي. لا تتوقعي مني أن أصدقها!». «بحثنا عنه طويلاً يا سيدي، لكنّه لم يعد إلى المنزل قط» «قصة أخرى من قصص الثورة، لإخافة الأطفال والراشدين على السواء، لإضفاء بعض الغموض بلا شكّ على عملك. هل لديك دليل على وجوده؟ هل صنعت له تمثالاً من الشمع؟»

«لا يا سيدي، لم نصنع له تمثالاً قطّ، على الرغم من أنّه طلب منّا ذلك» «حسناً، هل انتهيت من عملك إذن أيتها المواطنة؟»، قال نابليون. «سيبقى لديّ عمل، ما دام العالم مهتماً بالرؤوس» «لقد حصلت على ما جئت من أجله إذن. وداعاً» «شكراً لك أيها القنصل، لا ضرورة لأن أعود. وداعاً يا روز، وشكراً لك. وداعاً يا فورتون»

بعد سنة، سيقتل فورتون بأنياب كلب طبّاخ نابليون، كلب بولدوغ إنجليزيّ.

خرجنا أخيراً أنا وفرانسوا، ثمّة آخرون ينتظرون في الردهة. على ما يبدو، إنّهُ الصباح الذي يستقبل فيه القنصل بونابرت الفنانين. ها هو ذا دافيد، والنحات العجوز هودون الذي يبدو فقيراً معدماً، ورجل شابّ وسيم لم أره من قبل. من منهم سيدخل أولاً يا ترى؟

بعد فترة، نحت هودون تمثالاً لنابليون بالحجم الطبيعي، ولكنه لم يكن عملاً عظيماً. بعد ذلك، رسمه دافيد وهو يتوّج نفسه إمبراطوراً، في لوحة تقيس عشرين باثنين وثلاثين قدماً. لقد وُلِدَ كلُّ منهما من أجل الآخر، دافيد ونابليون! ذلك الشاب الذي رأيته في الردهة، نحت لنابليون تمثالاً من أفخم أنواع المرممر، تجاوز ارتفاعه أربعة عشر قدماً، يشبه مارس إله الحرب، وذلك النحات كان أنطونيو كانوفا.

هذان الاثنان، دافيد وكانوفا -من بين آخرين- هما من حوّلَا هذا الرجل الذي لا تتجاوز قامته خمسة أقدام وسبعة إنشات، إلى عملاق، ولم يصنع فتّانو باريس سوى ذلك الرأس وحده، مراراً وتكراراً. المدينة بأكملها، تحوّلت إلى مصنع إعجاب بشخص واحد فقط. من سيأتي إلى معرض شمعيّ مليء بالنابوليونيين، بينما يُطلّ رأس نابليون من كلّ أرجاء باريس، من كلّ الزوايا، في كلّ الشوارع، في كلّ الغرف، سواء الخاصة أو العامة؟! يقال إنّه في ذروة ازدهارها، عاش في فرنسا سبعة ملايين شخص، من بينهم خمسة ملايين تمثال لنابليون.

كيف للشمع أن يزدهر، في ظروف كهذه؟!

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الحادي والسبعون

ولن أعود أبداً!

يمكنني أن أكشف عن خطّتي أخيراً، بعد أن حصلتُ على طبعة لرأس نابليون: ليس منزل قرود جديداً، بل ما هو أكبر، بلد جديد، مدينة جديدة! لندن هي وجهتي المنشودة، باريس هشة، لندن واعدة. في باريس، الناس جلدٌ وعظم، في لندن، الناس سِمان. المستقبل هناك في لندن، أمّا في باريس فلا يوجد سوى الماضي. في لندن كما علمتُ، يجني أهل البوليغار السابقون المال بواسطة الفوانيس السحرية⁽¹⁾، بعرض صور الذين تمّ إعدامهم بالمقصلة.

لديّ ما هو أفضل: رؤوس! رؤوس ملموسة، والآن لديّ رأس نابليون. أرسلتُ رسائل، نقلتُ الودائع الماليّة، واستأجرتُ غرفة في مسرح الليسيوم. سأحيا مرةً أخرى! جوزيف وفرانسوا الصغيران سيكبران، أنفاهما هذان، سيثمان شيئاً جديداً مفيداً في الحياة، سيعيشان.

«لندن» أعلنتُ، «لن-دن. قل لن-دن يا صغيري فرانسوا».

«لندن»، قال.

قلتُ للمواطن توسو إنني سأعود، ولكنني لم أصدّق ما أقوله أنا نفسي، فلماذا يصدّقني؟! إنّه رجل مصنوع من الأرقام السلبية، من الطرح، من

1- نوع قديم من برجكتورات عرض الصور (مرسومة يدوياً أو فوتوغرافية) المطبوعة على شرائح شفافة من الزجاج، ويتكوّن من مجموعة عدسات، ومنبع ضوئي. عندما يسطع الضوء، تظهر الصور المطلوبة مكبرة على جدار أو ستارة. بدأ استخدامه منذ القرن السابع عشر لأغراض التسلية والترفيه. المترجمة

الجيوب المثقوبة. سأترك له منزل القروء، إنَّها فرصته كي يثبت نفسه، هذا يعود إليه. ودَعْتُ ذلك المنزل، وداعاً أيتها الأرملة، ويا دكتور كورتوس، ويا إدموند. ودَعْتُ جاك بوفيزاج أيضاً، الذي لم يعد قط إلى منزل القروء، ولم تكتمل قصته، ولكنَّ أسطوره لم تُنسَ، فما زالت الحكايات تروى عنه همساً في البوليفار حتَّى الآن كما قيل لي. اذهبوا إلى النوم يا أطفال، وإلا أخذكم جاك بوفيزاج... وداعاً لكل ذلك!

«سأخذ الطفلين إلى إنجلترا» قلتُ، «وسأجني بعض المال من أجلنا جميعنا».

المواطن توسو، الزوج، لم يكن من الحجر، بل أبُّ يحبُّ طفليه حبّاً جمّاً، فقاتل من أجلهما، وأنفق كلَّ مصروفه على المحامين والألم يعتصره. القاضي الذي نظر في قضيتنا -آه كيف تزهو حظوظنا، ثمَّ تخيب!- كان أندريه فالتان، ما تزال إحدى عينه في الشرق والأخرى في الغرب، لكنّه يتابع طريقه في العالم متسلِّقاً درجات السِّلْم الاجتماعيّ.

«يا سويسريّة، أما زلتِ هنا؟»

«سأرحل الآن»

«إلى أين؟»

«إلى لندن» قلتُ، «الأجانب مرَّحَّب بهم دائماً هناك».

نظر فالتان إليّ وإلى المواطن توسو في الوقت ذاته، من ثمَّ أعلن أن أحد الصبيّين يمكنه أن يرافق الأم، أمّا الثاني فلا بدّ أن يبقى مع الأب. ليس بيدي حيلة! ما يزال لديّ قلب هنا في صدري، يختنق، يرفس ويركل! أُجبرْتُ على ترك جوزيف الصغير مع زوجي، أجبرني على ذلك الرجل الذي قد يكون من قتل إدموند... ولكن، ماذا بوسعي أن أفعل ضدَّ القاضي؟! أندريه فالتان ما يزال لصّاً.

«هل كنتَ هناك؟» سألتُه، «عندما سقط إدموند؟ أظنّ أنك كنتَ حاضراً، أليس كذلك؟».

«لا أعرف عمّا تتحدّثين»

«ماذا جرى؟ أخبرني من فضلك»

«هل تريدین مني أن أحجز أوراقك؟»

«هل كنت هناك؟ إدموند؟»

«والآن يا مواطنة، هناك قضايا أخرى غير قضيتك. الحكم النهائي: طفل هنا، والثاني هناك».

اسم سفيتنا هو «كينغفسر»، وهي سفينة ستتحطم لاحقاً على سواحل جزيرة صقلية، ولكنها أخذتنا أولاً إلى إنجلترا، ولا توجد تماثيل شمعية ذات لحى من الأعشاب البحرية في قاع القنال الإنجليزي المظلم. على ظهر السفينة، عانقتُ فرانسوا الصغير، الأعلى على قلبي، مستقبلي. في بطن السفينة يوجد ماضي، عمرٌ بطوله من الأغراض، تاريخي، أناسي، حبي وكراهيتي الشمعية، كلها تتقلب في صناديقها، الدمية التي صنعها لي إدموند من الخشب والشعر والزجاج، ودمية خياط تشبهه... لم أترك شيئاً خلفي.

حملتُ معي تاريخ فرنسا، موضباً بحرص في الصناديق، إلى الجزر البريطانية. كسر فولتير أنفه في تلك الرحلة، وفقد فرانكلين إحدى أذنيه، كما كُسر صدر جان-بول مارا، ولكنها أديات يمكن إصلاحها، ما تزال القوالب معي.

لوحتُ بالوداع إلى باريس، وكلّ ما فيها. أنا ذاهبة إلى جزيرة، قلتُ لها، سيفصلنا البحر، لا تلحقي بي، لا تلحقي بي أبداً!

ها أنا ذي، أقطع القنال الإنجليزي، والحب يغمرني، كي أقصّ حكاياتنا على الإنجليزي. هل سمعتم بذي اللحية الزرقاء، والجميلة النائمة، والقطّ أبي الجزمة؟ هاكم قصة أخرى: المرأة الصغيرة التي حملت التاريخ على ظهرها. هل تريدون دماً؟ لديّ دم. قصور؟ بكلّ تأكيد. أكواخ؟ موجودة أيضاً. آه، والوحوش؟ أجل، أجل، لديّ وحوش. تعالوا وتفرّجوا، كلّ ما عليكم فعله هو أن تأتوا وتفرّجوا. دعوني أريكم كيف سارت الأمور، دعوني أشرح لكم -كيفما استطعتُ- ما هو الإنسان.

ولكن، هل لديك حبّ هنا؟

أجل، آه أجل.

مضيّنا بعيداً، أنا وفرانسوا الصغير. فرنسا هناك خلفنا، تصغر أكثر فأكثر،

إلى أن اختفت نهائياً. لا وجود لآندريه فالتتان بعد اليوم، لن يحطم قلبي مجدداً. أدركتُ ظهري لكل ذلك، انظر إلى الأمام يا فرانسوا الصغير، بريطانيا العظمى هناك أمامنا، قلتُ له، ماذا ستقدم لنا بريطانيا؟ ماذا ستقدم لها؟ إنهم يتكلمون الإنجليزية هناك، هل نعرف الإنجليزية؟ جورج الثالث، دوغر، مسرح اليسيوم، لن-دن.

«هل سنعود إلى المنزل يا ماما؟ هل سنرجع يوماً؟»

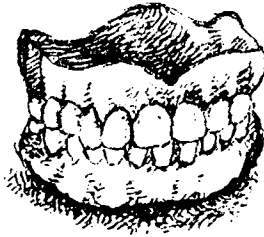
«سنبني منزلاً جديداً يا فرانسوا، منزلاً جديداً تماماً، ولن نرغب بمغادرته على الإطلاق»

خاتمة

1850

في المنزل

أنا في التاسعة والثمانين من العمر



الفصل الثاني والسبعون

مجموعة الرؤوس السابعة

ها أنا ذي، في الطابق العلويّ، مع كلّ شيء. هناك على الجدار علقتُ اللوحة التي رسمها لي جاك-لويس دافيد. هناك في صندوق زجاجيّ، توجد الطبعة التي أخذتها لعمّي كورتيوس بعد موته. تلك هي الدمية الخشبيّة التي صنعها لي إدموند، وبجوارها دمية خيّاط تشبه رجلاً عرفته ذات يوم. هناك قلبٌ من الشمع إلى جانب طحال من الشمع، وذاك هو رأسي الشمعيّ الذي صنعه لي كورتيوس عندما كنتُ في السابعة، وها هي ذي صفيحة فكّ والذي التي لم أنسها بعد كلّ تلك السنين. أخيراً وليس آخراً، ها هي ذي دميتي مارتا عديمة الوجه، هديّة أمّي. كلّ شيء موجود هنا، وأنا كذلك.

أين نحن الآن؟

نحن في لندن. هل نحن في مأوى للفقراء؟ كلّاً، لا أحد يملك أشياء كهذه في ملاجئ الفقراء. نحن في منزلنا، نحن مالِكوه، لقد تدبّرنا أمورنا جيّداً. تسلّقنا إلى قمّة لندن، ولندن هي أعظم أكوام الروث التي وضعها إنسان ذات يوم، وتعبيراً عن الأبعاد المهولة. لا بدّ لي من الاعتراف مع ذلك، أنني لستُ موجودة هنا كليّاً. أنا أتكوّن من ثلاث قطع الآن: أسناني تساقطت كلّها، واستبدلتها بطقم صناعيّ، نصفٌ علويّ ونصف سفليّ، أضعهما في فمي من ثمّ أدفع فكّيّ كما فعل والذي من قبل. عندما أخرج طقم الأسنان من فمي، يتداعى وجهي، ويقترب أنفي من ذقني فيكاد أن يتلامسان. أنا أضع أيضاً نظارة تزايدت سماكة عدستها يوماً بعد يوم، إطارهما معدنيّ مدوّر. من دون تلك النظارة، أعجز عن رؤية أيّ شيء، أو أيّ شخص.

يقع منزلي في بيكر-ستريت، وهذا ملائم لأننا نطهو الناس بطريقتنا أيضاً⁽¹⁾. أنا أظن في مبنى ضخم، يشبه فيلاً عملاقاً أو وحشاً عظيماً، وفيه يُحفظ التاريخ. نعرض تماثيلنا ودمانا في الطابقين الأول والثاني، وفي القبو. لدينا غاليري للشخصيات الملكية وسواها من الشخصيات البارزة، لكلّ العظام، لكلّ من اشتهروا مؤخراً. في الطابق الثالث توجد ورشتنا، حيث تُصنع التماثيل يومياً أو تُصهر، شخصيات تنمو وأخرى تُمحي. أنا أراقبها كلّها، أفرّج على سيرك الحياة. كلّ هؤلاء الناس يبذلون أقصى جهودهم، يستمتون كي يقدموا أفضل ما لديهم. لقد نجوت في نهاية المطاف! أتذكر ما فكرت به الأرملة بيكو خلف بوابتها الموصدة: لا يوجد منزل آمن للأبد، كلّ شيء سينهار ذات يوم، عاجلاً أم آجلاً.

في الأسفل، بعيداً عن ضوء الشمس، في العتمة، في القبو، نعرض الشخصيات الأخرى، تماثيل أولئك المجلّلين بالعار، أولئك الذين يسيئون التصرف. إنهم موجودون دائماً، مجرمو اليوم يختلطون بمجرمي الأمس، إنها غرفة الرعب. البارحة، عندما نزلتُ إلى القبو، رأيتُ صبيّاً جانحاً من صبية شرقي لندن، يقف أمام تمثال جان - بول مارا الذي ينزف في حمامه، وجرحه ما يزال طازجاً. إدموند هو من صنع هذا الجسد الحزين، وهذا الصبيّ يقضم شظيرة من لحم الخنزير.

أقوم بجولاتي، أزورهم جميعهم، وأنتقل بين الشخصيات القديمة. أتأمل تلك الجديدة أحياناً، لكنني أنتمي إلى القديمة. لقد عمّرتُ بعد أن مات الجميع، أنفض الغبار عن نابليون، وأسويّ تجاعيد معطف البروكار الذي يلبسه لويس السادس عشر. في جيبه، وضعتُ خريطة لجزيرة روبنسن كروزو، أستطيع أن أرى أخته في وجهه.

يأتي الناس كي يلمسوني أيضاً، يلقبني بعضهم بسيّدة التاريخ، والبعض الآخر بأمّ الزمن. العديدون ينادونني بالسيّدة ذات السيفين⁽²⁾، وأنا بالأحرى

1 - Baker Street: يعني حرفياً «شارع الخبّاز»، لكنّه سميّ تيمناً بوليام بيكر الذي شقّه في القرن الثامن عشر. المترجمة

2 - يشابه اللفظ الإنجليزيّ لكلمة «توسو» الفرنسيّة Tussauds، مع «سيفين» Two-Swords. المترجمة

أشبه بمبنى عموميّ. اعتدتُ على أن أقصّ على زوّاري قصّة حياتي، هل كلّ هذا صحيح؟! يتساءلون. الشمع، أجيبهم، لا يعرف كيف يكذب.

لم أعد قادرة على الجلوس في مكتب قطع التذاكر، كي أتقاضى تعرفه الدخول من الزوّار. أنا هشة للغاية، وقد أنكسر. هناك من يتقاضى التعرفه عوضاً عني الآن. صنع لي جوزيف وفرانسوا تمثالاً من الشمع، ووضعاه هناك في مكاني. أحياناً، أنزل وأنضمّ إلى مدام توسو الشمعيّة في العشيّة، وكم يبتهج الزوّار بذلك، بوجودنا كلتينا هناك معاً! هذا المشهد ألهم مستر كروكشانك⁽¹⁾ برسم كاريكاتور لنا، عنوانه بـ «مدام توسو بجانب نفسها». في الحقيقة، الشبه بيني وبين التمثال ليس مبهرراً، ولكنني أُميّز وجهي في ذلك النموذج الشمعيّ، في ذلك الوجود الإنسانيّ البائس المرتعش، في ذلك المخلوق العجوز المليء بالتجاعيد، شيء أشبه بعنكبوت، بخنفساء، بعتّة بلا جناحين، أنا هيئة بشرية محدودة مصنوعة من الغبار والتراب، تتشعّح بالسواد من قلنسوتها إلى حذائها، أنا الأرملة بيكو. يأتي رجل مرّة كلّ ثلاثة أشهر، وينتف الشعر من ذقني. يزعم الأطفال مرتعبين عندما يرونني، ويستيقظون صارخين عندما أزور كوايبسهم. إنهم الأطفال أنفسهم الذين تروى لهم الحكايات الخرافيّة، التي لم تعد مخصّصة للراشدين الآن، بل تروى في الحضانات. إنهم الأطفال أنفسهم الذين يغنون «تلاّثي تلاّثي أيتها النجمة الصغيرة»، الأنشودة التي كُتبت في عام مولدي. لنا العمر ذاته، أنا وهي.

واحدًا تلو الآخر، بعضهم على عجل، بعضهم الآخر على مهل، مات الجميع. مات لويس-سباستيان مرسيه في نومه، وحذاؤه ما يزال ملتحمًا بقدميه. مات جاك-لويس دافيد في منفاه، مجللاً بالعار. جوزفين، روز الباكية، خُلعت عن عرش الإمبراطوريّة. حتّى نابليون، مات وحيداً في جزيرته الصخريّة في المحيط الهادئ. فرانسوا توسو الكبير، زوجي، مات غارقاً في ديونه. أخيراً، بعد وصوله إلى أعلى المناصب، قُطع أندريه فالتان

1- جورج كروكشانك (1792-1878)، فنّان إنجليزيّ شهير، رسم الكاريكاتير السياسيّ في البداية، من ثمّ انتقل إلى رسومات كتب الأطفال. المترجمة

إلى قطعتين، قطعة سقطت إلى هذه الجهة، والثانية سقطت في الاتجاه المعاكس، بتهمة الاختلاس من الإمبراطور.



مكتبة
t.me/soramnqraa

منزل القروء، الذي أخلي منذ زمن بعيد، أطلق زعقة بابون أخيرة، وسعل غمامة من الغبار، من ثمّ تهاوى وانهار متحوّلاً إلى أنقاض، وشيّدت في مكانه أبنية جديدة.

لا أحد ممّن بقوا على قيد الحياة يفهمني، الدمى فقط تفعل.

الروائي مستر ديكنز يزورني، إنّه لصّ بالطبع، أنا أروي له كلّ شيء، وهو يدوّن الملاحظات. لديّ بورك وهير هناك في الأسفل، بالقرب من مارا، وهما نباشا جثث إسكوتلنديّان، أُخذت طبعه لأحدهما وهو حيّ، وللثاني بعد وفاته. دوق ويلنغتون⁽¹⁾ اعتاد على زيارة تمثال نابليون أيضاً، والآن لديّ تمثال ويلنغتون الشمعيّ.

هناك برزخ بين الحياة والموت، يسمّى: تماثيل الشمع.

1- أحد القادة العسكريّين الإنجليز الذين هزموا نابليون في معركة واترلو عام 1815.
الترجمة

أنا أعيش في أعلى المنزل، في غرفنا الخاصة مع عائلتي. خلف الباب الذي يحمل لافتة: «غرفة خاصة، ممنوع دخول الزوّار قطعياً، ابقَ خارجاً، الطاقم فقط»، توجد غرفة نومي، وفيها مقتنياتي الخاصة التي لا تُعرض أبداً، بل تبقى ملفوفة بالخصوصيّة هنا، مجموعتي الشخصية، تاريخي الشخصي. إلى هذه الغرفة، يأتي يومياً طبيب السابغ والأخير، الدكتور ماركوس هيلي. رجل آخذٌ بالصلع، بدين مع أنّه يحاول إخفاء ذلك، يشغل نفسه بي ويحرّكني كأنني عاجزة عن التحرك بمفردي، يشغل بي كأنه طفل يلهو بدمية.

هذا العالم أصبح ميكانيكياً، العالم الجديد مصنوع من الحديد. الحياة ثقيلة الآن، تدفعها محرّكات بخاريّة وبسطونات. عوضاً عن الشموع، يستخدم الناس الآن الغاز للإضاءة، والغاز يعطي ضوءاً بلا ألغاز. هاكم علامة على سنّي المتقدّمة: مظهر الناس أصبح مختلفاً عن السابق، شوارب الرجال تنمو إلى حدّ أنّهم يشبهون الآن كلاب السبائيل أكثر من الرجال، كما أنّهم يستخدمون كلّ ما يتيسّر لهم من الشمع، كي يفتلوا كلّ تلك الكميّة الهائلة من الشعر الذي يغطّي وجوههم. ثمّة شيء آخر جديد أيضاً، يقلق فرانسوا من أنّه سيضرب بعملنا، وهذا الشيء الجديد يسمّى «داغويروتايب»⁽¹⁾، يلتقط صور الحياة، ويحفظ الناس على صفائح من الفضة المصقولة. إنّّه أسرع بكثير من الشمع، وأخطأه معدومة. أرادوا أن يلتقطوا لي صورة بتلك الآلة، ولكنني أنوي أن أموت قبل أن يفعلوا ذلك.

ها أنا ذي، مقطوعة الأنفاس في سريري. أستطيع أن أرى النهاية بوضوح تامّ في هذه الغرفة، أنا في التاسعة والثمانين ولن أعيش كي أرى عامي التسعين. أنا آن ماري توسو، المولودة باسم غروسهولتز، الملكة ب صغيرة. والتي لن تُنسى.



1- أوّل تقنيّة تصوير فوتوغرافيّ ناجحة في التاريخ، اخترعها الفرنسيّان لويس-جاك-مانديه داغوير، ونيسيفور نيبس في حقبة 1830. المترجمة

في البداية، ودائماً، ثمّة حبّ. الحبّ الذي يتبادلّه أبي وأمي تجلّي في وجهي، فقد وُلدتُ بكلّ من أنفٍ والتمرّ وذقن غروسهولتز. كلّ منهما كان جديراً بالملاحظة على حدة، وأعطى ملامح لطيفة مميّزة لوجوه أفراد هاتين العائلتين، لكنّ اجتماعهما معاً كان أخرق نوعاً ما، كأنني أحمل جسداً أكبر ممّا يجدر بي. الأطفال يكبرون هكذا، كيفما اتَّفَق، يتميّز بعضهم أنهم «معجزات» بالنسبة لكثافة الشعر، أو ببزوغ أسنانهم في سنّ مبكرة للغاية، بعضهم يغطّيهم النمش، والبعض منهم يولدون ببشرة باهتة جدّاً، إلى حدّ أنّ عريهم الناصع البياض يسبّب الصدمة لكلّ من يراه، أمّا أنا فشققتُ طريقي في الحياة بأنفي وذقني. بلا شكّ، كنتُ أجهل آنذاك الأجساد الاستثنائية التي سألتقي بها لاحقاً، والمباني الضخمة التي سأقطن فيها، والحوادث اللعينة التي سأجد نفسي عالقة فيها، ولكن يبدو لي أنّ أنفي وذقني كانا بمنزلة إشارة إلى ذلك كلّهُ. أنفٌ وذقن، يا لهما من درع في الحياة، يا لهما من رقيقين!



بما أنّ الفتيات من أمثالي لا يذهبن إلى المدرسة، لذلك تولّت أُمّي تعليمي من خلال الرّب. الكتاب المقدّس، كان كتابي المدرسيّ التمهيديّ، أمّا فيما عدا ذلك فكنتُ أجلب الحطب إلى المنزل، وأبحث في الغابة عمّا يمكن إشعاله كوقود، وأغسل الأطباق والملابس، وأقطع الخضار، وأجلب اللحم. كنستُ، نظّفتُ، حملتُ الأغراض... كنتُ مشغولة على الدوام، وعلمتني أُمّي أن أكون مجدّة. إن كانت أُمّي مشغولة، ستكون سعيدة، أمّا إن توقفتُ عن العمل فسيستولي عليها عدم اليقين ذاك، لكنّها سرعان ما تطرده بنشاط جديد. كانت أُمّي في حركة دائمة، والحركة ثلاثهما جيّداً.

مكتبة

t.me/soramnqraa